تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

آية الله العلامة الجليل

السيد حسن لواساني

قدس سره

الجزء الأول

الحواشي من ابن المؤلف

د. س. أحمد لواساني

منشورات لواسان

شبكة الفكر
alfeker.net

تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

آية الله العلامة الجليل

السيد حسن لواساني

قدس سره

الجزء الأول

الحواشي من ابن المؤلف

د. س. أحمد لواساني

منشورات لواسان للثقافة الملتزمة

بيروت

جميع حقوق

الطبع والنشر والترجمة والاقتباس والتصوير

محفوظة

• الطبعة الأولى صيدا، لبنان ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م

• الطبعة الثانية بيروت، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

للمراجعات:

منشورات لواسان: بيروت - هاتف: ٦٨١٨٦٦/ ٠١ - ٨٤٥٧٧٨/ ٠١

سماحة العلّامة

السيّد حسن اللواساني

أَوَفَيتُ دَيني؟

تقديم بقلم ابن المؤلف
د. س. أحمد لواساني

بسم الله الرحمٰن الرحيم

ـ ١ ـ

الصورة واضحة أمام عينيّ.. واضحة جداً أمام عينَيّ.. كأنها شيء مُجَسَّمٌ أمامي.. لكأنها حدَّثَتْ أمس بالذات.. بل أكاد أقول كأنني أعيشها الآن.

المكان؟ الفسحة المستطيلة بين جناحَي البناء في البيت الطفولي، فوق خَزَّان الماء المسقوف بأرضية من باطون مسلّح. على الفسحة، فوق بساط من حصير، ثلاثة فُرُشٍ أو أربعة، الرأسُ فيها جميعاً إلى المَغرب والرِجلان إلى المشرق، حتى إذا نام «السيد» ـ أو «الحاجَّة» أو الأولاد ـ على الكتف الأيمن، تكون الوجوهُ مُوَلاَّةً شَطْرَ المسجد الحرام...

والزمان؟ أوائل الأربعينات، والفصل صيف، والوقت ليل، وصلاة العشاء انتهت، والسيد عاد من المسجد منذ حوالي نصف ساعة، والكل تخفَّفَ من لباس النهار، وتجرد إلى الحد الممكن، نجاةً من حر شهر تموز أو لهيب شهر آب...

وقرب المخدة إبريق ماء «ريشاني» معرَّض لهواء الليل، علَّ ذاك الهواء يبرُد قليلاً ما في جوف الإبريق، ـ مما «منه كلُّ شيء حي» ـ فيبرَد بدوره بعض ما في أجواف أهل الدار من لذع، وما على شفاههم من جفاف، وما بأكبادهم من حرور...

وقرب المخدة والإبريق، مصباحٌ على نمطٍ خاص، مصباح بقياس أكبر من المعهود، مصنوع بمواصفات مطلوبة، قاعدته المربعة أصغر من سقفه الموصول حتى القاعدة بأربعة جدران زجاجية، تقي القنديل في الداخل لفحات الهواء أو رذاذ المطر...

وعلى أحد الفُرُش، جلس رجل في أواخر الأربعينات من العمر، على عينيه نظارتان، وأمامه مجموعة أوراق مطبوعة مُرسَلةٌ اليوم من مطبعة «العرفان» للتصحيح ـ يسمونها: «مَلزَمة» ـ هي قسم من كتاب مُعَدٌّ للطبع؛ وفي انتظار أن تنضج أكلة «القيمة» التي وعد الأولادُ أنفُسَهُم بها، وأن تنتهي الحاجَّة من إعداد خِوان العشاء، راح الرجل يقرأ الأوراق بعالي الصوت غالباً وباهتمام، وبيده قلم يمر به على الأسطر وما بين الأسطر، يخرج به من الأواسط إلى حواشي الأوراق، أعاليَ وأسافِلَ وجوانب، في خطوط ذات دلالة، تنتهي بكلمات أو حروف أو حركات، يصحح بها أخطاءَ يجدها في الورق.

وعلى فراش آخر، أمامه أو في اللِصق منه، غلام في حدود العاشرة، يتابع في أوراق مخطوطة محبَّرة بين يديه ما يقرأه الكهل، يتثبت إن كانت الكلمات المقروءة منطبقة على الكلمات المكتوبة، ويحدث بين الفينة والفينة، حين يعرض خطأ أو لَبْس في خطأ، أن يرفع الرجل رأسه عن الورق سائلاً مسترجعاً متأكداً من صحة ما كتب أو صحة ما احتمل، وكثيراً ما فاجأ الغلامَ المُجهَد النَعِس، يكبو رأسه هبوطاً وصعوداً، وطالما رفع صوتَه بالسؤال، فانتبه الغلام «المجهد النَعِس» خجِلاً على تعب...

وتكر الأيام وتكر الليالي، وتتكرر جلسات التصحيح، وتتعدد «المَلازم» تُرسَل وتُعاد وتُستعاد، بين المطبعة و«الغازية» ـ القرية الكريمة التي أُلِّفَ وصُحِّح فيها الكتاب ـ وأخيراً تنتهي الأوراق، وتصدر كتاباً مطبوعاً، فيرتاح الرجل رضاً، ويرتاح فتاه ثقافةً وخلاصاً من قيودِ متابعة، وينجح الكتاب كثير نجاح، ويُثْني مُثْنون، ويُقدِّر مُقدِّرون. . .

ـ ٢ ـ

الصورة واضحة أمام عينَيّ. . واضحة جداً أمام عينَيّ. . كأنها شيء مجسم أمامي. . لكأنها حدثت أمس بالذات. . بل أكاد أقول كأنني أعيشها الآن.

المكان؟ البيت الموقت لأخي السيد محمد في بيروت، في غرفة الاستقبال الجنوبية.

والزمان؟ أوائل الستينات الميلادية، والوقتُ عصر، والشمسُ هَوْن، والنفس على انشراح، والجَرَس ـ وقد كتبت الصحف أن السيد بعد هجرته هو الآن في زيارة إلى لبنان ـ يُقْرَع باستمرار، يقرعه مؤمنون، ومحبون، ومجاملون. . يفدون للسلام عليه.

السيد على الأريكة الكبيرة قرب الحائط الشرقي، بجواره «أبو محمود» بطربوشه وطيبته؛ وفي المقابل، على الأريكة المواجهة إلى الغرب، «أبو سليمان»، وقد قَبَعَ بجوار جسم الناشر الوجيه «الحاج إبراهيم»، مثل «صِفْرٍ» صغير بجوار «خمسةٍ» كبيرة في علم الهندسة أو علم الطبيعة.

أما الأريكة الملاصقة لباب الدخول، فعليها ذاك الذي كان يوم تصحيح الملازم في العاشرة أو تزيد، وهو اليوم في الثلاثين وقد نيَّف.

السيد يتحدث، والحديث ذو شجون. الأعناق مُشرئبة. العيون مَخِيط. الآذان آلات تسجيل، وبسمة السيد الحلوة يزيد سحرَها خِفةُ

فُكاهة، ووداعة شيخوخة، ووقار روحاني، ودخان سيگارته المطلة من فم «البزّ» الخشبي الرفيع كقلم، يرتفع دوائرَ ضبابية تلفُّ عِمته السوداء كهالة، أو كدائرة من نور يحيط بها الرسامون رؤوسَ المقدَّسين في لوحاتهم.

وفجأة.. فجأة يسأل الحاجُّ الناشر:

- يا مولانا، شو رأيك نطبع لك تاريخ النبي أحمد؟

فيسارع السيد إلى القول:

- عليه وعلى آله الصلاة والسلام!.. عال!.

ويكتفي الحاج السائل بكلمة «عال»؛ ينظر الشاب،. ينتظر مزيد توضيح، إلاّ أن الحاج لا يزيد؛ ينفعل الشاب، يتململ، ثم يقذفها:

- وكم تدفعون حقوقاً للطبع يا حاج؟؟

يحوّل الحاج نظره إلى اليسار. ينظر ثَوانِيَ بصمتٍ مَغيظ، ثم يجيب بتساؤل مفتَعَل يعني الاستنكار: - ندفع؟ ولمَ ندفع؟ ألا يكفي أننا نطبع الكتاب؟ ألا يكفي ما ندفع لطبع الكتاب؟؟

- وهل توزعونه مجاناً يا حاج؟ ألا تبيعونه؟ ألا تربحون منه؟؟

- طيب يا سيدي، نقدم للسيد خَمس نسخ!.

ما أكرم الحاج وما أكثر إنصافه!!. ويَبُتُّ الشاب بحزم، يقولها حاسِمةً ويُختَم الموضوع:

- لا يا حاج!!.

وسكت السيد، لم يعترض على نقض القرار، احترم ابنه، ولا ندري إذا كان الحاج - رحمه الله - قد لعن الشاب (كثيراً أو قليلاً) في أعماقه!!.

وانعطف الحديث، أو تعمد المجتمعون عطفه للخروج من مأزق

الحَرَج.. وتصرمت هنيهات قام بعدها الزوار.. والتوديع إلى الباب.. مشكورون، شرَّفتهم!!.

أأقول أيضاً إنها واضحة أمام عينيّ؟ صورة السيد حين رجع إلى الغرفة، ووراءه ابنُه الذي كان يتوقع من السيد الوالد ثناءً وتقديراً لأنه أنقذ أباه من زلل، أليس أنه قد منعَ استغلالَه؟! إلاّ أن السيد، بوَجْهٍ فيه سِمَةُ انزعاج، وبلهجة فيها جَرْسُ عِتاب ـ إن لم أقل: لَوْم ـ فاجَأَهُ بقوله:

ـ أما كان الأفضل أن نسمح للحاج بطبع الكتاب؟

أتقول إن الأب «فاجأ» الابنَ بسؤاله؟ إن قلتَ إنه «صَعَقَه» حقَّ لك!! وفتح الابن عينيه ذهولاً وردَّد باستنكار بالغ:

ـ نسمح للحاج بطبع الكتاب، ويضيع تَعَبك يا أَبَه؟؟

ـ كيف يضيع تعبي؟ وهل كان تعبي إلاَّ من أجل أن يقرأ الناس سيرة نبيّنا الأكرم (ص)؟؟ ألا يفي اقتراح الحاج بالغرض؟ أليس أن طبع الكتاب عن طريقه يجعله أوسع انتشاراً، وثوابنا ـ إن شاء الله ـ أجْزَلَ وأوفر مقداراً!!.

وذهل الشاب. لم يقتنع بمنح الإذن لمن يَستغِل إيمانَ السيد لنفعه الخاص، إلاَّ أنه كان حتماً مقتنعاً بشيء آخر: أن الإنسان الذي أمامه، مسلمٌ صادق الإيمان، وأنَّ البِر بالأب الحنون كان يقتضي التضحية بالمصلحة المادية رغم الغُبْن، لِيسعدَ بهدفه الآخر، ويشعر بالرضا، وتُقَرَّ له عين...

شعر الابن بحزن عميق، بل بشبه نَدَم، كيف غَفَلَ عن ذاك الجانب الآخر من الموقف؟ لمَ سبَّب لوالده الحبيب حرماناً من سعادة يتوخاها وقد توفرت؟؟ وجعل يفكر كيف يعوّض... وشعر أن عليه واجباً، بل أن عليه منذ اليوم دَيناً يجب أن يَفِيَه: أن يطبع «تاريخ النبي أحمد» (ص)، لا فقط تحقيقاً لهدف الوالد (هدف الوالد الذي جعله

الابن منذئذٍ هدفه هو أيضاً)، بل ليُرجِع إلى أبيه بسمة الرضا، ويعيد إلى أساريره سيما المَسرة التي حرمه منها!!

متى؟

سيفعل. سيطبع الكتاب ذات يوم (إن شاء الله)، وقبل أن يموت، ولو بيوم واحد!!

❀ ❀ ❀

. . . وانشغالُ حياة، وطيش شباب، وَغِرَّةُ أمل، وحرب داخلية، وهموم أولاد. . ولم يصدر الكتاب؛ إلاّ أن الابن بقي عند حسه بمسؤوليته وعند عهده: سأطبع ـ إن شاء الله ـ ذات يوم، ولو قبل موتي بيوم واحد!.

لم يذكر عهده لأحد، لذا لم يُنبهْهُ أحد إلى «أنك لست تضمن عمرك، فلمَ لا تسارع إلى وَفاءِ دَينك؟»، كما لم ينبهه أحد إلى أنه إن كان يريد التعويض لأبيه، فالواجب إذاً أن يصدُرَ الكتابُ قبل موت أبيه (لا موته هو) ولو بيوم واحد!!.

❀ ❀ ❀

ـ ٣ ـ

وتتقدم السنون، ويتقدم العمر، و«تِلِكْسٌ» ذاتَ صَحوةٍ من أخيه، أنَّ وَضع الوالد يقتضي زَوْرة. . ويطير. . يدخل غرفة الأعز الأحب في مستشفاه، وتهزه رعشة، و. . . تجمده دهشة:

تلك الشخصية الألمعية، تلك الحيوية الدافقة التي طالما أعطت وأعطت، تلك الكتلة من الفاعلية والمرح والجد والإنتاج. . هاهي الآن مسجَّاة هنا، تتقلب وتتكلم دونما كثير تركيز. نزيف داخلي يجعله تحت نوبات ذهول وتيهٍ يتكرران، ويجعله كثير النسيان، حتى لَيستعيدُ ويُعيدُ الصلاة الواحدة مرات ومرات.

أهَّلَ السيد بابنه ورحَّب، ثم طلب تراب التَيَمُّم!.

وخلال الأيام التي أمضاها الابن بجوار الأب، يستجيب لندائه، يناوله دواءه، يقلبه على جانبيه.. قَلَّما كان السيد يقول شيئاً مركزاً مدةَ وقتٍ طويل.

وذات مرة، مرة واحدة فقط، لا يعرف أن السيد فعلَ مثلَها في فترة مرضه.. أجل ذات مرة ظنها الابن أولاً كباقي المرات التي دعاه فيها.. والوقت أصيل، والغرفة قليلة النور، وقد اتفق أن أحداً غيره لم يكن بجواره، دعا السيد ابنه، ثم فاجأه بقوله وهو يشير بأصبعه إلى شفتيه:

ـ تعال، قَبِّلْني هنا.

فوجىء الابن.. في حياته كلها لم يفعل والدُه معه أو مع إخوته شيئاً مِثْلاً، بل هو ذات مرة لم يَستجِبْ إلى شيء من قبيله أراده ابنُه، هُرع الابن، قَبَّل الأب بسعادة، وبامتنان في أعماقه كبير..

ـ ناولني سيگارة.

الطبيب منع عنه السيگارة، ضعُفَ الابن أمام عاطفته نحو أبيه، قَسَمَ سيگارة قسمين، أشعل القسم الأصغر، وضعه في «البز» نفسه، ثم ناوله الأب.. أيحتمل أن يحرم أباه متعة صغيرة من المحتم أن حرمانَه إياها لن ينقذه؟.

سحب السيد نَفَساً من السيگارة بتشبع؛ نَفَثَهُ في الهواء؛ وأعاد مرة، و.. وراح يتكلم، بهدوء، بوعي، بتركيز، بصورة طبيعية جداً كحاله في غرفته في بيته؛ وقالها ـ كلماته ـ واضحةً هادئة صادقة النبرة:

«أنا مسرور لأنك أتيت، أنا مسرور لأنك جئت تتفقدني، مسرور لأني رأيتك قبل أن أموت، وأنا سعيد بأنك ستمشي في جنازتي!!».

ما أثقلها كلمات! وما أشفَّها لحظات!!.

. . . وفي ليلٍ من ربيع السنة الأخيرة من القرن القمري الهجري، والأخيرة من العقد الثامن في القرن الشمسي الميلادي، كان الموت. . وكان المشي في الجنازة!.

كان الموت، قبل أن تصدر الطبعة الثانية من تاريخ النبي أحمد(ص). . قبل أن يراها المؤلف الذي كانت له سعادةً أن يراها في أيدي الناس. . وتضاعفت الحسرة حسرات. . وبقي شعور بالوِزْر أو بالتقصير يَضَّاعف في نفس الابن المعذَّب. . وظل الشوق والاستغفار والحنين واللهفة تشوي الابن وتؤرقه!!.

ـ ٤ ـ

وأخيراً. . . أخيراً ها أنا يا أبَه، أحاول أن أفِيَ دَيني. . بعضَ دَيني لك. . . بعض دَينك عليّ!

الصورة واضحة أمام عيني. بل إنني لأعيشها حقاً. هاهي «ملازم» تاريخ النبي أحمد(ص) أمامي الآن وبين يديّ ـ مرة ثانية بعد قرابة خمسين سنة ـ، قد أتتني ظُهراً من المطبعة، من مؤسسة الكومبيوتر اليوم، وبيدي القلم أمرُّ به على الأسطر وما بين الأسطر، أخرج به من الأواسط إلى حواشي الأوراق، أعالِيَ وأسافلَ وجوانب، في خطوط ذات دلالة، تنتهي بكلمات أو حروف أو حركات، أُصحح بها أخطاء أجدها في الورق. . . وأتذكر جلساتنا المسائية الروحانية، وأَتذكر نظراتك وبسمتك وطُهْرك وصدقك، ثم سعادتك بعطائك في عرض سيرة جدك سيد رسل الله، ويعاودني الشوق، وتسيل وتسيل تلك على الخدين، وترافِقها ترافِقُ الشهقاتُ الصَموت، وتردفها ثم تردف زفراتٌ خَفوت. . . وواها أيضاً واهاً، لو أن الزمن يعود!!

إذاً، الآن وبعد حوالي خمسة عقود من التصرف الـ. . . آذاك، قرابة ثلاثة عقود على الفراق الـ. . . فَجَعنا، أحاولُ ـ قلتُ ـ أن أفِيَ

بعض دَينك، أجل بعض دَينك، فدَينُكَ ليس فقط سعادتك برؤية كتابك مُجدَّداً، وسيرة نبيك مُعادة، وثواب نشرك السيرة مُضاعفاً. . .

إن دَينك عليّ ـ وعلى الأخوة، والمحبين ـ لأكثر بكثير من أن أحدده، بل أقول إنني لا أُحصيه فكيف أفيه: النِعَم الكثيرة الكثيرة التي كرَّمنا اللهُ بها على يديك، وما أكثرها. . . خط الإيمان الذي شرَّعَه الله لنا على يديك. . . محبتنا لآل بيت الرسول التي أغدق الله علينا ثوابها على يديك. . . وخيرها وثوابها، ولك علينا في كل منها دَين ما أكبره وما أغناه، فأنا أعجز مِن أن أدَّعيَ الوفاء بها، أو حتى بقسط وافٍ من أقساطها.

فتقبل يا أبتِ بتجديد تاريخ نبيك، محاولتي وفاء دين واحد فقط سبَّبتُه أنا لنفسي، وآغفر لي تأخري، وآشفع ـ أنت والوالدة الحبيبة الطاهرة ـ لي ولإخوتي، ليوفقنا الله بإحياء بقية آثارك المطبوعة والمخطوطة (في الفقه، وفي الأصول، وفي العقائد، وفي التاريخ، وفي الأخلاق. . .)، وليحشرنا معكما، ويحشرنا واياكما مع أجدادنا الطاهرين الأكرمين. . .

وما ذاكَ منكما وعنكما ببعيد. . .

وما هو على العزيز بعزيز. . .

بيروت　　　　　　　　　　أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي خلق الخلائق وأبدعهم من غير شَبَهٍ ولا مِثال، وأنشأ الأشياء واخترعها بأحسن نظام وخيرِ اعتدال، وفطر الموجوداتِ بلا معين ولا رؤية خيال، نشهد بربوبيته، ونذعن بوحدانيته، ونعترف بقدمه وأزليته، وصفات كماله الثبوتية، وبراءة ساحة قدسه عن كافة النقائص الردية، ثم نشهد أن محمداً (صلعم) سيد رسله وأنبيائه، وأفضل بريته وأمنائه، وخاتم المبعوثين من أصفيائه، وهو مبدأ كل خير ومنتهاه، ومنبع رحمة ربه الأعلى ومصطفاه، ونشهد حقّاً بصحة ما جاء به وصِدْقِه في ما أخبر عنه من الوقائع الماضية والحوادث المستقبَلَة، وأن أمره أمر الله، ونهيه نهيه، وجَحْده جحده، ونشهد أن خلفاءه المعصومين وأهل بيته الطاهرين ـ صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ـ حجج الله على خلائقه، وخلفاؤه في أرضه وسمائه، وأمناؤه على وحيه ودينه، وأن أعداءهم ومنكريهم أعداء الله ورسوله (ص)، وأن من مات ولم يعرفهم مات على الكفر والضلالة وميتة الجاهلية.

وبعد، فيقول العبد المفتقر إلى رحمة ربه الغني، والراجي عفوه الملي، حسن الحسيني اللواساني النجفي ـ عفا الله تعالى عنه وعن والديه، وعن كل من سأل له الخير والرحمة، حياً وميتاً ـ:

إن هذا ما جمعته في مدة غير يسيرة، من مؤلفات معتبرة، وصحف صحيحة منتشرة، برغم العوائق المهمة والموانع الجمة، في شرح تاريخ النبي الكريم العربي، سيد الأمم، وفخر العرب والعجم، محمد (ص) المولود بأم القُرَى، والمبعوث إلى كافة الوَرَى، أجبتُ فيه سُؤْل بعض الأجِلَّة، مبتدئاً فيه بذكر إنشاء نوره الأنور، وظهور ضيائه الأزهر، من قبل إيجاد العوالم والأملاك (ولولاه لما خلق الأفلاك)، إلى أن انتقل إلى

صلب آدم (ع) أبي البشر، ثم إلى سائر الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة، إلى تاريخ ولادته، ونشأته، وبعثته، وهجرته، وغزواته، ومعجزاته، وزوجاته، وذريته، إلى حين وفاته، وانتقاله إلى لقاء ربه.

ولقد بذلت الجهد في جمع كل ذلك وتهذيبه وتنميقه، على تراكم الأشغال، وتكاثر الحوادث المقتضية لتشتت البال، وقد جاء ـ بفضل الله سبحانه وحسن توفيقه ـ كتاباً عربياً مبيناً على نهج مألوف، ونسق لطيف موصوف، بحذف الأسانيد المملة، وإسقاط المكررات والاختلافات اليسيرة غير المهمة، وعَنوَنْتُه مؤرخاً

بتاريخ النبي أحمد
(=١٣٥٩هـ)

راجياً شفاعته يوم الحساب ورحمة ربه الكريم الوهاب، فأقول:

خلق نور النبي (ص)،

وانتقاله في الأصلاب الطاهرة
حتى والد جده هاشم (ع)

كان الله سبحانه متفرداً بوحدانيته، لم يكن معه شيء في قدمه وأزليته، وكان تعالى كنزاً مخفياً فأحب أن يُعرَف، فخلَقَ الخلْقَ لكي يعرفوه ويعبدوه، وكان أول شيء أوجده هو نور حبيبه محمّد (ص)، حين لم يكن لا أرض ولا سماء، ولا عرش ولا كرسي، ولا لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ماء ولا هواء، ولا زمان ولا مكان، ولا روح ولا ملائكة، ولا جن ولا إنس، ولا آدم (ع) ولا حواء. وقد قال هو (ص)، في أحاديث صحيحة كثيرة:

إن الله تعالى لما تعلقت مشيئته القاهرة بإيجاد الخلق، تكلم بكلمة، خلق منها نوراً، ثم تكلم بكلمةٍ أخرى، فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق أهل بيتي عليّاً وفاطمة والحسن والحسين من ذاك النور، فكنا نسبّحُه ونقدسه حين لا تسبيحَ ولا تقديس، ولا سماءَ مبينة ولا أرضَ مدحية، ولا ظلمةَ ولا نور، ولا شمس ولا قمر، ولا جنة ولا نار.

ولما أراد الله تعالى إنشاء خَلْقه، فتق نور محمد (ص) وأنوار أهل بيته (ع)، فخلق من أنوارهم العرش، والملائكة، والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والحُورَ العينَ، ثم خلق من نور محمد (ص) أنوار الأنبياء وعددُهم مئة ألف وأربع وعشرون ألف نبي، فجعَلَتْ أنوارهم تطوف حول نوره، يسبحون الله تعالى ويحمدونه، كما يطوف الحُجاج حول بيت الله الحرام.

ثم نادى الله تعالى تلك الأنوار سائلاً: «مَن أنا؟»؛ فسبق نور محمد (ص) مجيباً إياه تعالى قبل تلك الأنوار: «أنت الله الذي لا إله إلاّ أنت، وحدك لا شريك لك، ربُّ الأرباب ومَلِك الملوك!»[١]. ثم جاءهم النداء من قِبَله تعالى يأخذ الميثاق من أنبيائه على ربوبيته تعالى بقوله سبحانه: ﴿أَلَستُ بربكم﴾[٢]، فكان محمد (ص) أول مجيب بقولهِ: «بلى»؛ وفي ذلك قوله جل وعلا ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾،[٣] وذكر محمداً (ص) في القرآن قبل ذكرهم بقوله تعالى: ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم. . .﴾[٣] الخ؛ فأوحى الله تعالى إليه (صلعم): «عبدي، أنت المُرادُ والمُريد، وأنت خِيرتي من خَلقي، وأنت صَفيّي، وأنت حبيبي! وعزتي وجلالي، لولاك لمَا خلقتُ الأفلاكَ! مَن أحبَّك أحببتُه، ومن أبغضك أبغضته، أُمَّتك خيرُ أمةٍ أُخرِجت للناس».

اخذ الميثاق على الأنبياء . . بالإيمان بالرسول(ص)

ثم أخذ الميثاق لمحمد (صلعم) على الأنبياء (ع) أن يؤمنوا به وبخلفائه، وأن ينصروه، وأن يبشروا أممهم به، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ أخذَ اللّهُ ميثاق النبيين لَما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتُؤمنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه﴾؛[٤] وكذلك لما خلق أشباح بني آدم أخذ الميثاق عليهم لنفسه تعالى بالربوبية، ولمحمد (ص) بالنبوة، ولأوصيائه بالخلافة ووجوب الطاعة، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريَّتَهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى﴾؛[٢]

---

١ ـ في نص الحديث المنسوب إلى النبي (صلعم)، أنه تعالى خلق العرش من نور محمد (ص)، وأن نور محمد أفضل من العرش، وأنه تعالى خلق الملائكة من نور علي (ع)، والسماوات والأرض من نور فاطمة (ع)، والشمس والقمر من نور الحسن (ع)، والجنة والحور العين من نور الحسين (ع)، وأن أنوارهم أفضل منها جميعاً. وفي النص كذلك أنه خلق من نور النبي (ص) عشرين بحراً من العلوم، تقلب النبي فيها، فلما خرج منها جعل الله أنبياءه على عدد القطرات المنحدرة منه (صلعم).

٢ ـ القرآن الكريم، الجزء ٩، السورة ٧ الأعراف: الآية ١٧٢.

٣ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ٧.

٤ ـ ج ٣، س ٣ آل عمران: ٨١.

وقد أخذ الميثاق بذلك على ملائكته وسائر أصناف خلقه، وعَرَضَ عليهم ولاية النبي محمد (صلعم) وخلفائه (ع)، فكل مَن سبق منهم إلى أجابته والإقرار بربوبيته والاعتراف بمحمد (صلعم) وبخلفائه (ع) وقبول ولايتهم، كان أقرب وأحب إليه تعالى.

ثم أوحى الله تعالى إلى القلم أن يكتب على اللوح «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، فانشق القلم من حلاوة ذلك وقال: «السلام عليك يا رسول الله»، فأجاب عنه تعالى: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته».

ثم أمر الله سبحانه ملائكته بالصلاة على محمد وآله والاستغفار لأمته إلى يوم القيامة، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا...**﴾[٥] وقوله جل جلاله في سورة الشورى: ﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض...**﴾[٦].

وبعد خلق الملائكة، خلق الله تعالى السماء، ثم البحار، ثم الريح، ثم الأرض، ثم نار السموم، ثم الجن...[٧]، ثم تعلقت مشيئته سبحانه

---

٥ ـ ج ٢٤، س ٤٠ غافر: ٧.

٦ ـ ج ٢٥، س٤٢ الشورى: ٥.

٧ ـ أورد المؤلف هنا تفاصيل رواية بداية الخليقة، في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، مع أن مكانها الطبيعي كتاب آخر له معروف، هو «تواريخ الأنبياء»، لأن رواية بداية الخليقة تتلازم مع خلق الإنسان الأول، والإنسان الأول أبو البشر آدم (ع)، هو في الوقت نفسه أول الأنبياء (ع).
أما السبب فهو أن السيد ـ رضوان الله عليه ـ ألَّف كتاب «تاريخ النبي أحمد» (ص) أولاً، فضمنه بدايات الخلق، وأولها نور محمد (ص)، ولعله لم يكن مطمئناً إلى أنه سيستطيع تأليف كتاب عن الأنبياء وتواريخهم، أو لعله في ذلك الحين لم يكن قد فكر أصلاً في ذلك، حتى يؤجل قصة خلق الكائنات لجعلها في الكتاب الثاني المتأخر.
وحين بدأنا بمراجعة هذا الكتاب «تاريخ النبي أحمد» (ص) لإعداده للطبع، اتفق أن كتاب «تواريخ الأنبياء» الذي نفدت منذ أمد بعيد طبعته الأولى المتكررة وازدادت المطالبة به، بدأنا نحضر طبعته الثانية، أي أن الكتابين يُعادُ طبعهما في وقت واحد تقريباً، ففضلنا نقل رواية بداية الخلق إلى سيرة آدم (ع) في كتاب «تواريخ الأنبياء»، مكتفين هنا بالإشارة باختصار إلى المخلوقات المشار إليها، وبأن نبقي منها هنا ما يتعلق بمحمد (صلعم)، أي خلق نوره ونور عترته، عليه وعليهم السلام ـ المحقق. =

بخلق الإنسان، وبانتقال نور محمد (صلعم) في الأصلاب إلى أن يحين أوان ظهوره، فخلق آدم (ع) من أديم الأرض، وخلق حواء (ع) من ضلعه. وقد جعل نور محمد (ص) في صلب آدم، فكان آدم (ع) يسمع من ظهره تسبيحاً وتقديساً مثل نشيش الطير، وسأل ربه عن ذلك، فأخبره الله تعالى أن ذلك تسبيح نور محمد العربي، سيد الأولين والآخرين.

تلاقي آدم وحواء(ع) وإنتقال نور النبوة إليها

إلى أن تعلقت مشيئة الله القاهرة بانتقال نور النبي (صلعم) من صلب آدم إلى ذريته، فأمر آدم زوجته حواء أن تتطهر وتتطيب، ثم تغشاها، فحملت بابنها «شيث»؛ وانتقل نور خاتم الأنبياء من جبهة آدم إلى رحمها، والملائكة ينزلون عليها ويهنئونها به، إلى أن وضعت شيثاً، فرأت نور رسول الله (صلعم) يلمع بين عينيه، ففرحت بذلك كثيراً.

وأقام شيث على حاله تلك والنور في غرّته، إلى أن بلغ مبلغ الرجال، فهبط الأمين جبرائيل (ع) على آدم (ع) في أواخر أيامه، يخبره بنفاد عمره، ويأمره بأخذ العهد والميثاق على ابنه شيث بحفظ نور خاتم الأنبياء، وأن لا يودعه إلاّ في الأرحام المطهرة من أرجاس الكفر، وأن يأخذ العهد بذلك على مَن ينتقل إليه ذلك النور من أولاده، فقبل شيث ذلك.

ولما توفي أبوه آدم (ع)، تزوج شيث وبقي النور في ناصيته، إلى أن حملت زوجته ووضعت له ابنه «أنوش»، فانتقل النور إلى جبهة أنوش، ثم أخذ عليه أبوه شيث العهد والميثاق بحفظ النور كما أخذه عليه أبوه من قبل؛ وهكذا جعل كل سَلَفٍ من أبناء سلالته يأخذ العهود والمواثيق المؤكدة على خَلَفِهِ بحفظ نور النبوة عن الأدناس، وإبعاده عن الأرحام النجسة بالكفر، وتجدد هذا العهد أكثر من أربعين مرة حتى بلغ والد النبيِّ الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وآله.

نسب النبي (صلعم)

أما هؤلاء الأبناء الذين تسلسلوا من آدم (ع) حتى «هاشم» والد جد النبي، وبعده إلى «عبد المطلب» جده (صلعم)، ثم إلى والده «عبد الله»،

فهم ـ كما جاء في عدد من المصادر ـ على الصورة التالية:

١ ـ آدم (ع)
٢ ـ شيث
٣ ـ أنوش..
٤ ـ قينان
٥ ـ مهلايل
٦ ـ أدد
٧ ـ أخنوخ، وهو إدريس النبي (ع)
٨ ـ متوشلخ
٩ ـ ملك
١٠ ـ نوح (ع)
١١ ـ سام
١٢ ـ أرفخشد
١٣ ـ غابر
١٤ ـ قالع
١٥ ـ أرغو
١٦ ـ شارع
١٧ ـ تاخور
١٨ ـ تارخ
١٩ ـ إبراهيم، الخليل (ع)
٢٠ ـ إسماعيل
٢١ ـ قيدار
٢٢ ـ الهميسع
٢٣ ـ نبت
٢٧٤ ـ يشخب
٢٥ ـ أدد
٢٦ ـ عدنان
٢٧ ـ معد
٢٨ ـ نزار
٢٩ ـ مضر
٣٠ ـ الياس
٣١ ـ مدركة
٣٢ ـ خزيمة
٣٣ ـ كنانة
٣٤ ـ قُصَي
٣٥ ـ لُؤَي
٣٦ ـ غالب
٣٧ ـ فِهر
٣٨ ـ عبد مناف[٨]
٣٩ ـ هاشم
٤٠ ـ عبد المطلب
٤١ ـ عبد الله والد النبي (ص)

---

٨ ـ في بعض المصادر القديمة اختلاف في عدد الأشخاص بين كنانة وعبد مناف وفي أسمائهم.

هاشــم
جد النبي(ص)

والد جد النبي (ص)

وُلِد «هاشم» وأخوه «عبد شمس» ـ والد أُميَّة ـ توأمين في بطن واحدة، وكان أصبع كل منهما ملتصقاً بإصبع الآخر، فقُطِع الالتصاق وأُدمِيَتْ أصابعهما، وبذلك جرت العداوة والدم بين ذراريهما إلى الأبد.

وقد كان اسم هاشم في الأصل «عمرو العلاء»، وإنما اشتهر بهاشم لكثرة جوده، فقد كان يهشم الثريد من اللحم والسمن والتمر لحجاج البيت والمعتمرين الوافدين في المواسم إلى مكة، ويحمل لهم الطعام إلى مِنًى وعرفات، ويسقيهم اللبن، ويكسو العريان، ويفرّج عن المعسر، ويَفي عن المَدين، وكان بابه لا يغلق عن صادر ودون وارد، يكرمهم ويتولى أمورهم إلى أن ينصرفوا شاكرين، ويولم لهم الولائم العظيمة، ويأمر بما يفضل من الطعام أن يُلقَى إلى الوحش والطيور.

وكان قد أصاب أهل مكة ضيق وجدب في بعض السنين، فبعث هاشم جمالاً له إلى الشام، فباعوها واشتروا له بأثمانها طعاماً للحاجّ وسائر أَهل مكة، فرّقه عليهم ولم يترك منه لنفسه قوت يوم واحد، فصدروا من عنده شاكرين، وأنشد قائلهم:

يـا أيهـا الـرجُـلُ المُجِـدُّ رَحيلَـهُ ... هَـلاَّ مَـرَرْتَ بـدارِ عبـدِ مَنـافِ
ثكلتـك أمـك لـو مررتَ ببابِهِـم ... لَعَجبتَ مِـن كَـرَمٍ ومـن أوصـاف
عَمْرُو العلا هَشَم الثريدَ لقومه ... والقـومُ فيهـا مُسْنِتٌ وعِـجـافـي[1]

---

١ ـ أسنت القوم: أصابتهم سنة قحط وجدب. عجافي: أي مواشيه عجفاء هزيلة (وقد ورد الشعر في المتن سابقاً: مُسنتون عجافِ).

بسطوا إليه الرحلتين كليهما عند الشتاء ورحلة الأصياف

ولم يزل كذلك حتى أخذ الناس يتحدثون به وبجوده في الآفاق، وسوَّده أهل مكة عليهم، وخضعوا له بأجمعهم وعظموه وسلموا إليه مفاتيح الكعبة ولواء نزار، وغير ذلك من آثار العظمة والرئاسة، حتى ظهر فخره وعظم مجده.

وكان في موسم الحج يجمع الناس عند الكعبة، ويقوم فيهم خطيباً يأمرهم بإكرام الحجاج وإقرائهم، يقول إنهم أضياف الله يأتون شُعْثاً غُبْراً من كل فج عميق، وكانت قريش تطيعه وتُخرج بأمره أموالاً كثيرة لضيافة الحجاج.

ثم إنه تزوج من قومه بزوجات، ورزق منهن من الذكور أربعة، ومن الإناث أربعاً. وكان في جبهته نور رسول الله (ص)، يضيء كالمصباح في الظُلَم والحنادس، وسارت إليه القبائل من كل جانب ينظرون إلى نور جبينه ويتعجبون منه، وربما كان يسمع من الحجر والمدر في طريقه صوتاً يبشره بظهور خاتم النبيين من ذريته. وسمع بعض قريش أصنامهم الصامتة تنطق بفضل النبي المختار، وتهدِّدهم بقرب خروجه، فهاجت الكهنة من ذلك واضطرب أهل مكة، وبلغ الخبر الملوكَ فأخذوا يتطاولون إلى هاشم ويبذلون له الأموال الجزيلة ويكاتبونه أن يهدوا له بناتهم ليتزوج بهن، رغبة في النور الذي في جبهته بعد ما علموا من كهنتهم أنه نور النبوة، وهو يأبى عليهم، ولا يقبل بنت أحد منهم ولا يرغب في زواجهن، إلى أن طال عليه الأمد.

توصية لهاشم في المنام بزواجه من سلمى

ولم يزل نور رسول الله (صلعم) في غرته لا ينتقل إلى أحد من ولده، حتى عظم عليه ذلك؛ ولما كان بعض الليالي، أتى نحو البيت فطاف به وجعل يسأل ربه تعالى أن يرزقه ولداً يرث منه النور، وبينما هو كذلك إذ أخذه النعاس، فمال عن البيت واضطجع في جانب من المسجد الحرام ونام، فرأى في منامه قائلاً يقول له: «عليك بسَلْمى بنت عمرو،

فإنها طاهرة مطهرة الأذيال، فخذها وادفع لها المهر الجزيل، فإنك لا تجد لها شبيهاً من النساء، وإنك ترزق منها ولداً يكون منه النبي، فصاحِبْها واسعَ إلى أخذ الكريمة عاجلاً».

فانتبه هاشم من نومه فزعاً مرعوباً، ثم اجتمع إلى أخيه المطلب وبني عمه فأخبرهم برؤياه وبقول القائل له في منامه، فقال المطلب: «ياابن أم، إن المرأة لَمعروفة في قومها، كبيرة في نفسها، قد كملت عفة واعتدالاً، وهي سَلْمى بنت عمرو بن لبيد بن حداث بن زيد بن عامر بن غنم بن مازن بن النجار، وهم أهل الأضياف والعفاف! ولكن أنت أشرف منهم حسباً وأكرم منهم نسباً، قد تطاولت إليك الملوك والجبابرة، وإن شئت فنحن لك خُطّاب»؛ قال هاشم: «الحاجة لا تُقضى إلاّ بصاحبها، وقد جمعتُ فضلاتٍ وتجارة، وأرى أن أخرج بها إلى الشام للتجارة ولِوِصال هذه المرأة».

وكانت سلمى يومئذٍ في يَثْرِب، وهي مدينة النبي(ص) اليوم، فقال له أصحابه: «نحن نفرح لفرحكَ ونُسَرّ بسرورك، وننظر ما يكون من أمرك»؛ فعند ذلك استعد للسفر وتجهز للمسير، حتى إذا خرج من مكة، خرج معه أصحابه بأسلحتهم، وخرج معهم العبيد يقودون الخيل والجمال وعليها أحمال الأديم. وبلغ الخبر أهل مكة، فخرجت السادات والأكابر والرجال والنساء لتوديع هاشم عند خروجه، إلى أن ودّعوه ورجعوا.

وسار هاشم مع أخيه المطلب وبني عمه في أحسن هيئة وجمال طالبين بني النجار، إلى أن دخلوا مدينة يثرب، فأشرقت المدينة بنور النبي (صلعم) المتشعشع من غرة هاشم، حتى تعجب منه أهل يثرب وبادروا إليهم مسرعين قائلين لهم: «من أنتم أيها الناس؟ فما رأينا أحسن منكم جمالاً، ولا سيما صاحب هذا النور الساطع والضياء اللامع»؛ فأجابهم المطلب وقال: «نحن أهل بيت الله وسكان حرم الله! نحن بنو لؤي بن غالب، وهذا أخونا هاشم بن عبد مناف، وقد جئناكم خاطبين وفيكم راغبين، وقد علمتم أن أخانا هذا خطبه الملوك والأكابر، فما رغب إلاّ فيكم، ونحب أن ترشدونا إلى أبي سلمى».

وكان عمرو أبو سلمى حاضراً حينئذٍ في جملة الناس يسمع الخطاب، فتقدم إليهم وقال: «مرحباً بكم! أنتم أرباب الشرف والمفاخر، والعزِّ والمآثر، والسادات الكرام، المطعمون الطعام، ونهاية الجود والإكرام، ولكم عندنا ما تطلبون! غير أن المرأة التي خرجتم لأجلها وجئتم لها طالبين، وهي ابنتي وقرة عيني، هي مالكة نفسها! وقد خرجت بالأمس مع نساء من قومها إلى سوق «قيقناع»، فإن أقمتم عندنا فأنتم في العناية والكلاءة، وإن أردتم أن تسيروا إليها ففي الرعاية»؛ ثم قال: «ومَن الخاطب لها والراغب فيها؟» قال المطلب: «هو صاحب هذا النور الساطع، والضياء اللامع! سراج بيت الله الحرام، ومصباح الظلام، الموصوف بالجود والإكرام، هاشم بن عبد مناف، صاحب رحلة الإيلاف، وذروة الأحقاف!»؛ قال عمرو: «بخ بخ! لقد عَلَونا وفخرنا بخطبتكم!»؛ ثم نادى في الجموع: «اعلموا يا من حضر أني قد رغبت في هذا الرجل أكثر من رغبته فينا، غير أني أخبركم أن أمري دون أمرها!»؛ ثم توجه إلى هاشم وأصحابه وقال: «انزلوا يا خير زوّار ويا فخر بني نزار!»؛ فعند ذلك نزل هاشم وأخوه وأصحابه وحطوا رحالهم ومتاعهم، وسبق عمرو إلى قومه، فنحر النحائر، وعقر العقائِر، وهيأ لهم أنواع الطعام، وأرسلها في الجفان إليهم على رؤوس العبيد، فأكلوا وشبعوا.

وشاع أمرهم في المدينة، فجعل أهلها يخرجون إليهم أفواجاً أفواجاً، وفيهم القبيلتان العظيمتان المعروفتان «الأوس» و«الخزرج»، حتى لم يبق أحد من أهل يثرب إلاّ وقد خرج إليهم، ينظرون إلى طلعة هاشم وغرته معجبين به مبتهجين بنور جبينه؛ وخرجت إليهم اليهود في جملة الجموع، فلما وصلوا إلى القوم ونظروا إلى نور جبين هاشم، عرفوه بالصفة التي كانوا عرفوها في التوراة، فعظم ذلك عليهم، خوفاً من ظهور النبي العربي واقتراب أوانه، وقال لهم حبر من أحبارهم: «هذا هو الرجل الذي يظهر منه ولد يسفّه ديانتكم، وهو الذي تقاتل معه الأملاك، المعروف في كتبكم بالماحي، وهذه أنواره قد ابتدرت»؛ فارتفع من قوله بكاؤهم وقالوا له: «يا أبانا، فهل هذا الذي ذكرت نصل إلى قتله ونُكفَى شره؟»؛ قال: «هيهات هيهات! حيل بينكم وبين ما تشتهون، وعجزتم

عما تأملون! إن هذا هو المولود الذي ذكرت لكم أنه تقاتل معه الأملاك من الهواء، ويخاطَب من السماء، ويقول: قال جبرائيل عن ربّ السماء»؛ قالوا: «وهذا تكون له هذه المنزلة؟»؛ قال: «نعم وأعز من الولد على الوالد، فإنه أكرم أهل الأرض على الله تعالى وأكرم أهل السماوات»؛ قالوا: «أيها السيد الكريم، نحن نسعى في إطفاء ضوء هذا المصباح قبل أن يتمكن ويحدث علينا منه كل مكروه»؛ وعند ذلك أضمر القوم العداوة لهاشم، وكان ذلك بدء عداوتهم للنبي (صلعم).

ثم لما أصبح هاشم أمر أصحابه أن يلبسوا أفخر ثيابهم، ويظهروا زينتهم، فلبسوا ما كان عندهم من الثياب، وما كانوا قد أعدّوه للزينة والجمال، وأظهروا التيجان والجواشن والدروع والبيض، ثم أقبلوا متوجهين إلى سوق بني قيقناع، وقد شدّوا لواء نزار على قناة، وأحاطوا بهاشم عن يمينه وشماله، ومعهم أبو سلمى وأكابر قومه وجماعة من اليهود، وسار العبيد أمامه. ومضوا كذلك إلى أن أشرفوا على السوق، وكانت الناس تجتمع إليه من أقاصي البلاد وأقطارها، وأهل الحضر وسكانها، ولما نظروا إلى هاشم وأصحابه، حاروا ودهشوا من جماله ونور جبهته، وتركوا أمتعتهم وأقبلوا ينظرون إليه معجبين بحسنه وبهائه، وهو بين أصحابه كالبدر المنير بين الكواكب، وعليه السكينة والوقار، فأذهل أهل السوق، وافتتنوا به وبالنور الذي بين عينيه.

والد سلمى يبشرها بخطبة هاشم لها

وكانت سلمى في جملتهم واقفة معجبة بهاشم وحسنه وجماله وهيبته ووقاره، وبينما هي كذلك إذ أقبل إليها أبوها يبشرها بالخبر، وكانت هي من قبل معجبة بنفسها وحسنها وجمالها، إذ أنها كانت فتاة تامة معتدلة، وكانت أجمل أهل عصرها وأكملهم، وكان لها مَنْظَر وَمَخْبَر، كاملة الأوصاف، معتدلة الأطراف، سريعة الجواب، حسنة الآداب، عاقلة ظريفة عفيفة لبيبة، طاهرة من الأدناس، نقية من الأرجاس؛ ولكنها لما رأت هاشماً وجماله، استصغرت نفسها واستحقرت ما هي عليه من المحاسن، ولما أقبل عليها أبوها وقال لها: «يا سلمى أبشرك بما يَسُرُّكِ

ولا يَضُرُّك»؛ قالت: «يا أبتِ بِمَ تبشرني؟»؛ قال أبوها: «إن هذا الرجل لك خاطب، وفيكِ راغب، وهو يا سلمى من أهل الكفاف والعفاف، والجود والأضياف، هاشم بن عبد مناف، وانه لم يخرج من الحرم لغير ذلك». فلما سمعت سلمى ذلك أدركها الحياء من أبيها، وأعرضت بوجهها عنه، وأمسكت عن الكلام، ثم قالت بعد هنيهة: «يا أبت إن النساء يفتخرن على الرجال بالحسن والجمال والقدر والكمال، وإذا كان زوج المرأة سيداً من سادات العرب، وكان مليح المنظر والمخبر، فما أقول لك وقد عرفتَ ما جرى بيني وبين أحيحة بن الحلاج الأوسي وحيلتي عليه حتى خلعت نفسي منه لما علمتُ أنه لم يكن من الكرام! وان هذا الرجل تدلّ عظمته ونور وجهه على مَروءَتِـهِ، وحسنه يدل على فخره، وإن يكن الأمر كما ذكرت أنه خطيبنا وراغب فينا، فإني فيه راغبة، ولكن لابد أن أطلب منهم المهر ولا أصغر نفسي وحالي عندهم»؛ وكان هذا القول من سلمى لأبيها في ظاهر الحال للمحافظة على مقامها وعزة نفسها.

وبينما هي في الكلام مع أبيها، إذ نزل هاشم وأصحابه قريباً من السوق، واعتزل هو بنفسه ناحية منه، فتوجه إليه أهل السوق وأقبلوا عليه مسرعين ينظرون إلى نوره وذهلوا عن متاجرهم. ونصبت لهاشم خيمة من الحرير الأحمر، ووضعت له سرادقات، فدخلها هو وأصحابه، وتفرق أهل السوق وانصرفوا عنه يسأل بعضهم بعضاً عن أمر هاشم وقومه، وسبب قدومهم من مكة، حتى عرفوا أنه قد جاء خاطباً لسلمى، فحسدها كلهم على هاشم. (وقد رُوِيَ أن إبليس في تلك الأثناء جاء سَلْمى عدة مرات وبصور مختلفة يذم لها هاشماً متهماً إياه بأنه مزواج مطلاق وبخيل، كل ذلك ليمنع زواجه وولادة النبي (صلعم) منه، ولكن والدها نَفَى لها التهم كلها وشجعها على الزواج من هاشم).

وخرجت سلمى ذات يوم في بعض حوائجها، وحدث أن التقت بهاشم في بعض الطريق، فعرفته بنور جبهته وأحبته حباً شديداً، حتى تقدمت إليه وقالت له: «يا هاشم، قد أحببتك وأردتك، فإذا كان الغد فاخطبني من أبي، ولا يعزَّ عليك ما يطلب أبي منك، فإن لم تصِلْ إليه يدُك ساعدتُكَ عليه» ثم افترقا.

ولما أصبح هاشم، أرسل وأخوه المطلب إلى والد سلمى أنهم آتون لزيارته خاطبين؛ فتأهب هو وأهله وأقاربه للقاء القوم وتزينوا بزينتهم؛ وبينما هم كذلك، إذ بهاشم والمطلب ومن معهما قد قَدِموا، فقام أهل سلمى على أقدامهم إجلالاً للقوم، وجلس هاشم وأخوه وبنو عمه في أوساطهم، وتطاولت أعناق القوم ينظرون إلى هاشم.

ثم ابتدأ المطلب بالكلام وقال في ما قال: «يا أهل الشرف والإكرام، والفضل والإنعام، نحن وَفْدُ بيتِ الله الحرام، والمشاعرِ العظام، وإلينا سعت الأقدام، وأنتم تعلمون شرفَنا وسُؤدَدَنا، وما خصنا الله به من النور الساطع والضياء اللامع، ونحن بنو لُؤَي بن غالب، وقد انتقل هذا النور إلى عبد مناف، فهو معنا من آدم إلى أن صار إلى أخينا هاشم، وقد ساقه الله إليكم وأَقْدَمَهُ عليكم، فنحن لكريمتكم خاطبون وفيكم راغبون...»؛ ثم أمسك عن الكلام؛ فأجابه عمرو أبو سلمى وقال: «لكم التحية والإكرام، والإجابة والإعظام، وقد قبلنا خطبتكم وأجبنا دعوتكم، وأنتم تعرفون عُلَيَّتَنا، ولا تخفى عليكم أحوالنا، ولابد من تقديم المهر كما كان عليه سلفنا وآباؤنا، ولولا ذلك ما واجهناكم بشيء من ذلك ولا قابلناكم به أبداً»؛ فأجابه المطلب إلى ذلك وصدَّقه في مقالته[٢].

ثم اتفقوا على مقدار المهر، وخرج المطلب وأخوه وحاشيتهما بعدئذٍ إلى منازلهم، استعداداً ليوم القِران.

القِران، والنِثار، والولائم،... والزواج

فلما حلّ اليوم المتفق عليه، اجتمع الناس إلى ضيافة هاشم، وأقبل أبو سلمى وخاصته، فاستقبلهم هاشم واخوته بالإجلال والترحاب؛ ثم أمر

---

٢ ـ في بعض الروايات أن المطلب قال لأبي سلمى: «لكم عندي مئة ناقة سُود الحدق، حُمْر الوبر، لم يعلها جمل»، ثم زاد هذا المقدار أضعافاً لأن بعض اليهود من الحاضرين ومعهم إبليس شجعوا والد سلمى على طلب الزيادة، ثم اكتشف أهل العروسين سوء نيتهم، فتراجع أهل سلمى عن طلبهم.

هاشم بمد الولائم ووضع الجفان المترعة باللبن ولحوم الضأن والإبل، وبعد أن أكل الأضياف ورفعوا أيديهم وأثنوا، توجه أبو سلمى إلى هاشم واخوته وقال لهم: «يا معاشر السادات، اصرفوا عن قلوبكم كل همّ، فنحن لكم وابنتنا هدية لكم»؛ فقال المطلب: «لك ما ذكرناه وزيادة». ثم قال المطلب: «يا أخي هاشم، أرَضيتَ بما تكلمتُ به عنك؟»؛ قال: «نعم»؛ فعند ذلك عقدوا عقد الزواج وتصافحوا، وقام أبو سلمى وأخرج من كمه دراهم ودنانير، فنثر الدنانير على هاشم وأخيه المطلب، ونثر الدراهم على أصحابه، ونثر عليهم زرير المسك الأذفر والكافور والعنبر حتى غمر أطمارهم، ثم قال: «يا هاشم، تحب الدخول على زوجتك هذه الليلة، أو تصبر لها حتى تصلح شأنها؟»؛ قال: «بل أصبر حتى تصلح شأنها»؛ فعند ذلك أمر بتقديم المطايا فركبوا وخرجوا.

ثم إن هاشماً دفع إلى أخيه المطلب ما حضره من المال، وأمره أن يدفعه إلى سلمى، فتوجه المطلب إليها، فلما جاءها فرحت به، وتناولت المال وقبلته وقالت: «يا سيد الحَرَم، وخيرَ مَن مشى على قَدَم، سلِّم على أخيك وقل له: ما الرغبة إلاّ فيك، فاحفظ منا ما حفظنا منك»؛ فقال المطلب: «اعلمي أن أخي قد تطاولت إليه الملوك في خطبته، ورغبوا في تزويجه، فأبى حتى أتاه آتٍ في منامه وأخبره بخبرك، فرغب فيك وأراد أن يستودعك هذا النور الذي استودعه الله إياه بعد الأنبياء، فاسألُ الله أن يتم لكم السرور، وأن يقيكم شر كل محذور»؛ ثم خرج المطلب إلى أخيه وأخبره بما قالت سلمى، فسرّه قولها.

ثم إنه بعد ما أقام هاشم أياماً، دخل على زوجته سلمى، فرأى منها ما يسره من الحسن والجمال والهيئة والكمال، وقد دفعت سلمى إليه المالَ الذي دفعه إليها، وزادته أضعافاً. ثم إنها حملت منه بعبد المطلب جدّ رسول الله (ص)، فانتقل النور الذي كان في وجهه إلى سلمى، وزادها ذلك حسناً وجمالاً وبهجة وكمالاً، حتى شاع حسنها في الآفاق، وجعل أهل يثرب يعملون الولائم ويطعمون الناس إكراماً لهاشم وأصحابه، ويهنئون سلمى بما خصها الله تعالى به! وكان يناديها الشجر والحجر والمدر بالتحية والإكرام، وتسمع قائلاً عن يمينها يقول: «السلام عليكَ يا

خيرَ البشر»؛ وكانت تحدث بذلك، إلى أن حذَّرها هاشم ونهاها عنه، فكتمت أمرها عن قومها. وسمعت ذات ليلة قائلاً يقول لها:

لكِ البِشْرُ إذ أُوتِيتِ أكرمَ مَن مَشَى ... وخيرَ جميعِ الناس مِن حَضَرٍ وبادِ

فلم تدع هاشماً يلامسها بعد ذلك.

وداع هاشم لزوجِه وأخيه وأصحابه، ووصاياه مسافراً في تجارة.

ثم إن هاشماً أقام في المدينة حتى اشتهر حمل سلمى، فاستعد لسفر التجارة إلى الشام. ولما تجهز وأشرف على الرحيل أخذ يودّع زوجَه وقال لها في جملة كلامه: «يا سلمى، إني أودعتك الوديعة التي أودعها الله تعالى آدم (ع)، وأودعها آدم ولده شيثاً (ع)، ولم يزل أبناؤه يتوارثونها من واحد إلى واحد، إلى أن وصلت إلينا وشرَّفنا الله بهذا النور، وقد أودعته إياك؛ وها أنا آخذ عليك العهد والميثاق بأن تقيه وتحفظيه، وإن أتيتِ به وأنا غائب، فليكن عندك بمنزلة الحَدَقة من العين، والروح بين الجنبين، وإن قدرتِ على أن تغيبيه عن الأبصار حتى لا تراه العيون فافعلي، فإن له حساداً وأضداداً، وأشد الناس عليه اليهود، الذين سعوا كثيراً يوم خطبتك لمنع زواجنا، وإذا سمعتِ أني قد هلكتُ، فليكن عندكِ محفوظاً مكرماً إلى أن يترعرع، ثم احمليه إلى الحَرَم، إلى عمومته ودار عزه ونصرته»؛ إلى أن قال لها: «اسمعي واحفظي ما قلت لك»؛ فقالت وهي مختنقة بعبرتها: «نعم سمعتُ وأطعت، ولكن لقد أوجعتني بكلامك، وأنا أسأل الله العظيم أن يردَّك سالماً».

ثم جعل هاشم يودع أخاه المطلب وأصحابه، وأقبل عليهم يوصيهم بوصاياه إلى أن قال لهم: «يا بني أبي وعشيرتي من بني لؤي، إن الموت سبيل لابدّ منه، وأنا غائب عنكم، ولا أدري اني أرجع إليكم أم لا، وأنا أوصيكم! إياكم والتفرق والشتات، فتذهب حميتكم وتقل قيمتكم ويهون قدركم عند الملوك، ويطمع فيكم الطامع. وإني مُخلّف فيكم ومقدِّم عليكم أخيَ المطلب دون أخوتي، لأنه من أبي وأمي وأعزّ الخلق عندي؛

وإن سمعتم وصيتي وقدمتموه وسلمتم إليه مفاتح الكعبة وسقاية الحاج ولواء نزار وكل ما كان من مكارم الأنبياء سعدتم. وإني أوصيكم بولدي الذي اشتملت عليه سلمى، فإنه سيكون له شأن عظيم ولا تخالفوا قولي»؛ قالوا: «سمعنا وأطعنا! غير أنك كسرت قلوبنا بوصيتك وأزعجت أفئدتنا بقولك!».

ثم إنه بعد توادعه مع أخوته، سافر بأصحابه وعبيده وغلمان له إلى غزَّة الشام، إلى أن قدمها وحضر موسمها وباع أمتعته واشترى لنفسه ما كان يصلح له، واشترى لسلمى طُرَفاً وتُحفاً، ثم تجهز للرجوع إلى المدينة.

مرض هاشم و..وفاته في الغربة

ولكن لما كانت ليلة الرحيل، طرقته حوادث الزمان الغادر، إذ فاجأته العلة والمرض، فأصبح مثقلاً لا يتمكن من الرحيل، وتلبث رفاق رحلته أمداً ثم ارتحلوا دونه، وبقي هاشم وعبيده، ولم يزل كذلك أياماً إلى أن يئس من حياته وأذن لعبيده بالرحيل قائلاً لهم: «الحقوا بأصحابكم، فإني هالك لا محالة، وارجعوا إلى مكة. وإن مررتم على يثرب، فاقرأوا زوجتي سلمى عني السلام، واخبروها بخبري، وعزّوها بشخصي، واوصوها بولدي فهو أكبر همي، ولولاه ما نلت أمري»؛ فامتنعوا عن مفارقته، وأخذوا يبكون بكاء شديداً ويقولون: «لا نبرح عنك حتى ننظر ما يكون من أمرك»؛ وأقاموا ليلتهم.

ولما أصبحوا وجدوه قد ترادفت عليه الأمراض، فقالوا: «كيف تجد نفسك؟»؛ فقال: «لا مقام لي معكم أكثر من يومي هذا، وغداً توسدونني التراب»؛ فازداد القوم بكاء وصريخاً، وأحاطوا به يمرضونه إلى أن طلع الفجر من ليلتهم الثانية، وقد اشتد به المرض وازداد ولوجاً فيه حتى أنه لا يقدر على الحركة، فقال لهم: «اقعدوني وسندوني، وأتوني بدواة وقرطاس»؛ ولما أتوه بهما، أخذ يكتب وأصابعه ترتعد لشدة المرض، فكان مما كتبه لأخوته في مكة: «باسمك اللهم! هذا كتاب كتبه عبد ذليل، جاءه أمر مولاه بالرحيل! أما بعد، فإني كتبت إليكم هذا الكتاب، وروحي

بالموت تَجاذَب، لأنه لا لأحد من الموت مهرب، وإني قد نفذت إليكم أموالي فتقاسموها بينكم بالسوية، ولا تنسوا البعيدة عنكم، التي أخذت نوركم وحوت عزكم: سلمى؛ أوصيكم بولدي الذي منها. وقولوا لخلادة وصفية ورقية يبكين عليَّ، ويندبن ندب الثاكلات. ثم بلغوا سلمى عني السلام، وقولوا لها: آه آه! إني لم أشبع من قربها، والنظر إليها وإلى ولدها!! والسلام عليكم ورحمة الله إلى يوم النشور».

ثم طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى العبيد، ثم قال: «أضجعوني»؛ ولما اضطجع شَخَصَ ببصره نحو السماء، وظهرت عليه آثارُ الموت، إلى أن سمعوه يقول: «رفقاً أيها الرسول، بحق ما حملتُ من نور المصطفى!». وبينما هو كذلك، إذ زهقت روحه الشريفة كمصباح خمد ضوؤه وانطفأ نوره، فقام العبيد بعد طول البكاء والعويل، وجهزوه ودفنوه ـ وقبره معروف هناك ـ وأخذوا يندبونه، وقال قائلهم:

اليومَ هاشمُ قد مضى لسبيلِهِ ... يا عينُ جودي منكِ بالعبراتِ
وابكي على البدر المنير بحرقةٍ ... وابكي على الضَرغامِ طولَ حياتي[3]
آهٍ أبو كعبٍ مضى لسبيله ... يا عينُ فابكي الجودَ بالعبرات
صعبُ العَريكةِ لا بهِ لؤمٌ ولا ... فَشَلٌ غداةَ الروعِ والكَرَباتِ[4]
يا عينُ وابكي غيثَ جُودٍ هاطلٍ ... أعني ٱبنَ عبدِ مَنافَ ذي الخَيراتِ
وٱبكي لأكرمَ مَن مشى فوقَ الثرى ... فلأجلِهِ قد أُذرِفَتْ زَفَراتي

خبر وفاة هاشم في يثرب وفي مكة

ثم هموا بالرحيل، وساروا حتى أشرفوا على يثرب، فرفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب ينادون: «واهاشماه! واعزاه!»، إلى أن خرج الناسُ وخرجت سلمى وأبوها وعشيرتها، وإذا بخيلِ هاشمٍ قد جُزَّت نواصيها وشعورُها، وعبيد لهاشم يبكون، فصرخت سلمى، ومزقت

---

٣ ـ الضَرغام: الأسد.

٤ ـ صعب العريكة: قوي لا يمكن إخضاعه. غداة الروع والكربات: في المعارك الحربية وفي المواقف الصعبة الشديدة.

أثوابها، ولطمت خدها تنادي، «واهاشماه! مات والله لفقدك الكرمُ يا نور عيني! مَن لولدك الذي لم تره عيناك؟»؛ ولم تزل تصرخ وتندب حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب، ثم تقدمت وأخذت سيفاً من سيوف هاشم، وعطفت به على خيله حتى عقرتها عن آخرها.

وأقامت أياماً كذلك مشتغلة بالعزاء والبكاء على زوجها، إلى أن هم العبيد بالارتحال إلى مكة، فأقبلت سلمى إلى مقدمهم تقول له: «اقرأ المطلب عني السلام، وقل له بأني على عهد أخيه، وأن الرجال بعده عليَّ حرام!». ثم ساروا إلى مكة! ـ وكان قد سبقهم الناعي ـ إلى أن قدموها وانتشر الخبر فيها، فضجت البلدة ضجة شاملة، وخرج الرجال وخرجت نساء قريش وبني عبد مناف، منشرات الشعور، مشققات الجيوب، وتقدمت خلادة بنت هاشم إلى العبيد والغلمان تلومهم على أنهم لم يحملوه إلى الحرم، وأنشأت تقول:

يا أيها الناعونَ أفضلَ مَن مَشى ... الفاضلَ ابنَ الفاضلِ ابنِ الفاضلِ
أَسَدُ الشَّرى مازال يحمي أهله ... من ظالمٍ أو مُعتدٍ بالباطل[٥]
ماضي العزيمةِ أَرْوَعٌ ذو هِمَّةٍ ... عَلْيا، وجُودٍ كالسحابِ الهاطِلِ
زَيْنُ العشيرةِ كلِّها وعِمادُها ... عند الهَزاهِزِ طاعنٌ بالذابِلِ[٦]
إن السَّمَيْدَعَ قد ثَوَى في بلدةٍ ... بالشام بين صَحاصِحٍ وجَنادلِ[٧]

وأقبلت إليهم زوجة هاشم السابقة قبل سلمى، تحثو التراب في وجوههم، وتقول لهم: «بئس العشيرة أنتم! ضيعوا سيدهم وأسلموا عمادهم! أما كان هاشم مشفقاً عليكم إذ نزل به الموت أن تحملوه إلى بلده وعشيرته؟!»؛ وأنشأت بعد ذلك أبياتاً في نعيه، وأقبلت ابنتاه الطليعة ورقية ثم سائر بناته تنشد كل منهن أشعاراً في رثائه والقوم يبكون، ثم فكوا كتابه وقرأوه، وجددوا أحزانهم؛ ثم قدموا أخاه المطلب وسوَّدوه

---

٥ ـ أسد الشرى؛ الشرى: اسم مأسدة أي أرض كثيرة الأسود يضرب بها المثل.
٦ ـ الهزاهز: الشدائد، الحروب، الفتن التي تهز الناس ـ الذابل: الرمح الدقيق.
٧ ـ السَمَيْدَع: الشريف، السيد الكريم، الشجاع ـ ثَوَى: أقام، بات، نام ـ الصحاصح: جمع صَحصَح وهي الأرض المستوية الجرداء ـ الجنادل: جمع جندل وهو الصخر العظيم.

عليهم، وسلموا إليه لواء نزار، ومفاتح الكعبة، والسقاية والرفادة، وقوس اسماعيل (ع)، ونعل شيث (ع)، وقميص إبراهيم (ع)، وخاتم نوح (ع)، وما كان في أيديهم من مكارم الأنبياء (ع).

عبد المطلب
جد النبي (ص)

مولد شيبة (عبد المطلب)

لما انقضت مدة حمل سلمى، وجاءها المخاض وهي لا تجد ألماً، أُلهِمَتْ أن تستتر وتحجب وليدها عن الأنظار[1]، فأغلقت بابها، وأسدلت سترها، وكتمت أمرها. وبينما هي جالسة في حجرتها تعالج نفسها، إذ رأت حجاباً من نور قد ضُرب عليها من البيت إلى عنان السماء، وحبس اللّهُ عنها الشيطانَ الرجيم، إلى أن وضعت ابنها وفي جبهته نور النبوة (ص) يضيء كالبدر، فقامت وتولت أمرها ونظرت إلى المولود فإذا هو يضحك عند ولادته، فتعجبت من ذلك كثيراً، ثم تأملته فإذا في رأسه بين شعراته السود شعرة بيضاء، فقالت: «أنت شيبة»؛ فصارت هذه الكلمة «شيبة» اسمه، كما أنه عرف في ما بعد باسم «شيبة الحمد» أيضاً، وهذا الاسم كان قبل أن يُطلَق عليه «عبد المطلب» الذي عُرف به بقية حياته.

ثم إنها درجته في ثوب من صوف، ولم تُعلم به أحداً من قومها، حتى مضت له أيام، وصارت تلاعبه ويهش إليها، إلى أن كمل له شهر، فعلم الناس به، وأقبلت القبائل إليها فوجدوها تلاعبه، وكان ينمو في اليوم كما ينمو غيره في الشهر، وينمو في الشهر كما ينمو أولاد الناس في السنة (حتى قيل إنه مشى وعمره أشهر قليلة)، ولم يكن يومئذٍ على اليهود

---

١ ـ وجاء في رواية أنها سمعت هاتفاً يقول لها:

يـا زينـة النسـاء مـن بنـي النجـارِ ... بـالله اسـدلـي عليـه بـالأستـار

واحجبيـه عـن أعيـن النظـار ... كي تَسعدي في جملة الأقطار

أشد ولا أثقل منه، فكانوا إذا نظروا إليه امتلأوا غيظاً وحنقاً، وذلك لما كانوا يعلمون بما سيظهر منه من تدميرهم وخراب أوطانهم وديارهم وقطع آثارهم، ولكنهم لم يكونوا يتجاسرون عليه بسوء، ولا يتعرضون له بمكروه، هيبةً لأمه سلمى، فإنها كانت مطاعة في قومها، إذا ركبت ركب معها الأبطال. وكان شيبة الحمد إذا خرج يلعب نقف الناس حوله ينظرون إليه، إلى أن تم له سبع سنين، فاشتد حَيلُه، وقوي بأسه، وتبين للناس فضله؛ وكان يحمل الشيء الثقيل بسهولة، ويقبض على من هو أكبر من الأولاد فيجندلهم ويغلبهم، فما كانوا يغضبون منه لا هم ولا أهاليهم، ولا يكرهونه ولا يشكونه إلى أمه، ولا ينتقمون منه رغم ما يفعل بهم، وذلك لشدة حبّهم له وكثرة إعجابهم بنوره.

شيبة الحمد يبعث برسالة إلى أعمامه في مكة

ثم إن رجلاً من أهل مكة من بني حارث دخل يثرب في حاجة له، فمرّ فيها على صبيان يلعبون في الطريق وفيهم شيبة الحمد، وهو يلعب مع الصبيان قد غمرهم بنوره وهو يقول: «أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن هاشم وكفى!»، فدهش الرجل من نور جبهته، ووقف عليه ينظر إليه معجباً به وهو يقول له: «ما أسعد مَن أنت في ديارهم ساكن!»؛ ثم ناداه: «يا فتى»؛ فأجابه شيبة الحمد قائلاً: «ما تريد يا عم؟»؛ قال: «ما اسمك؟»؛ قال: «شيبة بن هاشم بن عبد مناف؛ مات أبي وجفاني عمومتي، وبقيت مع أمي وأخوالي؛ فمن أين أقبلت يا عم؟»؛ قال: «من مكة»؛ قال: «وهل أنت متحمل لي رسالة ومتقلد لي أمانة؟» قال الحارثي: «إي نعم، وحق أبي وأبيك إني فاعل ما تأمرني به»؛ قال: «يا عم، إذا رجعت إلى بلدك سالماً ورأيت بني عبد مناف، فأقرأهم عني السلام، وقل لهم: إن معي رسالة من يتيم مات أبوه وجفاه عمومته! يا بني عبد مناف، ما أسرع ما نسيتم وصية هاشم وضيعتم نسله! وإذا هبت الريح فإنها تحمل إليّ رائحته!».

فبكى الرجل، ثم استوى على مطيته وأرسل زمامها إلى أن قدم مكة، فلم يكن له همٌّ إلاّ رسالة الغلام، حتى أتى مجلس بني عبد مناف

ووجدهم مجتمعين، فأنعمهم صباحاً ثم قال: «يا أهل الفضل والاشراف، يا بني عبد مناف، أراكم قد غفلتم عن عزكم، وتركتم مصباحكم يستضيء به غيركم»؛ قالوا: «وما ذاك؟»؛ فأخبرهم بوصية ابن أخيهم فقالوا: «وايم الله ما ظننا أنه صار إلى هذا الأمر!»؛ فقال لهم الحارثي: «وإنه لَيَعجَز الفصحاءُ عن فصاحته، ويعجز اللبيب عن خطابه، وإنه لَفصيح اللسان، جريء الجنان، يتحير في كلامه اللبيب، فائق على العلماء عاقل أديب، إلى عقله الكفاية، وإلى جماله النهاية!»؛ فأنشد المطلب:

أقسمتُ بالسَلَفِ الماضينَ مِنْ مُضَرِ — وهاشِمِ الفاضلِ المشهورِ في الأمَمِ
لأَمْضِيَنَّ إليهِ الآنَ مُجْتهِداً — وأقْطَعَنَّ إليهِ البِيدَ في الكلمِ
السيدِ الماجِدِ المشهورِ مِن مُضَرِ — نورِ الأنامِ وأهلِ البيتِ والحَرَمِ

المطلب يسعى للاتيان بابن أخيه من يثرب

وكان المطلب أشد أهل زمانه بأساً في الشجاعة، فقال له إخوته: «نخشى عليكَ إن علمَتْ أمه أن لا تدعه يخرج معك، لأنها شرطت على أخيك ذلك»؛ فقال: «يا قوم إن لي في ذلك أمراً أُدبره». ثم إنه تهيأ للخروج وأفرغ على نفسه لأَمَةَ[٢] حربه وركب مطيته، وخرج وقد أخفى أمره حذراً من أن يشعر به أحد وينتهي خبره إلى سلمى.

ثم أقبل يجدُّ السير حتى أشرف على مدينة يثرب وقد ضيق لثامه، ودخل المدينة فوجد شيبة يلعب، فعرفه بالنور الذي في ناصيته وقد رفع صخرة عظيمة وهو يقول: «أنا ابن هاشم المعروف بالعظايم!»؛ فأناخ المطلب مطيته وناداه: «ادنُ مني يا ابن أخي»؛ فأسرع إليه شيبة وقال له: «من أنت يا هذا، فقد مال قلبي إليك، وأظنك أحد عمومتي»؛ فقال له: «أنا عمك المطلب!»؛ ثم ضمه إلى صدره وأسبل عبرته، وجعل يقبله وهو يقول: «يا ابن أخي، أحب أن تمضي معي إلى بلد أبيك وعمومتك، وتكون في دار عزك!»؛ فأجابه شيبة إلى ذلك، وركب المطلب من ساعته وأركبه معه وسارا، فقال شيبة: «يا عم، أسرع بنا لأني أخشى أن يعلم

---

٢ ـ اللأمة (بفتح اللام وتسكين الهمزة): الدرع.

ذوو أمي وعشيرتها، فيلحقوا بنا؛ ويأخذوني قهراً، أما علمت أنه يركب لركوبها أبطال الأوس والخزرج؟»؛ قال: «يا ابن أخي في الله الكفاية من كل رزية!».

ثـم سـارا وركبـا الجـادة الكبـرى حتـى أدركهمـا المسـاء فـي «ذي الحليفة»، فنزلا وسقيا مطيتهما واستراحا، وما إن سار المطلب وشيبة قدامه على فرسه، حتى سمعا صهيل الخيل وقعقعة اللجم وهمهمة الرجال في جوف الليل، ثم وصل القوم وتبين أنهم من يهود يثرب الذين علموا بخروج شيبة مع عمهما وحدهما دون ثالث معهما، فطمعوا في قتل الفتى بعيـداً عـن ديـار أمـه وذويـه، وفـي إطفـاء نـور جبينـه المبشـر بظهـور النبي (صلعم)، فخرج إليه جماعة منهم يتقدمهم كبير منهم اسمه «دحية»، ومعه ولده «لاطية» الذي كان أكثر الجميع كيداً وغيظاً ورغبة في قتل شيبة، لأنّ شيبة كان قد شج رأسه مرة بعظم بعير.

ودار بين القوم عراك انتهى بمقتل اثنين من اليهود أولاً بسهمين أطلقهما المطلب، ثم بمقتل فارس من فرسانهم اسمه «جميع» في مبارزة بينه وبين المطلب، وأخيراً بمقتل لاطية نفسه أثناء محاولته الفرار، حين ظهر وراءهم فرسان وصلوا من ناحية يثرب.

أما الفرسان الجدد فكانوا من الأوس والخزرج يتقدمهم سلمى وأبوها، بعد أن علموا بذهاب شيبة مع فارسٍ من مكة. فلما قرب فرسان يثرب صرخت سلمى بغضب: «من الهاجم علي مرابض الأسد والخاطف من اللبوة شبلها؟»؛ فقال المطلب: «هو من يزيده شرفاً على شرفه، وعزّاً على عزه، ومن هو أشفق عليه منكم! وأنا أرجو أن يكون صاحب الحرم، والمتولي على الأمم! أنا عمه المطلب»؛ فلما سمعت سلمى كلامه قالت: «مرحباً بك، وأهلاً وسهلاً، ولكن كيف تحمله من غير أن تستأذنني في ذلك، وأنا كنت قد شرطت على أبيه أني إن رزقت منه ولداً لا ينزعني إياه وأن يقيم عندي ولا يفارقني؟!»؛ فصدقها المطلب في مقالتها، وانتهى الأمر بينهما إلى تخيير شيبة بين الرجوع إلى يثرب مع أمه، والمضي إلى مكة مع عمه.

شيبة الحمد، عبد المطلب، يفضل الانتقال إلى ديار أبيه وأعمامه

عند ذلك أقبلت سلمى على ولدها تعاتبه قائلة: «يا ولدي خرجت مع عمك وتركتني؟!»؛ إلى أن قالت: «إن أردت أن ترجع معي فارجع، وإن اخترت عمك فامض راشداً»؛ فأطرق شيبة رأسه إلى الأرض حياءً من أمه، ولم يردّ عليها بشيء، فقالت له أمّه: «يا بني لمَ سكتَّ، وأنت طلق اللسان جريء الجنان؟ فوحق أبيك إني لا أمنعك عن شهوتك، وإن عزَّ علي فراقك يا روحي ومهجة قلبي!»؛ فرفع شيبة رأسه وقد خنقته العبرة يقول: «يا أماه، أخشى مخالفتك لأنه محرم عليّ عصياني لك، ولكني أحب مجاورة بيت ربي، والنظر إلى عمومتي وعشيرتي، فإن أمرتِني بالمسير سرتُ، وإلاّ رجعتُ»؛ فعند ذلك ازدادت سلمى في البكاء والنحيب، ثم قالت له: «إذا كان كذلك، فقد سمحت لك برضى مني، وإن كنت مستأنسة بغرتك؛ فلا تنسني يا ولدي، ولا تقطع أخبارك عني»؛ ثم ضمته إلى صدرها تشمه وتقبله وتودعه، وقد ارتجفت جوارحها واضطرب قلبها وجوانحها، والقوم في بكاء وعويل، رقةً عليهما.

ثم توجهت إلى المطلب قائلة له: «يا ابن عبد مناف، قد سلمت إليك الوديعة التي استودَعَنيها أخوك هاشم بالعهد والميثاق، فاحتفظ بها، فإذا بلغ ولدي مبالغَ الرجال، ولم أكن حاضرة، فانظروا بمن تزوجونه»؛ فقال المطلب: «تكرمتِ بما فعلتِ وأجملتِ في ما صنعتِ، ونحن لا ننسى حقك ما حيينا!»؛ ثم عطف عليها يودعها، فقالت سلمى: «خذوا من هذه الثياب والخيل ما تريدون»؛ فشكرها المطلب، وأردف ابن أخيه وسارا.

فلما قربا من مكة، أضاءت شعابها، وأنارت الكعبة من ناصية شيبة ونور جبهته، وأقبل الناس ينظرون إليه، وإذا هم بالمطلب قد أردفه معه وجبينه يضيء كالبدر، فسألوه عنه مندهشين مُعْجَبين متعجبين قائلين: «من هذا يا ابن عبد مناف الذي قد أضاءت به البلاد؟»؛ فقال لهم المطلب: «هذا عبد لي!»؛ فقالوا: «ما أجمل هذا العبد!»؛ فمن ذلك سماه الناس «عبد المطلب».

وأقبل إلى منزله وكتم أمره، وقد عجب الناس منه ومن نوره، وهم لا يعلمون أنه ابن هاشم أخي المطلب؛ وظهرت له آيات ومعجزات كثيرة، وكانت قريش تتبرك به، فإذا أصابتهم مصيبة، أو نزلت بهم نازلة، أو دهمهم طارق، أو نزل بهم قحط، توسلوا بالنور المتلألىء بين عيني شيبة، وهو نور خاتم الأنبياء (صلعم)، فيكشف الله عنهم ما كان نزل بهم؛ وكان من تلك الطوارق التي نزلت بهم، واقعة أصحاب الفيل.

قصة أصحاب الفيل

وكانت أعجب نازلة نزلت بقريش وأهل مكة، وأعظم آية ظهرت لهم، وكان سببها أن جماعة من أهل مكة نزلوا بأرض الحبشة في تجارة لهم، فدخلوا كنيسة من كنائس النصارى، وأوقدوا بها ناراً يصطلون عليها ويصلحون بها طعامهم، ثم رحلوا ولم يُطفئوها. وحدث أن هبت ريح فأحرقت جميع ما في الكنيسة، فلما عرف بذلك أهلها هاجوا وماجوا وملئوا بأجمعهم غيظاً وغضباً، واضطربت البلدة بأهلها.

ملك الحبشة يقسم على حرق الكعبة

ثم بلغ الخبرُ ملكَهم «النجاشي»، فغضب غضباً شديداً، وأمر فحققوا في سبب الحريق، وبعد البحث والتحري، عرفوا أن ذلك لم يكن إلاّ من تجارٍ مِن عربِ مكة، فحلف الملك يقول: «لأحرقن معبدهم كما أحرقوا معبدنا!»؛ ثم أرسل وزيره «أبرهة بن الصباح»، وأرسل معه ألوفاً من المقاتلين[١] ومجموعة من الفِيَلَةِ[٢] المدربة للحرب، وقال له: «امض إلى كعبتهم وانقضها حجراً حجراً، وارمها في بحر جدة، واقتل رجالهم ولا تترك منهم أحداً، وانهب أموالهم وذراريهم»؛ ثم أمر المنادي أن ينادي في الجيوش بالمسير.

فسار بهم أبرهة ـ وكنيته «أبو يكسوم» ـ وجعل في مقدمة الجيوش

---

١ ـ وصل بهم بعض الروايات إلى مئة ألف مقاتل.

٢ ـ اختلفت المصادر في عدد الفيلة فبعضهم عدها أربع مئة فِيل، وبعضهم جعلها ثلاثة عشر فيلاً فقط.

رجلاً من أكابر مملكته يقال له «الأسود بن مقصود»[٣]، وأمره بالمسير أمامه ومعه عشرون ألف فارس، وقال له: «امض بمن معك، وانزل مكة وخذ رجالها ونساءها، ولا تقتل منهم أحداً حتى آتيك، فإني أريد أن أعذبهم عذاباً شديداً لم يُعذَّبْ به أحدٌ من العالمين». فسار الأسود بجيشه سيراً عنيفاً يقطع الفيافي والقفار، ويجوز السهول والوعار، ولم يقر ولم يقروا ولم يهدأ ولم يهدأوا حتى نزلوا قرب مكة.

هرب أهل مكة من جيش الحبشة

أما أهل مكة فإنهم لما بلغهم أن أصحاب الفيل قد قصدوهم، وأن ملكهم حلف أن يحرق معبد العرب، جمعوا أموالهم وأهاليهم ودوابَّهم، وهموا بالخروج من مكة هاربين؛ فجمعهم عبد المطلب ينهاهم عن ذلك ويقول: «يا قوم! أيجمل منكم هذا؟ إنه لعار عليكم خروجكم عن كعبتكم! وإن الكعبة لا يصلون إليها، فإن لها مانعاً يمنعهم وصاداً يصدُّهم عنها، فإن أنتم التجأتم إليها واعتصمتم بها، فهو خير لكم»؛ ولكن القوم لم تطمئن قلوبهم إلى كلامه، وغلب عليهم الخوف والفزع، إلى أن خرجوا هاربين يطلبون الشِعاب والجبال، بل منهم مَن ركب البحر. وكانوا قد عرضوا عليه الهرب معهم ولكنه أَبَى ذلك قائلاً: إني أستحيي من الله أن أهرب عن بيته وَحَرمه! فوالله لا أبرح مكاني ولا أَنْأَى عن بيت ربي، حتى يحكم الله بيننا!»، إلى أن لم يبق يومئذٍ بمكة إلاّ عبد المطلب وأقاربه وقليلون وهم غير آمنين على أنفسهم. فلما نظر عبد المطلب إلى الكعبة ورآها خاليةً وديارَها خاوية، أخذته الوحشة وأقبل يناجي ربه قائلاً: «اللهم أنت أنيس المستوحشين ولا وحشة معك، فالبيتُ بيتُك، والحرَمُ حرمُك، والدار دارك، ونحن جيرانُك، تمنع عنه من تشاء، ورَبُّ الدار أولى بالدار!».

وأقام الأسودُ بن مقصود بجيشه خارجَ مكة، إلى أن لحقه أبرهةُ بسائر الجنود ومعهم الفِيَلة المخيفة، فكدَّروا المياه، وأفسدوا المراعي،

---

٣ ـ بعض المصادر يسميه ابن مقصود (بالقاف) وبعضها يسميه ابن مفصود (بالفاء).

وسدُّوا المسالِكَ والفِجاج. وكان قد نفد ما عندهم من الزاد، وغلب عليهم الجوعُ والعطش، وشكُوا ذلك إلى أبرهة، فأمر فريقاً منهم بدخول مكة، وسَوْقِ ما يجدون فيها من المواشي، ونَهبِ ما فيها من المأكول والمشروب. وبادر القوم إلى ذلك، فساقوا ما فيها من المواشي وفيها مئتا ناقة لعبد المطلب، فلما علم عبد المطلب بذلك لم يتضجر على ما نهبوه منه ولم يظهر منه على ذلك غير السكون والوقار والصبر والشكر، وقال: «الحمد لله! هي مال الله، وضيافةٌ لأهلِ بيته وزُوّاره وحُجّاجه، فإن أخذها فهي له، وإن ردّها إلينا فهي إحسانه، وهي عارية عندنا».

عبد المطلب يخرج لمقابلة قائد الأحباش

ثم لبس قميصه، وتردى برداء لُؤَي، وتحزَّم بِمِنطقة إبراهيم الخليل (ع)، وتنكَّب بقوسِ اسماعيل (ع)، واستوى على مطيته، وعزم على الخروج إلى أبرهة؛ فقام إليه أقاربه يمنعونه عن ذلك ويقولون له: «أين تريد؟»؛ قال: «إلى هذا الرجل الظالم الذي أخذ مال الله عز وجل، وتعرض لِحَرَم الله تعالى»؛ قالوا: «ما كنا بالذين نطلق سبيلك تمضي إليه، لأنّ هذا مثل البحر، مَن دخله غرق؛ وأنتَ اعتصمتَ برب الكعبة، واعتصمنا معك ورضينا لأنفسنا ما رضيتَ لنفسك. أما الخروجُ من الحَرَم إلى شرِّ الأُمم، فلا نسمح لك بذلك»؛ قال: «يا قوم، إني أعلم من فضل ربي ما لا تعلمون، فخلّوا سبيلي، وإني سأرجع إليكم عن قريب إن شاء الله تعالى»؛ إلى أن خرج تسير به مطيته كالريح الهبوب.

ولما أشرف على القوم نظروا إليه من بعيد، فإذا هو كالبدر إذا بدا، والصبح إذا أسفر، إلى أن قرب منهم، ودهِشوا برؤية غرته ونور جبهته، فتقدموا إليه وقد حبس الله أيديهم عنه، وقالوا له: «مَن أنتَ أيها الرجلُ الجميل الطلعة المليحُ الغرة؟ من أنت يا ذا النور الساطع والضياء اللامع؟ فإن كنت من هذه البلدة نسألك أن تبعد عنا شفقة منا عليك»؛ فقال: «إني أريد الملك»؛ قالوا: «إن ملكنا قد أقسم بمعبوده أن لا يترك من قومك أحداً»؛ قال عبد المطلب: «إني قد أتيته قاصداً»؛ فتصارخَ القوم وقال بعضهم لبعض: «ما رأينا مثل هذا الرجل في الجمال والكمال، إلاّ أنه

ناقص العقل! نحن نقول إن ملكنا قد أقسم بمعبوده أن لا يترك أحداً من أهل هذه البلدة، وهو يقول لابد لي منه»؛ إلى أن بلغ الخبرُ ملكَ الحبش وقيل له: «قد قَدِم إلينا رجل من أهل مكة صِفَته كذا وكذا، يريد الوصول إليك من غير فزع ولا خوف»؛ فغضب الملك من ذلك وقال: «عليّ به، فوَحقِ ما أعتقده من ديني، لو سألني أهلُ الأرض بأجمعهم في أهل هذه البلدة يَشفَعُون إليَّ فيهم، ما أجبت لهم سؤالاً ولا قبلت لهم شفاعةً!»؛ وأقبل القوم إلى عبد المطلب ليقبضوا عليه ويأتوا به إلى قائدهم، فقال لهم: «إني قادم بنفسي إليه».

وكان في جملة الفِيَلَة مع القوم فيلٌ للملك شديدُ البأس قوي البطش عظيم المراس، يقال له «المذموم»[٤] يؤتى به في الحروب، وكانوا إذا أطلقوه للقتال ارتج واحمرَّت عيناه وهجم على كل مَن لقيَهُ حتى يهلكه، فأمر الملك به فأُحضِرَ بين يديه. وكانوا قد ركّبوا على رأسه قرنين من حديد لو نطح بهما جبلاً راسياً لألقاه، وعلقوا على خرطومه سيفين هنديين يضرب بهما يميناً وشمالاً، فقال لسيّاسه: «إذا رأيتموني أشرت إليكم عند دخول هذا المكي، فأطلقوه عليه حتى يدوسه بكلكله»؛ فأوقفوه واصطفوا خلفه ينتظرون أمر الملك. ثم أمر الملك جلاوزته أن يشهروا السلاح ويجرّدوا السيوف ويصطفوا على جانبيه، وجلس هو على سرير الملك، وقد جعل التاج على رأسه، وشدَّ المنطقة على جنبه ثم أمر بإدخال المكي.

الفيل يجمد أمام عبد المطلب

فلما أقبل عبد المطلب، مرَّ على صفوف السُيَّاس من غير اهتمام ولا التفات إلى أحدٍ منهم، إلى أن دنا من الملك وهو ممتلىء غيظاً وغضباً، فأشار الملك إلى السياس بإطلاق «المذموم» عليه، فأطلقوه ـ وكان مُعلَّماً ـ ووجهوه نحو عبد المطلب، فأقبل مهرولاً نحوه حتى دنا منه؛ فلما

---

٤ ـ جاء في عدد من المصادر أن اسمه كان «المحمود» ولعل الاسم الوارد هنا ـ أي «المذموم» ـ أطلقه بعضهم بعد معركة الفيل، عكساً لاسمه الأول، وتنديداً بالذين أطلقوا الاسم على الفيل ورداً لتفاؤلهم به.

نظر إليه، توقف فجأة، ثم سكن ارتجاجه وهدأ ما كان به من الغضب والبسالة والغيظ والشجاعة، فدهش الملك وأصحابه من ذلك، وملأ الله قلبه خوفاً ووجلاً، ولم يملك نفسه دون أن قام إلى عبد المطلب، وأقبل عليه يلاطفه ويُرحب به حتى أجلسه إلى جانبه، وراح يسأله عن اسمه ونسبه وحاجته، ويقول له في جملة كلامه «إنني ما رأيت أجمل منك وجهاً، ولا أحسن منك بهجة، وإن لك عندي ما سألت، حتى لو سألتني الرجوع عن بلدك لفعلت»؛ فقال له عبد المطلب: «لا أسألك في شيء من ذلك! إلاّ أن قومك أغاروا علينا وأخذوا لي مئتي ناقة كنت أعددتها للحجاج الذين يقصدوننا من جميع النواحي، فإن رأيتَ أن تردَّها عليّ فافعل»؛ فتغيظ الحبشي من ذلك وقال له: «لقد سقطت من عيني! لقد جئتُ لهدم شرفك وشرف قومك ومكرمتكم التي تتميزون بها من كل جيل، وهو البيت الذي يُحَج إليه من كل صقع في الأرض، فتركتَ مسألتي في ذلك، وسألتني في سرحك؟!»؛ فقال عبد المطلب: «لستُ بربّ البيت الذي قصدتَه لهدمه، وإنما أنا رب سَرحي الذي أخذه أصحابك، فجئت أسألك في ما أنا ربه؛ أما البيت فله رب هو أمنع له من الخلق كلهم، وأولى به منهم!»؛ فأمر الملك بردّ سرحه وقال: «اعلم يا عبد المطلب أني أخرج على أثرك بجنودي ورجالي، فأخرب الكعبة ونواحيها وأقتل سكانها»؛ فقال له عبد المطلب: «إن قدرت فافعل»؛ ثم قام وانصرف.

أبرهة الحبشي يأمر الجنود بالزحف على مكة

فدعا أبرهة خاصته ليتذاكروا في أمر عبد المطلب وما شاهدوه من جرأته وكرامته، وقال لهم: «والله لقد وقع لهذا الرجل في قلبي هيبة عظيمة، ولكن أشيروا عليّ في ما جئنا له وهممنا به من تخريب الكعبة معبدهم، وهدم بلدتهم»؛ فاختلفت آراء القوم في ذلك، ثم اتفقت كلمتهم على تنفيذ ما هموا به وقصدوه من حملتهم، قائلين: «لابد لنا أن نسير إلى مكة فنخربها ونرمي أحجارها في بحر جدة»؛ فأمر أبرهة عندئذٍ الجموع والجيوش ببدء الزحف إلى مكة.

أما عبد المطلب فإنه بعد أن استلم نياقه رجع بها إلى مكة، فلما قَدِمَها تلقته أقاربه وعشيرته يهنئونه بسلامته بعد يأسهم منه، ويقبلون يديه ويقولون: «الحمد لله الذي حماك وحفظك بهذا النور الحسن!» ثم سألوه عن الجيش فأخبرهم بقصته. وتقدم إليه سائر الناس يستشيرونه في أمرهم قائلين له: «ما الذي تأمرنا به؟»؛ قال: «يا قوم اخرجوا إلى جبل أبي قبيس، حتى ينفذ الله حكمه ومشيئته»؛ فخرج القوم إليه بأولادهم ونسائهم ودوابهم، وخرج عبد المطلب وتبعه بنو عمه وإخوته وأقاربه إلى «الصفا» أولاً يدعو ربه ويبكي ويتوسل إليه بنور محمد (صلعم) ويقول: «يا رب، إليك المهرب، وأنت المطلب، أسألك بالكعبة العليا ذات الحج والموقف العظيم المقرَّب، يا رب أرمِ الأعادي بسهام العَطَب، حتى يكونوا كالحصيد المنقلب!»؛ ثم رجع بمن معه إلى باب البيت حتى انتهى إليه، وأخذ بحلقته يقول:

لاهُمَّ إنَّ ٱلْمَرْءَ يَمنَعُ رَحْلَهُ فَٱمْنَعْ رِحالَكْ[٥]
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُمْ ومِحالُهُمْ غَدْواً مِحالَكْ
إن كنتَ تارِكَهُمْ وكعبتَنا فأَمْرٌ ما بدا لَكْ
جَرُّوا جميعَ جُنودِهِمْ والفيلَ كي يَسْبُوا عِيالَكْ
عَمَدُوا حِماكَ بِكَيْدِهِمْ جهلاً وما رَهِبوا جَلالَكْ
فَٱنصُرْ على آلِ الصليبِ وعابِديهِ اليومَ آلَكْ

ثم أنشأ يقول:

يا ربِّ لا أرجُو لَهُمْ سِواكا ... يا ربِّ فَٱمْنَعْ مِنْهُمُ حِماكا
إنَّ عدوَّ البيتِ مَن عاداكا ... إِمْنَعْهُمُ أن يَخرِبُوا قُراكا

وإذا بهاتف يُسمَع صوته ولا يُرَى شخصه يقول: «أجيبت دعوتك وبلغتَ مسرَّتك، إكراماً للنور الذي في وجهك!» فنظر يميناً وشمالاً ولم ير أحداً، فجعل ينادي قومه وهم على جبل أبي قبيس قد نشروا شعورهم

---

٥ ـ وفي رواية: «حِلالك» (بكسر الحاء) أي القوم الحلول قرب بيتك، والحلال أيضاً: المتاع.

يبتهلون بالدعاء، وبعث إليهم يبشرهم بما سمع من الهاتف ويقول لهم: «ابشروا، فإني رأيت النور الذي في وجهي قد أضاء وعلا، وهو كاشف لما طرقكم من الهم»؛ ففرح القوم واستبشروا بذلك؛ وسكن بعض ما بهم من الجزع والفزع.

وبينما هم يتداولون في همهم والخطر المحدق بهم، ظهر في الأفق البعيد سواد يتحرك، ثم يتقدم ويكبر حتى انكشف عن جنود وفيلة وأسلحة، ثم وضحت الجيوش أكثر وتقاربت الصفوف، ولاح لهم بريق الأسنة إلى أن قربوا منهم، ثم انكشف الغبار عن الفِيَلَة ومَن معها من السياس، يقدمها الفيل الأعظم المذموم كأنه الجبل العظيم، وقد ألبسوه الحديد وزينوه بأحسن زينة، فاشتد قلقهم وانهملت عبراتهم، وإذا بمنادٍ ينادي: «يا أهل مكة، أتاكم أهل عكة[٦]، بجحفل[٧] جرار، يملأ الأندار[٨] مِلْءَ الجفار[٩]»؛ فأنشد عبد المطلب يقول مجيباً إياه:

أيها الداعي لقد أسمَعْتَني ... كلَّ ما قلتَ وما بي مِن صَمَمْ
إنَّ لِلبيتِ لَرَبّاً مانِعاً ... مَنْ يُرِدْهُ بِأَثامٍ يُصْطَلَمْ[١٠]
رامَهُ «تُبَّعُ» في أجْنادِهِ ... «حِمْيَرٌ» والحيُّ مِن آل «إرَمْ»[١١]
هلكَتْ بِالبَغْيِ فيهِمْ «جُرْهُمٌ» ... بَعدَ «طَسْمٍ» و«جَدِيسٍ» و«جُشَمْ»[١٢]
وكذاكَ الأمرُ في مَن كادَهُ ... ليس أمرُ اللّهِ بالأمر الأَمَمْ
نحن آلُ اللّه في ما قد خلا ... لم يزل ذاك لنا مُذْ «أبْرَهَم»
نعرفُ اللّهَ وفينا شيمةٌ ... صِلَةُ الرَحْمِ ونوفي بالذِمَمْ
لم يَزَلْ للّه فينا حُجَّةٌ ... يدفعُ اللّهُ بها عنا النِقَمْ

---

٦ ـ عَكة: حرارة شديدة، لهيب...
٧ ـ جحفل: جيش كبير.
٨ ـ الاندار: الاماكن البارزة، الأراضي المرتفعة.
٩ ـ جفار: الآبار الواسعة (جمع جَفر).
١٠ ـ يُصطَلَم: يُقلع من أصله، يُستأصل.
١١ ـ تبع: اسم ملِك يمني قديم؛
١٢ ـ جرهم وطسم وجديس وجشم: قبائل ـ وحمْيرَ وإرَم: قبيلتان.

ولنـــا فـــي كـــلِّ دَورٍ كَـــرَّةٌ   عَـرَفَتْنـا العُـرْبُ طُـراً والعَجَـمْ
فـــإذا مـــا بلـــغَ الـــدورُ إلـــى   مُنتَهَـى الـوقـتِ إذا الحقُ قَـدِم
بكتـــابٍ فُصِّلَـــتْ آيـــاتُـــهُ   فيـه تِبيـانُ أَحـاديـثِ الأُمَـم

الفيل الأكبر يتوقف عن التقدم نحو مكة

فما كاد يتم نظمه وكلامه حتى ركز الفيل الأعظم في الأرض، ووقف بلا حراك كأنه جماد، وتبعه على ذلك ما وراءه من الفيلة، فصرخ الفيَّالةُ ونهروها فلم يُؤثّروا فيها بشيء، ولم تتحرك من موقفها حتى ولا بقدر خطوة، فدهشوا من ذلك وأخبروا به أميرهم الأسود بن مقصود، فأمرهم بزجرها وضربها أكثر، فبادروا إلى ذلك بعنف وشدة، وازدادوا في زجرها، فلم يزدد الفيل الأعظم إلاّ امتناعاً عن التقدم والحركة، إلى أن عطفوا برأسه نحو اليمن، فهرول راجعاً؛ فأخذوه وردُّوه، فوقف راكزاً كما كان من غير حراك، ثم عطفوا برأسه ثانياً فأقبل يهرول في مشيته، حتى فعلوا به ذلك مراراً، فازدادوا عجباً ودهشة حتى جعل أميرهم الأسود يقول: «إنهم قد سحروا فيلكم».

وشاع الخبر في الجند فدهشوا وتوقفوا عن الحركة حتى بلغ أيضاً قائدهم أبرهة بن الصباح، فغلب عليه الفزع والخوف؛ وكان له غلام ذو خلقة هائلة يقال له «الحناط الحميري»، كان فارساً شجاعاً يهزم بمفرده الجيوش العظيمة، وكان مُهاباً ومعجباً بنفسه، فبعثه أبرهة إلى الأسود بن مقصود يقول له: «ليس من قد جَرَّب كمن لم يجرب! ابعث من عندك رسولاً إلى أهل مكة يسألهم الصلح، ولا يخبرهم بأمر الفيل، كي لا يطمعوا فينا، واجعل في قرار الصلح معهم أن يدفعوا إلينا رجالاً نقتص منهم على ما أفسدوا في كنيستنا، وأن يقوموا بالخسائر، فإن أجابوك إلى ذلك رجعنا عنهم»؛ فانصرف الحناط مسرعاً حتى انتهى إلى الأسود وبلَّغه مقالة أبرهة، فقال له الأسود: «هل لك أن تكون أنت الرسول إليهم؟ فعسى أن يكون الصلح على يديك!»؛ فقال الحناط: «حبّاً وكرامة! وها أنا سائر إليهم؛ فإن أجابونا وصالحونا على ما نشترط عليهم، وإلاّ رجعت برؤوسهم».

رسول ابرهة للصلح مع أهل مكة

وقام من حينه فتوجه نحو مكة منفرداً مسرعاً ومعجباً بنفسه وشجاعته، إلى أن قدمها ولقي جمعاً من أهلها فيهم عبد المطلب، فسألهم عن سيد قريش، فأشاروا إلى عبد المطلب، فتوجه إليه ينظر في وجهه وقد دهش من غرته ونور جبهته، فبدأه عبد المطلب بالكلام وقال له: «ما الذي أتى بك؟»؛ قال: «إن أبرهة قد عرف فضلكم، وقد أرسلني إليكم لأقول لكم إنه سيترك لكم الحرم والبيت، مقابل أن تدفعوا إليه رجالاً يقتص منهم على ما أفسدوا في الكنيسة، وأن تقوموا له بثمن ما عدم من الكنيسة، فإن فعلتم هذا، رجع عنكم»؛ قال عبد المطلب: «أيؤخذ البريء بالسقيم؟ إنما نحن من شيمتنا الأمانة والصيانة، وإننا نقبض أيدينا عن المظالم ونصرف جوانحنا عن المآثم، فبلِّغ صاحبك عنّا ذلك؛ وأما هذا البيت، فقد سبق مني القول ان له ربّاً يمنع عنه، فوالله ما كبر عليَّ ما جمعتموه من الرجال! فإن رأى صاحبك المسير فَلْيَسِرْ، وإن أراد المُقَام فليُقِمْ!»؛ فامتلأ الحناط من كلامه غضباً وغيظاً، وهمَّ أن يبطش به، وظهر ذلك في وجهه، فلم يمهله عبد المطلب، وبادر فقبض على محزمه ومراق بطنه، ورفعه حتى جلد به الأرض وهو يقول: «وعزة ربي لولا أنك رسول لأهلكتك قبل أن تأتيَ صاحبَك»؛ ثم أطلقه، فقام الحناط من تحت يديه وقد أشرف على الهلاك كمداً وغيظاً، وتوجّه نحو معسكره وقائده الأسود.

وانصرف عبد المطلب بمن معه إلى الابتهال والدعاء والتضرع إلى الله تعالى قائلين: «اللهم ببركة هذا النور الذي وهبتنا إياه، اجعل لنا من كل همٍّ فرجاً وانصرنا على أعدائنا!»؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن ظهر من ناحية البحر سواد في الجوّ، ولما أمعنوا النظر فيه إذا هو طيور أبابيل (أي جماعات)، قد أقبلت مثل النمل والجراد حتى سدَّت الفضاء بجموعها، وأظلمت الجوَّ بكثرتها حتى صار كالليل المظلم، وهي بين خُضْر وسود، ولها خراطيم كخراطيم الفيل، وأكفّ كأكفّ الكلاب، وأنياب كأنياب السباع، ومناقير صفر وقد حمل كل منها بمنقاره وكفيه ثلاث حَصَيات كل منها أصغر من الحمصة وأكبر من العدسة، وأقبلت بأجمعها كالسحاب المتراكم حتى نزلت على جبل أبي قبيس.

وأما ما كان من أمر الحناط، فإنه لما انتهى إلى الأسود وأعلمه بما كان من أمره، أخذ يحرّضه على دخول مكة وقتل أهلها، وقال له: «إن هؤلاء قوم قد حلت دماؤهم، والرأي عندي أن لا تراسل القوم بعد هذا، وأن تأمر الجيوش بالزحف عليهم وتعجل في ذلك، فإن مكة خلية من أهلها، فأسرع إلى الغنيمة»؛ إلى أن وافقه الأسود على ذلك ونادى مناديه في الجيوش يأمرهم بالزحف نحو مكة.

طير أبابيل تصرع الجنود الأحباش

فسار الجند بأسلحتهم وعُدَدهم وفِيَلتهم وخيولهم وجعلوا يتقدمون حتى قربوا منها، وإذا بالطيور الأبابيل في الجوّ قد طارت من على الجبل، وأقبلت كالخطاطيف نحو الكعبة المعظمة حتى انتهت إليها، فطافت بها سبعاً، ثم انصرفت نحو الصفا والمروة وطافت بينهما سبعاً، ثم ارتفعت في الهواء، وامتدَّت على مساحة جنود الجيش الحبشي وانتشرت فوق رؤوسهم بالطول والعرض، واستبشر عبد المطلب وأصحابه بذلك، وخرج ينادي برفيع صوته يقول: «يا أهل مكة، اخرجوا إلى المعسكر وخذوا غنائمكم»؛ وتبعه ابنه الحارث، ولم يكن له يومئذٍ من البنين غيره.

وأما العساكر والجيوش، فغلب عليهم الخوف والفزع، يقول بعضهم لبعض: «ما هذه الطيور التي لم نَرَ مثلها قبل اليوم؟»؛ إلى أن نادى فيهم الأسود يسكّن رَوْعَهم وقال لهم: «ما عليكم منها بأس، فإنها طيور تحمل الرزق لأفراخها»؛ ثم قال: «علي بقوسي ونبلي كي أردَّها عنكم»؛ ولما تناول القوس وهمَّ بالرمي، تصارخت الطيور وهاجت وماجت وولولت، بعد ما كانت مصطفة في الهواء ساكتة مستقرة كالسقف فوق رؤوسهم قد تلاصقت أجنحتها بعضها ببعض، ثم إذا بنداء من السماء: «أيتها الطيور المطيعة لربها افعلي ما أُمِرْتِ به، فقد اشتد غضب الجبار على الكفار»؛ فبدأت ترمي الحصباء التي في أفواهها وأرجلها على رؤوس القوم، تنثرها على هاماتهم كقطر الأمطار وبأسرع من البرق الخاطف، فأخذوا يهربون يميناً وشمالاً جَزِعين حَيارَى، وجعلت الطيور تتبعهم لا تحول عنهم ولا تزول، فكانت الحصى تنزل على رأس كل منهم وعلى

يافوخه لا يردّها عنه دَرَقة[١٣] ولا حديد، فيخرُّ على الأرض ميتاً، وكان أول من أصابه ذلك هو الحناط، ثم الأسود، ثم سائر الجموع، وهم يتساقطون على الأرض صرعى كورق الأشجار اليابسة عند هبوب الرِّياح العاصفة.

وكان فيهم رجل من حضرموت له في بلاده أخ كان قد امتنع عن الخروج معه حين دعاه إلى المسير مع القوم، وأبى ذلك إباءً شديداً وقال: «ما أنا ممن يتعرض لبيت الله تعالى!»؛ فلما نزل العذاب على القوم، هام الحضرمي على وجهه، وخرج هارباً يجدُّ السير فوق رأسه طير من تلك الطيور يتبعه، إلى أن قدم على أخيه الممتنع عن الخروج يعلمه بما نزل بالقوم، وبما حلّ بهم من العذاب، ويصف له الطيور، ثم إذ رفع طرفه نحو السماء، رأى الطير فوق رأسه، فأشار إليه يعرّف أخاه به قائلاً: «وهذا منها، وهي كلها على صفته وهيئته»؛ فلم يتم حديثه حتى رماه الطير بحصاة على هامته أوقعته صريعاً ميتاً، ودهش أخوه من ذلك حتى صارت فرائصه ترتعد رعباً إلى أن غاب عنه الطير.

أَبرهة يُوَلِّي هارباً

وأما أبرهة فإنه لما رأى ما نزل بقومه، وأن جموع الفيل قد ولّت هاربة في البيداء، ولى هارباً هو أيضاً على وجهه، يشد على راحلته في السير كالطير المنقض على فريسته، وقد أصابته الرعدة وغلب عليه الجزع والفزع، والطير فوق رأسه يتبعه يميناً وشمالاً، إلى أن قطع بعض الطريق فتراخت أعضاؤه. ثم قدم على قوم فنزل عندهم، وأخذ يحدثهم بما جرى على قومه وعساكره، فلم يتم حديثه حتى سقطت يده اليمنى، ثم اليسرى، ثم رجله اليمنى، ثم اليسرى، ثم رماه الطير بالحصاة كسائر أصحابه فخرّ على الأرض هالكاً؛ وفي ذلك كله قول الله عز وجلّ لنبيه الكريم (صلعم): ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل﴾... الخ.[١٤]

---

١٣ ـ درقة: ترس، مِجَنّ، اداة حراسة وحماية في الحروب البدنية.

١٤ ـ القرآن الكريم، ج ٣٠، س ١٠٥ الفيل: ١ ـ ٤.

ولما رأى أهل مكة ما حلّ بالقوم رجعوا إلى منازلهم فرحين مستبشرين، ثم خرجوا إلى معسكر القوم، فرأوا جثثهم منثورة تملأ الصحراء وقد هلكوا عن آخرهم، فغنموا أمتعتهم ونهبوا أموالهم؛ ثم أمر عبد المطلب بدفن الجثث، وأيقنوا بأجمعهم أن تلك الكرامة والآية الظاهرة لم تكن إلاّ من نور النبوة (ص) المتشعشع من غرّة عبد المطلب (ع).

ثم كانت بعد ذلك قصة بئر زمزم وحفر عبد المطلب لها.

قصة بئر زمزم
وحفر عبد المطلب لها

وهي البئر التي أخرجها الله تعالى لإسماعيل (ع)، حينما أتى به أبوه إبراهيم الخليل (ع) بأمر من الله سبحانه وهو رضيع في حجر أمه هاجر (ع)، فألقاهما في الموضع الذي فيه البئر الآن من المسجد الحرام، وهو يومئذٍ موضعٌ قفرٌ وحش لم يكن فيه ماء ولا كلأ ولا انس ولا طير؛ ولما انصرف الخليل (ع) عنهما، وغلب العطش على الرضيع، جعل يضرب الأرض بكعب رجله ويصرخ من شدَّة العطش، فنبعت له بقدرة الله تعالى من تحت عقبه عين ماء تفور، فصارت أمه هاجر (ع) تجمع التراب حول الماء محافظةً عليه، ولكن الماء ازداد حتى خافت هاجر على نفسها وولدها من الفيض، فقالت له بالعبرانية «زمزم» ـ بمعنى «توقف» بالعربية ـ فتوقف الماء عن الازدياد، وسمي الماء بنداء هاجر (ع) له أي «زمزم»، وهو الموجود المعروف حتى اليوم في المسجد الحرام تجاه الكعبة المعظمة.

بئر «زمزم» طُمِرت بعد عصر الخليل(ع)

ثم إن العين المذكورة طُمِرَتْ بعد عصر الخليل (ع) بالتراب حتى لم يبق لها أثر، وخفي موضعها، إلى أن كان عصر عبد المطلب (ع). فقد حدث أن عبد المطلب (ع) أقبل ذات يوم إلى حجر إسماعيل (ع) عند الكعبة المعظمة ونام فيه، فأتاه آتٍ في المنام يقول له: «احفر طيبة»؛ فقال: «وما طيبة؟»؛ فلم يردّ عليه القائل شيئاً وغاب عنه. وأفاق عبد المطلب من نومه ولم يعبأ بما سمعه، فلما كان اليوم التالي رجع إلى

موضعه من الحجر ونام فيه، فرجع إليه الهاتف يقول له: «احفر برة»؛ فسأله أيضاً عن معنى ذلك ولم يسمع منه جواباً. وهكذا حدث في اليوم الثالث، فقد نام في موضعه من الحجر، وأتاه الهاتف في المنام يقول له: «احفر مصونة»؛ وسأله عنها فلم يسمع منه جواباً؛ إلى أن كان اليوم الرابع، ورأى الهاتف في المنام يقول له: «احفر زمزم»؛ وسأله عنها فأجابه الهاتف: «إنها عين لا تنزف أبداً، وتسقي الحجيج الأعظم»؛ ثم عرّفه موضع العين.

ولما أفاق عبد المطلب من نومه انصرف إلى بيته، وتناول معولاً له، ثم اصطحب معه ابنه «الحارث»، وأتيا الموضع وجعلا يحفرانه، فحفرا وأمعنا إلى أن خرجت عليهما من إحدى جوانب البئر رائحة منتنة أقطعتهما، فخرج الحارث، وبقي أبوه عبد المطلب يحفر وحده حتى حفر ذراعاً فخرجت عليه رائحة المسك. ثم غلب عليه النعاس، فنام ورأى في منامه رجلاً طويل الباع، حسن الشعر، جميل الوجه، جيد الثوب، طيب الرائحة، جعل يحرّضه على الحفر وقال له: «احفر تَغْنَم، وجِدَّ تسلم»؛ إلى أن قال له: «أنت أعظم العرب قدراً، ومنك يخرج نبيُّها ووليُّها والأسباطُ النجباء الحكماء العلماء والبصراء والسيوف لهم، بهم ينير الله الأرض، ويخرج الشياطين من أقطارها، ويذلها بعد عزِّها، ويهلكها بعد قوّتها، ويذل الأوثان ويقتل عُبَّادها. . .»؛ فاستيقظ عبد المطلب مدهوشاً وجدَّ في الحفر، فوجد بعد فاصلةٍ ثلاثة عشر سيفاً فأخذها، وهمَّ بعدئذٍ أن يعرض عن الحفر لأنه كاد ييأس من اكتشاف الماء، ولكنه عاد فتراجع، ثم جعل يشجع نفسه قائلاً: «كيف ولم أبلُغِ الماء؟»؛ ثم تابع إلى أن حفر مقدار شبرٍ، فبدا له قرن غزال من ذهب. ثم جدَّ في الحفر وقد تشجع بذلك، فوجد بعدئذٍ غزالين من ذهب. ثم تابع أيضاً الحفر، وفجأة ظهر له الماء ووصل إلى النبع.

وكانت السيوف والغزلان الذهبية قد دفنها هناك حي من اليمن يسمون «جُرْهُم»، وكان مجمل قصتهم أنهم توصلوا إلى ولاية الكعبة في عصر «عدنان» الجدّ الخامس عشر من آباء رسول الله (ص)، بعدما كانت الولاية قبله في أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل (ع)، خَلَفاً عن سلف،

يتولونها كابراً عن كابر. ولكن أبناء «جرهم» ما لبثوا أن بغوا بمكة، واستحلوا حرمتها، وظلموا أهلها، وأكلوا أموال الكعبة ـ وكان رئيسهم عمرو بن الحارث بن مصاص ـ ولما بالغوا في العتوّ والبغي، أذلّهم الله تعالى، وبعث عليهم النمل، وأخذهم بالرعاف[1]، حتى هلكوا وفنوا ولم يبق منهم في مكة إلاّ شرذمة قليلة. وكانت مكة تسمى عند العرب «بكة»، لأنها تبكّ أعناق الباغين فيها، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿إنّ أولَ بيت وُضع الناس لَلّذي ببكةَ مباركاً...﴾[2]، وكان لا يستحل حرمتها ملك إلاّ هلك.

ثم غلبت «خُزاعة» وهم بطن من العرب على ولاية البيت، واجتمعوا على إجلاء بقية جرهم عن الحرم، فألقت جرهم الأسياف في بئر زمزم، وطمروها بالحجارة والتراب، وأخفوا أثرها.

ولم يزل البيت بيد خزاعة وهم لا يعرفون موضع زمزم، إلى أن غلب عليهم «قصي بن كنانة» وهو الجد السابع من آباء رسول الله (ص)، وأخرجهم من الحَرَم وَوَليَ البيت، ولم يزل الأمر بيده، ومنه انتقل إلى أولاده حتى انتهى إلى عبد المطلب، ولا أحد منهم يعرف موضع زمزم، إلى أن جرى لعبد المطلب ما ذكرنا من اهتدائه إليه في المنام.

بطون قريش تطلب مشاركة عبد المطلب في بئر زمزم

لما ظهرت في البئر السيوف والقرن والغزالان، ونبع منها الماء على يد عبد المطلب، حسدته بطون قريش، واجتمعوا عليه يدَّعون الاشتراك معه في البئر ومائها وما ظهر فيها من الكنز، قائلين: «هذا بئر أبينا إسماعيل (ع)، ونحن فيه شركاء»؛ وهو يأبى عليهم ذلك ويقول: «إنه أمر خصصت به دونكم»؛ إلى أن اتفقوا على جعل حَكَم يحكم بينه وبينهم، وتَراضَيا على حُكْمِ رجل من كهان الشام وعلمائها، يسمى «سعيد بن خيثمة»، وافترق الفريقان يتجهزان للمسير إليه. وانصرف عبد المطلب

---

١ ـ الرُعاف (بضم الراء): الدم الخارج من الأنف؛ وكذا: المطر الكثير.

٢ ـ القرآن الكريم، الجزء ٤، السورة ٣ آل عمران: الآية ٩٦.

نحو البيت وقد علق السيوف والقرن والغزالين على رقبته، وأخذ يطوف حول البيت ويناجي ربه وهو يقول: «اللهم صدق وعدك، فأثبت لي قولي، وانشر ذكري، وشدَّ عضدي»؛ وظل يردد قوله ذلك حتى طاف أحد عشر طوافاً، غلب عليه النعاس بعدها، فنام في الحُجْر بجانب الكعبة المعظمة، فسمع الهاتف نفسه في منامه يقول له: «يا شيبة الحمد احمد ربك! إنه سيجعلك لسان الأرض، ويُتبِعُكَ قريشاً رهبةً وخوفاً وهيبةً وطمعاً! ضع السيوف في مواضعها»؛ فاستيقظ عبد المطلب فرحاً مسروراً. فلما كان الليل ونام في بيته، رجع إليه الهاتف في المنام ومعه عدَّة رجال وصبيان يقولون له: «نحن من أتباع ولدك، ونحن من سكان السماء السادسة، السيوف ليست لك. تزوج في «بني مخزوم» تَقْوَ، واضربْ بعدُ في بطون العرب، وادفع من هذه السيوف اثني عشر إلى ولد المخزومية لأنه سيقع سيف واحد منها من يدك فلا تجد له أثراً، إذ سيخبئه جبل فيكون من أشراط قائم آل محمد (ص)»؛ فلما استيقظ عبد المطلب إذا هو قد فقد منها سيفاً كان أرق من غيره.

ثم خرج بعد ذلك مع القوم نحو الشام للتحاكم عند الكاهن، وخرج معه نفر من بني عبد مناف، كما خرج من كل قبيلة قوم من قريش، إلى أن بلغوا في سيرهم بعض مفاوز الشام، ونفد ما كان مع عبد المطلب وبني عمومته وعشيرته من الماء، وغلب عليهم العطش الشديد؛ فاستسقوا مَن معهم من الأقوام، فأبى القوم سقيهم خوفاً على أنفسهم من الهلاك عطشاً، فاستشار عشيرته في الأمر فقالوا: «ليس رأينا إلاّ تبعاً لرأيك، مرنا بما أحببت»؛ فأشار عليهم أن يحفر كل منهم حفيرة لنفسه كي يدفن فيها بعد الهلاك من العطش، فاشتغلوا بذلك ينتظرون الموت، ولكنه ما لبث أن عدل عن ذلك وقال: «والله إن إلقاءَنا بأيدينا إلى الموت لا نضرب في الأرض لعجز!»؛ وأمر عشيرته بالسير في الأرض طلباً للماء.

فنهض القوم وركبوا رحالهم، وتبعَتهم قبائل قريش ينظرون ما ينتهي إليه أمرهم. ثم تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، ولم يتقدم بها إلاّ خطوات يسيرة حتى انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فدهش من ذلك ودهش قومه، ورفعوا أصواتهم إعجاباً وحبوراً، ثم نزلوا بأجمعهم

وشربوا منها حتى ارتووا، وسقوا دوابهم وسقوا القبائل من قريش، وهم حائرون متعجبون من ذلك، ثم قالوا لعبد المطلب: «قد والله قضى الله لك علينا! والله لا نخاصمك في زمزم أبداً! إن الذي سقاك هذا الماء بهذه المفاوز، هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً مهدياً».

بطون قريش يعترفون لعبد المطلب بالتقدم عليهم

فرجع ورجعوا معه إلى مكة، ولم يصلوا إلى الكاهن، وخلوا بينه وبين زمزم والسيوف والقرن والغزالين، فنصب الغزالين على باب الكعبة، وخضع له أهل مكة، وظهر مجده وعلا بينهم شأنه، وسموه «سيد البطحاء» و«ساقي الحجيج» و«ساقي الغيث» و«غيث الورى في العام الجدب» و«حافر زمزم» و«أبو السادة العشرة». وكان يسقي الحجاج بنفسه من زمزم، ويطعم الفقراء. وسمى بئر زمزم «سقاية الحاج»، وسماها الله تعالى به أيضاً على تسمية عبد المطلب وذلك في قوله تعالى: ﴿**جعلتم سقاية الحاج...**﴾[٣].

وسنَّ عبد المطلب في الجاهلية سنناً أجراها الله تعالى في الإسلام، منها: جعل الدية في النفس مائة ناقة؛ ومنها: تحريم نساء الآباء على الأبناء بعد استحلال أهل الجاهلية لذلك، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء...**﴾[٤]؛ ومنها: إخراج الخُمس من الكنز للفقراء؛ ومنها: جعل الأشواط في الطواف سبعة، بعد أن لم يكن لها عدد خاص في الجاهلية.

وقد امتاز عبد المطلب بأنه لم يعبد صنماً قط، وكان مؤمناً موحداً لله تعالى على الشريعة التوحيدية الحنيفية التي عرفت في الجاهلية، وعلى شريعة المسيح عيسى (ع)، وملة الخليل إبراهيم (ع). وكان (ع) يقوم بخدمة الكعبة بنفسه مجتهداً في ذلك، حتى أنه كان ينام أحياناً في الحرم قرب جدارها. وحدث ذات ليلة وقد كان نائماً بجانب الكعبة المعظمة أن

٣ـ ج ١٠، س ٩ التوبة: ١٩.

٤ـ ج ٤، س ٤ النساء: ٢٢.

رأى كأنه قد خرج من ظهره سلسلة بيضاء يكاد ضوؤها يخطف الأبصار، ولها أربعة أطراف قد بلغ طرف منها أقصى المشرق، وطرف منها أقصى المغرب، وطرف ثالث منها عنان السماء، وغاص الطرف الرابع منها تحت الثرى؛ ثم رأى بعدئذٍ شجرة رفيعة تحتها شخصان عظيمان بهيان، سألهما من يكونان؟ فقال أحدهما: «أنا نوح نبي رب العالمين»؛ وقال الآخر: «أنا إبراهيم الخليل، جئنا نستظل بهذه الشجرة، فطوبى لمن استظل بها، والويل لمن تنحى عنها!»؛ فانتبه من نومه فزعاً مرعوباً، ومضى إلى بعض الكهنة يسأله عن تأويل رؤياه، فقال له الكاهن: «يا أبا الحارث، هذه بشارةٌ لك وخيرٌ يصل إليك! وإن صدقَتْ رؤياك، لَيخرُجَنَّ مِن ظهرك نبي يدعو أهل الشرق والغرب إلى دينه، ويكون رحمة لقوم وعذاباً على قوم!»؛ فانصرف عبد المطلب فرحاً مسروراً، وانتشر الخبر بذلك بين الناس.

وانتهى خبر رؤيا عبد المطلب وتعبيرها إلى أحبار اليهود في نواحي الشام، فذهبوا يتحرون ما في كتبهم من علائم لظهور النبي الذي يخرج من الأميين ويهددهم ويسفه دينهم، فأيقنوا[٥] أن هذه الرؤيا صحيحة وأنها تتعلق بذلك النبي الموعود، وغلب عليهم الفزع، وأيقنوا بالهلاك ودنوّ خروج النبي الكريم (صلعم)، واغتموا بذلك غمّاً شديداً، وبعثوا رجالاً منهم إلى مكة للتحقق من الخبر.

وهكذا كان الأمر أيضاً مع الكهان والسحرة، في أطراف الجزيرة ومختلف بلاد العرب، فإنه لما بلغهم الخبر كبر عليهم ذلك، وعظم أمر النبي (صلعم) في صدورهم خوفاً من إبطاله لكهانتهم وسحرهم.

عَدِي بن نوفل يحسد ابن عمه عبد المطلب

كذلك غلب الحسد لعبد المطلب على كثير من أكابر قريش

---

٥ ـ في بعض الروايات أن من تلك العلائم تَرَطُّب نُقَط من دم يابس على جبة عندهم كانت للنبي يحيى بن زكريا (ص)، فلما بلغهم نبأ الرؤيا، بسطوا الجبة وكشفوها، فإذا الدم اليابس عليها قد ترطب.

وطواغيت مكة وفراعنة العرب، وكان أشدُّهم حسداً وعداوة له ابن عمه «عدي بن نوفل»، فإنه كان قبل قدوم عبد المطلب صاحب منعة وبسطة، مطاعاً في قومه، فلما قدم عبد المطلب من يثرب وسوَّدهُ أهل مكة، وخضعوا له ومالت إليه قلوبهم، وسلموا إليه مفاتح الكعبة وسائر آثار العز والرياسة، وتَوَلَّى بئر زمزم وسقاية الحاج، أشرف عدي على الهلاك كمداً وغيظاً، إلى أن لقيه ذات يوم في بعض الأزقة وتطاول عليه بالكلام، وكان ذلك التطاول والكلام أصلاً وسبباً لقصة النذر المشهور من عبد المطلب بأن يذبح أحد أولاده، ومحاولته أن يذبح ابنه الأصغر عبد الله، والد النبي (صلعم) ـ (كما سنرى في الصفحات التالية).

نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده العشرة ووقوع القرعة على ابنه الأصغر عبد الله والد النبي (ص)

رُوي عن النبي (صلعم) أنه كان يقول: «أنا ابن الذبيحين»؛ والذبيحان هما أولاً جده النبي إسماعيل (ع) ابن نبي الله الخليل إبراهيم (ع) الذي ذُكرت قصته في القرآن الكريم، وفيها أن إبراهيم (ع) رأى في المنام أنه يذبح ابنه، ومنامه كان بمثابة الوحي والأمر، فأطاع واستجاب ابنه إسماعيل أيضاً للأمر الإلٰهي، ولكن الله سبحانه فدى إسماعيل (ع) بكبش عظيم؛ والذبيح الثاني هو والده عبد الله (ع).

تحدياً: عبد المطلب ينذر ذبح أحد أولاده

وقصة محاولة ذبح عبد الله بن عبد المطلب تتلخص بأن «عدي بن نوفل» كان يحسد ابن عمه عبد المطلب ويغار منه، لما أصاب عبد المطلب من مكانة في مكة وعند العرب بعد كشف بئر زمزم وتَوَلّي عبد المطلب سقاية الحاج، فجعل عدي يتطاول عليه ويتعمد الإساءة إليه في كل مناسبة، إلى أن بالغ مرة في التطاول وقال له: «امسكْ عليكَ ما أعطيناك، ولا يَغُرَّنك ما خوَّلناك، فإنما أنت غلام من غلمان قومك، ليس لك ولد ولا مساعد! فيم تستطيل علينا؟ ولقد كنتَ في يثرب وحيداً حتى جاء بك عمك إلينا، وقدم بك علينا، وصار لك كلام»؛ فاستشاط عبد المطلب غضباً وقال: «ويلك تعيرني بقلة الولد؟!»؛ ولم يكن له يومئذٍ إلاّ ولده الأول الحارث، ثم قال: «لله تعالى عليّ عهد وميثاق لازم، لئن رزقني الله عشرة أولاد ذكور، لأنحرَنَّ أحدَهم في سبيله إكراماً له

وإجلالاً لحقه تعالى!»؛ ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: «اللهم فكثّر لي العيال، ولا تشمت بي أحداً، فلا أُعَيَّرَ بمثل قوله أبداً، إنك أنت الفرد الصمد!».

ثم أخذ بعد ذلك في خطبة النساء، حتى تزوج بست من ذوات الحسن والجمال من بنات البيوت طلباً للأولاد، ومنهن «فاطمة بنت عمرو المخزومي»، فما دارت الأيام حتى رزق منهن تسعة بنين بعد «الحارث» الذي كان موجوداً عنده قبلهم، وهم «المقوم» و«ضرار» و«نوفل» و«حجل» و«عبد العزى» وهو أبو لهب و«حمزة» و«العباس» من أمهات شتى، ووُلِد له «أبو طالب» و«عبد الله» من فاطمة المخزومية، ورُزق من البنات ستاً هن «عاتكة» و«أميمة» و«البيضاء» و«برة» و«صفية» و«وريدة»، وبقي بعد كل ذلك نور النبوة في غرته يضيء في ناصيته كالبدر، لم ينتقل منه إلى أحدهم، فاغتم لذلك، وكان يقول: «ليت شعري مَن مِن أولادي يأخذ النور مني؟».

إلى أن خرج ذات يوم وحده إلى الصيد، ولما كان في بعض الطريق، غلب عليه العطش، وإذا هو بماء معين صاف في قلب حجر، فتقدم إليه وشرب منه، فإذا هو أبرد من الثلج وأحلى من العسل، وغلبت عليه عند ذلك الرغبة في النساء، فرجع من حينه إلى بيت زوجته فاطمة المخزومية. ولما غشيها وانصرف عنها، إذا بالنور قد زال عن جبهته، وانتقل منه إلى صدر فاطمة يضيء بين ثدييها كالكوكب الدرّي، ففرح عبد المطلب بذلك، وأيقن بانعقاد نطفة ولد له ينتقل إليه النور.

اكتمال عشرة أبناء لعبد المطلب، بعد النذر

وما إن مضت مدة الحمل حتى ولد ابنه الأصغر عبد الله، وفي جبهته النور المضيء، وقد سطع النور من غرته وارتفع حتى بلغ عنان السماء. وعلم بذلك الكهنة والأحبار وسائر الناس، فأقبلوا إليه أفواجاً أفواجاً من كل فج عميق، يزورونه معجبين بحسنه وجماله، وقد دهشوا من نور جبينه.

وكان يشب في اليوم كما يشبُّ غيره في الشهر، ويشبُّ في الشهر

كما يشبّ أولاد سائر الناس في السنة، إلى أن ترعرع وبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، وبالغ اليهود وسائر الكفار والمشركين في العداوة والحسد له والسعي في هلاكه وإطفاء نوره، ولقي منهم أشد مما لقي يوسف الصديق في زمانه من الأذايا الكثيرة والأهوال العظيمة والبلايا الشديدة التي يطول المقام بذكرها.

ثم إنه لما كمل لعبد المطلب عشرة من البنين الذكور، تذكر نذره والعهد الذي عاهده بنحر أحدهم لوجه الله تعالى، فجمع أولاده، وصنع لهم طعاماً وهو في غمّ شديد من نذره، ثم قال لهم: «يا أولادي، تعلمون أنكم عندي بمنزلة واحدة، وأنتم الحدقة من العين، والروح بين الجنبين، ولو أن أحدكم أصابته شوكة لساءني ذلك، ولو عرض لبعضكم عارض لآذاني، ولكن حقَّ اللّهِ تعالى أوجبُ من حقكم، ومكان الله تعالى أعظم من مكانكم، وقد عاهدتُه ونذرت له متى رزقني الله تعالى عشرة بنين، لأنحرَنَّ أحدهم قرباناً، وقد أعطاني ما سألت، وبقي عليَّ الآن ما عاهدته، وقد جمعتكم لأشاوركم، فما أنتم قائلون؟»؛ فدهش الأولاد من مقالة أبيهم، وجعلوا ينظر بعضهم إلى بعض وهم سكوت لا يتكلمون، وقد غلب عليهم الفزع والخوف، إلى أن تكلم أصغرهم سناً وهو عبد الله والد النبي (صلعم)، وكان له من العمر يومئذٍ احدى عشرة سنة، فقال: «يا أبتِ، أنتَ الحاكم فينا، ونحن أولادك وطوع يدك، وحقُّ الله تعالى أوجبُ من حقنا، وأمرُهُ أوجبُ من أمرنا، ونحن لك طائعون وصابرون، وقد رضينا بأمر الله تعالى وأمرك، وصبرنا على حكم الله تعالى وحكمك، ونعوذ بالله من مخالفتك»؛ فشكره أبوه، وجعل يبكي بكاء شديداً حتى ابتلت لحيته من دموعه؛ ثم توجه إلى سائر أولاده وقال لهم: «يا أولادي، ما الذي تقولون أنتم؟»؛ قالوا: «سمعنا وأطعنا، فافعل ما بدا لكَ ولو نحرتنا عن آخرنا، فكيف بنحر واحد فقط منا»؛ فشكرهم أيضاً على مقالتهم وهو متأثر جد التأثر وباكٍ أحر البكاء.

ثم قال لهم: «يا بَني امضوا إلى أمهاتكم واخبروهن بما قلت لكم، وقولوا لهن يغسلنكم ويكحِّلنكم ويطيبنكم، والبسوا أفخر ثيابكم، ثم ودعوا أمهاتكم وداع من لا يرجع أبداً»؛ فقاموا وتفرقوا إلى أمهاتهم،

وأخبروهن بمقالة أبيهم، فصرخت زوجات عبد المطلب وبناته، وانتشر الخبر في أقاربهن فجعلوا يبكون، وفاضت لأجل ذلك العيون، وترادفت الأحزان، وطارت القلوب. وبات عبد المطلب ليلته مهموماً مغموماً، لم يطعم طعاماً ولم يشرب شراباً، ولم يرقد ولم تغمض له عين إلى أن طلع الفجر.

فلما أسفر الصبح وارتفعت الشمس، قام فلبس أفخر ثيابه وحمل ما كان عند آل هاشم من إرث الأجداد[١] ورموز مفاخرها، وأخذ بيده خنجراً ماضياً وخرج ينادي أولاده من دور أمهاتهم واحداً واحداً، فأقبلوا إليه مسرعين وقد تزينوا بأحسن زينة ولم يتأخر منهم إلاّ عبد الله، فتوجه عبد المطلب يطلبه بنفسه حتى دخل منزل زوجته فاطمة، فإذا بها ممسكة بولدها تشده وتشمه، فهجم على عبد الله ليأخذه ويخرج، ولكن أمه ازدادت تعلقاً به، وحاولت أن تنتزعه من يد أبيه، فجذبه منها، وبقيا كذلك أمداً، كل منهما يجذب الصبي من يد الآخر، والصبي يريد أباه ويميل نحوه وهو يقول لأمه: «يا أماه اتركيني أمضي مع أبي يفعل بي ما يريد»؛ إلى أن انتزعه أبوه أخيراً من يد أمه، فصرخت فاطمة عند ذلك بلوعة وتفجع، وشقت جيبها، وجعلت تلطم خدها وتنتف شعرها وهي تقول: «يا أبا الحارث إن فعلك هذا، لم يفعل مثله أحد غيرك، كيف تطيب نفسك بذبح ولدك؟ فإن كان لابد من ذلك، فاترك عبد الله لأنه صغير! ارحمه لصغره، ولأجل هذا النور الذي في غرّته»؛ فلم يكترث عبد المطلب بكلامها، وهمّ بالخروج مع ابنه من الدار، فانكبت فاطمة على ابنها لتودّعه، وضمته إلى صدرها باكية محترقة وهي تقول له: «حاشا ربك أن يطفيء نورك يا بنيَّ! لقد قلّت حيلتي فيك! واحزني عليك يا ولدي! ليتني متُّ قبل غيبتك عني! ليتني يا ولدي غُيّبتُ تحت الثّرى قبل احتمال ذبحك، لئلا أرى فيك ما أرى! ولكن ذلك يحدث بالرغم مني لا بالرضا، وسوقك من عندي يَتِمُّ من غير اختياري!»؛ فاشتد بكاء

---

١ ـ ذكر بعض الروايات أنه كان عند آل هاشم رداء من آدم (ع)، ونعل من شيث (ع) وخاتم نوح (ع)، والله أعلم.

عبد المطلب حتى تغير لونه، ثم أغمي عليه حتى أشرف على الهلاك، وطاش لبّ عبد الله وانخلع قلبه، وجعل يقول لأمه: «دعيني أمضي مع أبي، فإن اختارني ربي كنت راضياً سامحاً ببذل روحي له، وإن كان غير ذلك عدت إليك!».

وأخيراً أفاق عبد المطلب، فقام وخرج من الدار، ولحقه عبد الله وسائر أولاده حتى وصلوا إلى الكعبة المعظمة، حيث هُرِع وتجمع أهالي مكة، واجتمعت القبائل المختلفة وارتفعت الأصوات من كل ناحية، وأقبل الناس ينظرون ما يصنع عبد المطلب بأولاده، وأقبلت الكهنة واليهود مسرعين فرحين مستبشرين، رجاء أن يُذبَحَ عبد الله ويُطفَأَ نورُه الذي كانوا يفزعون منه.

فلما هدأت الأصوات واستقرَّ الناس في أماكنهم، قام عبد المطلب وبيده خنجر يلوح الموتُ من جوانبه، وصفَّ أولاده، ثم جعل ينادي بأعلى صوته ليسمع القريبُ والبعيدُ وقال: «اللهم ربَّ هذا البيت الحرام، والمَشاعرِ العِظام، وزمزمَ والمقام، والحرمِ والحطيمِ وربَّ الملائكة الكرام، وربَّ جُملةِ الأنام، اكشف عنّا بنوركَ الظلام، بحق ما جرى به القلم! اللهم لا مانعَ منكَ إلاّ أنت، وإنما يحتاج الضعيفُ إلى القويّ، والفقيرُ إلى الغنيّ! يا ربّ وأنتَ تعلمُ أني نذرتُ نذراً وعاهدتك عهداً، على أنك إن وهبتَني عشرة أولاد ذكور، لأُقرِبَنَّ لوجهك الكريمِ واحداً منهم، وها أنا وهم بين يديك، فاخترْ منهم مَن أحببت. اللهم كما قَضَيتَ وأمضيتَ فاجعْله في الكبار ولا تجعله في الصغار، لأنّ الكبير أصبر على البلاء من الصغير، والصغير أَوْلَى بالرحمة! اللهم ربَّ البيتِ والأستار، والركن والأحجار، وساطحَ الأرضِ ومُجريَ البحار، ومرسلَ السحابِ والأمطار، اصرف البلاءَ عن الصغار».

القُرعة بين الأبناء العشرة
وخروجها على.. عبد الله

ثم عزم على القرعة بين أولاده على ما هي العادة بين أهل الجاهلية، ودعا بصاحب القِداح فدفع إليه جرائد كتب على بعضها الأمر وعلى بعضها

النهي، ليجعلها في خريطة، ثم يخرج كل واحد منها باسم أحد أولاده. فأخذ صاحب القداح الجرائد وساق أولاد عبد المطلب نحو الكعبة، فارتفع الصراخ والنياح من أمهاتهم، وشققن الجيوب، وكل واحدة منهن تصرخ وتبكي على ولدها، حتى أبكين الناس وأجرى كل حاضر دمعته رقةً لهن، ودَوَّت في المسجد الحرام ضجة رهيبة، وعبد المطلب يقوم مرة ويقعد أخرى كالواله المدهوش وهو يقول: «يا رب أسرع في قضائك»؛ وأنشد يقول:

عـاهـدتُـهُ والآنَ أُوفِـي عَهـدَهْ   إذْ كـان مَـولايَ وكنـتُ عبدَهْ
نَـذَرتُ نـذراً لا أُحِـبُّ رَدَّهْ   ولا أُحِـبُّ أن أعيـشَ بَعـدَهْ

ثم قدم الأولاد إلى الكعبة وتعلق بأستارها، وجعل ينادي برفيع صوته وقد اختنق بعبرته يقول: «اللهم ربَّ البلدِ الحرام، والركنِ والمقام، وربَّ المشاعرِ العِظام والملائكة الكرام، أنتَ خلقتَ الخلق لطاعتك، وأمرتهم بعبادتك، لا حاجة منك في الكلام! اللهم إليك أسلمتُهُمْ، ولك أعطيتهم، فخذ مَن أحببتَ منهم، فإني راضٍ بما حكمتَ، وهبْ لي أصغرَهم سناً، فإنه أضعفهم ركناً»؛ ثم أنشأ يقول:

يـا رَبِّ لا تُخـرِجْ عليـه قِـدْحـي   وٱجعـلْ لـه واقيـةً مِـن ذَبْحـي

فارتفع الصراخ في الجموع والأفواج، وتطاولت الأعناق، وانسكبت الدموع، وفاضت العبرات، واشتدت الحسرات.

وبينما هم كذلك إذ خرج صاحب القداح من الكعبة وهو قابض على عبد الله، قد جعل رداءه في عنقه يجرّه، وقد زالت النضارة من وجه عبد الله، واصفرَّ وارتعدت فرائصه، إلى أن وصل إلى عبد المطلب وقال له: «يا عبد المطلب، ولدُكَ هذا قد خرج عليه السهم، إن شئتَ فاذبحه، وإن شئت فاتركه»؛ فما أتم كلامه حتى وقع عبد المطلب على الأرض مغشياً عليه، وخرج سائر أولاده من الكعبة وهم يصرخون ويبكون على أخيهم، وكان أشدهم حزناً وبكاءً عليه أبو طالب، لأنه كان شقيقه من أمه وأبيه، وكان لا يصبر عنه ساعة واحدة، بل كان سائر أوقاته يقبل غرّته وموضع النور من وجهه ويقول له: «أخي، ليتني لا أموت حتى أرى ولَدَكَ

الوارثَ لهذا النور الذي فضله الله على الخلق أجمعين، والذي يغسل الأرض من الدنس، ويزيل دولة الأوثان، ويبطل كهانة الكهان!».

ثم أفاق عبد المطلب من غشيته بعد سويعة، وسمع البكاء والصريخ من كل ناحية من الرجال والنساء، ورأى زوجته أم عبد الله تحثو التراب على رأسها، وتلطم خدها وتضرب على صدرها، فلم يملك نفسه من الجزع، ثم تمالك وقام فقبض على يد عبد الله، وهمّ بالمسير به إلى محل النحر وهو يقول:

هــذا بُنــيَّ قــد أُريــدُ نحــرَهْ   والله لا يقــدر شــيء قــدرَهْ
فــإن يُــؤَخــرْهُ ويقبــلْ عُــذرَهْ

إذ تقدم إليه ابنه أبو طالب وقد أشرف على الهلاك من الجزع والبكاء، وأمسك يد أبيه وأنشأ يقول:

كــلا ورَبِّ البيــتِ ذي الأنصــابِ   مــا ذَبْــحُ عبــدِ اللّــهِ بــالتَّلْعــابِ

ثم ازداد في الصريخ والبكاء، وتعلقَ بأخيه عبد الله وهو يقول لأبيه: «اترك أخي واذبحني مكانه، فإني راض أن أكون قربانَك لربك»؛ ثم قال: «اللهم اجعلني فديته، وهب لي ذبحته!»؛ ثم أنشد يقول:

خُـذهــا إليــكَ هــديــةً يــا خــالِقــي   رُوحي وأنتَ مَليكُ هذا الخافِقِ

وأعانه على ذلك جمع من سادات قريش وبني عبد مناف، ليحولوا بين عبد المطلب وبين ذبح عبد الله، وهم يقولون: «يا عجباً من فعلك يا عبد المطلب، وذبحك ابناً كتمثال الذهب!»؛ إلى أن صاح بهم صيحة منكرة يقول: «يا ويلكم لستم أشفق على ولدي مني! ولكني أُمضي حكمَ ربي، وما كنت بالذي اعترض على ربي وأخالف حكمه، فهو الآمر وأنا المأمور»؛ فقالوا: «يا عبد المطلب، عد إلى صاحب القداح مرة ثانية، فعسى أن يقع السهم على غيره، ويقضي الله بما فيه الفرج»؛ ولم يزالوا يلحون عليه في ذلك إلى أن عاد إليه، فأخرج القداح، وخرج السهم ثانياً على عبد الله، فقال عبد المطلب: «قضي الأمر ورب الكعبة!»؛ وجدَّ بتنفيذ عزمه، وساق عبد الله إلى محل النحر، وربط رجليه، فصرخت أمه

صرخة كادت معها أن تفارق روحها، ولطمت خدها، وضربت وجهها، ونتفت شعرها، ومزقت أثوابها، ولكن عبد المطلب لم يكترث بها، لأنه كان ذاهلاً مندهشاً لا يلتفت إلى شيء، ولا يدري ماذا يصنع، وكاد قلبه أن ينصدع فيموت. وارتفعت أصوات الجموع بالعويل والبكاء، فلما أضجع ابنه للنحر، أشرفت فاطمة على الهلاك، واضطربت جوانحها، وتقلقلت أحشاؤها، وارتعدت فرائصها، وغارت عيناها في أم رأسها، وتوجهت إلى قومها وعشيرتها صارخة مستغيثة بهم في خلاص ابنها[٢].

عشيرة اخوال عبد الله يمنعون ذبحه

وبينما عبد المطلب مُضجعٌ ابنه وهو لا يستمع إلى عذل عاذل، ولا يلتفت إلى قول قائل، وهو ثابت الجأش قويُّ العزم على نحر الصبي، إذ أحاط به عشرة رجال من عشيرة فاطمة أم عبد الله، وهم عراة حفاة بأيديهم السيوف، حتى حالوا بينه وبين عبد الله، فقال لهم: «ما شأنكم؟»؛ قالوا: «لا ندعك تذبح ابن أختنا وإن قُتِلنا عن آخرنا، ولقد كلَّفتَ هذه المرأة ما لا تطيق، ونحن أخواله من بني مخزوم»؛ وحالوا بينه وبين ولده، فرفع رأسه إلى السماء وقال: «رب قد منعوني أن أُمضي حكمَك وأُوفيَ بعهدك، فاحكم بيني وبينهم بالحق، وأنت خير الحاكمين»؛ وأنشد يقول:

تَعاوَرَني أمرٌ فضِقتُ به ذَرْعا ... ولمْ أَستطعْ مما تَجَلَّلَني دَفْعا
نَذَرتُ ونَذْرُ المرء دَيْنٌ مُلازِمٌ ... وما لِلفَتَى مما قضى ربُّهُ مَنعا
وعاهَدْتُهُ عَشْراً إذا ما تكاملوا ... أُقَرِّبُ منهم واحداً ما له رجعا
فأكمَلَهُمْ عشراً فلما هَمَمْتُ أَنْ ... أفيهِ بذاكَ النذرِ ثارَ له جمعا
يَصُدونَني عن أمرِ ربي وإنني ... سأُرضِيهِ مشكوراً لِيَسْلُبَني نفعا

---

٢ ـ وقد روي عن أهل بيت العصمة(ع) أنه لما أضجع عبد المطلب ابنه عبد اللّه للذبح، وحقت الحقائق، وأخذ الشفرة بيده، ضجت الملائكة إلى ربها، ورفعت أصواتها بالتسبيح، ونشرت أجنحتها مبتهلةً إلى ربها، مستشفعةً إليه سبحانه في دفع البلاء عن عبد اللّه، رقةً عليه وعلى أبيه، ونادى جبرائيل، وتضرع إسرافيل، فأوحى اللّه تعالى إليها: «يا ملائكتي إني بكل شيء عليم، وقد ابتليت عبدي لأنظر صبره على حكمي».

وبينما هم كذلك إذ أقبل عليه رجل من كبار قومه يقال له: «عكرمة بن عامر»، فأشار بيده إلى الناس أن: اسكتوا؛ ثم قال: «يا أبا الحارث، إعلمْ أنكَ قد أصبحتَ سيدَ الأبطح، فلو فعلتَ بولدك هذا، لصار سُنّةً بعدَكَ يَلزَمُكَ عارُها وشَنارُها، وهذا لا يليق بك»؛ فقال: «تَرى يا عكرمة أن أُغضِب ربي؟»؛ قال: «إني أدلُّك على ما فيه الصلاح!»؛ قال: «ما هو يا عكرمة؟»؛ قال: «إن معنا في بلادنا كاهنةً عارفة، ليس في الكهان أعرف منها، تُحدِّثُ بما يكون في ضمائر الناس، وما يَخْفَى في سرائرهم؛ وذلك أن لها صاحباً من الجِنّ يخبرها بذلك، فينبغي أن تَمضي إليها، فلعلها تعمل لك حيلة في أمرك وخلاص ولدك»؛ فأجابه عبد المطلب إلى ذلك، وسكن بعض ما به؛ وأجمع الناس رأيهم على ذلك، وقالوا: «يا أبا الحارث، لقد تكلم عكرمة بالصواب!».

اقتراح قرعة بين عبد الله والإبل، عشرة عشرة

أخذ عبد المطلب ولده وعاد به إلى منزله، ثم أخذ يتأهب للسفر إلى الكاهنة وكان اسمها «أم ملخان». فلما جَهزَ للسير إليها، خرجت معه جموع من قومه، وأخذ معه هدية عظيمة سنية، فلما وصلوا قدَّم لها الهدية، ثم سألها عن أمره، فقالت: «انزلوا، وغداً أُظهِرُ لكم العجب»؛ فلما كان غداة غدٍ، اجتمعوا عندها، فأنشأت تقول:

يا مرحباً بالفِتْيةِ الأَخيارِ ... الساكني البيتِ مع الأستارِ
قد خُلِقوا مِن صلصلِ الفَخّار ... ومِن صميمِ العِزِّ والأنوارِ
خُذوا بقولي صحَّ في الآثار ... أنبئكمْ بالعلم والأخبارِ
أهلُ الضِيا والنورِ والفَخارِ ... مَن هاشمٌ سماهُ في الأقدارِ
قد رامَ مِن خالقهِ الجبارِ ... إن يُعْطِهِ عَشْراً مِنَ الأَذْكارِ
مِن غيرِ ما نقصٍ، بإذن الباري ... فواحدٌ يُنْحَرُ للأَنْذارِ

ثم التفتَتْ إلى عبد المطلب وقالت له: «أنت الناذر؟»؛ قال: «نعم، جئناكِ لتنظري في أمرنا، وتعملي الحيلة في ولدنا»؛ فقالت: «وربِّ البَنِيَّة، وناصبِ الجبالِ المَرْسِيَّة، وساطحِ الأرضِ المَدْحِيَّة، إن هذا الفتى

الذي ذكرتموه سوف يعلو ذكره البَرِيَّة، وإني سأرشدكم إلى خلاصه، فكم الفدية عندكم؟»؛ قالوا: «عشرة من الإبل»؛ قالت: «ارجعوا إلى بلدكم، واستقسموا بالأزلام على عشرة من الإبل وعلى ولدكم، فإن خرج عليه السهم، فزيدوا عشرة أخرى، وارموا عليها بالسهام، فإن خرج عليه دونها، فزيدوا عشرة أخرى، وهكذا إلى المئة، فإن لم تخرج على الإبل، اذبحوا ولدكم»؛ ففرح القوم ورجعوا إلى مكة.

وأقبل عبد المطلب على ولده يقبله، فقال عبد الله: «يعزُّ عليَّ يا أبتاه شقاؤك من أجلي وحزنك عليَّ!»؛ ثم أمر عبدُ المطلب أن يُخرَجَ كل ما عنده من الإبل فأحضرت، وأَرسَل إلى بني عمه أن يأتوا بالإبل على قدر طاقتهم، وقال: «إن أراد الله بي خيراً، وقاني في ولدي، وإن كان غير ذلك، فحكمه ماض!»؛ ثم جعل أهل مكة يسوقون له كل ما معهم من الإبل.

وكانت فاطمة أم عبد الله لما أقبل عليها زوجها عبد المطلب بخبر الكاهنة وحلها ـ بعدأن أُقرِحَتْ عيناها بالبكاء ـ فرحت وقالت: «أرجو من ربي أن يقبل مني الفداء، ويهبني ولدي!»؛ وكانت ذات يسار ومال كثير، وكانت أمها «سرحانة» زوجة عمرو المخزومي كثيرة الأموال والذخائر أيضاً، وكانت لها جِمال تسافر إلى العراق، وجمال تسافر إلى الشام، فقالت فاطمة: «عليّ بمالي ومالِ أمي، ولو طَلَب مني ربي ألف ناقة لقدمتها إليه، وعليّ الزيادة»؛ فشكرها عبد المطلب وقال: «أرجو أن يكون في مالي ما يرضي ربي ويفرج كربي!»؛ وظل الناس بمكة في فرح وسرور.

فلما حان أوان الاستقسام بالأزلام (القرعة) بين الإبل وعبد الله، أقبل عبد المطلب إلى الكعبة فطاف بها سبعاً وهو يسأل الله تعالى أن يفرج عنه، فلما أصبح الصباح، أمر رعاة الإبل أن يحضروها؛ فلما جيء بها، أخذ عبد المطلب ابنه عبد الله، فطيبه وزينه وألبسه أفخر ثيابه، ثم أقبل به إلى الكعبة وبيده الحبل والسكين؛ فلما رأته فاطمة بتلك الهيئة، اضطرب قلبها وقالت له: «ارم ما في يدك حتى يطمئن قلبي»؛ قال: «إني قاصد

ربي أسأله أن يقبل مني الفداء في ولدي، فإن نفدَتْ أموالي وأموال قومي، ركبتُ جوادي وخرجت إلى كسرى وقيصر وملوك الهند والصين على وجهي مستطعماً، حتى أُرضيَ ربي، وأنا أرجو أن يَفدِيَهُ كما فدى أبي إسماعيلَ من الذبح». ولما انتهى إلى الكعبة والناس حوله ينظرون إليه، توجه إلى الناس وقال لهم: «يا معاشر من حَضَر، إياكم أن تعودوا إليّ في أمري كما فعلتم بالأمس، وتحولوا بيني وبين ذبح ولدي!».

خروج القرعة على عبد الله دون الإبل، تكراراً

ثم أمر بتقديم عشرة من الإبل فأوقفها، وتعلق بأستار الكعبة يقول: «اللهم أمرك نافذ»؛ ثم أمر صاحب القداح أن يضربها، ولما ضربها بين الإبل وعبد الله، خرج السهم على عبد الله، فقال عبد المطلب: «لربي القضاء!»؛ ثم زاد على الإبل عشرة، وضرب صاحب القداح عليها وعلى عبد الله، فخرج السهم ثانياً على عبد الله، فقال عبد المطلب أيضاً: «لربي القضاء!»؛ ثم زاد على الإبل عشرة أخرى، فصارت ثلاثين، وضرب القداح ثالثاً، وخرج السهم أيضاً على عبد الله. عند ذلك تقدمت إليه أشراف قريش وقالوا له: «يا عبد المطلب، لو قدمت غيرك كان خيراً، فإنا نخشى أن يكون ربك ساخطاً عليك»؛ فقال لهم: «إن كان الأمر كما زعمتم، فالمسيء أَوْلَى بالاعتذار»؛ ثم توجه إلى ربه وقال: «اللهم إن كان دعائي قد حُجب عنك من كثرة الذنوب، فإنك غفار الذنوب، كاشف الكروب، تكرَّم عليَّ بفضلك وإحسانك»؛ ثم زاد على الإبل عشرة وكملها أربعين، ورمق بطرفه نحو السماء يقول: «اللهم أنت تعلم السرّ وأخفى، وأنت بالمنظر الأعلى، اصرف عني البلاء كما صرفته عن إبراهيم الذي وفّى!»؛ وضرب القداحَ صاحبُها رابعاً على الإبل وعبد الله، وخرج السهم أيضاً على عبد الله، فاشتد جزع عبد المطلب وقال: «إنَّ هذا لشيء يُراد!»؛ ثم قال لعبد الله: «كيف أبذل فيك يا ولدي الفداء وقد حكم فيك الرب بما يشاء؟»؛ ثم قال: «لعلّ بعد العسر يسراً!»؛ وأضاف إلى الأربعين من الإبل عشرة أخرى فصارت خمسين، وأنشأ يقول:

يا ربَّ هذا البيتِ والعِبادِ إنَّ بُنَيَّ أقربُ الأولادِ

وحبُّـه فـي السمـع والفـؤادِ وأمُّـهُ صـارخـةٌ تُنـادي
فَـوَقِّـهِ مِـن شَفـرَةِ الحِـدادِ فـإنـه كـالبـدرِ فـي البـلادِ

ثم أمر صاحب القداح بضربها خامساً، فخرج السهم أيضاً على عبد الله، فتقدمت أم الصبي إلى بعلها صارخة باكية، وقالت: «يا عبد المطلب، أريد أن تتركني أسأل الله في ولدي، فعسى أن يرحمني ويرحم ضعفي وحالتي هذه»؛ ثم قدّمت هي عشرة من الإبل، وأضافتها إلى الخمسين، وجعلت تبكي وتقول: «يا رب، رزقتني ولداً حسدني عليه أكثر الناس وعاندوني فيه، وقد رجوت أن يكون لي سنداً وعضداً، وأن يوسّدني في لحدي، ويكون ذِكري بعدي، فعارَضَني فيه أمرُك، وأنتَ تعلم يا ربِّ أنه أحبُّ أولادي إلي، وأكرمهم لدي، وإني يا رب فديتُهُ بهذا الفداء من الإبل، فاقبلها ولا تشمت بي الأعداء»؛ ثم أمرت صاحب القداح بضربها على ستين من الإبل وعبد الله، وخرج السهم سادساً على عبد الله، فنادى عبد المطلب وقال: «إن لكل شيء دليلاً ونهاية، وهذا الأمر ليس لي ولا لك فيه حيلة، فلا تعودي إلى التعرض في أمري».

ثم أضاف إلى الإبل عشرة وأكملها سبعين، وجعل يقول: «اللهم منك المنع ومنك العطاء، وأمرك نافذ كما تشاء، وقد تعرضت عليك بجهلي وقبيح عملي، فلا تؤاخذني ولا تخيب أملي»؛ وأمر صاحب القداح سابعاً بضربها، فلم يخرج السهم إلاّ على عبد الله. هنالك ارتفعت أصوات الناس بالبكاء والعويل، وضجت مكة بأهلها، وأخذوا في الصريخ والنحيب، وكادت أم عبد الله أن ينخلع قلبها فتموت؛ ثم نادى عبد المطلب وقال: «ما بعد المنع إلاّ العطاء، وما بعد الشدة إلاّ الرخاء، وأنت إلهي عالم السر وأخفى!»؛ وضم إلى السبعين عشرة حتى كملت الإبل ثمانين، ثم أمر بضرب القداح، فلم تكن إلاّ كأخَواتها ولم يخرج السهم ثامناً إلاّ على عبد الله، فعند ذلك قوي عزمه واشتدت همته على ذبح ولده، وتناول الحبل والسكين بيده، وهمّ الناس أن يمنعوه كالمرة الأولى، فصرخ بهم وقال: «أقسمت بالله إن عارضني في ولدي أحد لأضربن بهذا السكين صدري وأذبح نفسي! اتركوني حتى أنفذ حكم ربي، وأنا عبده وولدي عبده، يفعل بنا ما يشاء، ويحكم ما يريد!»؛ فأمسك

الناس عن منعه قهراً، وجعلوا يتوسلون به في إعادة القداح على التسعين من الإبل، وأكثروا من الإلحاح عليه بذلك، حتى رضي وأكمل الإبل تسعين وهو يقول: «يا رب إليك المرجع، وأنت ترى وتسمع!».

أمر بضرب القداح، فلما ضُربت خرجت تاسعاً كسابقتها، أي على عبد الله، فلم يشعر عبد المطلب إلاّ وقد خرَّ على الأرض مغشياً عليه، وضجت الجموع رجالهم ونساؤهم بالبكاء والعويل، وأيقنوا بهلاك عبد الله، وطارت العقول، وغارت العيون في الأحداق، ودهشت القلوب، وصار بعضهم كالمجانين، يضربون صدورهم ويلطمون خدودهم، وأشرفت أم عبد الله على الهلاك، وصار الناس حيارى في الأمر لا حيلة لهم، إلى أن أفاق عبد المطلب من غشيته، وجعل يصرخ وينادي: «واغوثاه إليك يا رب!».

ثم تماسك وقام على قدميه، وجذب ابنه عبد الله ليسوقه إلى محل النحر، وصار يتقدم كالواله المدهوش وقد ارتعدت فرائصه، ورجفت أحشاؤه وجوانحه، واضطربت جوارحه وأعضاؤه، فصاح به ابنه عبد الله في وثاقه يقول له: «أبت، كم ترد الله وتلح عليه؟! هلم إليَّ وانحرني، فإني قد خجلت من تَعَرُّضِك لربك في حقي، وإني يا أبتاه صابر على قضائه وحكمه! وإن كنتَ يا أبت لا تقدر على ذلك من رقة قلبك عليَّ، فخذ بيديَّ ورجليَّ واربطهما بعضهما إلى بعض، وغط وجهي لئلا ترى عيناك عينيَّ، واقبض ثيابك عني لكيلا تتلطخ بدمي، فتكون إذا لبست أثوابك تذكرت وحزنت عليّ»؛ ولم يزل الفتى يحرض أباه على تنفيذ أمر ربه والتعجيل في نحره، ويوصيه بوصاياه، إلى أن قال له: «وأوصيك يا أبتاه بأمي خيراً، فإني أعلم أنها هالكة بعدي لا محالة، بسبب حزنها عليَّ، فسكِّنها وسكِّن دمعتها، وإني أعلم أنها لن تلتذ بعدي بعيش. وأوصيك يا أبتاه بنفسك خيراً، فإن خفتَ ذلك فأَغمِضْ عينيك، فإنك تجدني صابراً إن شاء الله تعالى».

فاشتد جزع عبد المطلب من كلمات ابنه ووصاياه، حتى اخضلت لحيته من دموع عينيه وهو يقول له: «يعزُّ عليّ يا ولدي كلامك!»؛ ثم

توجه إلى الناس وقال: «يا قوم ما تقولون؟ كيف أعترض على ربي في قضائه، وإني أخاف أن ينتقم مني؟!»؛ ثم نهض إلى الكعبة وطاف بها سبعاً، وجعل يمرّغ وجهه في التراب، ويلحّ في الدعاء إلى ربه ويقول: «يا ربِ أَمضِ أمرك، فإني راغب في رضاك!» ثم رجع إلى صاحب القداح وزاد على الإبل عشرة، فصارت مئة، وأمره بضربها وهو يقول: «من أكثر قرع الباب، يوشك أن يفتح له».

خروج القرعة العاشرة على الإبل

ولما ضرب القداح وهي آخر ضربته، خرج السهم عند ذلك على الإبل، فتصارخت الناس وتهللت فرحاً وسروراً، وهجمت الجموع على عبد المطلب فانتزعوا عبد الله من يده، وأقبلت أم عبد الله وهي تعثر بأذيالها، فتناولته وضمته إلى صدرها تشمه وتقبله وهي تقول: «الحمد لله الذي لم يبتلني بذبحك، ولم يشمت بي الأعداء وأهل العناد!»؛ وتهافت الناس على عبد المطلب من كل ناحية ومكان يهنئونه بخلاص ابنه، ويهنئون عبد الله وأمه بقبول الفداء عنه بمئة من الإبل، كما قُبل فداء جده اسماعيل (ع) بكبش نزل به جبرائيل (ع) من الجنة، وقال الله عز وجل فيه **﴿وفديناه بذبح عظيم﴾**[٣].

ثم أقبل الناس على ذبح الإبل، فقال لهم عبد المطلب: «مهلاً يا قوم حتى أراجع ربي مرة أخرى؛ فإن هذه القداح تصيب وتخطىء، وقد خرجت على ولدي تسع مرات متواليات وهذه مرة واحدة، فلا أدري ما يكون من الثانية، اتركوني أعاود ربي مرة أخرى» ثم استقبل الكعبة وقال: «اللهم سامعَ الدعاء وسابغَ النعم ومعدنَ الجود والكرم، لئن كنتَ يا مولاي مننت عليّ بولدي هبةً منك، فأظهر لنا برهانه مرة ثانية»؛ ثم أمر صاحب القداح بضربها أيضاً على عبد الله ومئة من الإبل، فضربها وخرج

---

٣ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٣، السورة ٣٧ الصافات، الآية ١٠٧ ـ وقد جاء في بعض المصادر أن الناس حينما كانوا في نشوة الفرح والسرور والابتهاج الشديد بخلاص عبد الله، سمعوا هاتفاً من داخل الكعبة يقول: «قد قبل الله منكم الفداء، وقد قَرُبَ خروج المصطفى»؛ فنادت قريش «بَخٍ بَخٍ لك يا أبا الحارث، هتفت بك وبابنك الهواتف!».

السهم ثانية على الإبل، فأخذت فاطمة بيد ابنها ومضت به مسرعة إلى بيتها، وأقبلت إليها الأفواج من كل فج عميق ومكان سحيق، يهنئونها بمنة الله عليها وقبوله الفداء في ولدها، وأمر عبد المطلب بنحر الإبل، فنحرت عن آخرها، وتناهبها الناس، وأمر أن لا يُمنَعَ منها أحدٌ حتى الوحوش والطير، وانصرف وقد بات أهل مكة وسائر الناس ليلتهم في سرور وفرح عظيم، ما عدا الكهنة وأحبار اليهود الذين كانوا يحسدونه على نور جبينه، فإنهم ازدادوا حنقاً وحسداً، وامتلأوا غيظاً وغضباً، حتى حاولوا إهلاكه بأي طريقة أخرى[٤] ولكن دون أن يجديهم ذلك نفعاً، وباءت محاولاتهم وحِيَلهم بالفشل، وحفظ الله عبده ونور جبينه الأنور، لينتقل حينما يحين أوانه إلى غرة حبيبه سيد البشر، **﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾**[٥].

---

٤ ـ جاء في بعض الروايات أن كبير اليهود في مكة ـ وكان يدعى «ربيان» ـ أوعز إلى بعض نسوة طائفته بإعداد طعام مسموم أرسل هدية إلى بيت والدة عبد الله، فاطمة زوجة عبد المطلب بمناسبة نجاة ولدها، ولكن الله سبحانه نجاهم منه بمعجزة، بل يذهب بعض الرواة إلى أن صوتاً صدر من الطعام نفسه أو من الإناء، أخبرهم بأنه مسموم.

٥ ـ القرآن الكريم، ج١٠، س ٩ التوبة: ٣٢.

زواج عبد الله (ع) بن عبد المطلب(ع)

ـ والد النبي (ص) ـ

من آمنة بنت وَهَب

ـ والدته ـ

كانت نجاة عبد الله بن عبد المطلب (ع) من نذر الذبح، حادثة جعلته محطّ أنظار الناس ومادة أحاديثهم في مكة وحواليها عند قبائل العرب، فكانوا يرمقونه بحب وإعجاب، ويتأملونه في نموه وهو يزداد كل يوم جمالاً وبهاء، حتى فاق جميع أهل عصره في الحسن والكمال والهيبة والجمال؛ وكان الناس يشمون منه عند مروره بهم رائحة المسك الأذفر والكافور والعنبر[١]، لذا أحبه الناس بأجمعهم، صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساؤهم، ورغبوا في تزويجه ببناتهم، وتطاولت إليه الخطاب، وترادفت عليه الرسل من القبائل والأكابر من العشائر والرؤساء والملوك، يبذلون له الجزيل من الأموال على أن يتزوج ببناتهم، وهو لا يقبل أحداً ولا يميل إلى أي بنت قط، إلى أن صارت نساء القبائل وبنات الأشراف والرؤساء والأكابر وبنات الصناديد والملوك يعترضنه ويعرضن أنفسهن عليه طمعاً في نور وجهه، وهو لا يرغب في أيّ واحدة منهن.

جاء في عدة مصادر أنه مرّ ذات يوم على امرأة يقال لها «فاطمة بنت مرّة»، كانت قد قرأت الكتب وعرفت صفات النبي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان، فاعترضته وقالت له: «أنت الذي فداك أبوك بمئة من

---

١ ـ بل إنه ـ لفرط حب الناس له واعجابهم به ـ قيل فيه: كان في الليل يكاد يضيء نوره الظُلَم كالبدر الأتم، حتى سمته أهل مكة: مصباح الحَرَم.

الإبل؟»؛ قال: «نعم»؛ قالت: «هل لك أن تقع عليَّ مرة، وأعطيك من الإبل مئة؟»؛ فغضب من كلامها وأنشأ يقول:

أمـا الحـرامُ فـالممـاتُ دونَـهْ　　والحِـلُّ لا حِـلَّ فـأَسْتَبينَـهْ
فكيـف بـالأمـرِ الـذي تَبْغينَـهْ

وانصرف عنها. ومضت الأيام والليالي، إلى أن تزوج بآمنة (ع) على ما سيجيء شرحه إن شاء الله تعالى، وانتقل نور النبوة من جبينه إلى رحمها، فمرّ يوماً آخر على تلك المرأة، فلم يرَ بها حرصاً على ما طلبته منه أوّلاً قبل تزوجه بآمنة، فقال مختبراً لها:

هل لكِ في ما قلتِ لي، فقلتُ: لا؟

فقالت:

قـد كـان ذاك مـرةً، فـاليـومَ لا

وذهب كلامهما مثلاً عند العرب. ثم قالت له: «أي شيء صنعت بعدي؟»؛ قال: «زوَّجني أبي بآمنة، فبتُّ عندها»؛ قالت: «لله ما زهرية سلبت ثَوبَيك ما سلبت! وما تدري أني رأيت في وجهك نورَ النبوة وأردتُ أن يكون فيَّ، فأبى الله إلاّ أن يضعه حيث يحبُّ».

وبالجملة، لم تزل النساء والبنات من جميع الطبقات والقبائل تجتهد وتسعى بكل حيلة، وتتوسل بكل وسيلة، أن يقبلهن عبد الله ويتزوج منهن وهو لا يزداد إلاّ إنكاراً ونفوراً وإعراضاً وبُعداً، وهنَّ لا يزددن إلاّ وجداً وحبّاً وهمّاً وكرْباً[٢]، وكان من جملتهن «زرقاء» كاهنة اليمامة وسيأتيك شرحها إن شاء الله.

وبقي عبد الله كذلك لا يقبل أي فتاة أو امرأة، ولم يزل أبوه يعرض عليه الزواج من بنات الملوك وكبار العشائر، ولا يرى في وجهه إلاّ أثر الامتناع، إلى أن نفذت مشيئة الله سبحانه وكان زواجه (ع) من آمنة بنت وهب (ع) والدة النبي (صلعم).

---

٢ ـ بل لقد روي أنه لما تزوج (ع) من آمنة (ع)، ماتت نسوة وبنات غيرةً وحسداً (أوصلتهن بعض الروايات إلى مئتين).

اليهود يأتمرون بعبد الله (ع)، تخوفاً من نور النبوة في جبينه

وكان أصل ذلك أن أحباراً من اليهود اجتمعوا بأرض الشام يتشاورون في مولد رسول الله (صلعم)، بعد أن غلب عليهم الخوف الشديد من ظهور علامات[٣] على اقتراب ميلاده وظهور دعوته (صلعم)، فهاجت بحار الخوف والحسد بهم، واضطربوا اضطراباً شديداً، إلى أن اتفقت آراؤهم على أن يسيروا إلى حَبرٍ كبير لهم في قرية من قرى الأردن كان قد نيّف على المئة سنة من عمره، وكانت اليهود تقتبس من علمه وتنتهي إلى رأيه، فسار القوم إليه، إلى أن دخلوا عليه وقد علاهم الاضطراب والجزع.

فلما جلسوا عنده أحسّ بما هم فيه من القلق، فقال لهم: «ما الذي أزعجكم؟»؛ قالوا: «إنا نظرنا في كتبنا، فوجدنا أن هذا الرجل السفاك، الذي تقاتل معه الأملاك، والذي نخشى أن نلقى عند ظهوره الأهوال والهلاك، قد قرب زمانه، وقد جئناك نشاورك في أمره قبل ظهوره وعلوّ ذكره»؛ فقال: «يا قوم، إن من أراد إبطالَ ما أراد اللّهُ فهو جاهل مغرور! وإن هذا الذي ذكرتموه قد سبق أمره عند الله، وإنه لَكائن، فكيف تقدرون على إبطاله وهو مُبطِلٌ كهانة الكهان ومزيل دولة الصلبان، وسيكون له وزير قريب؟»؛ فازداد القوم من مقاله خوفاً ودهشة، وحاروا في أمرهم وبهتوا كأنَّ على رؤوسهم الطير. إلى أن قام من بينهم حَبر يقال له: «هيوبا بن داحوراء»، وكان متعصباً متمرداً شديد البأس عظيم المراس، وتوجه إلى أصحابه يقول لهم: «هذا رجلٌ قد كبرَ وخرِفَ وقلَّ عقلُه، فلا تسمعوا لقوله، أرأيتم الشجرة إذا قُطِعت مِن أصلها، هل تعود خضراء؟»؛ قالوا: «لا»؛ قال: «فإن قتلتم صاحبَكم الذي يَخرُجَ مِن صُلبِهِ هذا المولود، فما الذي تخافون منه؟ قوموا هذه الساعة وخذوا معكم بضائع ومواعين للتجارة، وسيروا إلى البلد الذي هو فيه(يعني مكة)، فإذا وصلتم

---

٣ ـ أسلفنا أنه كان من هذه العلامات عندهم ترطب دم يابس على جبة عندهم منسوبة إلى نبي الله يحيى بن زكريا (ع).

إلى هناك، دبرتم الحيلة في قتله وهلاكه»؛ فلم يزل يحرضهم على ذلك، حتى أجابه القوم ولبوا دعوته، وقالوا له: «أنت سيدنا وعمادنا!»؛ وقاموا وانصرفوا من عند الحبر الكبير إلى منازلهم.

فلما تجهزوا بعدئذٍ للسفر إلى مكة، قال لهم هيوبا: «افعلوا ما آمركم به وسأسير أنا معكم بسيفي ورمحي! ولكني لن أسير معكم حتى تعاهدوني على أن لا تخذلوني، وعلى أن يعمد كل واحد منكم إلى سيفه فيسقيه سمّاً»؛ فوافقوه على رأيه، وافترقوا متواعدين على الاجتماع في محل خارج البلد يسمى «أبلة». فلما اجتمعوا على الوعد فيها محملين جمالهم بضائع للتجارة، ساروا نحو مكة إلى أن قدموها[٤] وأقاموا بها أياماً يعرضون تجارتهم ولا يبيعون منها شيئاً، يبتغون بذلك طول المقام والاحتيال في قتل عبد الله[٥].

ولم يزل يبلغهم عن حسنه وجماله ونور جبهته ما يزيدهم كمداً وغيظاً، وعلى قتله إصراراً وعناداً، دون أن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، إلى أن خرج عبد الله ذات يوم إلى الصيد وحده ـ وكان مغرماً بالصيد ـ ولم يكن يخرج إلاّ مع أبيه، وعرف اليهود الذين كانوا يراقبونه بخروجه وحيداً،

---

٤ ـ جاء في بعض الروايات أنهم حين قدموا مكة سمعوا من ورائهم صوت هاتف يقول:

قَصَدْتُمْ لأَزْرِ القومِ في السرِّ والجَهْرِ ... تُريدونَ مَكْراً بالمُعَظَّمِ في القَدْرِ
ومَن غالبَ الرحمانَ لا شكَّ أنَّهُ ... سَيَرميهِ باريهِ بقاصِمَةِ الظَهْرِ
سَتَضْحَوْنَ يا شرَّ الأنامِ كأنَّكُمْ ... نعامٌ وسيقَتْ للذِباحةِ والنَحرِ

ففزع القوم وهالهم ذلك وهمّوا بالرجوع، ولكن هيوبا جعل يسكن روعهم ويقول: «يا قوم لا تخافوا من كلام هذا الهاتف، فإن هذا الوادي ليكثر فيه الكهان والشياطين، وهذا الهاتف شيطان قد علم قصدكم وأراد أن يخوّفكم ويثبطكم عن عزمكم، فلا تخافوا وامضوا على نياتكم»، إلى أن صدَّقوا مقالته وبادروا إلى إنزال الأحمال.

٥ ـ في بعض المصادر أن عبد الله (ع) أثناء وجود اليهود ومُقدَّمهم «هيوبا» في مكة لقتله، رأى في المنام سيوفاً مجردة في أيدي قردة قعود على أدبارهم وهم يهزون السيوف في وجهه، ثم أنه علا في الهواء، فنزلت نار من السماء أحرقت القردة جميعها. وقد أفاق خائفاً وقص رؤياه على أبيه، فأتى به عبد المطلب إلى هيوبا ورهطه اليهود ليعبروا له الرؤيا، فزادتهم خوفاً منه ونقمة عليه، وأن هيوبا هوّن الأمر على عبد المطلب وولده وقال: إنها أضغاث أحلام.

فاغتنموا الفرصة، وهموا أن يتبعوا أثره بحيث لا يشعر بهم أحد، يحرضهم على ذلك هيوبا قائلاً لهم: «ما انتظاركم وقد خرج الذي تطلبونه؟»؛ وهم يماطلون في الخروج يقولون: «إنا نخاف من فتيان مكة وفرسان بني هاشم، فإنهم لا يطاقون، وقد ذلت لهم العمالقة وغيرهم، ونحن نخشى أن يشعروا بنا ويتبعونا، وإذاً لا يفلت من سيفهم أحد منّا»؛ فغضب هيوبا وقال: «خاب سعيكم! إذا كنتم هكذا، فما الذي أتى بكم إلى هنا؟ قوموا وانهضوا إلى ما عزمتم عليه، فإنه لابد من قتل هذا الغلام ولو طال عليكم المقام، وإنكم لن تجدوا يوماً مثل هذا اليوم، ولا ينبغي التواني في ذلك؛ وإذا قتلتموه وخفتم التهمة به، فعليَّ دِيَتُه»؛ ولم يزل هيوبا يلح عليهم في اللحوق بعبد الله ويشجعهم على قتله إلى أن استجابوا له واتفقت آراؤهم على ذلك. فبعثوا عبداً من عبيدهم قبل خروجهم يتجسس خبر عبد الله كالعين عليه، حتى يعرف محله ويرجع إلى سادته يخبرهم بذلك، فلم يكن إلاّ زمان قليل حتى رجع العبد إليهم وأخبرهم أنه قد غاب بين الجبال والشعاب بعيداً عن العمران، وليس معه إنسان. فنهض القوم مسرعين للحوق به واغتياله، وتركوا جمعاً منهم عند الأمتعة، وخرج الباقون يقتفون أثر عبد الله والعبدُ أمامهم يسير بهم حتى أوقفهم عليه.

وكان عبد الله حينئذٍ يسلخ حمار وحش كان قد صاده، فلم يحسَّ إلاّ وقد أحاط القوم به من كل جهة وسدّوا عليه المهرب، ظانين أنهم قد تمكنوا منه، وكانوا متلثمين لا يبين منهم إلاّ حماليق الحدق، فأحسَّ عبد الله بالشر وبقصدهم للسوء، فرفع رأسه إلى السماء ودعا ربه، ثم توجه إليهم وقال لهم: «يا قوم ما شأنكم؟ فوالله ما بسطتُ يدي إلى أحد منكم بمكروهٍ قط فتطالبوني، ولا غصبتُ مالاً، ولا قتلتُ أحداً حتى أُقتَلَ به! ما حاجتكم؟ فإن تكن سبقت مني فعلة سوء إليكم فأخبِروني بها حتى أعرفها»، فلم يرد القوم عليه جواباً، بل أشار بعضهم إلى بعض ـ وكانوا قد أخفوا سيوفهم المسمومة تحت ثيابهم ـ وهموا بمهاجمته، ولكنه لم يمهلهم، بل بادر بأسرع من الطرفة فجعل نبلةً في كبد قوسه ورماهم بها، وأصابت الرمية رجلاً منهم فخرَّ على الأرض ميتاً، ثم رماهم بثلاث نبال

أُخَر أصابت ثلاثة آخرين منهم كان فيها خروج أرواحهم وخرُّوا أمواتاً، فماج القوم من ذلك، واشتغلوا بأنفسهم دهشةً بنباله، وطارت أفئدتهم رعباً وعلاهم الخوف والفزع، ثم أخذ عبد الله نبلة خامسة ليرميهم بها وهو يقول:

ولي هِمَّةٌ تعلو على كلِّ همةٍ ... وقلبٌ صبورٌ لا يَرُوعُ مِنَ الحرب
ولي نَبلةٌ أرمي بها كلَّ ضَيْغَم ... فَتَنْفُذُ في اللَّبَّاتِ والنَّحرِ والقَلبِ[٦]
فأربعةٌ منها أصابَتْ لأربع ... ولو كاثَرُوني صِلتُ بالطَّعْنِ والضَرْبِ
أَخَذْتُ نِبالي ثم أَرسلتُ بعضَها ... فصارَتْ كبَرقٍ لاحَ في خَلَلِ السُحْبِ

فناداه هيوبا: «يا فتى احبس عنّا نبالك، فقد أسرفت في فِعالك، وقد قتلت منا رجالاً من غير ذنب ولا سابقة سبقت منّا إليك، ونحن قوم تجار، إننا نحن الذين وقفتَ علينا بالأمس مع أبيك، ولقد كان لنا عبد قد هرب منّا فأنكرناك وظنناك هو؛ أما الآن وقد رأيناك وعرفناك يا عبد الله، فما لنا معك طلابة، وإنك لأعزّ الخلق علينا وأكرمهم لدينا! فامض لسبيلك، وقد سمحنا لك بما فعلت فينا»؛ قال: «يا ويلكم، ما الذي تبين لكم مني حتى ظننتموني عبدكم؟ فهل عبدكم مثلي، أو صفته كصفتي، أو له نور كنوري؟»؛ قالوا: «إنما دخلنا الشك وأنت متباعد عنا، فلما قربت منا عرفناك، فاسمح لنا بما كان منا إليك، فإنا سمحنا لك بما كان منك، وإن كان أعظم من ذلك. إنك قتلتَ منا رجالاً لا ذنب لهم، ونحن بما أننا أكلنا طعام أبيك وشربنا شرابه، لك شاكرون، وأنت أولى بكتمان ما كان اليوم منا»؛ فانخدع عبد الله بمقالتهم وظنهم صادقين، وانصرف عنهم.

وهب بن عبد مناف، جد النبي (ص)، يخبر بني هاشم بإحاطة اليهود بعبد الله (ع)، فينقذونه

ثم ركب جواده وأخذ قوسه بيده، وعطف على ناحية المضيق يريد الخروج من بينهم، فبادر القوم إليه بأجمعهم، وأحاطوا به ثانيةً، ثم هاجموه، قسمٌ شهروا في وجهه سيوفهم، وقسم يقذفه بالحجارة، فعند

---

٦ ـ الضَيْغم والضيغمي: الأسد ـ اللبات (جمع لبة): الصدور.

ذلك أيقن بسوء ضمائرهم وخديعتهم، وحمل عليهم منفرداً كالليث المغضب، يكرُّ فيهم يميناً وشمالاً كَرَّة بعد كرَّة، حتى قتل منهم نفوساً خرّوا على الأرض صرعى، فصاح هيوبا في الباقين منهم يشجعهم ويحثهم على عبد الله، وهم لا يتجرأون على قتاله والدنوّ منه بعدما رأوا من بطولته وقوته، إلى أن ترجل عبد الله من على ظهر جواده واستند إلى المضيق ليستريح قليلاً، فبادر القوم يقذفونه بالحجارة وهو يدفعها عن نفسه؛ وبينما هم كذلك إذ فاجأهم رجال قد أقبلوا يُسابق بعضهم بعضاً في الركض، وبأيديهم السيوف مشهورة، حتى أحاطوا بأطراف اليهود، ثم اخترقوهم حتى توصلوا إلى عبد الله، وإذا هم بنو هاشم وفتيان مكة، يتقدمهم أبو طالب وحمزة والعباس وأبوهم عبد المطلب.

وكان قد أخبرهم بما نزل بعبد الله رجل اسمه «وهب بن عبد مناف»، ـ وهو والد آمنة (ع) والدة النبي (ص) ـ فإنه كان أشرف على اليهود وهم في المعركة، وهمَّ أن ينزل ليساعد عبد الله عليهم في دفاعه عن نفسه، ولكنه خاف من كثرتهم، فأسرع نحو الحرم ينادي في بني هاشم ويخبرهم بإحاطة اليهود بعبد الله، فركبوا جيادهم وتهافتوا على اللحوق به كالصقر المنقضّ على فريسته. ولما رأى اليهود ذلك وأيقنوا بالهلاك، أخذوا يتوسلون إلى عبد الله ويلوذون به مكراً وخديعة، كي يستجلبوا رضاه وعفوه فيخلصهم من قومه، يقولون: «إنما أردنا أن نعلم حقيقة الحال وشجاعتك»؛ وهو يقول لهم: «هيهات! لقد أجهدتم أنفسكم في هلاكي». وبينما هم كذلك هرب منهم جماعة إلى جبل هناك، والتجأوا إلى شبه مغارة كانت فيه وظنوا أنهم قد نجوا، ويشاء الله تعالى أن تسقط عليهم قطعة من الجبل سدَّت عليهم المضيق حتى لم يجدوا لأنفسهم مهرباً ولا منجىً، ولحقهم عبد المطلب وأصحابه فقتلوا منهم فرقة، وأسروا فرقة، وبادر سائر بني هاشم إلى من بقي منهم في جانب آخر وفيهم هيوبا فقتلوا منهم كثيراً وأسروا الباقين، ثم جمعوا السبايا وربَّقوهم[٧] عن آخرهم، فأخذ القوم يتوسلون إلى بني هاشم يقولون:

---

٧ ـ ربقوهم: ربطوهم.

«دعونا نصل إلى مكة، وافعلوا بنا ما تريدون، فإن لنا مع الناس أمتعة وأموالاً كنا قد أخفيناها، فخذوها ولا تقتلونا».

وأقبل عبد المطلب على ابنه عبد الله يقبله ويبكي ويقول له: «يا بنيّ هذا تأويل رؤياك من قبل! يا ولدي، لو لم يخبرنا وهب بن عبد مناف بخبرك ما كنا علمنا ذلك، ولكن الله تعالى يحفظك!»؛ ثم أقبلوا بالأسارى مكتوفين إلى مكة، إلى أن أشرفوا عليها، فخرج إليهم الناس والجموع يهنئونهم بسلامة عبد الله، ويقذفون اليهود بالحجارة، حتى أدخلوهم البلد، فأمر عبد المطلب بحبسهم في دار وهب، حتى يستقصوا ديونهم وأموالهم ولا يبقى لهم شيء، وانصرف بنو هاشم وغيرهم إلى بيوتهم فرحين مسرورين.

وَهَب يميل إلى تزويج عبد الله (ع) من ابنته آمنة (ع)

ثم انصرف أيضاً بعدئذٍ إلى منزله، وأقبل على زوجته «برّة بنت عبد العزّى» يخبرها عن قضية عبد الله وشجاعته، وقال في ما قال: «لقد رأيت اليوم من عبد الله وهو يكرّ على هؤلاء القوم عجباً ما رأيته من أحد، فإنه كان كلما رماهم بنبلة قتل منهم إنساناً»؛ إلى أن قال: «وإنه أجمل الناس وجهاً بما خصه الله تعالى به من الضياء الساطع والنور اللامع، فاذهبي إلى أبيه واخطبيه لابنتنا آمنة واعرضيها عليه، فعسى أن يقبلها، فإن قبلها سعدنا سعادة عظيمة!»؛ قالت: «يا وهب، إن رؤساء مكة وأبطال الحرم وأشراف البطحاء قد رغبوا فيه، وقد كاتبه ملوك الشام والعراق على ذلك وأبى عليهم، فكيف يتزوج بابنتنا وهي سيئة الحال قليلة المال؟»؛ فقال: «إن لي عليهم اليد، وذلك أني أنا الذي أخبرتهم بأمر عبد الله مع هؤلاء اليهود، ولولا ذلك لما علموا به»؛ إلى أن قامت برة ولبست أفخر أثوابها، وتوجهت نحو دار عبد المطلب حتى انتهت إليه، فوجدته يحدِّث أهل بيته بخبر عبد الله، فوقفت عليه وقالت: «أنعم الله مساءكم ودامت نُعماكم»؛ فردَّ عليها عبد المطلب التحية والإكرام ورحَّب بها، ثم قال لها: «لقد سلف لبعلك اليوم علينا يد لا نقدر أن نكافيه عليها أبداً، بل له علينا

بذلك أياد بالغة، وسنجازيه بما فعل إن شاء الله تعالى!»؛ فطمعت برة من كلامه في حصول مقصودها واستبشرت بذلك.

ثم قال لها: «بلغي بعلك عنّا التحية والإكرام، وأنه إن كانت له لدينا حاجة نقضيها له مهما كانت، إن شاء الله تعالى!»؛ قالت: «يا أبا الحارث، قد طلبنا تعجيلَ المَسرَّة! وقد علمنا أن ملوك الشام والعراق وغيرهم تطاولت إليكم، ورغبوا في ولدكم، يطلبون أنواركم المضيئة، ونحن أيضاً طمعنا في مَن طمع في ولدكم عبد الله، ورجوناكم مثل مَن رجا؛ وقد رجا وهبُ أن يكون عبد الله بعلاً لابنتنا، لذا جئناكم طامعين وراغبين في النور الذي في وجهه، ونسألكم أن تقبلونا، ولئن كانت ابنتنا قليلة المال سيئة الحال، فإن علينا أن نجملها ونجهزها، وهي هدية منّا لابنك!»؛ فتوجه عبد المطلب إلى عبد الله يقول له: «ما تقول يا بني في ما سمعت؟ فوالله ما في بنات مكة مثلُها، وإنها محتشمة في نفسها، وهي طاهرة مطهرة عاقلة أديبة جميلة ديّنة!»؛ فسكت عبد الله ولم يردّ جواباً، فعلم أبوه أنه قد مال إليها، لأنه كان قبل ذلك كلما عُرضت عليه بنت للزواج، ظهر في وجهه أثر الكراهة والامتناع، أما حين عُرضت آمنة عليه فلم يظهر منه إلاّ السرور والقبول، فعند ذلك توجه عبد المطلب إلى برَّة وقال لها: «قد قبلنا دعوتكم وأجبناها، ورضينا بابنتكم!».

وكانت فاطمة أم عبد الله حاضرة تسمع الخطاب والجواب، فقالت لبرَّة: «أنا أمضي معك حتى أنظر آمنة وأراها، فإن كانت تصلح لولدي رضينا بها»؛ ففرحت برّة وانصرفت إلى زوجها مستبشرة، وفوجئت في رجوعها بأنها سمعت هاتفاً ينادي: «بخٍ بخٍ لكم يا معشر أهل الصفا، قد قرب خروج المصطفى!»؛ فتفاءلت بذلك خيراً وازدادت نشاطاً وسروراً، حتى أخذت تهرول في مشيتها إلى أن دخلت على بعلها، فبادر وهب إلى سؤالها يقول لها: «ما وراءك؟»؛ قالت: «لقد سعدتَ سعادة وعلا قدرك في جملة العالمين! اعلم أن عبد المطلب قد رضي بابنتك، ولكنَّ مع الفرحة خوفَ ترحة»؛ قال: «وما هي؟»؛ قالت: «إن فاطمة خارجة إلينا تنظر إلى ابنتك آمنة، فإن رضيت بها، وإلاّ لم يكن شيء، وإني خائفة أن لا ترضى بها»؛ ففرح وهب بذلك فرحاً شديداً، واستعجل زوجته يأمرها

بتزيين آمنة قائلاً لها: «انطلقي الساعة إلى ابنتك، فزينيها والبسيها أفخر الثياب وقلديها أفخر ما عندك من الحليّ، فعسى ولعلّ أن تُعجِب فاطمةَ وتقبلها».

فعمدت برّة مسرعة إلى ابنتها، وألبستها الحليّ والحلل والثياب الفاخرة، وضَفَّرت شعرها، وأرْخَت ذوائبها على كتفيها، وهي توصيها بحفظ الآداب مع فاطمة، وأن تتأدب لها أحسن الأدب. وكانت ما تزال ترغبها في نور وجه عبد الله، وتحرضها على السعي في الوصول إلى قربه، إذ أقبلت فاطمة ودخلت حجرة آمنة، فقامت آمنة على قدميها إجلالاً وتعظيماً لها، ثم رَحَّبت بها أحسن ترحيب بكل فصاحة وبلاغة، وقد كساها الله تعالى في ساعتها جمالاً لا يوصف، وحسناً ونوراً أضاء مجلسها، فأعجبت بها فاطمة كثيراً وفرحت برؤيتها فرحاً شديداً، حتى قالت لأمّها: «يا برة، ما كنتُ عهدتُ آمنةَ بهذه الصورة، وإني قد رأيتها مراراً ولم أرها مثل هذا اليوم!»؛ قالت برّة: «يا فاطمة، كل ذلك ببركتكم علينا!».

ثم جعلت فاطمة تحدث آمنة وتستمع إليها، فإذا هي أفصح نساء مكة، فتضاعف سرور فاطمة، وقامت فرجعت مسرعة إلى بعلها وولدها عبد الله وأخبرتهما الخبر، ثم أخذت تشجع عبد الله على قبول آمنة قائلة: «يا بني ليس في بنات العرب مثلها أبداً، وإني قد ارتضيتها، وإن الله تعالى لا يودع هذا النور إلاّ في مثل هذه!».

خطبة آمنة (أم النبي) لعبد الله (أبيه)، وزفافهما

ثم لما كان الليل، ذهب عبد المطلب مع زوجته فاطمة وابنهما عبد الله إلى دار وهب لمحادثته في أمر الخطبة، فاستقبلهم وهب وزوجته أفضل استقبال، وأبدى كل تكريم وتقدير، ثم أثار عبد المطلب موضوع زيارته والغرض منها، فرحب وهب كثيراً، إلى أن قال في جملة كلامه: «يا أبا الحارث، هذه آمنة هدية مني إليك بغير صداق، لا معجل ولا مؤجل!»؛ فقال عبد المطلب: «جزيت خيراً! ولكن لابد من صداق، بل

ولابد أن يكون بيننا وبينك من يشهد على ذلك من قومنا»[٨]. ثم قال لوهب: «إذا كان الغد، جمعنا باكراً قومك وقومنا يشهدون بذلك وبما يكون من الصداق»؛ فقال وهب: «حبّاً وكرامة!»؛ وجزاه خيراً، ثم انصرف عبد المطلب بمن معه إلى منزله.

ولما أصبح الصباح، بعث كل من عبد المطلب ووهب إلى أقربائهما وبني عمومتهما وسائر من يحبان ليحضروا الخطبة في «الأبطح»، ولبس عبد الله أفخر ثيابه، ثم مضى في عمومته وأقاربه مع أبيه إلى الأبطح وهو كالبدر المنير بين النجوم، حتى إذا أشرفوا على الناس وهم مجتمعون في الأبطح، قام كل قاعد إجلالاً لهم وتعظيماً لمقامهم، حتى أجلسوهم في أوساطهم. ولما استقرّ بهم المجلس قام عبد المطلب فيهم خطيباً يقول: «الحمد لله حمد الشاكرين، حمداً استوجبه بما أنعم به علينا وأعطانا، وجعلنا لبيته الحرام جيرانا، ولحرمه سكانا، وألقى محبتنا في قلوب عباده، وشرَّفنا على جميع الأمم، ووقانا شرّ الآفات والنقم! والحمد لله الذي أحلَّ لنا النكاح وحرَّم علينا السفاح، وأمرنا بالاتصال وحرّم علينا الحرام! اعلموا يا من حضر، أن ولدنا هذا عبدَ الله الذي تعرفونه، قد خطب فتاتكم آمنة، بصداق معجل ومؤجل: أربعة آلاف درهم بيضٍ هَجَرية، وخمس مئة مثقالِ ذهب أحمر، فهل رضيتم بذلك مِن وَلَدنا؟»؛ فأجابه وهب وقال: «نعم قد رضينا بذلك!»؛ فقال عبد المطلب: «اشهدوا يا من حضر»؛ ثم عقدوا عقد النكاح بينهما، وتصافح القوم وتصافقوا وتهانأوا وتعانقوا فرحين مستبشرين.

ثم أمر وهب بتقديم الموائد، وأنواع الطعام الحار والبارد، والحلو والحامض، فقدمت للجموع، وأكلوا وشربوا جميعاً مسرورين؛ ونثر عبد المطلب على ولده عبد الله ما يعادل ألف درهم من النثار المتخذ من

---

٨ ـ في بعض الروايات أن اليهود الذين كانوا أسرى موثقي الأيدي في بيت وهب، سمعوا حوار الخطبة بين الزائرين وصاحب الدار، فحاولوا الإيقاع بهم وقتلهم بعدما استطاع رئيسهم هيوبا أن يفك وثاقه ثم وثاق رفاقه، ولكن وهباً وعبد المطلب وعبد الله، بادروا إليهم بسيوفهم فقتلوهم ومنعوا فتنتهم.

المسك والعنبر والكافور والسكر والبنادق وغيرها، ونثر وهب أيضاً عليه العنبر بقيمة ألف درهم، ونهب الحاضرون النثار وفرحوا فرحاً عظيماً.

ثم إن عبد المطلب ازداد حماسة، فأخذ يستعجل وهباً في أمر زفاف ولديهما، إلى أن قال في جملة كلامه: «إني ورب السماء لا أفارق هذا السقف، أو أؤلف بين ولدي وحليلته!»؛ وجعل وهب يستمهله ويقول: «لا يكون بهذه السرعة»؛ وهو يقول: «لابد من ذلك!»؛ إلى أن قام وهب فدخل على زوجته وأخبرها بإصرار عبد المطلب ويمينه في التعجيل في أمر الزفاف، فقامت زوجته مسرعةً ودعت عشراً من المشّاطات وطلبت منهن التعجيل في تزيين آمنة؛ فبادرت المشاطات إلى ذلك، واشتغلت كل واحدة منهن بشيء من زينتها، فمنهن مَن جعلت تنقش يديها، ومِنهن مَن تخضبها، ومنهن مَن تسرح ذؤابتها، إلى أن فرغن من ذلك عند غياب الشمس وقد أكملن لها كل زينة.

وكانوا قد نصبوا لها سريراً من الخيزران، وفرشوا عليه فرشاً من ألوان الديباج والوشي، فاجلسوا آمنة عليه، وعقدت النساء على رأسها تاجاً، وعلى جانبيها إكليلاً، وعلى عنقها قلادة من الدر والجوهر، وتختمت بأنواع الخواتم؛ فجاء وهب إلى عبد المطلب وقال: «يا سيدي، أقدِم على العروس»؛ فقام عبد المطلب بابنه عبد الله وأقبلا إليها، وإذا هي كفلقة قمر، فتقدم بابنه إلى السرير وقبَّله أولاً ثم قبل عين العروس، وأصعد بعدئذٍ ابنه على السرير وأجلسه بجانبها، فازداد الفرح به وبأهل العروس، وغلب عليهم السرور حتى كادوا أن لا يملكوا أنفسهم من البكاء شوقاً وابتهاجاً، وزفوا آمنة إليه في الليلة نفسها، وانصرف عبد المطلب فأولم في داره وليمة عظيمة حضرها أهل مكة وأوديتها وشعابها وسوادها، وأقاموا كلهم في ضيافته أربعة أيام.

البشارات والأخبار السابقة بظهور محمد (ص) قبل ولادته

لا بد قبل الحديث عن نتيجة زواج عبد الله (ع) بآمنة (ع) وحملها منه بالنبي الأكرم (ص)، من الإشارة إلى النبؤات والبشارات السابقة، المخبرة عن ظهور نبي من العرب، يولَد في بطحاء مكة وبين ظهراني قريش، وذلك قبل ولادته بآماد طويلة وفي بقاع مختلفة.

فلقد كانت الأمم السالفة على اختلاف أديانها وتشتت طرائقها وتفرّق مذاهبها، تنتظر أيام الرسول الموعود أحمد (صلعم)، وتتوقع ظهوره. ولقد بشَّر به الأنبياء والرسل والصحف السابقة، وكثير من علماء أهل الكتاب، كما بشر به كهنة وأحبار ورهبان، وكذلك أنبأ به وأخبر عنه أفراد متميزون أو متنبّئون كانوا يرون في النجوم وتقلبات الفلك وأنواء الطبيعة علائم وإشارات يفهمون لها دلالات خاصة. ولو أردنا بيان كل الآيات البيّنات عن نبوّته، واستقصاء جميع الحوادث والأمارات والعلائم التي ظهرت، سواء في مكة أو سواها من أكناف الأرض، منذ حَمْل آمنة (ع) به وأثناء الحمل، لاحتجنا إلى مجلدات ضخمة عديدة؛ لذا نكتفي بذكر بعضها، والإلماح إلى بعض آخر، لإعطاء فكرة عن ما جعل الله تعالى لرسوله الحبيب من كرامة ومقام جليل.

الأنبياء والصحف السابقة وأهل الكتاب

فصحف إبراهيم وموسى (ع)، وزبور داود (ع)، وتوراة اليهود وما ألحِق بها من أسفار في العهد القديم، وإنجيل النصارى وما أضيف إليه من

أعمال الرسل ومن أسفار في العهد الجديد، وسائر كتب الأمم السالفة، تضمنت كلها من الإخبار به والحديث عنه ما لا يمكننا بيانه كله في هذا المختصر. ولقد كتب جم غفير من علمائنا، قدّس الله أسرارهم، في ذلك كتباً كثيرة ومؤلفات عديدة، منهم المرحوم الحجة البلاغي الشيخ محمد جواد النجفي طاب ثراه، ومنهم الفاضل النحرير الشيخ رحمة الله بن خليل الهندي الشافعي (رض) في كتابه المسمى «إظهار الحق» وغيرهما، مما هو مطبوع منتشر في البلاد بين العباد، ومن أرادها فليطلبها، ومن طلبها وجدها.

وقال السيد ابن طاووس (قده) في كتاب «سعد السعود»: «وجدت في صحف إدريس النبي (ع)، أن آدم (ع) أبا البشر، نظر إلى طائفة من ذريته يتلألأ نورُهم، فسأل ربّه عنهم، فأوحى الله تعالى إليه يقول: هؤلاء الأنبياء من ذرّيتك؛ قال: يا رب فما بال نور هذا الأخير ساطعاً أكثر من أنوارهم جميعاً؟ قال تعالى: لفضله عليهم جميعاً! قال: يا رب ومن هذا النبي؟ وما اسمه؟ قال تعالى: هذا محمد نبيي ورسولي، وأميني ونجيي، وخِيَرتي وصَفْوَتي وخالصتي، وحبيبي وخليلي، وأكرم خلقي عليَّ، وأحبهم إليَّ، وآثرهم عندي، وأقربهم مني، وأعرفهم لي، وأرجحهم حلماً وعلماً، وإيماناً ويقيناً، وصدقاً وبرّاً، وعفافاً وعبادة، وخشوعاً وورعاً، وسلماً وإسلاماً، أخذت له ميثاق حملة عرشي فما دونهم من خلائقي في السماوات والأرض، بالإيمان به والإقرار بنبوته، فآمِنْ به يا آدم، تزدد مني قربةً ومنزِلةً وفضلاً ونوراً ووقاراً! فقال آدم: آمنت بالله ورسوله محمد! قال الله تعالى: قد أوجبت لك يا آدم وزدتك فضلاً وكرامة، وأنت يا آدم أولُ الأنبياء والرسل، وابنك محمد خاتمُ الأنبياء والرسل، وأول من تنشقُّ عنه الأرض يوم القيامة، وأول من يُكْسَى ويُحمَل إلى الموقف، وأول شافع وأول مشفَّع، وأول قارع لأبواب الجنان، وأول من تُفتَح له، وأول من يدخل الجنة، وقد كنيتك به فأنت أبو محمد؛ فقال آدم: الحمد لله الذي جعل من ذريتي مَن فضَّله بهذه الفضائل وسبقني إلى الجنة، ولا أحسده».

ثم قال السيد (قده): «ورأيت في السورة السابعة عشرة من زبور

داود (ع)، أن الله تعالى قال له: يا داود اسمع ما أقول، وأْمُرْ سليمان بعدك أن يقول: إن الأرض أُورِثُها محمداً وأمته، وهم خلافكم، ولا تكون صلاتهم بالطنابير، ولا يقدّسون الأوتار».

ولقد كان اليهود يهددون عبدة الأصنام وسائر مخالفيهم في الدين، بقدومه (صلعم)، ويَعِدون أنفسهم بالانتقام من أعدائهم بعد ظهوره بوجوده، كما أخبر الله سبحانه بقوله تعالى في كتابه: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا**﴾[1]، حتى إذا ظهر النبي الكريم (صلعم) وبُعث بالرسالة وعرفوه، كفروا به، وذلك قوله جلّ وعلا في تكملة الآية نفسها: ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾ وقال سبحانه: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾[2] الخ.

وكذلك كان ينتظره النصارى، لأنّ المسيح (ع) بشّرهم به (صلعم) رسولاً يأتي من بعده، وفي ذلك قوله تعالى عن قول المسيح (ع): ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[3] الخ، وغير ذلك من الآيات الشريفة القرآنية الدالة على ما ذكرنا.

الأحبار والكهنة:

. . **كعب الأحبار**:

ورُوي عن «كعب الأحبار» ـ وكان من أكابر علماء أهل الكتاب، وأسلم في عصر أمير المؤمنين ـ انه قال: «إني قرأت اثنين وسبعين كتاباً نزلت كلها من السماء، وقرأت أيضاً صحف دانيال كلها، فوجدت في جميعها ذكر مولد محمد ومولد عترته، وان اسمه لَمعروف فيها، وانه لم يولد نبي قط فنزلت عليه الملائكة ما خلا عيسى وأحمد؛ وما ضُرب على آدميةٍ حُجُب الجنة غير مريم أم عيسى وآمنة أم أحمد؛ وما وُكلت الملائكة

---

١ ـ القرآن الكريم، الجزء ١، السورة ٢ البقرة: الآية ٨٩.

٢ ـ ج ٩، س ٧ الأعراف: ١٥٧.

٣ ـ ج ٢٨، س ٦١ الصف: ٦.

بأنثى حملت، غير أم المسيح وأم أحمد؛ وانه إذا حملت آمنةُ به نادى منادٍ في السماوات السبع: أبشروا، فقد حُمِل الليلة بأحمد! وكذلك في الأرضين وفي البحور، حتى لا يبقى يومئذٍ في الأرض دابة تدبُّ ولا طائر يطير إلاّ علم بمولده، وانه يُبنَى في الجنة ليلةَ مولده سبعون ألف قصر من ياقوت أحمر، وسبعون ألف قصر من لؤلؤ رطب تُسمَّى قصور الولادة، وتنجد الجنان، ويقال لها: اهتزي وتزيَّني، فإن نبيَّ أوليائك قد وُلد، فتضحك الجنة يومئذٍ وتبقى ضاحكة إلى يوم القيامة...»[٤]، إلى آخر كلامه، وأمثاله من كلمات غيره من الكهنة وعلماء أهل الكتاب وسواهم، وبشاراتهم بمولد النبي (صلعم).

* * *

كذلك روي أن أمير المؤمنين (ع)، لما رجع من حرب صفين، وكان نزل بعسكره قريباً من دير نصراني، خرج عليه من الدير شيخ جميل الوجه حسن الهيئة والسَمْت، وبيده كتاب ينظر فيه، حتى إذا دنا من الأمير(ع) سلّم عليه بالخلافة، فقال له أمير المؤمنين (ع): «مرحباً بك يا أخي شمعون بن حمون، كيف حالك رحمك الله؟!»؛ قال: «بخير يا أميرَ المؤمنين وسيدَ المسلمين ووصيَ رسول ربّ العالمين! إني رجل من أتباع أخيك عيسى بن مريم (ع)، من نسل شمعون بن يوحنا أفضل حوارييه الإثني عشر، وأحبهم إليه وآثرهم عنده، والذي إليه أوصى عيسى وإليه دفع كتبه وعلمه وحكمته ولم يزل أهل بيته على دينه متمسكين به لم يكفروا ولم يبدلوا ولم يغيروا، وتلك الكتب عندي بإملاء عيسى بن مريم وخطّ أبينا بيده، وفيها خبر كل شيء يفعله الناس من بعده، مُلْكِ مَلِكٍ وما يملك، وما يكون في زمن كلٍّ منهم، حتى يبعث الله رجلاً من العرب، من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الله، من أرض تدعى تهامة، من قرية يقال لها مكة، يقال له أحمد، الأنجل العينين، المقرون الحاجبين، صاحب الناقة والحمار والقضيب والتاج (يعني العمامة)، له أثنا عشر اسماً».

---

٤ ـ وفي الرواية أيضاً أن في البحر حوتاً يقال له «طموسا» وهو سيد الحيتان، له سبع مئة ألف ذَنَب، إذا مشى على ظهره آلاف من الثيران لا يشعر بها، وأنه يضطرب فرحاً ليلة ميلاد أحمد (ص)، ولولا أن الله يثبته لجعل عاليَها سافلَها.

ثم ذكر الراهب مولد النبي (صلعم) ومبعثه وهجرته، ومن يقاتله، ومن ينصره ومن يعاديه، وكم يعيش، وما تلقى أمته من بعده، إلى أن ينزل الله عيسى بن مريم (ع) من السماء، ثم قال:

«وذكر في ذلك الكتاب ثلاثة عشر رجلاً - هم النبي (صلعم) وخلفاؤه الإثنا عشر (ع) - من وُلد إسماعيل بن إبراهيم خليل الله صلّى الله عليهم، وهم خير خلق الله إلى الله، وان الله وليٌّ من والاهم وعدوٌّ من عاداهم، مَن أطاعهم اهتدى، ومن عصاهم ضلَّ، طاعتهم طاعة لله، ومعصيتهم معصية لله، مكتوبة فيه أسماؤهم وأنسابهم ونُعوتهم، وكم يعيش كل رجل منهم، واحد بعد واحد، وكم رجلاً منهم يَصيرون أدلة للناس، حتى ينزل الله عيسى على آخرهم، فيصلي عيسى خلفه ويقول: إنكم أئمة لا ينبغي لأحد أن يتقدم عليكم؛ فيتقدم آخر الخلفاء ويصلي بالناس، وعيسى خلفه في الصف.

أما أولُهم وأفضلهم وخيرهم، ومن له مثلُ أجورهم وأجور من أطاعهم واهتدى بهداهم، فهو أحمد رسول الله واسمه محمد، ومِنْ ألقابه: يس، والفتاح، والختام، والحاشر، والعاقب، والقائد، وهو نبي الله، وخليل الله، وحبيب الله، وصفيه، وأمينه، وخِيَرته، يراه وتقلبه في الساجدين (يعني من الأنبياء والأولياء عليهم السلام)، ويكلمه برحمته، وهو أكرم خلق الله على الله، وأحبهم إلى الله، ولا أحب إلى الله منه، يقعده يوم القيامة على عرشه، ويشفع لكل من شفع له، باسمه جرى القلم في اللوح المحفوظ في أم الكتاب.

أما الثاني الذي يليه فهو أخوه صاحب اللواء إلى يوم المحشر الأكبر، ووصيه ووزيره وخليفته في أُمته، وأحب خلق الله إلى الله بعده، علي بن أبي طالب، وليُّ كل مؤمن بعده.

وبعده أحد عشر إماماً من ولد محمّد وولد علي أول خلفائه، اثنان منهم سَمِيّا ابني هارون شُبَّر وشُبَير، وتسعة من ولد أصغرهما الذي هو الحسين، واحد بعد واحد، آخرهم الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه؛ وفي الكتاب أيضاً تسمية كل من يملك منهم، ومن يستتر بدينه، ومن

يظهر، فأول من يظهر منهم يملأ جميع بلاد الله قسطاً وعدلاً، ويملك ما بين المشرق والمغرب حتى يظهره الله على الأديان كلها. فلما بعث النبي وأبي حيّ، صدَّق به وآمن به وشهد أنه رسول الله دون أن يلقاه، فقد كان شيخاً كبيراً لم تكن به القدرة على الشخوص والسير إلى النبي، فمات مؤمناً ولم يره؛ ولكنه قبل موته قال لي: يا بني، إن وصيَّ محمدٍ وخليفته الذي اسمه ونعته في هذا الكتاب، سيمرُّ بك إذا مضى حكم ثلاثة قبله مذكورون هنا بأسمائهم وقبائلهم ونعتهم، وكم يملك كل واحد منهم، فإذا مرَّ بك فاخرج وبايعه، وقاتل معه عدوَّه، فإن الجهاد معه كالجهاد مع محمد، والموالي له كالموالي لمحمد، والمعادي له كالمعادي لمحمد».

ثم قال الراهب: «وفي هذا الكتاب يا أمير المؤمنين اثنا عشر إماماً من قريش، ومن معهم من أئمة الضلالة، يعادون أهل بيته، ويدَّعون حقهم ويمنعونهم منه، ويطردونهم ويحرمونهم، ويتبرأون منهم ويخوفونهم، مُسَمَّون ـ واحداً واحداً ـ بأسمائهم ونعوتهم، وكم يملك كل واحد منهم، وما يلقى منهم وُلْدُك وأنصارك وشيعتك، من القتل والحرب والبلاء والخوف، وكيف يديلكم الله منهم ومن أوليائهم وأنصارهم، وما يلقون من الذلّ والحرب والبلاء والخزي والقتل والخوف منهم. يا أمير المؤمنين ابسط يدك أبايعك، فإني أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وأشهد أنّك خليفة رسول الله في أمته، ووصيه وشاهده على خلقه، وحجته في أرضه، وأن الإسلام دين الله، وإني أبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، فإنه دين الله الذي اصطفاه لنفسه ورضيه لأوليائه، وإنه دين عيسى بن مريم ومن كان قبله من أنبياء الله ورسله، وهو الذي دان به من مضى من آبائي، وإني أتولاك وأتولى أولياءك، وأبرأ من عدوك وأتولى الأئمة من ولدك، وأبرأ من عدوهم، وممن خالفهم وبرىء منهم ومَن ادعى حقهم وظَلَمهم من الأولين والآخرين».

ثم تناول الراهب يد أمير المؤمنين (ع) وقال: «يا أمير المؤمنين، هذا هو الكتاب»؛ ولما ناوله إياه، أمر أمير المؤمنين(ع) رجلاً من أصحابه بأن يأتي بمترجم يشرح كتاب الراهب ويكتبه بالعربية، فلما فرغ المترجم من ذلك، قال أمير المؤمنين (ع) لابنه الحسن (ع): «يا بني آئتني بالكتاب

الذي دفعتُه إليك واقرأه»؛ ثم قال للرجل: «وانظر أنت يا فلان في نسخة هذا الكتاب، فإنه خطي بيدي وإملاء رسول الله (صلعم)»؛ فجعل الحسن (ع) يقرأ نسخة أبيه (ع)، والرجل ينظر في ترجمة كتاب الراهب، وسائر الناس يستمعون، فوجدوهما متطابقين في جميع الأمور المذكورة، ليس في أي منهما تقديم ولا تأخير عما في الثاني، ولا يخالف أحدهما الآخر، ولا حتى في حرف واحد، فكأنه إملاء رجل واحد على رجلين، فحمد أمير المؤمنين (ع) ربه وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي لو شاء لم تختلف الأمة ولم تفترق، والحمد لله الذي لم يَنْسَني، ولم يضع أمري ولم يخمد ذكري عنده وعند أوليائه، إذ صغر وخمد عنده ذكر أولياء الشيطان وحزبه!»؛ واستبشر بذلك أصحاب أمير المؤمنين (ع)، وفرحوا بما سمعوا من الراهب غاية الفرح، حتى عُرف ذلك في وجوههم، وشكروا ربهم كثيراً على هدايتهم ومعرفتهم بإمامهم (ونحن نشكر الله تعالى على ذلك كثيراً ونحمده بكرة وأصيلاً).

* * *

سطيح وشقّ

ولكن لعل الأبرز والأشهر في التواريخ من كل الكهنة والأحبار المخبرين والمتنبئين، كاهنان عظيمان من اليمن كانا في عصر واحد، وفاقا كهنة زمانهما في العلم والكهانة حتى كان الناس يتحدثون عنهما في كل مكان، أحدهما يدعى ربيعة[٥] بن مازن بن غسان؛ كان أعلم الكهان، وكان يُعرف بلقب «سَطيح»، والآخر شق[٥] بن باهلة اليماني.

أما ربيعة فأعطِيَ لقب «سطيح» لأنه كان مسطحاً دائماً على ظهره، وكان جسداً ملقى لا يقدر على الجلوس[٦]، وكان لا ينام الليل إلاّ اليسير، يقلب طول الليالي طرفه في السماء، ينظر إلى النجوم الزاهرات، والأفلاك

---

٥ - جعل المسعودي في «مروج الذهب» (ج٤) اسم سطيح «ربيع بن ربيعة»، وجاء اسم الكاهن الثاني في الأصل من الطبعة الأولى من كتابنا هذا: «وشق»، ولكن الأشهر في التواريخ أنه «شق» فاعتمدنا هذا الاسم الأخير. - المحقق.

٦ - بل قيل إنه كان قطعة لحم بلا عظم ولا عصب، إلاّ في جمجمة رأسه، وكان يُطوى كما يطوى الثوب وينشر.

الدائرات، والبروق اللامعات. وكان يُحمَل على وَضَمةٍ[٧] إلى الأمصار، ويُرفع إلى الملوك يسألونه عن غوامض الأخبار فينبئهم بما في قلوبهم من الأسرار، ويخبر بما يحدث في الزمان من العجائب، وهو ملقى على ظهره، شاخص ببصره، لا يتحرك منه سوى عينيه ولسانه؛ وقد كان من المُعَمَّرين[٨].

وأما «شق» فسمي كذلك لأنه كان شق إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة وكان هو أيضاً من المعمرين.

وقد حدث أن أحد الملوك في عصرهما ـ ويُدعى ربيعة بن مضر ـ رأى في منامه رؤيا هالته، فبعث في أهل مملكته فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا قائفاً ولا منجماً إلاّ جمعهم عنده وأحضرهم لديه، ثم قال لهم: «إني قد رأيت رؤيا هالتني، فأخبروني بتأويلها»؛ قالوا: «اقصصها علينا لنخبرك بتأويلها»؛ قال: «إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، وإنه لا يعرف تأويلها إلاّ من يعرفُها قبل أن أخبرَه بها»؛ فقال أحدهم: «إن كان الملك يريد هذا، فليبعث إلى سطيح وشق، فإنه ليس أحد أعلم منهما، وهما يخبرانك بما سألت»؛ فبعث الملك إليهما.

وقدم عليه سطيح قبل شق فقال له الملك: «يا سطيح، إني قد رأيت رؤيا هالتني وأفظعتني، فأخبرني بها، وإنك إن أصبتَها أصبتَ تأويلها»؛ قال: «أيها الملك، رأيتَ في مَنامِكَ جمجمةً، خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة (يعني مكة)، فأكلَتْ منها كلُ ذات جمجمة»؛ فقال الملك: «ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟»؛ قال: «أحلف بما بين الحرمين من حَنَش[٩]، لَيَهْبِطَنَّ أرضكم الحَبَش[١٠]، ولَيَكمن ما بين

---

٧ ـ الوَضَم والوَضَمة: الخشبة التي يضع عليها الجزار اللحم.

٨ ـ بل قيل فيه إنه عاش قروناً (وسنوات القرن عهدئذٍ غير اليوم). راجع وصف سطيح وشق في معظم التواريخ التراثية القديمة، وفي المراجع الحديثة التي دارت حول الموضوع أيضاً، مثلاً مروج الذهب للمسعودي، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية، سطيح ج١٢ وشق ج١٣) (والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، ج٦ ص٧٦٥ و٧٦٦).

٩ ـ الحَنَش: كل ما يصاد من الطير والهوامّ، كما أن الحنش اسم نوع من الحيات طويل.

١٠ ـ الحَبَش: أي الأحباش، شعب الحبشة.

أنين(؟)، إلى جَرَش[١١]»، قال الملك: «وأبيك يا سطيح إن هذا لغائظٌ موجع، فهو كائن في زماني أم بعده؟»؛ قال: «بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين، يمضين من السنين، ثم يُقتلون بها أجمعين، أو يخرجون منها هاربين!»؛ قال الملك: «من ذا الذي يلي قتلَهم وإخراجَهم؟»؛ قال: «يليه إرم ذي يَزَن، يخرج عليهم من عَدَن، فلا يترك أحداً منهم باليمن»؛ قال: «أفيدوم ذلك من سلطانه أو ينقطع؟»؛ قال: «بل ينقطع»؛ قال: «ومن يقطعه؟»؛ قال: «نبيّ زكيّ، يأتيه الوحيُ مِن قِبَل العليّ»؛ قال: «وَمَن هذا النبي؟»؛ قال: «رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر»؛ قال: «يا سطيح، وهل للدهر من آخر؟»؛ قال: «نعم، يومَ يُجمَع الأوَّلون والآخِرون، ويَسعَد فيه المحسنون، ويَشقَى فيه المسيئون»؛ قال: «أحق ما تخبرنا به يا سطيح؟»؛ قال: «نعم، والشفَقِ والفَلَق، والليلِ إذا اتَّسق، إن ما أنبأتُكَ به لَحَق!»؛ ثم انصرف سطيح وحملوه وخرجوا به.

ولم يكن إلاّ قليل حتى قدم شق على المَلِك، فسأله الملك عن رؤياه بمثل ما سأل سطيحاً، ولم يخبره بما جرى بينه وبين سطيح، فعل ذلك ليعرف موافقته كلامه أو مخالفته لكلام سطيح، فقال شق: «نعم أيها الملك، رأيتَ في مَنامِكَ جمجمةً، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكَمَة، وأكل منها كلُّ ذاتِ نَسَمة»؛ فقال الملك: «ما أخطأتَ فيها، فما عندك في تأويلها؟»؛ قال: «احلف بما بين الحرَّتَين[١٢] من إنسان، لَينزلَنّ أرضكم الحُبشان، فليغلبُن على كل طفلة البَنان[١٣]، ولَيَملِكُنَّ ما بين أنين(؟) إلى نجران[١٤]»؛ فقال الملك: «وأبيك إن هذا لَغائظ مُوجع، فمتى كائن؟ أفي زماني أم بعده؟»؛ قال: «بعده بزمان؛ ثم يستنقذكم منهم رجل عظيم الشان، ويذيقهم أشدّ الهوان»؛ قال: «ومن هذا العظيم الشان؟»؛

---

١١ ـ جَرَش: بلد بالأردن، ماتزال بقاياه قائمة حتى اليوم.

١٢ ـ الحَرَّة: الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة.

١٣ ـ البنان: رأس الإصبع. ليغلِبَنَّ حتى رؤوس أصابع الأطفال، أي ليملكن كل شيء.

١٤ ـ نجران: وادٍ على الحدود الشمالية لليمن.

قال: «هو غلام ليس بِدَنِيٍّ ولا مَدَن، يخرج من بيت ذي يَزَن»؛ قال: «فهل يدوم سلطانه أو ينقطع؟»؛ قال: «ينقطع برسول مُرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلك في قومه إلى يوم الفصل»؛ قال: «وما يوم الفصل؟»؛ قال: «يوم يُجزَى فيه الوُلاة، ويُدعَى فيه من السماء بدعوات، يسمعها الأحياءُ والأموات، ويُجمَعُ الناس للميقات، يكون فيه لمن اتّقى الفوزُ والخيرات»؛ قال الملك: «أحقٌّ ما تقول يا شق؟»؛ قال: «إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخَفْض، إنَّ ما أنبأتُكَ به لَحق ما فيه أمْض[١٥]».

* * *

وأتى سطيحاً ذات يوم أربعة من قريش يقولون له: «أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك، فأخبرنا عمّا يكون في زماننا وما يكون من بعده»، فقال: «يا معشر العرب، لا علمَ عندكم ولا فهم، لَيَنْشَأَنَّ من عقبكم دَهَم[١٦]، يطلبون أنواع العلم، يكسرون الصَنَم، ويقتلون العَجَم، ويطلبون المَغْنَم»؛ قالوا: «يا سطيح، من يكون أولئك؟»؛ فقال: «والبيت ذي الأركان، لينشأن من عقبكم وُلدان، يوحدون الرحمان، ويتركون عبادة الشيطان»؛ قالوا: «فمِن نَسل مَن يكون أولئك؟»؛ قال: «أشرف الأشراف، من عبد مناف»؛ قالوا: «من أي بلدة يخرج؟»؛ فأشار إلى جهة مكة وقال: «لَيخرُجَنَّ من ذا البلد، يهدي إلى الرشد، يعبد ربّاً أنفرد».

* * *

.. أخبار رهبان.. لابن مطعم ولذي الكلاع

ومن أخبار الأحبار والكهنة والرهبان أيضاً قول «جُبَير بن مطعم»: «كنتُ أدنى قريش بمحمد[١٧]، فلما ظننتُ أنهم سيقتلونه، خرجت من مكة كي لا أشهد ذلك، إلى أن انتهيت إلى دير للرهبان، فأحاطوني بالضيافة ثلاثة أيام، ثم سألوني عن نسبي ووطني، فقلت: إني من قرية إبراهيم،

---

١٥ ـ الأمض: ما لا يكون ظاهره هو المراد، كالتَوريَة أو الكذب.

١٦ ـ الدَهَم: الخلق الكثير.

١٧ ـ أي أكثر من كل قريش قرابة لمحمد (ص).

وان لي ابن عم يزعم أنه نبي، فآذاه قومه وأرادوا قتله، فخرجت لئلا أشهد ذلك. فأتوني بصورة شخصٍ أشبه ما يكون بمحمد، كأنه هو، في طوله وجسمه وبُعد ما بين منكبيه، فعجبتُ من ذلك غاية العجب، وقال لي القوم: إنهم لن يقتلوه، ولَيَقتُلَنَّ من يريد قتله، وانه لَنبي، ولَيُظهِرنَّهُ الله!»[١٨]. قال جبير: «فرجعت من حيني إلى مكة، حتى انتهيت إليها، وإذا بمحمد قد خرج إلى المدينة».

* * *

وقال جرير بن عبد الله البجلي: «بعثني النبي (صلعم) في أواخر أيامه بكتاب إلى «ذي الكلاع» وقومه يدعوهم إلى الإسلام، فلما انتهيت إلى بلاد الرجل ودخلت عليه، عظَّم كتاب النبي (صلعم) أحسن تعظيم، ثم عمد إلى الخروج بنفسه نحو المدينة، فتجهز وخرج في جيش عظيم، وخرجتُ معه، إلى أن انتهينا في بعض الطريق إلى دير راهب، ولما دخلنا عليه سأله الراهب: «أين تريد؟»؛ قال ذو الكلاع: «أريد هذا النبي الذي خرج في قريش، وهذا رسولُه إليّ»؛ فقال الراهب: «لقد مات هذا النبي» قلت: «من أين علمت بوفاته؟»؛ قال: «إنني قبل أن تصلوا إليَّ كنت أنظر في كتاب دانيال، ومررت فيه على صفة محمد ونعته وأيامه وأَجَله، فوجدت أنه يُتَوفَّى هذا اليوم». قال جرير: «فانصرف ذو الكلاع إلى بلده، ورجعت أنا إلى المدينة، فإذا النبي (صلعم) قد توفي في اليوم نفسه الذي أخبر عنه الراهب».

أفراد متميزون أصحاب إخبار، أو متنبئون

أما الأفراد الذين نوَّر الله تعالى بصائرهم، فكانوا يحدثون الناس بأخبار غيبيّة يستشفّونها ويرون حتمية حدوثها، أو يتنبّأون بوقائع قادمة، وقد بشروا أقوامهم بظهور النبي (ص)، وجعلوا يحرضونهم على الإيمان

---

١٨ ـ وفي رواية لتتمة حديث جبير انه قال: «فسألتهم: من أين لكم هذه الصورة؟»؛ قالوا: «إن آدم سأل ربّه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صُوَرهم، وكانت في خزانة آدم (ع) إلى أن استخرجها ذو القرنين من عند مغرب الشمس، ودفعها إلى دانيال، إلى أن صارت إلينا».

به والإقرار بنبوّته (ص) ومتابعته، قبل الحمل به وولادته وبعثته ـ صلى الله عليه وآله ـ بآماد بعيدة، فهم كثيرون؛ منهم:

الملك تُبعَّ. مَلِك «حِمْيَر» تُبَّع الأول، وهو أحد الملوك الخمسة الذين ملكوا أرباضاً واسعة من الدنيا شرقاً وغرباً، والمعروف بتبع الحِمْيَري؛ وكان هذا الملك قد سار بالجيوش، وهزم الأحزاب، وفرّق الجموع، وغلب الملوك، ومدَّن المدائن، وبلغ مُلكُه البر والبحر، وطار صيته إلى الآفاق، وملأ رعبُه القلوب. كان يبدأ كل كتاب باسمه، فيكتب في مُبتدَئه: «بسم الذي ملك برّاً وبحراً، وضحّاً وريحاً...»؛ وكان اسمه «أسعد»، وكنيته «أبو كرب»، وهو أول مَن لُقّب بتُبَّع لكثرة أتباعه ورعاياه؛ وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله سبحانه: ﴿أهم خيرٌ أم قومُ تُبّع﴾[١٩].

وهذا الملك الكريم لم يكن في أول أمره مسلماً مؤمناً، بل آمن بعد أمد من حكمه، وكان ذلك قبل عصر النبوة بوقت طويل[٢٠]. ولكن قومه لم يؤمنوا، بل تمادوا في غيّهم وضلالهم حتى نزل بهم العذاب، وصاروا عبرة لأولي الألباب، رغم ما كانوا عليه من كثرة المال وعزّ الجاه. ولقد كان ملكهم تبع يبشرهم بقدوم النبي (صلعم) ويتوقع أيامه، وينشد في ذلك أبياتاً منها قوله:

شهِدتُ على أحمدِ أنه ... رسولٌ من الله باري النَسَمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ
وكنتُ عذاباً على المشركين ... وأسقيهِمُ كأسَ حَتْفٍ وغَمْ

وكان «كعب الأحبار» يقول فيه: «نِعم الرجلُ الصالح! ذمَّ الله قومه ولم يذمّه، وكان هو مؤمناً وقومه كافرين!».

أما قصة إسلام تبّع هذا وإيمانه بعد كفر وضلالة، فهي أنه كان مرة يطوف على البلدان والديار المختلفة، وكان يختار من قوم كل بلد عشرة

---

١٩ ـ سورة الدخان: ٣٧.

٢٠ ـ يجعل البعض فاصلة الزمن بينه وبين النبي (ص) ألف سنة.

من حكمائهم يأخذهم معه في حاشيته، إلى أن بلغ مكة، ومعه حينئذٍ مجموعة كبيرة من العلماء[٢١]، ولما دخلها لم يعظّمه أهلها، فغضب عليهم وسأل وزيرَه «عمياريسا» عن ذلك فقال الوزير: «إنهم جاهلون ومعجبون بهذا البيت»؛ فأسرَّ تبّع في نفسه أن يخرب الكعبة ومكة، وأن يقتل أهلها، فأخذه الله بالصدام، وصار يجري من عينيه وأذنيه وفمه ماء منتن، عجزت الأطباء عنه، حتى اتفقت آراؤهم على أن ذلك أمر سماوي، وتفرقوا عنه. ولما كان ذات ليلة قدم عالم من يهود بني قريظة إلى وزيره، وأسرّ إليه انه «إن صدق الملك بِنيته عالجتُه»؛ فاستأذن الوزير له، ولما خلا به قال له العالم: «هل أنت نويت بهذا البيت أمراً؟»؛ قال: «نعم، كذا وكذا»؛ قال العالم: «تُب من ذلك، ولك خير الدنيا والآخرة»؛ فعدل عن نيته وقال: «قد تبت مما نويت»؛ فعوفي في ساعته، وعند ذلك آمن بالله وبإبراهيم الخليل (ع)، وخلع على الكعبة سبعة أثواب، وهو أول من كساها، وأنشأ يقول:

ولقد أتاني مِن قَريظَة عالمٌ ... حَبْر لَعَمْرُكَ في اليهودِ مُسَدَّدِ[٢٢]
قالَ أزْدَجِرْ عن قريةٍ محجوبةٍ ... لِنَبيٍّ مكةَ مِن قريش المهتدي[٢٣]
فعَفَوتُ عنهم عفوَ غيرِ مُترّبٍ ... وتركتُهُمْ لعقابِ يومِ سَرْمَدِ[٢٤]
وتـركتُهـا للّـهِ أرجُـو عفـوَهُ ... يومَ الحساب مِن الحميمِ المُوقَدِ
فلقد تركتُ له بها مِن قومِنا ... نفراً أُولي حَسَبٍ ومنٍّ يُحمَدِ
نفراً يكونُ النصرُ في أعقابِهِمْ ... أرجو بذاكَ ثوابَ ربٍّ محمدِ
قـالـوا بمكـة بيـتُ مـالٍ دائـرٌ ... وكنـوزُهُ مِـن لـؤلـؤٍ وزبَـرْجَـدِ
فـأردتُ أمـراً حـالَ ربـي دونَـهُ ... واللّهُ يدفعُ عن خَرابِ المسجدِ
فتركتُ ما أمَّلتُ فيه وما لَهُمْ ... وتـركتُهُـمْ مثلاً لأهـلِ المَشْهـدِ

ثم خرج من مكة إلى يثرب ـ مدينة الرسول (ص) ـ وهي يومئذٍ

---

٢١ ـ تصل إحدى الروايات بعددهم إلى أربعة آلاف عالم.

٢٢ ـ مُسَدَّد: صائب الحُكم.

٢٣ ـ في الأصل: مهتد

٢٤ ـ سرمد: ليس له أول ولا آخر.

أرض بائرة، ليس فيها سوى عين ماء؛ ولما بلغها اعتزل جماعةٌ من العلماء الذين كانوا معه[٢٥]، وسألوا الملك أن يأذن لهم بالإقامة والسكن في تلك الأرض، وقالوا له: «إنا خرجنا من بلداننا وطفنا مع الملك زماناً إطاعة لأمره وطمعاً في الوصول إلى هنا لأننا نرغب بل نتمنى البقاء في هذا المكان إلى أن نموت فيه»؛ فسألهم الوزير عن سبب ذلك فقالوا: «اعلم أيها الوزير أن شرف هذا البيت بشرف محمد، صاحب القرآن والقبلة واللواء والمنبر، مَن مولدُه بمكة وهجرته إلى هاهنا، ونحن على رجاء أن نُدركَه أو يُدركَهُ أولادُنا»؛ فأخذت مقالتُهم بمجامع قلب الملك، ووقعت منه موقعاً عظيماً، وأذن لهم بالمقام، وعمد هو إلى الإقامة معهم بنفسه مقدار سنة، رجاءَ أن يدرك النبي (ص)، وأمر بتعمير دورٍ لأولئك العلماء، لكل منهم دار، وزوَّج كلاً منهم بجارية معتقة، وأقام معهم سنة ينفق عليهم.

ولما يئس من إدراك النبي (ص) بعد سنة، همَّ بالرحيل، ووهب كلاً منهم مالاً جزيلاً - ومن اولادهم قبيلتا الأوس والخزرج - وكان يردد دائماً: «أما إني لو أدركته لخدمته وخرجت معه»؛ ثم كتب كتاباً إلى النبي (ص) يقول في أوله: «إلى محمد بن عبد الله خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين، من تبَّع الأول...»، ثم ذكر فيه إسلامه وإيمانه به (ص)، وانه هو من أمته، ويطلب فيه أن يجعله يوم القيامة، تحت شفاعته، ثم دفع الكتاب إلى العالم الذي نصحه بترك هدم الكعبة، ليوصله يداً بيد، وخلفاً عن سلف، إلى النبي (ص) عند ظهوره. ثم ودّعهم وخرج يسير في البلاد حتى بلغ «غلسان» وهو بلد من بلاد الهند، وهناك توفي مسلماً مؤمناً بالنبي (صلعم) وبرسالته.

ومما يُذكر أيضاً في أمر هذا الملك المؤمن، تُبَّع الحميري، انه لما وُلِد النبي (ص) وبُعث في مكة وآمن به أكثر أهل المدينة قبل هجرته (ص) إليها - على ما سيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى - أنفذوا إليه قبل الهجرة كتاب تُبَّع إلى مكة، على يد شخص يكنى أبا ليلى، ولما انتهى أبو ليلى إلى النبي (صلعم)، وجده في قبيلة بني سليم، فبادره النبي (ص) أولاً

---

٢٥ - تجعلهم إحدى الروايات أربع مئة عالم.

وقال له: «أنت أبو ليلى؟»؛ قال: «نعم!» ـ قال (ص): «ومعك كتاب تُبّع الأول؟»؛ فدهش الرجل عجباً من إخباره (ص) بالغيب، وقال: «نعم»؛ قال (ص): «هاته»؛ فأخرج الكتاب وناوله النبي (ص)، فدفعه النبي (ص) إلى أمير المؤمنين(ع)، فقرأه عليه، وجعل النبي (ص) يصغي إليه إلى أن أكمله، فقال (ص): «مرحباً بالأخ الصالح! مرحباً بالأخ الصالح! مرحباً بالأخ الصالح!»؛ وأمر أبا ليلى بالرجوع إلى يثرب.

. . كعب بن لؤي:

ومن الأفراد المتميزين أيضاً، الذين بشروا بالنبي (ص)، كعبُ بن لؤي بن غالب، وكان رجلاً جليلاً كبيراً يسكن مكة قبل ميلاد النبي (ص) بزمن طويل، وهو الذي سمّى يوم الجمعة «جمعة»، وكانت قريش تسميه قبله يوم «العروبة»، وقد كان يجمع قومه نهار الجمعة يخطب لهم فيه، ويذكر في آخر خطبته خبر النبي (ص)، ويبشرهم به ويقول: «أما بعد، فأسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا، ليل ساجٍ ونهار ضاحٍ، والأرض مِهاد والسماء بناء، والجبال أوتاد والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى زوج والذكر زوج، فَصِلُوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمروا أولادكم، فهل رأيتم مِن هالكٍ رجع؟ أو ميّت نُشِر؟ الدار أمامكم وأظن غير ما تقولون! عليكم بحَرَمكم، زيّنوه وعظموه وتمسكوا به، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم»؛ ثم يقول:

نهارٌ وليلٌ كلُ أوْبٍ بحادثٍ ... سواءٌ علينا ليلُها ونهارُها
تَؤوبان بالأحداثِ حين تأوّبا ... وما للفم الصافي عليها سُتورُها
على غفلةٍ يأتي النبيُ محمدٌ ... فيُخبِرُ اخباراً صدوقاً خبيرُها

ثم يقول: «واللّهِ لو كنتُ فيها لَتَنَصَّبتُ فيها تَنَصُّبَ الجَمَل، وأرقَلْتُ فيها إرقالَ الفحل» (يعني: انتصبت وقمت بخدمته وأسرعت وبادرت إلى طاعته)؛ ثم يقول: «ليتني أُشاهد فحوى دعوته، حين العشيرة تُبغي الحق خَذلانا!»؛ ثم كان يذكر صفات النبي (ص) نقلاً عن صحف إبراهيم (ع).

. . **أوس بن حارثة:**

ومن الأفراد الذين أخبروا في الجاهلية وقبل مبعث النبي بظهوره (ص) أوس بن حارثة بن ثعلبة، فقد كان يبشر الناس بخروج النبي الكريم[٢٦] ويوصي أهله باتباعه، وكان يقول:

إذا بُعِث المبعوثُ من آلِ غالبٍ ... بمكةَ في ما بين زمزَمَ والحِجرِ
هنالِكَ فأشْرُوا نصرَهُ بِقِلادِكم ... بني عامرٍ، إن السعادةَ في النصرِ

وكان النبي (ص) بعد مبعثه يقول فيه: «رحم الله أوساً! لقد مات على الحنيفية[٢٧]، وحثَّ على نصرتنا في الجاهلية!».

ودخل عبد الرحمان بن عوف ذات يوم على النبي (ص)، فابتدأه النبي (ص) بالكلام قائلاً: «أحملت إليَّ وديعة أو أرسلك إليَّ مرسل برسالة؟ فهاتها»؛ فقال عبد الرحمان: «نعم يا رسول الله»؛ ثم أخرج إليه كتاباً من «عفكلان الحِمْيَري» (والظاهر أنه من يهود الشام)؛ وإذا فيه خطاب للنبي (ص) من الرجل يقول:

أَشهَدُ باللّهِ ربِ موسى ... أنكَ أُرسِلْتَ بالبِطاح
فكن شفيعي إلى مليكٍ ... يدعو البرايا إلى الفلاح

وأخبر عبدُ الرحمان أنّ الرجل بشره بالنبي (ص) وقال له: «ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة! أنبئك بالمعجبة وأبشرك بالمرغبة! ان الله قد بعث من قومك نبيّاً ارتضاه، وصفياً أنزل عليه كتاباً وجعل له ثواباً، ينهى عن الأصنام، ويدعو إلى الإسلام».

. . **قِسُّ بن ساعدة:**

ومن أبرز الأفراد المتميزين كذلك، الذين بشروا بأحمد (ص) قبل ولادته، قسّ بن ساعدة بن حداق بن زهر بن إياد بن نزار، الذي كان رجلاً حكيماً أديباً في الجاهلية، والذي عاش طويلاً[٢٨] يتقفر في البراري، ويضج بالتسبيح على منهاج المسيح (ع)، لا يقرُّ له قرار، ولا يَكِنُّهُ جدار؛ يدين الله

---

٢٦ ـ قيل إن أوس بن حارثة بشّر بالنبي (ص) قبل مبعثه بثلاث مئة عام.

٢٧ ـ الحنيفية: عبادة الله الواحد الأحد بالفطرة في الجاهلية وإنكار الأصنام.

٢٨ ـ ذهب البعض إلى أنه عاش ست مئة سنة.

بالوحدانية، لا يفتر من الرهبانية، يلبس المسوح، ويعتبر في سياحته بالنور والظلام، كثير الفكر والاعتبار، بلغ في المعرفة والحكمة درجة رفيعة، حتى صارت تضرب بحكمته الأمثال. . قيل إنه أدرك رأس الحواريين شمعون، وأدرك لوقا ويوحنا، وفَقِهَ منهم عِبَرَ الدهر واجتنب الكفر، بل قيل إنه أول من آمن بالبعث والنشور في الجاهلية.

هذا ولا بأس بأن نعرّج قليلاً على حديث فصاحة قس وعظيم بلاغته في حِكَمه، وعلى أسجاعه الأدبية الرفيعة في عظاته وأثناء تذكيره بالموت والحياة، إذ ان هذه الأسجاع وتلك البلاغة هي التي جعلت حِكَمه تتردد في عصره وخلال الأجيال بعده على الأفواه وتنفذ إلى القلوب.

وقد كان النبي (ص) بعد ظهوره يسأل بعضَ مَن يَقْدُمُ عليه ممن أدرك قسّاً عن حالاته ومواعظه وحِكَمه، وكان (ص) يصغي إلى ما يسمع منها ثم يقول: «رحم الله أخي قسّاً، يُحشَر يوم القيامة أمةً وحده». وسأل (ص) وفداً من إياد قدموا عليه ذات يوم عن حِكَم قس وكلماته، فأخبروه عن بعض أبياته الحكمية وقوله:

يا ناعيَ الموتِ والأمواتُ في جَدَثٍ	عليهِمُ مِن بقايا تُرْبِهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ فإنَّ لهم يوماً يُصَاحُ بِهِمْ	كما يُنَبَّهُ مِن رُقدانِهِ الصَعِقُ
مِنهمْ عُراةٌ ومِنهم في ثيابِهِمُ	منها الجديدُ ومنها الأَوْرَقُ الخَلِقُ[٢٩]

مَطَرٌ ونبات، وآباءٌ وأمهات، وذاهبٌ وآت، وآياتٌ في إثْر آيات، وأمواتٌ بعد أموات، وضوءٌ وظلام، وليالٍ وأيام، وفقيرٌ وغني، وسعيد وشقي، ومُحسنٌ ومُسِيّ، أين الأرباب الفَعَلة؟ ليصلحن كلُّ عاملٍ عملَه! كلا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد بعد أن أبدى، وإليه المآب غدا.

أما بعد، يا معشر إياد، أين ثمودُ وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين الحَسَن الذي لم يُشكَر؟ والقبيح الذي لم يُنكَر؟ كلا لَيعودَنَّ ما بدا،

---

٢٩ ـ الأورق: الأغبر، المائل إلى لون الرماد، ويريد منه الثياب الرثة. الخَلِق (بكسر اللام وفتحها): البالي، القديم.

ولئن ذهب يوماً، ليعودنَّ يوماً! أقسم قسّ بربِّ العباد، وساطح المهاد، وخالق السبع الشداد، سماوات بلا عماد، ليحشرنَّ على الانفراد، على قرب وبعاد! إذا نُفخَ في الصور، ونُقر في الناقور، وأشرقت الأرض بالنور، فقد وعظ الواعظ، وانتبه القائظ، وأبصر اللاحظ، ولفظ اللافظ، فويل لمن صدَفَ عن الحقِ الأشهَر، وكذَّب بيومِ المحشر، والسراج الأزهر، في يوم الفصل، والميزان والعدل.

أحمر ووقف قسّ هذا ذات يوم بسوق عكاظ في مكة، وكان راكباً على جمل له أحمر، وجعل يَخطب في الناس وينادي برفيع صوته:

أيها الناس اجتمعوا، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، وإذا أنصَتُّم فاستمعوا، وإذا استمعتم فعُوا، وإذا وَعَيْتُم فاحفظوا، وإذا حفظتم فاصدقوا! ألاَ إن مَن عاش مات، ومَن مات فات، ومن فات فليس بآت! إن في السماء لَخبَراً، وفي الأرض لَعِبَراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء لا تغور! يحلف قسّ ما هذا لعباً، وإن وراء هذا لعجباً! ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟» ثم أنشأ يقول:

في الأوّلِينَ الذاهبينَ مِن القرونِ لنا بَصائِر
لما رأيتُ مَوارِداً للموتِ ليس لها مَصادِر
ورأيتُ قومي نحوَها يمضي الأكابرُ والأصاغِر
لا يرجعُ الماضي إليَّ ولا مِن الباقينَ غابِر
أيقنتُ أني لا مَحالةَ حيثُ صار القومُ صائر

ومن كلام له:

«شرقٌ وغرب، ويابسٌ ورَطْب، وأُجاجٌ وعذب! وحَبٌّ ونبات، وجمع وأشتات، وذهاب وممات، وآباء وأمهات، وسرورُ مولود، ورزءُ مفقود، أنباءٌ لأرباب الغفلة»؛ وأنشأ يقول:

ذكّر القلبَ من جَواه أدكارُ   وليالٍ خِلالُهن نهارُ
وشموسٌ يَحُثُها قمرُ اللَّيْـ   ـلِ وكلٌّ مُتابِعٌ مَوّارُ
وجبالٌ شوامخٌ راسياتٌ   وبحارٌ مِياهُهُنَ غِزارُ

وصِغــارٌ وهُــرَّمٌ ورضيــعٌ   كلُّهمْ في الصعيد يوماً بَوارُ[٣٠]
كل هذا هو الدليلُ على اللـ   ـه وفيـه لنـا هُـدًى وأعتبـارُ

وقد آمن قسّ بالنبي (صلعم) وبشّر به ـ كما أشرنا ـ وبخلفائه (ع) بعده قبل ولادتهم وقبل عصورهم، وكان يذكر أسماءهم وأنسابهم، ويعظ الناس ويبشّرهم بخروج النبي وصفاته وأعماله، ويحدثهم بما يقع في عصره وعصور خلفائه (ع)، ويذكر من ذلك أشياء خلال كلماته وأثناء مواعظه (وقيل أيضاً إنه كان يكتم إيمانه).

وقد قال يوماً في بعض خطبه (وهو يشير بكفه إلى مكة): «وسوف تعمّ الناس من هذه الرحمة، برجلٍ أبلج[٣١]، من وُلْد لؤيّ بن غالب، يقال له: «محمد»، يدعو إلى كلمة الإخلاص، وما أظن أني أُدركه، ولو أدركـتُ أيـامـه لصفقـتُ بكفـي علـى كفـه، ولسعيـت معـه حيـث يسعى. . . الخ».

وكان سلمان الفارسي (رض) ممّن أدركه، فتقدم ذات يوم إلى النبي (ص) وقال: «يا رسول الله، إن قسّاً كان ينتظر زمانك، ويتوكف إبّانك[٣٢]، وكان يهتف باسمك واسم أبيك وأمك، وبأسماءٍ لستُ أصيبُها[٣٣] معك، ولا أراها في مَن اتبعك؛ يا رسول الله، لقد شهدتُ قسّاً خرج من نادٍ من أندية «إياد»، إلى صَحْصَحٍ[٣٤] ذي قَتاد[٣٥]، وسَمُرَة[٣٦] وعَتاد[٣٧]، وهو

---

٣٠ ـ في الأصل: وصغير وهرِم: جمع هَرِم، أي شيوخ وكبار في السن. ـ الصعيد: الأرض، التراب، أو ما ارتفع منه. ـ بَوار: كساد، جدب، فساد؛ وهنا: أموات.

٣١ ـ أبلج: مشرق، نيّر.

٣٢ ـ يتوكف إبّانك: يترقّب وقتك.

٣٣ ـ لستُ أصيبها: لست أجدها، لست أراها.

٣٤ ـ الصَحْصَح: المكان المستوي الأجرد من الأرض.

٣٥ ـ ذي قَتاد: فيه قتاد، وهو نوع من الشجر الصلب.

٣٦ ـ السَمُرة: واحدة من السَمُر، وهو نوع من الشجر الجيد.

٣٧ ـ العَتاد (بفتح العين): القَدَح الضخم، أو ما يُهيَّأ من سلاح ودواب وسواها.

مشتمل[٣٨] بِنجاد[٣٩]، فوقف في إضْحِيانٍ[٤٠] ليلٍ كالشمس، رافعاً إلى السماء وجهه فاصبعه، فسمعته يقول: اللهم ربَّ هذه السبعة الأرقِعَة[٤١]، والأرضين المُمْرِعَة[٤٢]، وبمحمدٍ والثلاثةِ المَحامِدَةِ[٤٣] معه، والعليين الأربعة[٤٤]، وسِبْطَيْهِ[٤٥] النَبْعَة[٤٦] الأرفعة[٤٧]، والفَرعة[٤٨] والسُرَى[٤٩] اللامعة، وسميّ الكليم[٥٠] الضَرَعَة[٥١]، أولئك النقباء الشَفَعَة[٥٢]، والطرق المَهْيَعة[٥٣]،

---

٣٨ ـ مشتمل: متلفف.

٣٩ ـ النِجاد (بكسر النون): حمائل السيف.

٤٠ ـ ليل إضحِيان (بكسر الهمزة والحاء): لا غيم فيه، مضيء، نيّر.

٤١ ـ الأرقِعَة: السماوات؛ جمع الرقيع: السماء.

٤٢ ـ المُمْرِعة: المُخصِبة، ذات الخصب والخير.

٤٣ ـ المَحامِدَة: جمع المحمد، والمحامدة الثلاثة مع النبي هم: ١ ـ الإمام الخامس محمد الباقر (ع)؛ ٢ ـ الإمام التاسع محمد الجواد (ع)؛ ٣ ـ الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي (ع) صاحب الأمر.

٤٤ ـ العَلِيُّون: جمع العلي؛ والعليون الأربعة مع النبي (ص) هم: ١ ـ الإمام الأول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)؛ ٢ ـ الإمام الرابع علي بن الحسين زين العابدين (ع)؛ ٣ ـ الإمام الثامن علي الرضا (ع)؛ ٤ ـ الإمام العاشر علي الهادي (ع).

٤٥ ـ السِبط: ابن البنت، وسبطا النبي (ص) هما الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام.

٤٦ ـ النَبعة: الواحدة من شجر النَبع، الذي يُستعمل خشبه للأقواس؛ ويستعمل اصطلاح «انه من نبعة كريمة» للدلالة على أنه من أصل كريم.

٤٧ ـ الأرفَعة: لعلها جمع الأرفَع، جعلها للسجع.

٤٨ ـ الفَرعة: رأس الجبل وأعلى الطريق، وفرع القوم: شريفهم.

٤٩ ـ السُرى (بضم السين)، والسراة (بفتحها وضمها): جمع السَرِيّ، وهو الرفيع الجيد الذي يجمع بين الشرف والسخاء والمروءة.

٥٠ ـ الكليم، أو كليم الله: لقب النبي موسى (ع)، والمقصود من سمي الكليم هنا، هو الإمام السابع موسى بن جعفر (ع).

٥١ ـ الضَرَعَة: المتذللون الخاشعون (لله)، والأرجح أنها نعت لمجموع المعصومين الذين تقدم عَدُّهم.

٥٢ ـ شَفَعَة: جمع شافع (على وزن: كتبة، جمع كاتب) ومثلها دَرَسَة (جمع دارس) وحَفَظَة (جمع حافظ).

٥٣ ـ المَهْيَعَة: الواسعة، الرحبة.

دَرَسَةِ الإنجيل، وحَفَظَةِ التنزيل، على عدد النقباء من بني إسرائيل، مُحاة الأضاليل، ونُفاة الأباطيل، الصادقي القيل، عليهم تقوم الساعة، وبهم تُنال الشفاعة، ولهم من الله فرض الطاعة؛ اللهم ليتني مدركهم! ولو بعد لأيٍ[٥٤] من عمري ومحياي»؛ ثم أنشأ يقول:

متى أنا قَبلَ الموتِ للحق مُدركُ ... وإن كان لي مِن بَعدِ هاتيكَ مَهْلَكُ
وإن غالني الدهرُ الخَؤُونُ بقوله ... فقد غالَ مَن قَبلي ومَن بَعدُ يُوشكُ
فلا غَرْوَ اني سالِكٌ مَسلَكَ الأُلى ... وَشيكاً ومَن ذا للرَدَى ليس يَسلُكُ[٥٥]

ثم آبَ قسٌ يكفكف دمعه ويَرِنُّ[٥٦] رنينَ البَكَرة[٥٧] وهو يقول:

أقسَـمَ قـسٌّ قَسَمـا ... ليـس بـه مُكَتَّمـا
لـو عـاش ألفَـيْ سنـةٍ ... لـم يلـقَ منهـا سَـأَمـا
حتـى يـلاقِـي أحمـداً ... والنُقبـاءَ الحُكمـا
هـم أوصيـاءُ أحمـدٍ ... أكـرمُ مَـن تحت السما
يَعْمَـى العِبـادُ عنهُـمُ ... وهـم جَـلاءٌ للعَمَـى
لسـتُ بنـاسٍ ذِكـرَهُـم ... حتى أحِلَّ الرُحَمَـى[٥٨]

وقد تقدم مرة إلى النبي (ص) رجلٌ من بني «عبد قيس» يقال له «الجارود»، وقال: «يا رسول الله، أنبئني أنبأك الله بخير: مَن هؤلاء الذين ذَكَرَهم القسّ ولا نشاهدهم ولا نراهم»؛ فقال النبي (ص): «يا جارود، ليلة أُسرِيَ بي إلى السماء، أوحى الله عز وجل إليَّ يقول: ﴿واسأل مَن أرسلنا مِن قَبلِك مِن رُسُلنا﴾ على مَ بعثوا؟ وسألتهم فقالوا: على نبوّتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما. ثم أوحى الله إليَّ أن التفت عن يمين العرش، فالتفتُّ، فإذا عليٌّ والحسنُ والحسين والتسعةُ

---

٥٤ ـ لأْيٍ: إبطاء في الزمن، وشدة ومحنة.

٥٥ ـ الأُلى: الذين، ولم يتم العبارة؛ والقصد الواضح منها: الذين سبقوني.

٥٦ ـ رنَّ: رفع صوته بالبكاء.

٥٧ ـ البَكَرة: المبكرون لإدراك الصلاة في أول وقتها، وهؤلاء هم عادةً من المؤمنين الكثيري البكاء والخشوع بين يدي الله تعالى.

٥٨ ـ رحَم: حضَن؛ والراجح أنه يقصد القبور التي تضم الموتى، فكأنها تحضنهم.

المعصومون من وُلْد الحسين (ع) وآخرُهم المهدي (ع) في ضحضاح[٥٩] من نور يصلون، فقال الله تعالى: هؤلاء الحجج لأوليائي، وهذا (أي المهدي) هو المنتقم من أعدائي»؛ فقال سلمان: «يا جارود، هؤلاء هم المذكورون في التوراة والإنجيل وفي الزبور كذلك»؛ فأنشأ جارود يقول مخاطباً النبي (ص):

أتيتُـكَ يـا اْبـنَ آمنـةَ الـرسـولا | لكي بك أهتدي النهجَ السبيلا
فقلتَ وكان قولُك قولَ حقٍ | وصـدقٌ مـا بـدا لـكَ أن تقـولا
وبصَّرت العمى من عبد قيس | وكـلٌّ كـان مِـن عَمَـهٍ[٦٠] ضليـلا
وأنبـأنـاك عـن قـسٍّ الإيـادي | مقالاً فيك ظَلْت به جديلا[٦١]
وأسمـاءٍ عَمَـتْ عنـا فـآلَـتْ | إلـى علـمٍ وكـنَّ بهـا جُهـولا

* * *

إلـى غيـر ذلـك مـن البشـارات بـه (صلعـم) المسطـورة فـي كتـب السابقين، والمشتهرة الثابتة من الأمم الماضين، والكهنة الغابرين، تركنا بسط الكلام أكثر فيها مخافة التطويل، وهذه كلها غير ما ظهر من الآيات البينـات والكـرامـات الظـاهـرات أيـام حَمْلِـه (صلعـم) فـي رحـم أمـه آمنة(عليها السلام).

---

٥٩ ـ الضِح: نور الشمس، والضحضاح: الرقيق من النور.
٦٠ ـ العَمَهُ: الضلال والضياع.
٦١ ـ ظَلْتَ: ظَلَلْتَ، بقيت. جديل: قوي، شديد.

حمل آمنة (ع) بمحمد (ص)
وما ظهر وما جرى أثناء الحمل من آيات وكرامات
وموت عبد الله (ع) قبل ولادة طفله

ونعود إلى حديث عبد الله (ع) وآمنة (ع) ـ والدَي النبي(ص) ـ فإنه بعد زواجه منها، أقام معها زماناً ونور النبوة مايزال في جبهته لم ينتقل إلى زوجته، إلى أن كانت ليلة الجمعة عشية عَرَفة، وكان عبد الله قد خرج من مكة إلى بعض شعابها، فإذا هو بنهر عظيم فيه ماء زلال ـ ولم يكن قبل ذلك هناك نهر ولا ماء ـ فدهش من ذلك عجباً وحيرة، وبينما هو كذلك إذ سمع هاتفاً يقول له: «يا عبد الله، اشرب من هذا النهر»؛ فتقدم عبد الله إلى النهر وشرب منه[1]، وإذا هو أبرد من الثلج وأحلى من العسل وأزكى من المسك والعنبر. فلما شرب وارتوى ونهض، اختفى النهر وغاب ولم يَرَ له أثراً، فازداد بذلك دهشة وعجباً.

انتقال نور النبوة الى آمنة(ع)

ثم إن عبد الله بعد أن شرب من النهر ونهض عنه، غلبت عليه الرغبة إلى زوجته، فانصرف مسرعاً إليها ولما دخل عليها قال لها: «قومي وتطهري وتطيبي وتعطري واغتسلي، فعسى الله أن يستودعك هذا النور»؛ فقامت وتجهزت، إلى أن غشيها في الليلة المباركة نفسها، وانتقل النور من جبينه إليها من وقته وساعته. قالت آمنة (ع): «إنه لما دنا مني

---

١ ـ في بعض الروايات أن إخوة عبد الله وأباهم عبد المطلب كانوا معه، وأنهم هم أيضاً رأوا النهر ودهشوا، ولكن عبد الله وحده شرب من النهر، ثم اختفى قبل أن يشرب أحد غيره.

ولامسني، أضاء منه نور ساطع، وضياء لامع، أنارت منه السماء والأرض، وأدهشني ما رأيت»[٢].

فلما انصرف عبد الله بعد غشيان أهله إلى أبيه، نظر إليه عبد المطلب، فإذا النور قد فارق ما بين عينيه، ولم يبقَ على جبهته منه إلاّ أثر كالدرهم الصحيح، فعرف بانتقاله إلى آمنة، وقام من وقته وساعته

---

٢ ـ وروي عن أهل بيت العصمة (ع) أنه في تلك الليلة، أمر الله عز وجل جبرائيل (ع) بالنداء بذلك، وتبشير الخلائق به في أماكن عديدة، فنادى أولاً في جنة المأوى: «ان الله جلّ جلاله قد تمّت كلمته ومشيئته بأن يُشرِق الأرضَ ويُنوِّرَها بعد ظلامها، ويطهرها بعد تنجسها، وأن الذي وعده من ظهور البشير النذير، السراج المنير، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله، والذي هو صاحب الأمانة والصيانة، وهو خيرته من خلقه محمد رسول الله، كاد أن يخرجه ويظهر نوره في البلاد، ليكون رحمة على العباد، وهو الذي بشّر الله من أحبه بالشرف والحباء، ومن أبغضه بسوء القضاء، والذي عُرض عليكم من قَبل أن يُخلَقَ آدم (ع)، وهو الذي يسمى في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، وفي الجنة أبو القاسم»؛ ولم يزل جبرائيل ينادي في الملأ الأعلى بأمثال ذلك، حتى أجابته الملائكة بالتسبيح والتهليل والتقديس والتكبير لله ربّ العالمين، وفتحت أبواب الجنان، وأغلقت أبواب النيران، وأشرقت الحور العين الحسان، وجعلت الأطيار تسبح على رؤوس الأشجار؛ ثم نزل جبرائيل (ع) في مئة ألف من الملائكة إلى جبل «قاف» وسائر أقطار الأرض، وإلى خازن السحاب، وجملة ما خلق الله، يبشرهم بخروج رسول الله (ص)؛ ثم نزل إلى الأرض السابعة السفلى، وأخبر أهلها بخبره، وبشّرهم باقتراب مولده وقدومه (ص)، وعند ذلك زلزلت الشياطين، وصفدت الأبالسة، ورُجمت بالشهب، وطُردت عن الأماكن التي كانت تسترق السمع فيها، وانتُزِع علم الكهنة، وبطل سحر السحرة، ولم تبق كاهنة على وجه الأرض إلاّ حُجبت عن صاحبها من الجن الذي كان يأتيها بالأخبار العجيبة والمغيبات الكثيرة، ولم يبق سريرٌ لملِكٍ من الملوك في سائر الأقطار، إلاّ وقد أصبح منكوساً والملك مُخرَساً يومه ذلك لم يتكلم قط، ونادت الجبال بعضها بعضاً، وكذا الأشجار والسماوات وسائر الجمادات والنباتات جعل يبشّر بعضها بعضاً، وتقول: «ألا ان محمداً وقع في رحم أمّه آمنة».

وفي الأخبار أيضاً أن قريشاً كانت في جدب شديد وضيق من الزمان، فاخضرت لهم الأرض عند حمل آمنة بالنبي الكريم (ص)، وحملت لهم الأشجار في سنتهم تلك، وأتاهم الرفد من كل مكان، وأخصب أهل مكة خصباً عظيماً، وسموها «سنة الفتح والاستيفاء» و«عام الفرج والابتهاج».

إليها، وجعل ينظر إليها، وإذا بالنور يضيء من وجهها وبين ثدييها أكثر مما كان في جبهة عبد الله، فقام من عندها فرحاً مستبشراً.

فلما خرج من عندها مضى مباشرة إلى راهب كان عندهم يقال له «حبيب»، وحكى له الخبر، وسأله عن ذلك، فقال الراهب: «اعلم أن هذا نور صاحب النور بعينه، وقد صار في بطن أمه»؛ فقام عبد المطلب وانصرف من عنده وهو سعيد حتى ما تكاد تَسَعُهُ الدنيا.

ثم إن عبد المطلب كان يتفقد آمنة دائماً ليطمئن على جنينها، وكان كلما دخل عليها، رأى النور في وجهها كالمرآة المضيئة، وكتب السيرة والتواريخ مليئة بأخبار ما حدث أثناء شهور الحمل به (ص) من آيات بيّنات وكرامات باهرات[٣]، وما جرى كذلك من محاولات لقتل آمنة قبل ولادته سعياً إلى قتله هو (صلعم)، سواء من بعض الكهّان والمنجمين، أو من أكابر قريش الذين كانوا يحسدون عبد المطلب وبيته، أو يخافون ما تحدث به المنجمون والمخبرون من أعماله التي من أبرزها عندهم تحطيمه الأصنام.

سطيح يشهد علائم ظهور النبي(ص)

وفي هذه الأخبار أن سطيحاً الكاهن ـ الذي تقدم الحديث عنه ـ كان ليلة انتقال نور النبوة إلى آمنة في فراشه، شاخصاً ببصره إلى السماء على عادته، إذ لاحت له برقة مما يلي مكة، ملأت الأقطار؛ ثم رأى الكواكب قد علت منها النيران، وظهر بها دخان، وتصادم بعضها ببعض، واحدة بعد واحدة، حتى غابت في الثرى، ولم يَرَ لها نوراً ولا ضياءً، فدهش من ذلك وبات ليلته وظل نهاره بعدها حائراً مدهوشاً حتى انقضى النهار.

ولما كان الليل الثاني، أمر غلمانه أن يحملوه إلى جبل شامخ هناك، فلما أصعدوه عليه جعل يقلّب طَرْفه يميناً وشمالاً، وإذا هو بنور ساطع وضياء لامع قد علا الأنوار، وأحاط بالأقطار، وملأ الآفاق، فدهش

---

٣ ـ في بعض المراجع أنه في كل شهر من شهور حمل آمنة (ع) بالنبي (ص) كان يُسمع نداء من السماء أن «أبشروا، فقد آن لمحمد أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً».

شديداً، وفزع كثيراً، وقال لغلمانه: «أنزلوني أنزلوني، فإنّ عقلي قد طار، ولبي قد حار، بسبب هذه الأنوار، وإني أرى أمراً جليلاً، وأنه قد دنا مني الرحيل، بلا شك عن قليل»؛ قالوا: «وكيف ظهر لك ذلك يا سطيح؟»؛ قال: «يا ويلكم! إني رأيت أنواراً قد نزلت من السماء إلى الأرض، وأرى الكواكب قد تساقطت وتهافتت، وإني أظن أن خروج الهاشمي قد دنا، فإن كان الأمر كذلك، فالسلام على الوطن، من أهل الأمصار واليمن، إلى آخر الزمن»؛ فدهشَ غلمانه من كلامه، وحاروا وأنزلوه إلى بيته وهو يردد: «كواكب تظهر بالنهار، وبرق يلمع بالأنوار، تنبىء عن عجائب الأخبار».

ثم إنه أرق ليلته أرقاً شديداً لم يتهنأ فيها برقاد، ولم يوطأ له مهاد، وبقي كثير الفكر والسهاد، إلى أن أصبح وهو قلق مرعوب، فجمع قومه وعشيرته وقال لهم: «إني أرى أمراً عظيماً وخطباً جسيماً، قد غاب عني خبره، وخفي عليَّ أثره، وسأبعث إلى إخواني من الكهان، أسألهم عمّا حدث في هذا الزمان»؛ فدهش القوم من خبره ومقاله. ثم كتب كتاباً إلى صاحبه «شق»، ومثله إلى سائر الكهان في أقطار البلاد، يخبرهم فيها بخبره، ويسألهم عن الحال، ويشرح لهم المقال، ومكث ينتظر عودة الرسل إلى أن أتاه الجواب من شق يقول فيه: «إنه قد ظهر عندي بعضُ الذي ذكرتَ، وسيظهر نورُ الذي وصفتَ، غير أني لا علمَ لي فيه، ولا أعرف شيئاً من دواعيه»؛ فازداد سطيح من ذلك دهشة وحيرة.

..وزرقاء اليمامة

وأخيراً بعد أن رأى الأمر كبيراً وخطيراً جداً، قرر أن يكتب في الأمر كتاباً إلى ملكة اليمامة[٤] التي كانت تسمى «الزرقاء»، والتي كانت من أعظم الكهنة والسحرة، قد ملكت بشَرّها وسحرها.

وكانت الزرقاء حادة البصر، عظيمة الخطر، ترى الشيء من مسيرة

---

٤ ـ اليمامة: منطقة في وسط الجزيرة العربية، هي قسم من نجد، كان يسكنها في الجاهلية بنو جديس.

ثلاثة أيام كما يرى الإنسان ما بين يديه، وكان المجاورون لها آمنين في معايشهم، لا يخافون عدواً ولا يجزعون من أحد، لأنهم كانوا إذا قصدهم عدو، أو همّ أحد أن يدخل بلادهم أو يهجم عليهم، كانت الزرقاء ترى العدو من مسيرة ثلاثة أيام قبل دخوله، وتخبرهم بذلك أو تحذرهم وتأمرهم أن يستعدوا للدفاع، فيجدون الأمر كما ذكرت، وبذلك ينتصرون على أعاديهم ويغلبونهم؛ ولها في ذلك قضايا كثيرة لا حاجة إلى ذكرها لأنها ليست من موضوعات هذه السيرة الشريفة، بل نكتفي بالإشارة إلى واحدة منها للدلالة على مقدرتها، وهي قضيتها مع بني غسان حينما قُتل شخص منهم بأيدي أهل اليمامة، وأجمعت آراؤهم على أن يكبسوا اليمامة في أربعة آلاف مدرع؛ فقال لهم سيد بني غسان: «يا ويحكم! أتطمعون في الدخول إلى اليمامة وفيها الزرقاء؟ أما تعلمون أنها ترى الوافدين الأفراد وتعاين الواردين الآحاد؟ فكيف إذا رأت ركائبكم قد أقبلت، فتخبر قومها ويأخذون حذرهم؟»؛ وأنشأ يقول:

إني أخافُ مِنَ الزرقاء صَوْلَتَها ... بِشَرِّهِمْ ثم لا تُبقي على أَحَدِ
كمْ مِن جُموعٍ أَتَوها قاصِدينَ لها ... فراح جَمعهُمُ بالخَوفِ والنَكَدِ[٥]

إلى آخر قصتهم معها.

أما سطيح فإنه حين قرر الاستعانة بالزرقاء، كتب إليها كتاباً يقول فيه: «باسمك اللهم، من سطيح الغساني، الذي ليس له في عصره ثاني، إلى فتاة اليمامة، المنعوتة بالشهامة، أما بعد: فإني أكتُب إليكِ كتابي هذا وأنا في هموم وسكرات، وغموم وخطرات، فأنت تعلمين ما الذي يحلّ بنا من الدمار والهلاك، من خروج التهامي الهاشمي الأبطحي العربي المكي المدني السفاك للدماء، وقد رأيتُ برقةً لمعت، وكواكبَ سطعت، وإني أظن أن ذلك من علاماته، ولا شك أنه قرب أوانه، وإني لا أكتُبُ إليك إلاّ لأرى ما عندك من التحصيل، وما في نساء عصرنا لك من مثيل! فإذا وصل رسولي إليك، وقدم كتابي عليك، ردي جوابي بما عندك من الخطاب، وما ترينه من الصواب، فإنه لا يقرّ لي قرار، لا في الليل ولا في

---

٥ - راح بمعنى رجع آخر اليوم إلى مأواه، وهي هنا بمعنى آب، ورجعَ.

النهار، ما لم أقف على هذه الدلائل والآثار! والسلام».

ثم دعا سطيح بغلام له اسمه «صبيح»، وأمره بحمل الكتاب إلى الزرقاء، وأن يأتي له منها بالجواب، فأخذ صبيح الكتاب، وسار إلى اليمامة وكانت المسيرة إليها مسافة ثلاثة أيام. وكان قد جعل الكتاب طي عمامته، فرمقته الزرقاء من قصرها، وجعلت تصيح في قومها قائلة: «قد جاءكم راكب قاصد، وإلى بلدكم وارد، قد أرسل زمام ناقته، والكتاب يلوح في طي عمامته».

ولما كان بعد ثلاثة أيام، قدم صبيح البلد والقوم ينتظرونه، وتقدم حتى أقبل نحو قصر الزرقاء، فانحدرت هي إليه، وتناولت منه الكتاب وقرأته، فقالت: «خبر قبيح، أتانا به صبيح، من كاهن اليمن سطيح، يسأل عن نورٍ ساطع، وضياء لامع، ذلك وربِ الكعبةِ من دلائلِ مُخرّب الأطلال، ومُيتِّم الأطفال، فإنه يظهر مِن عبدِ مناف، محمدٌ النبيُ بلا خلاف!».

الزرقاء تقترح على سطيح اجتماعهما بمكة.

فتعجب صبيح من كلامها وخبرها، وطلب منها الجواب، فكتبت: «بسم الله! من الزرقاء التي ليس عليها شيء يخفى، إلى سيد غسان، وأفضل الكهان، المعروف بسطيح، صاحب القول الفصيح؛ أما بعد: فإنه ورد كتابك عليّ، وقدم رسولك إليّ، تذكر أمراً عظيماً قد هَجُن[٦] بقلبك، واختلج بلبك! أما نزول الكواكب فكأنك بآيات الهاشمي قد قربت، فإذا قرأت كتابي فأيقظ نفسك، واحذر من الغفلة والتهتير، وبادر إلى التشمير والمسير، لنلتقي بمكة، فإني راحلة إليها لأعرف هذا الأمر على حقيقته، فلعلنا نتساعد على هذا المولود فنعمل فيه الحيلة، عسى أن نظفر بهلاكه، ونُخمِدَ نورَه قبل إشراقه! والسلام».

فأخذ صبيح كتابها، وانصرف راجعاً حتى دخل على سطيح وناوله الكتاب، فلما قرأه سطيح انتحب باكياً، وأنشأ يقول:

لا صَبْرَ لا صبرَ أضحى بعد معرفة تغدو الجَلادةُ كالمُستضعَفِ الوَهِنِ

---

٦ ـ هَجُن (بضم الجيم): قبُح وبدا مستنكراً.

إن كان حقاً خروجُ الهاشمي دنا فارفُل بنفسكَ لا تبكي على اليمنِ[٧]
ثم اْجعلِ القفرَ أوطاناً تُقيم بها وارحَلْ عن الأهل ثم الدار والوطنِ[٨]
فالعَيشُ في مَهْمَهٍ من غير ما خِزَةٍ أهْنا من العيشِ في ذُلٍ وفي حَزَنِ[٩]

ثم أخذ في التأهب للسفر، حتى إذا أشرف على الرحيل، جعل يقول لقومه: «إني سائر إلى نار قد تأججت، فإن أدركتُ إخمادَها رجعتُ إليكم، وإن كانت الأخرى، فالسلام مني عليكم، فإني لاحقٌ بالشام أقيم بها حتى أموت».

ثم سار نحو مكة مسرعاً يجد السير، حتى قدمها وانتشر خبر قدومه، فتلقته صناديد قريش ورؤساء مكة، وفيهم أبو جهل، وأخوه أبو البَخْتَرَى، وشَيْبة، وعُتْبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، وأمثالهم، ورَحبوا بقدومه ثم قالوا: «يا سطيح، ما قدمتَ إلاّ لأمرٍ عظيم؛ ألك حاجة فتُقْضى؟» قال: «بورك فيكم، ما لي لديكم حاجة!»؛ قالوا: «تمضي معنا إلى منازلنا»؛ قال: «بل أنزل عند مَن إليهم قصدتُ، ونحوَهم أردتُ، وبفِنائهم أَنَخْتُ، وقد علمتم فضلي، وقد جئتكم أحدثكم بما كان وما يكون، إلهاماً ألهمني الله بالصواب، وأنطقني بالجواب؛ فأين المتقدمون في العهد، ومَن لهم السابقة في الحمد والمجد؟ لقد أردتُ أفضلَ قريشٍ من بني عبد مناف، فأنا لهم المبشر بالبشير النذير، والقمر المستنير، وقد قَرُبَ ما ذكرته؛ فأين عبد المطلب وسلالتُه الأشبال؟»؛ فكره القوم كلام سطيح، وكبر على أبي جهل وصحبه ما سمعوه منه، وتفرّقوا عنه يميناً وشمالاً.

وبلغ الخبر بني عبد مناف، فجمع أبو طالب إخوته: عبد الله، والعباس، وحمزة، وعبد العُزَّى (وهو أبو لهب) وقال لهم: «إن هذا القادم عليكم هو كاهن اليمن وسيدها، وقد كان قديماً قَدِمَ على أبيكم، وأخبره بمولودٍ يخرج من ظهره، مبارك في عمره، يملك الأقطار، ويدعو

---

٧ ـ كذا وردت، ولعلها «فارفق»، ولعل ضمير الفاعل في «تبكي» يعود إلى «نفسك».

٨ ـ في نسخةٍ «واغدوا»، وعليها نسخة الأصل أيضاً.

٩ ـ المَهْمَهُ: الأرض الخالية من الحياة، يتيه فيها الإنسان ـ الخِزة: (اسم المرة من) الخِزي.

إلى عبادة الملك الجبار، فسيروا إليه وأنكروا عليه أنسابكم، ولا تعرفوه أحسابكم».

ثم قام أبو طالب، فقاموا معه، وساروا نحو سطيح حتى قدموا عليه وهو جالس حينئذٍ بظل الكعبة، والناس حوله، فلما رآهم سطيح استبشر بهم. وكان أبو طالب قد دفع سيفه ورمحه إلى غلام سطيح، وقال له: «إن هذه هدية مني إلى سطيح، فإنه لَواجبُ الحق علينا»؛ ثم انحرف بنفسه إلى سطيح قبل أن يصل إليه غلامه ويخبره بالهدية.

ولما قرب أبو طالب منه قال له: «حُبيتَ بالكرامة، وخَلَدتَ في النعمة! إنا قد أتيناك زائرين، والواجب علينا إكرامُك!»؛ قال سطيح: «حُييتم بالسلام، وأتحِفتُمْ بالإنعام، فمِن أيِ العرب أنتم؟»؛ قال: «نحن من بني جمح»؛ قال: «اذنُ مني أيها الشيخ، وضع يدك على وجهي، فإن لي في ذلك حاجة»؛ فدنا منه أبو طالب ووضع يده على وجهه، فنادى سطيح يقول: «وعلاَّم الأسرار، المتحجب عن الأبصار، الغافر للخَطِيَّة، وكاشف البَلِيَّة، إنك صاحبُ الذمم الرفيعة والأخلاق المَرضِيَّة، والمسلّمُ إلى غلامي الهدية، قناةً خَطِّية ، وصفحة هندية، وإنكم لأشرف البَرِيَّة، وإن لك ولأخيك أشرفَ الذُرِّية! وإنك ومَن أتى معك من سلالة هاشم الأخيار، وإنّك لا شك عمُّ النبي المختار، المنعوت في الكتب والأخبار، فلا تكتم نسبك، فإني عارف بنسبكم!».

فتعجب أبو طالب ومَن معه من كلامه، وقال له: «يا شيخ، لقد صَدَقتَ في المقال وأحسنت الخصال، فنريد أن تخبرنا بما يكون في زماننا، وما يجري علينا»؛ فقال سطيح: «والدائم الأبد، ورافع السماء بلا عَمَد، الواحد الأَحَد، الفرد الصمد، لَيُبْعَثَنَّ من هذا (وأشار إلى عبد الله) عن قريب الأمد، نبيٌ يهدي إلى الرَشَد، يدمّر كل الأصنام ومَن لها عَبَد، لا يرفع سيفه عن أحد، يدعو إلى عبادة الله الأحد! يعينه على ذلك معين،

هو ابن عمٍ له قرين، صاحبُ صولاتٍ عظام، وضرباتٍ بالحسام، أبوه لا شك هذا» (وأشار إلى أبي طالب).

سطيح يصف النبي(ص) ومعينه، قبل ولادتهما.

قال أبو طالب: «يا شيخ، نحب أن تصف لنا هذا النبي، وتبين لنا نعته»؛ قال: «اسمعوا مني كلاماً صحيحاً: إنه سيظهر منكم بعد قليل، شخص نبيل، وهو رسول الملك الجليل، وان لسان سطيح عن نعته لكليل! وهو رجل لا بالقصير اللاصق، ولا بالطويل الشاهق، حسن القامة، مدوّر الهامة، بين كتفيه علامة، وعلى رأسه عمامة، تظلله الغمامة، ويكون له دعامة، إلى يوم القيامة، ذلك والله سيد تهامة! يزهر وجهه في الدُجَى، وإذا تبسم أشرقت الأرض بالضيا، أحسنُ مَن مشى، وأكرم مَن نشا! حلوُ الكلام، طلق اللسان، نقي زاهد، خاشع عابد، لا متجبر، ولا متكبر، إن نطق أصاب، وإن سُئِلَ أجاب، طاهر الميلاد، بريء من الفساد، رحمة على العباد! بالنور محفوف، وبالمؤمنين رؤوف، وعلى أصحابه عطوف، اسمه في التوراة والإنجيل معروف، يجير الملهوف، وبالكرامة موصوف، اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد».

فقال أبو طالب: «يا سطيح، هذا الشخصُ الذي ذكرتَ انه يعينه، ويقاربه في حسبه ونسبه، انعته لنا، كما نعتَّ لنا هذا»؛ فأجابه سطيح وقال: «إنه سيد همام، وليث ضرغام، وأسد قمقام، وقائد مقدام، كثير الانتقام، يسقي كأس الحِمام، عظيم الجولة، شديد الصولة، كثير الذكر في الملا، يكون لمحمد وزيراً، ويُدعَى بعد موته أميراً، وهو مسمى في التوراة «برويا»، وفي الإنجيل «إيليا»، وعند قومه عليا»؛ ثم أمسك عن الكلام ملياً كأنه قد سُلبَ عقله وحار فكره، وجعل يتفكر وحده ملياً والناس ينظرون إليه إلى أن التفت إلى أبي طالب (ع) وقال: «أيها السيد، ردَّ يدك على وجهي ثانياً»، ولما فعل أبو طالب ذلك تنفّس سطيح الصعداء، وأنَّ كمداً وحزناً وقال: «يا أبا طالب، خذ بيد أخيك (وأشار إلى عبد الله)، فقد ظهر سعدُكما، فَأَبْشِرا بعلوّ مجدكما، فالغصنان من

شجرتكما: محمد لأخيك، وعليّ لك»؛ فدهش أبو طالب من كلامه.

وشاع في قريش أمر سطيح وما أخبر به، فعظم ذلك على أبي جهل، وأخذ يحرّض قريشاً على قتله وقتل بني هاشم، وجعل يدور على الجموع ينادي فيهم: «معاشر الناس من قريش: ليست هذه بأول حادثة نزلت بنا من بني هاشم، وقد سمعتم من سطيح ما سمعتم من ظهور هذا الرجل الذي يفسد أدياننا، ومن يشاركه من وُلد أبي طالب، ولا بد من دفعهم»؛ ولم يزل يعمل على تأليب الناس، وتدبير حيلة لدفع سطيح، إلى أن اجتمعوا في مكان عام، وجعلوا يتداولون ويتشاورون في اقتراح أبي جهل، وبينما هم منهمكون في أخذ وردّ، وضجيج المؤيدين والمعارضين مرتفع وشديد، إذ طلع عليهم أبو طالب مع رهط من عشيرته، ووقف وسطهم فنادى فيهم برفيع صوته وقال: «يا معشر قريش، اصرفوا عن قلوبكم الطيش، ولا تنكروا ما سمعتم، فنحن بالقِدْمَة أَوْلَى، وعلى يدنا نَبَعَتْ زمزم، فوالله ما سطيح بكاذب، وانه في كلامه لصائب، وهو ما نطق بكلمة إلاّ وقد ظهر برهانها؛ أليس هو القائل لكم بأنه سيطلع عليكم رجل اسمه «سيف»، لا يترك منكم أحداً في بلد اليمن؛ فلم يكن إلاّ كرقدة النائم حتى ظهر ما قال؟ وانه عن قليل سيظهر مَن ذكر على رغم مَن يعاديه»؛ ثم أمر بسطيح أن يُرفَعْ إلى منزله، فأكرمه وحباه، وقرَّبه وأدناه، وخلع عليه وكساه، وباتت مكة تلك الليلة تموج بأهلها.

ثم لما برق الصباح، خرج أبو جهل مبادراً نحو «الأبطح»، وبعث عبيده إلى سادات قريش وأكابرهم وصناديدهم يسألهم الاجتماع، فاجتمعوا واجتمعوا حتى ضاق بهم الأبطح، وامتلأ من كل جانب، فقام فيهم أبو جهل ينادي: «يا آل غالب، يا آل طالب، يا ذوي العُلَى والمراتب، أترضون لأنفسكم أن تُرمَوا بالمناكب، كما ذكر أبو طالب؟ إن هذا لمن العجائب! لَنَقْلُ جلاميد الصفا إلى البحر الأقصى، أيسر مما ذكر سطيح، أنه سيظهر من بني عبد مناف نبيٌّ عن قليل، يرمينا بالبوار والتنكيل! تبّاً لكم إن كانت أنفسكم بما ذكره راضية، وإلى ما أخبر به واعية، فإن رضيتم بذلك فمن الآن مني السلام عليكم، وأنا راحل عنكم خارج من أرضكم، فمجاورة الترك والجلوس على الشوك، أحبّ إليَّ من

المقام عندكم»؛ ثم ترك الناس وخرج من بينهم ومضى، فضج الناس بالقيل والقال، وجعلوا يقلبون الرأي في ما قال، وفي ما يجب أن ينتهي إليه الحال، وبقي الأبطح يموج بأهله، إلى أن مضوا إليه يقولون له: «يا أبا الحكم، أنت السيد فينا، وإن رأيَنا رأيك، وأمرنا إليك»؛ فقال: «إني أرى من الرأي أن تجتمعوا عند أبي طالب، وتكلموه في هذا الكاهن، لئلا يكون سبباً للعداوة بيننا وبينه، فإما أن يُسلمَ إلينا سطيحاً، أو يُخرجَهُ مِن أرضنا، فإن أبى كان السيف أمضى، والموت أقضى»؛ ثم أنشأ يقول:

لَضربُ عنقي بسيفي ... يا قومِ عمداً بكفي
وقَطعُ أحجارِ أرضي ... إلى قرارِ بِخَسفِ
أَوْلَى وأهونُ عندي ... مِن أن أُرامَ بِعَسْفِ

وبلغت مقالتُه أبا طالب، فنهض مسرعاً، وجمع اخوته وأقاربه وقال لهم: «تجللوا بالسلاح، واستعدوا للكفاح، فإني أرى دماءً قد غَلَت، وآجالاً قد قربت»؛ ثم سار فيهم حتى أشرف على الأبطح وهو غاصٌّ بأهله، فشخصت الأبصار إليهم، وخرست الألسن لمهابتهم، وسكن كل متحرك، وجلس كل قائم هيبةً لهم؛ فتخطى أبو طالب القبائل، حتى توسط جمعهم، وجعل ينادي برفيع صوته قائلاً: «يا سكان زمزمِ والصفا، وأبي قبيس وحِرا، مَن الثالبُ منكم لبني عبد المطلب؟! إني أذكّركم بهذا اليوم العبوس، الذي تُقطَع فيه الرؤوس، وان بأيدينا هذه النفوس! وإني قائل لكم: وحقِ إله الحرم، وبارىء النسم، إني لأعلم عن قليل، لَيَظهَرَنَّ المنعوتُ في التوراة والإنجيل، الموصوفُ بالكرم والتفضيل، الذي ليس له في عصره مثيل! ولقد تواترت الأخبار، انه يبعث في هذه الأعصار، رسول الملك الجبار، المتوَّج بالأنوار!»؛ ثم أمسك عن الكلام، وانصرف راجعاً نحو الكعبة، وتبعه الناسُ والجموعُ غيْر أبي جهل، فإنه بقي وحده بالأبطح، وقد علاه الذُّلّ والصغار، وظهر عليه الكمد والانكسار.

ولما انتهى أبو طالب إلى الكعبة، اتجه إليها يقول: «اللهم ربَّ هذه الكعبة اليمانية، والأرض المدحية، والجبال المرسية، إن كان قد سبق في حُكمِك وغامضِ علمك، أن تزيدنا شرفاً فوق شرفنا، وعزّاً فوق عزنا،

بالنبي المشفّع الذي بشّر به سطيح، فأَظْهِرِ اللهم يا ربّ تبيانَه، وعجِّلْ برهانه، واصرفْ عنّا كيدَ المعاندين، يا أرحم الراحمين»؛ ثم جلس وقد أحاط به الناس من كل جانب، فوثب إليه «منية بن الحجاج» وكان رجلاً جسوراً وتقدّم نحوه، وتطاولت الناس إليه ليسمعوا كلامه، فنادى برفيع صوته يقول: «يا أبا طالب، ظهَرَتْ غُرَّتُك، وأنارتْ طلعتُك، وابتهج ذِكرُك بالكَرَمِ السَنِي، والشرفِ العلي، وقد علمَتْ رؤساء القبائل، وأهل النُهَى والفضائل، أنكم أهل الشرف الأصيل، وأنت سيد مطاع قاهر، ولكن ليس لمثلك أن يَسمع ما قاله كاهن، وأنت تعلم أنهم أوعية الشيطان، يأتون بالكذب والبهتان، فلعلّك أن تُصَيِّرَهُ إلينا، ولعله يُظهِر شيئاً مما قاله، فإن النبوة لها دلائل، وآثار لا تخفى على العاقل»؛ فأجابه أبو طالب إلى ذلك، وأمر بإحضار سطيح.

فلما جيء بالكاهن سطيح ووُضع على الأرض، جعل ينادي «يا معشر قريش، لقد أكثرتم الاختلاف، وزادت قلوبكم بالارتجاف، بَزَيْتُم[11] بألسنتكم على آل عبد مناف، تُكذِّبون أبا طالب في ما نطق، وقد أرسلتم إليَّ تسألونني عن الحال الظاهر، وأمر النبي الطاهر، صاحبِ البرهان، وقاصمِ الأوثان، ومُذِلِّ الكهان؛ وأيم اللّهِ ما فرحنا بظهوره، فإن الكهانة تزول بولادته، ولكني أقول: إذا كان ذلك، فلا خير لسطيح في الحياة، وعندها يتمنى الوفاة! وإنه قد قَرُبَ، فأتوني بأمهاتكم ونسائكم لتروا العجب العجيب، الذي ليس فيه تكذيب، فإني سأوقفكم هذه الساعة وأعرّفكم أيتهن الحامل به»؛ قالوا: «أتعلم الغيب؟»؛ قال: «لا، ولكن لي صاحباً من الجن يسترق السمع ويخبرني»؛ فافترق القوم إلى منازلهم، وجاؤوا بنسائهم جميعاً، حتى لم يبقَ منهن في البيوت أحد إلاّ آمنة زوجة عبد الله، وفاطمة زوجة أبي طالب، فإنّ أبا طالب منعهما عن الحضور إلى مجلس سطيح.

ولما حضرت النسوة، أخذ سطيح ينظر إليهن، ثم أمرهن أن ينعزلن عن الرجال، ويتقدمن واحدة واحدة إليه، ثم جعل يحدّ النظر في

---

١١ ـ بزيتم: تطاولتم وتجاسرتم.

وجوههن وهو ساكت، إلى أن قال له القوم: «خرس لسانك وخاب ظنك!»؛ فقال: «لا والله، ما خاب ظني!»؛ ثم رفع رأسه إلى السماء يشير بطرفه ويقول: «وحقِ الحرمين، لقد تركتم من نسائكم اثنتين، الواحدة منهما الحامل بالمولود الهادي إلى الرشاد محمد، والأخرى ستحمل في ما بعد، وتلد غلاماً أميناً يدعى باسم علي، ويلقّب بأمير المؤمنين، وسيّد الوصيين، ووارث علوم الأنبياء والمرسلين»؛ فدهش الناس من مقالته، وانطلق أبو طالب فأتى بزوجته فاطمة، وزوجة أخيه آمنة.

سطيح يتعرف على والدتي النبي(ص) والوصي(ع).

فلما وصلتا إلى مجمع النساء ونظر إليهما سطيح، أخذ في البكاء، ثم أشار إلى آمنة ونادى برفيع صوته يقول: «يا ذوي الشرف، هذه والله الحاملُ بالنبي المختار، وهو رسول الله!»؛ ثم دنت آمنة منه، فقال لها: «ألستِ حاملاً؟»؛ قالت: «بلى»؛ فالتفت إلى قريش وقال: «الآن شهد قلبي وثَبَتَ بي، وصَدَقَني صاحبي! هذه سيدة نساء العرب والعجم، وهي الحامل بسيد الأمم، مبيد كل وثن وصنم! يا ويح العرب منه، قد دنا ظهوره، ولاح نوره، وكأني أرى مَن يُخالفه قتيلاً، وفي التراب جديلاً، فطوبى لمن صدَّق منكم بنبوّته، وآمن برسالته، ثم طوبى له قد أخذ بالأرض، ورجع له بالأمن طولُها والعرض».

ثم توجه إلى فاطمة زوجة أبي طالب، وجعل يحدّ النظر إليها، ثم صاح صيحة وشهق شهقة وأغمي عليه، فلما أفاق انتحب باكياً، ونادى برفيع صوته يقول: «هذه والله فاطمة بنت أسد، أمّ الإمام الذي يكسر الأصنام، وهو الأمير الذي ليس في عقله طيش، قاتل الشجعان، ومبيد الأقران، الفارس الكَمِيّ، والضيغم القويّ، المسمى بأمير المؤمنين علي، ابن عم النبي»؛ (عليهما أفضل الصلاة والسلام).

ثم قال: «آه ثم آه! كم ترى عيني من بطل مكبوب، وفارس منهوب!»؛ فغضبت قريش من كلامه، ووثبوا عليه بالسيوف ليقتلوه، وأبو جهل ينادي: «افسحوا لي عن هذا الكاهن، فلابدّ لنا من قتله حتى نشتفي منه، وإن حلتم دونه لأجعلن لكم الدّمار، ولأُورِدَنّكُم البَوار»؛ ووَثب بنو

هاشم في وجوههم يدفعونهم عن سطيح، وحالوا بينهم وبينه بالسيوف، وحمل أبو طالب بسيفه على أبي جهل يقول له: «ويحك يا أخسّ العرب وأرذلها، إني أراك تحبّ فراق العشيرة، أمثلك مَن يتكلم بهذا الكلام وأنت أخسّ اللئام؟»؛ ثم عاجله بضربة من سيفه شجّه شجَّةً موضحة حتى سالت الدماء على وجهه، وحال الناس بينهما، إلى أن خلصوه من أبي طالب، فجعل أبو جهل ينادي: «يا أهل المحافل ورؤساء القبائل، أترضَونَ أن تَحمِلوا العار وتُرمَوا بالشَنار؟ اقتلوا سطيحاً وآمنة وفاطمة وبني هاشم جميعاً، وأخمِدوا نارَهم وأَطفِئوا شَرارَهم»؛ فحملت قريش على سطيح ثانياً، لكن بني هاشم رغم أنهم لم تكن لهم قدرة على دفاعهم لقلة عددهم، لم يفزعوا من كثرتهم، واستقاموا في وجوههم يحافظون على سطيح وعلى أنفسهم، وارتفعت الأصوات، وكثرت الزعقات، وارتجت الأرض، بطولها والعرض، وعلا الصراخ في النساء، والتجأن إلى الكعبة[١٢].

عندئذٍ سارع منية بن الحجاج إلى أبي طالب حتى انتهى إليه وقال له: «إنك لم تزل في المراتب عالياً ولمن ناوَأَك غالباً، لكن نسألك أن تصرف عنّا سطيحاً، فإن كان ما تكلم به صحيحاً، فنحن أولى بأن نعاضد ولد أخيك وولدك»؛ وأنشأ يقول:

أبا طالب إنا إليكَ عصابةٌ   لَنرجُوكَ فارحمْ مَن أتى لك راجِيا

---

١٢ - في بعض الروايات أنه عندما أقدم الفريقان على التحارب، وكان أخصام الهاشميين من قريش ومن أنصار أبي جهل يريدون من التحارب وافتعال العراك الوصولَ إلى آمنة بنت وهب أم النبي (ص) وطعنها لقتل الجنين في بطنها، سمع الناس من الفريقين صارخاً من السماء يقول: «لا سبيل لكم إلى رسول الله الجليل، وأنا أخوه جبرائيل» فذهلت العقول وغارت العيون، وسقط كثير من الرجال والنساء على وجوههم.

وفي بعض الروايات أيضاً أن آمنة (ع) قالت: «لما دارت السيوف حولي، وعرفت أن القوم يريدون قتلي، ذهلت عن أمري وطار عقلي؛ وبينما أنا كذلك، إذ اضطرب الجنين في بطني بل وسمعت منه شيئاً كالأنين، وبعدئذٍ سمعت صيحة السماء، فرفعت بصري إليها، فإذا أبوابها قد فتحت، وإذا أنا بفارس في يده حربة من نار يصيح تلك الصيحة، فعند ذلك سكن قلبي ورجع إليَّ جَناني(أي: قلبي)، وتحققت دلائل النبوة لولدي».

فنحـن لَجيـرانٌ لكـم ومُعـاضِـدٌ — على كلِ مَن أضحَى وأمسَى مُعادِيا
أبا طالب حُيِّيتَ بالرُشدِ والحَبا — وَوُقيتَ رَيبَ الدهرِ ما دمتَ باقيا
فإن كان ربُ العرش يُرسلُ منكُمُ — إلينـا رسـولاً غـداً للحـق هـاديـا[١٣]
فنحـن لَنرجُو أحمداً في زمـاننـا — نُجـالِـدُ عنه بـالسيـوفِ الأعـاديـا
أبا طالبٍ فَاْصرِفْ سطيحاً فإنه — أتـى مِنـهُ آتٍ بـالأذى والـدَواهِيـا
ودَعْ عنكَ حربَ الأهلِ والْطُفْ تكرُّماً — ولا تَترُكَـنَّ الـدَّمَ في الأرضِ جاريـا

فرقّ أبو طالب رحمة لقريش، وقال: «حبّاً وكرامة! سأصرفه عنكم إذا كرهتموه، ولكن سوف تعلمون صحة ما ذكر لكم»؛ ثم أمر بسطيح أن يحضروه، فلما حضر قال له أبو طالب: «أتدري لماذا أحضرتك؟»؛ قال: «نعم؛ لقد سألوك خروجي عن مكانهم، والانتزاع من بلادهم، وأنا على ما أردتموه عازم، ولكن إذا ظهر فيكم البشير النذير، فأقرأوه مني السلام الكثير، وقولوا له إنّ سطيحاً أخبرنا بخروجك فكذبناه، ومن جوارك طردناه. وأخبركم أيضاً: ستأتيكم مُبشِرةٌ عندها من العلم أكثر مما عندي، ولا شك أنها دخلت بلادكم وحلّت بساحتكم».

الزرقاء ـ أيضاً ـ بمكة، تنبيء بالظهور

ثم إنه عزم على الخروج من مكة؛ ولما أشرف على ذلك ورفعوه على بعيره، أحاط به بنو هاشم لتوديعه، وبينما هم كذلك إذ لاح لهم من بعيد سواد مقبل إليهم، وراحلة تركض براكبها، والغبار يطير من أخفافها، فتوجهوا بأجمعهم ينظرون إليها، وإذا برجل منهم يقال له عمرو بن عامر ينادي قائلاً: «يا سادات مكة، أتتكم الداهية الدهماء، زرقاء بنت مرقل كاهنة اليمامة». وبينما هم في الحديث، إذا بها قد صارت في أوساطهم وجعلت تناديهم برفيع صوتها تقول: «يا معاشر قريش، حُيّيتم بالإكثار، وعمّرت بكم الديار! إني فارقت أهلي، وخرجت من أوطاني، وجعلت قصدي إليكم، لأخبركم عن أشياء قد دنت وقربت! إنه لَسوف يظهر في دياركم عن قريب العجب العجيب، فإن أذنتم لي بالنزول نزلت، وإن

---

١٣ ـ في رواية «وهو للحق هادياً».

أحببتم الرحيل رحلت»؛ ثم أنشأت تقول:

إني لأعلمُ ما يأتي مِنَ العَجَبِ ... بأرضِكُمْ هذه يا مَعشَرَ العَرَبِ
لقد دنا وقتُ مبعوثٍ لأمتِهِ ... محمدِ المصطفى المنعوتِ في الكتبِ
فعَن قليلٍ سيأتي وقتُ بعثتِهِ ... يَرمي مُعانِدَهُ بالذلِ والحَرَبِ
يدعو إلى دينِ غيرِ اللاتِ مجتهداً ... ولا يقولُ بأصنامٍ ولا نُصُبِ
وآخَرٍ بِذُبابِ السيفِ يَعْضُدُهُ ... قِرْنٍ يُدانيهِ في الأحسابِ والنَسَبِ[14]
وقد أتيتُ لأُنبيكُمْ بِبيِّنَةٍ ... مما رأيتُ مِنَ الأنوارِ والشُهُبِ
عما قليلٍ تُرَى النيرانُ مُضرَمَةً ... ببطنِ مكةَ تَرمي الجمعَ باللَهَبِ
فإن أَذِنتُمْ وإلاّ رُحتُ راجِعةً ... وتَندَمون إذا ما جاء بالعَطَبِ

إلى أن اجتمعت قريش حولها، وسمعوا كلامها ونظمها، فأذنوا لها بالنزول وهم يتساءلون قائلين: «هل تنطق الزرقاء بما نطق به سطيح؟!»؛ فتقدَّم إليها عتبة وقال لها: «ما الذي راع سيدة اليمامة؟ هل لك من حاجة فتقضى؟ أو ملمة فتمضى؟»؛ قالت: «إني لستُ ذات فقر ولا إقلال، ولا أنا محتاجة إلى رِفدٍ ومال، بل جئتكم ببشارةٍ أبشركم، وحَذَرٍ أحذّركم؛ وليست البشارة لي، بل هي وبال عليَّ»؛ فقال عتبة: «وما هذا الكلام يا زرقاء؟ أراك تُوعِدين نفسكِ وإيانا بالبوار والدّمار!»؛ قالت: «يا أبا الوليد، ومَن[15] هو بالمرصاد، لَيخرجن من هذا الواد، نبي يدعو إلى الرشاد، وينهى عن الفساد، نوره في وجهه يتردد، واسمه محمد، كأني به عن قريب يولد، يساعده على ذلك مساعد، ويعاضده معاضد، يقاربه في الحَسَب، ويدانيه في النَسَب، مُبيد الأقران، ومجدّل الشجعان، أسدٌ ضرغام، وسيف قصام، جَسور في الغمرات، هزبر في الفلوات، له ساعد قوي، وقلب جريّ، واسمه علي».

ثم جعلت تقول: «آهٍ ثم آهٍ من يوم سألقاه! واعِظَم مصيبتاه! ستكون لي قصة عجيبة، ومصيبة وأيُّ مصيبة، فلو أردت النجاة سارعتُ إلى

---

١٤ ـ ذُباب السيف (بضم الذال): حده الذي يُضرب به.

١٥ ـ الواو هنا واو القسم، أي: قسماً بمن هو بالمرصاد.

إجابته، وتركت ما أنا عليه من مكايدته، ولكن أرى خوض البحار، والعرض على النار، أيسر من الذلّ والصغار، ولا أنا مشترية بعزّي ذلاً، ولا بعلمي جهلاً»؛ وأنشأت تقول:

ذوي القبائلِ والساداتِ وَيحَكُمُ ... إنـي أقـولُ مقـالاً كـالجَـلاميـدِ
لو كنتُ مِن هاشمٍ أو عبدِ مُطَّلِبٍ ... أو عبدِ شمسٍ ذَوي الفخرِ الصَناديدِ
أو مِـن لُـؤَيٍّ سَـراةِ النـاسِ كلِهـمِ ... ذوي السمـاحـةِ والأفضـالِ والجُـودِ
أو مِن بني نَوفلٍ أو مِن بني أسدٍ ... أو مِـن بنـي زَهـرةَ الغُـرِّ الأمـاجيـدِ
لكنتُ أوَّلَ مَن يَحظَى بصاحبِكُمْ ... إذا جَـرَى مـاؤه فـي يـابِـسِ العُـودِ
لكـنْ أرَى أجَلـي قـد حـانَ مُـدتُـهُ ... لمـا دنـا مَـولـدُ الخيـر المـواليـدِ

ثـم قـالـت: «هيهـات! لا جزع ممـا هـو آت! دهـر يحـول، وميت ومقتول! يا قوم: وخالقِ الشمس والقمر، ومَن إليه مصير البشر، لقد صدقكم سطيح الخبر»؛ فدهش القوم من مقالتها، وظهر عليهم الهمّ والكدر.

ثم توجهت الزرقاء إلى أهل مكة تنظر في وجوههم وتتأملها.. ولكن لابد لنا قبل أن نذكر حديثها معهم، أن نشير إلى لقائها ـ قبل ذلك اليوم ـ بعبد الله، والد النبي (ص)، في اليمامة:

سابقة لقاء الزرقاء وعبد اللّه (ع) قبل زواجه.

فقد جاء في الأخبار أن عبد الله كان، قبل تزوجه بآمنة (ع)، قد سافر مع أبيه عبد المطلب إلى اليمامة، ونزلا بقصر من قصورها؛ وحدث أن أباه خرج يوماً في حاجة له، وبقي عبد الله وحده في القصر.

واتفق أن الزرقاء رأته في القصر وشاهدت نور جبينه، فأدركت بعلمها أنه صاحب الشأن، فسارعت بالدخول عليه قبل أن يأتيه أحد، وبيدها كيس من ورق، ثم وقفت أمامه وقالت: «يا فتى، حياك الله بالسلام، وجلّلك بالإنعام! من أي العرب أنت؟ فما رأيتُ أحسنَ منك وجهاً!»؛ قال: «أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، سيد الأشراف، ومطعم الأضياف، سادات الحَرَم، ومن لهم السابقة في القِدَم».

قالت: «فهل لك يا سيدي من فرحتين عاجلتين؟»؛ قال: «وما هما؟»؛ قالت: «تواقعني الساعة، وتأخذ هذه الدراهم، وأبذل لك مئة من الإبل، محملة تمراً وبُسراً[١٦] وسمناً»؛ فغضب عبد الله وصاح بها يقول: «إليكِ عني، فما أقبح صورتك! يا ويلك! أما علمتِ أنا قوم لا نركب الآثام؟ اذهبي عني قبل أن أقطعك بسيفي»؛ ثم وثب قائماً وتناول سيفه وهمّ بها وهو يقول:

أنرتكبُ الحرامَ بغير حِلٍّ ونحن ذَوُو المكارمِ في الأنامِ
إذا ذُكر الحرامُ فنحن قومٌ جوارحُنا تَصونُ عَن الحرامِ

فانهزمت راجعةً خائبةً خائفة، وفي هذه الأثناء أقبل أبوه، ورآه وقد سلَّ سيفه، فسأله عن ذلك، فأخبره بخبر المرأة، ووصف لأبيه صفاتها، فعرفها عبد المطلب وقال له: «يا بني، هذه زرقاء اليمامة، قد نظرت إلى النور الذي في وجهك يلوح، فعرفت أنه الشرف الوكيد، والعزّ الذي لا يبيد، وأرادت أن تسلبه منك، فالحمد لله الذي عصمك عنها». كان هذا قبل زواج عبد الله وقبل مجيئها هي إلى مكة بأمد طويل.

فلما توجهت الزرقاء إلى أهل مكة بعد وصولها إليها، تنظر إلى وجوههم وتتأملها، رأت عبد الله بين الجموع، فعرفته حالاً وحدقت في جبينه فعلمت بزواجه؛ فقالت له: «ألستَ بصاحبي باليمامة في يوم كذا؟»؛ قال: «نعم! فلا أهلاً بك ولا سهلاً»؛ قالت: «أين النور الذي كان في غرّتك؟»؛ قال: «في بطن زوجتي آمنة بنت وهب»؛ قالت: «لا شك أنها لذلك أهل!»؛ ثم نادت برفيع صوتها تقول: «يا ذوي العزّ والمراتب، ان الوقت متقارب، وان الأمر لواقع! ما له من دافع! تفرقوا عني فقد جاء المساء، وفي الصباح تسمعون مني الأخبار، وأوقفكم على حقيقة الآثار»؛ فتفرق الناس عنها، وانصرفت هي إلى محلٍ ونزلت فيه.

وكان سطيح قد خرج من مكة، فلما مضى من الليل شطره، مضت إلى سطيح خارج مكة، حتى انتهت إليه وجلست لديه وقالت له: «ما ترى يا سطيح؟»؛ قال: «أرى العجب، والوقت قد قرب»؛ ثم حدّثها بما جرى

---

١٦ ـ البُسر: البلح إذا لوّن ولم ينضج (مفرده بُسرة)، والتمر: الناضج منه.

من «قريش»، فقالت: «ما تشير به عليَّ؟» قالَ: «أما أنا فقد كبر سني، ولولا خيفة العار لأمرت من يريحني من الحياة، ولكني سأذهب إلى الشام، وأقيم بها حتى يأتيني الحِمام، فإنه لا طاقة لي به - يعني النبي (ص) - فإنه المؤيد المنصور، ومن يعاديه مقهور»؛ قالت: «يا سطيح، وأين أعوانك؟ لم لا يساعدونك على هذا الأمر، ويعينونك على هلاك آمنة قبل أن يخرج من الأحشاء؟»؛ قال: «يا زرقاء، وهل يقدر أحد أن يتعرض لآمنة؟ فإن من تعرض لها عاجله التدمير، من اللطيف الخبير؛ أما أنا وأصحابي فلا نتعرض لها. والآن أنصحكِ، فإياكِ أن تصلي إلى آمنة، فإنّ حافظها ربّ السماوات والأرض، وان لم تقبلي نصيحتي، فدعيني وما أنا عليه، فلعلّي أموت الليلة أو غداً»؛ فأعرضت عنه الزرقاء وانصرفت إلى منزلها، وسهرت ليلتها تفكر في أمرها، ولم ترقد عينها ولم يسكن قلبها حتى أصبح الصباح.

وفي صباح اليوم التالي، مضت إلى مجمع بني هاشم، إلى أن دخلت عليهم وقالت لهم: «أنعم الله لكم الصباح! لقد شرفت بكم المحافل، ووُفقتم إذ ظهر فيكم المنعوت في التوراة والإنجيل والزبور، فيا ويل من يعاديه، وطوبى لمن اتّبعه وعاونه!»؛ فاستبشروا بمقالتها ووعدوها بخير، فقالت: «لست محتاجة إلى رفد ومال، وما جئت من الأقطار إلاّ لأخبركم بحقيقة الأخبار»؛ قال أبو طالب: «قد وجب حقك علينا، فهل لك من حاجة؟»؛ قالت: «نعم، أريد أن تجمع بيني وبين آمنة، حتى أتحقق ما أخبركم به»؛ قال: «سمعاً وطاعة!»؛ ثم وثب أبو طالب وأتى بها إلى دار آمنة حتى انتهى إليها، فلما نظرت الزرقاء إلى وجهها، وقد لاح من جبينها نور ساطع وضياء لامع، تغير لونها، وكادت أن تتقطع أحشاؤها حسداً وغيظاً، ولكن أظهرت تجلّداً وبشاشة، إلى أن دخلت المنزل وأتوها بطعام فلم تأكل، ثم قالت: «سوف يكون لمولودكم هذا عجب عجيب، وسوف تسقط الأصنام، وتخمد الأزلام، وينزل على عُبّادها الدّمار ويحلّ بهم البوار»؛ ثم قامت بعد هنيهة، وانصرفت راجعة إلى محلها، تتفكر في قتل آمنة وكيفية الحيلة في ذلك، وجعلت تتردد إلى سطيح، وتطلب منه المساعدة على ذلك، وهو لا يلتفت إليها، حتى يئست منه.

الزرقاء تصر على قتل آمنة (ع).

ثم مضت إلى امرأة من الخزرج تسمى «ثكنا» ـ وكانت ماشطة لآمنة ـ وباتت عندها؛ ولما انقضى شيء من الليل، استيقظت ثكنا من نومها، فسمعت عند الزرقاء شخصاً يحدّثها ويقول:

كـاهنـة اليمـامـة جـاءت بـذي تهـامـة
ستـدرك النـدامـة إن جـاء ذو الغمـامـة[١٧]

وسمعت الزرقاء تقول له: «لقد كنتَ صاحب الوفاء، فلم حبست نفسك عني هذه المدة، وأنا في هموم متواترات، وأهوال وكربات؟»؛ فقال: «ويلك يا زرقاء! لقد نزل بنا أمر عظيم، فإنا كنا نصعد إلى السماء السابعة، ونسترق السمع، وفي هذه الأيام طُردنا من السماء، وسمعنا منادياً ينادي في السماوات: إن الله قد أراد أن يَظهَر المُكسرُ للأصنام، ومظهرُ عبادةِ الرحمان؛ ومُنِعت جملة الشياطين من السماء، وتحدَّرت علينا ملائكة بأيديهم شهب من نار، فسقطنا كأننا جذوع النخل، وقد جئتكِ لأحذركِ»؛ فغضبت الزرقاء وقالت له: «انصرف عني، فلا بد أن أجتهد غاية المجهود، في قتل هذا المولود»؛ فقال لها صاحبها:

إني نصحتُكِ بالنصيحة جاهداً فخذي لِنفسِكِ واسمعي مِن ناصحِ
لا تطلبـي أمـراً عليـكِ وَبـالُـهُ فلقـد أتيتُـكِ بـاليقيـنِ الـواضـحِ
هيهـاتَ أن تَصلـي إلـى مـا يُبْتَغَـى مِـن دونِ ذلـك عُظْـم أمـرٍ فـادحِ[١٨]
فـالله يحفـظُ عبـدَهُ ورسـولَـهُ مِن شرِ ساحرةٍ وخطبٍ فاضحِ
عودي إلى أرضِ اليمامةِ واحذري مِـن شـرِ يـومٍ سـوف يـأتـي كـادحِ

ثم طار عنها وغاب. وكانت ثكنا تسمع كل ذلك، ولكنها لم تبين ذلك للزرقاء، وكأنها لم تسمع شيئاً.

ولما أصبحت ثكنا، أتت إلى الزرقاء، وجلست بين يديها تحادثها،

---

١٧ ـ في الأصل: إذا أتاها من له الغمامة.

١٨ ـ في الأصل: «. . . إلى ما تطلبي». ـ العُظْم والعِظْم (بضم العين وكسرها وسكون الظاء): عكس الصِغَر. العَظَمة.

إلى أن قالت لها: «ما لي أراكِ مغمومة؟»؛ قالت: «يا أختاه، إن الذي نزل بي من الهموم والغموم، لِخروجي من الأوطان، وذهابي من البلدان، وتشتتي في كل مكان، وتفرُّدي عن الخلان، كاد أن يهلكني!»؛ قالت: «ولم ذلك؟»؛ قالت الزرقاء: «يا ويلكِ! مِن حاملٍ مولود، يدعو إلى أكرم معبود، ويكسر الأصنام، ويذلّ السحرة والكهان، يخرب الديار، ولا يترك بمكة أحداً من ذوي الأبصار؛ وأنت تعلمين أن القعود على النار، أيسر من الذّل والصغار، فلو وجدتُ مَن يساعدني على قتل آمنة، لبذلتُ له المُنى وأعطيتُه الغِنى»؛ ثم عمدت إلى كيس كان معها وفيه مال جزيل، وأفرغته بين يدي ثكنا، ولما نظرت ثكنا إلى الدراهم الجزيلة، لعب الشيطان بقلبها، وأخذ بعقلها، ودهشت برؤيتها، فقالت: «يا زرقاء، لقد ذكرتِ أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً، وإن الوصول إلى ذلك لَبعيد؛ ولكني ماشطة لجملةِ نساء بني هاشم، لا يدخل عليهن غيري، وسوف أفكر لكِ في ما ذكرتِ، وكيف الحيلة في ما ابتغيتِ»؛ قالت: «إن الأمر لَهَيِّن! إذا دخلتِ على آمنة وجلستِ عندها، فاقبضي على ذوائبها، ثم اضربيها بهذا الخنجر فإنه مسموم»؛ وناولتها الخنجر، ثم قالت: «وإذا اختلط الدم بالسم هَلَكتْ، وإذا وقعت عليكِ تهمة أو وجبت عليك دِيَة، فأنا أقوم بخلاصك، وأدفع عنك عشر دِيات، غيرَ الذي دفعتُه إليكِ الساعة، فما أنت قائلة؟»؛ قالت: «إني أجبتك إلى ذلك، ولكني أريد منك الحيلة بأن تشغلي بني هاشم عني»؛ قالت: «نعم، إني آمر عبيدي أن يذبحوا الذبائح، ويعملوا الخمور، ويضعوها في الجفان، ويضيفوا بني هاشم ويطعموهم، فإذا أكلوا وسكروا ظفرتِ بحاجتك»؛ قالت ثكنا: «الآن تمت الحيلة، فافعلي ما ذكرت»؛ فبادرت الزرقاء إلى ذبح الذبائح وإعداد الطعام.

فشل مؤامرة الزرقاء.

فلما أكملت الزرقاء استعدادها لضيافة بني هاشم، أمرت عبيدها أن ينادوا في شوارع مكة ويجمعوا الناس لمائدتها، وبادر العبيد إلى ذلك حتى لم يتركوا أحداً من بني هاشم إلاّ وأحضروه. ولما أكلوا وشربوا وعلمت أن القوم قد خالط عقولهم الشراب، أقبلت إلى ثكنا وقالت لها:

«قومي إلى حاجتك»؛ فقامت ثكنا وتناولت الخنجر، ورشت على جوانبه السم، ثم مضت إلى دار آمنة حتى دخلت عليها، فتلقتها آمنة بالترحاب وجعلت تسألها عن حالها وتقول: «يا ثكنا، ما عودتِني الجفاء»؛ قالت: «اشتغلت بهمي وحزني، ولولا أياديكم الباسطة علينا لكنا بأقبح حال! ولا أحد أعزّ علي منك! هلمّي يا بنية لأزينك»؛ فجلست آمنة بين يديها، وجعلت ثكنا تسرح شعرها، وبينما هي كذلك وآمنة مستسلمة لها، عمدت فجأة إلى الخنجر وهمّت أن تضربها به، ولكنها ارتعدت فرائصها وارتجفت جوارحها حتى سقط الخنجر من يدها، وصرخت تنادي «واحزناه!»؛ فالتفتت آمنة إليها ورأت الخنجر، فصاحت برفيع صوتها، وبادرت النساء إليها يسألنها عن مّا دهاها، إلى أن عرفن الأمر وقبضن على ثكنا وجعلن يسألنها: «ما حملك على ذلك؟»؛ قالت: «لا تَلُمْنَني؛ حملني على ذلك طمعُ الدنيا الغَرور»؛ وأخبرتهن بقضيتها، وأخذت تصرخ وتقول: «ويحكن! دونكن الزرقاء! أقتلنها قبل أن تفوتكن»؛ ثم سقطت ميتة.

وبلغ الخبر بني هاشم، فبادروا إلى آمنة وقد تجلل نورها، ورأوا ثكنا ميتة، ولما علموا سبب ذلك خرج أبو طالب ينادي في الشوارع: «أدركوا الزرقاء»؛ وكان قد بلغها الخبر وخرجت هاربة، فتبعها الناس من بني هاشم وغيرهم ولكنهم لم يدركوها. وسمع أبو جهل بذلك فقال: «وددت أنها قتلت آمنة، ولكن حاد عنها أجلها، وأرجو أن يعمل سطيح أحسن مما عملت الزرقاء!»؛ وبلغ الخبر سطيحاً، فأمر غلمانه بحمله مسرعاً نحو الشام فحملوه إليها.

* * *

كرامات للنبي (ص) خلال شهور الحمل وقبل ولادته.

ومما في كتب السير والتواريخ أيضاً من الآيات والكرامات والأحداث أثناء حمل آمنة (ع) بالنبي المختار (صلعم)، أنه لما انقضى من أيام حمله (صلعم) ثلاثة أشهر، كان أبو قحافة، والد أبي بكر (رض) راجعاً من الشام، ولما دنا من مكة وضعت ناقته رأسها على الأرض ساجدة، فجعل يضربها بقضيب كان بيده ضرباً وجيعاً، وهي لا ترفع

رأسها، فبينما هو كذلك إذا بصوتٍ هاتفٍ ينادي: «لا تضرب يا أبا قحافة من لا يطيعك، ألا ترى أن الجبال والبحار والأشجار سجدت لله تعالى؟»؛ فقال: «وما السبب في ذلك؟»؛ فنادى الهاتف يقول: «اعلم أن النبي الأمي قد أتى عليه في بطن أمه ثلاثة أشهر»؛ قال أبو قحافة: «ومتى يكون خروجه؟»؛ فنادى الهاتف: «سترى يا أبا قحافة إن شاء الله تعالى؛ فالويل كل الويل لعبدة الأصنام من سيفه وسيف أصحابه!» ثم رفعت الناقة رأسها بعد هنيهة، وأخذت في السير براكبها حتى دخلت مكة، فانطلق أبو قحافة إلى عبد المطلب وأخبره بما رأى وما سمع.

* * *

فلما كان الشهر الرابع من الحمل، حدث نظير ذلك لزاهد اسمه «حبيب» كان في صومعة له خارج مكة على طريق الطائف، على مرحلة منها، وكان قد خرج تلك الأيام إلى بعض أحيائه بمكة، إلى أن بلغ أرض الموقف، فرأى فيها صبياً قد وضع جبهته على الأرض ساجداً، فدنا منه واحتضنه، إذا بصوت هاتف يقول له: «خلّ عنه يا حبيب، ألا ترى الخلائق من البرّ والبحر والسهل والجبل قد سجدوا لله شكراً، وذلك لما أتى على النبيّ الزّكي الرضي المرضيّ في بطن أمه من اكتمال أربعة أشهر؟»؛ فدهش الزاهد من الصوت وترك الصبي، ثم سارع إلى مكة وأخبر عبد المطلب بذلك، فقال له عبد المطلب: «أكتم هذا الاسم فإن له أعداء».

ولما رجع حبيب إلى صومعته، رآها تهتز ولا تستقر، وقد كتب على محرابها: «يا أهل البِيَع والصوامع، آمنوا بالله وبرسوله محمد بن عبد الله، فقد آن خروجه، فطوبى ثم طوبى لمن آمن به!، والويل كل الويل لمن كفر به وردّ عليه حرفاً مما يأتي به من عند ربه!» فازداد الزاهد من ذلك دهشة وعجباً، وجعل يقول: «السمع والطاعة، إني لمؤمن وطائع غير منكر!»[١٩].

---

١٩ ـ وقد نُسب الى بعض أهل البيت (ع) رواية أن تلك العبارة كتبت على جميع محاريب الرهبان بسائر الأقطار.

وفي الشهر الخامس (أو السادس) سُمع في الأرجاء المختلفة من جزيرة العرب هاتف ينذر عبدة الأوثان بالهلاك، فقد روي أن أهل المدينة واليمن كان لهم في كل سنة ستة أعياد يخرجون فيها إلى شجرة عظيمة هناك، يقال لها «ذات أنواط»، وقيل إنها التي أشار إليها تعالى في قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾[٢٠]، فخرجوا إليها في عيد من أعيادهم صادف الشهر المذكور من حمل النبي (صلعم)، وأكلوا وشربوا وفرحوا عندها، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صيحة عظيمة من الشجرة وهاتفاً يقول: «يا أهل اليمن، ويا أهل اليمامة، ويا أهل البحرين، ويا من عبد الأصنام وسجد للأوثان، ﴿جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾[٢١]! يا قوم قد جاءكم الهلاك، قد جاءكم التلف، قد جاءكم الويل والثبور!»؛ ففزع القوم من ذلك ودهشوا، وولوا منهزمين إلى منازلهم حائرين متعجبين.

* * *

وفي الشهر السادس أيضاً دخل على عبد المطلب ذات يوم، وكان جالساً في مجلسه، رجل يقال له «سواد بن قارب» وقال: «اعلم يا أبا الحارث أني كنت البارحة بين النوم واليقظة، فرأيت أبواب السماء مفتحة، ورأيت الملائك تنزل إلى الأرض معها ألوان الثياب، وهم يقولون: زينوا الأرض، فقد قرب خروج مَن اسمه محمد، وهو نافلة عبد المطلب، ورسول الله إلى الأرض، وإلى الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، وإلى الصغير والكبير، والذكر والأنثى، صاحب السيف القاطع، والسهم النافذ، فقلت لبعض الملائكة: مَن هذا الذي تزعمون؟؛ قال: ويلك! هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»؛ قال عبد المطلب: «اكتم الرؤيا ولا تخبر بها أحداً لننظر ما يكون».

* * *

---

٢٠ ـ ج ٢٧، س ٥٣ النجم: ٢٠.

٢١ ـ عبارة «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» جزء من الآية القرآنية الكريمة ج ١٥، س١٧ الإسراء: ٨١.

وفاة عبد الله (ع)

فلما أتى على حمله (صلعم) سبعة أشهر، دعا عبدُ المطلب ابنَه عبدَ الله وقال له: «يا بني، لقد قربت ولادة آمنة، ونريد أن نولم وليمة، وليس عندنا شيء»؛ وكان قد وصل إلى عبد المطلب كتاب من «يثرب» يخبره بموت ابنته «فاطمة»، وأنها تركت أموالاً خطيرة فيجب حضوره لاستلام التركة، فقال لابنه عبد الله: «. . ولابدَّ لك من أن تجيء معي إلى يثرب حتى تشتري منها ما يصلح للوليمة»؛ فتجهزا للسفر.

ثم إنهما سارا بعدئذٍ حتى دخلا مدينة يثرب، واستلم عبد المطلب الأموال، وأقاما بها أياماً يتبضعان لوازم الوليمة، إلى أن أكملا ما يريدان. فلما مضى عليهما عشرة أيام من دخولهما المدينة، اعتلَّ عبد الله، وبقي مريضاً في فراش الموت خمسة عشر يوماً حتى إذا كان اليوم السادس عشر من أيام مرضه، مات وانتقل إلى رحمة ربه، فأظلمت الدنيا على أبيه وبكى عليه بكاء شديداً حتى كاد أن يموت حزناً على ابنه، وبينما هو كذلك في بيت ابنته فاطمة، إذ رأى سقف البيت قد انشق، وسمع صوت هاتف يقول: «قد مات مَن كان في صلبه خاتم النبيين، وأيّ نفر لا يموت!؟».

ثم قام عبد المطلب فغسله وكفنه، ودفنه في سكة من سكك يثرب يقال لها «شين»، وبنى على قبره قبة عظيمة من جصّ وآجر، ثم رجع إلى مكة باكياً حزيناً، فاستقبله رؤساء قريش وبنو هاشم بتفجع بالغ. وشاع خبر موت عبد الله، فضجت مكة بأهلها، وبلغ الخبر آمنة، فصرخت صرخة كادت أن تزهق معها روحها، ونتفت شعرها، وخدشت وجهها، ومزقت ثيابها، ثم دعت بالنائحات فاجتمعن، واجتمعت نساء مكة يَنُحْنَ على عبد الله، وأتى إليها عبد المطلب يعزيها ويسليها حتى أسكتها عن شدة البكاء والجزع وطيب قلبها، ثم وهبها ألف درهم بيض، وتاجين كان عبد مناف جده قد اتخذهما لبعض بناته، وقال لها مواسياً مسكِّناً: «يا آمنة إنك عندي جليلة لأجْلِ مَن في بطنك ورَحِمك، فلا يُهِمَّنَّكِ أمرُك». وأقيمت المآتم لعبد الله في بيوتات مكة وعظم عليهم وفاته، وكان ذلك عليهم مصاباً كبيراً.

ولم تزل آمنة حزينة باكية على زوجها ليلها ونهارها، حتى تمَّ على حمل النبي (صلعم) تسعة أشهر، وكان في كل شهر من شهور حمله يُسمَعُ نداء من السماء خطاباً للخلائق أن «أبشِروا، فقد آن لمحمد أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً».

وقال عبد المطلب مرة: «بينا أنا نائم ذات ليلة في الحجر، إذ رأيت رؤيا هالتني، فلما انتبهتُ أتيتُ كاهنة قريش، وعليَّ يومئذٍ مِطرفُ خزٍّ، وكانت جبتي تضرب منكبي وأنا سيد قومي؛ ولما انتهيتُ إليها عرفَتْ في وجهيَ التغير، فاستوت وقالت: «ما شأن سيد العرب متغير اللون؟ هل رابَهُ من حِدْثانِ الدهر ريب؟»؛ قلت: «نعم، إني رأيتُ الليلةَ في منامي كأن شجرةً قد نبتت على ظهري، قد ارتفع رأسها حتى نالَ السماء، وضربت بأغصانها الشرق والغرب، ورأيت نوراً يزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً، ورأيت العرب والعجم ساجدة لها، وهي تزداد عِظَماً ونوراً؛ ورأيت رهطاً من قريش يريدون قطعها، فإذا دَنَوا منها، أخذهم شابٌ من أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثياباً، فيأخذهم ويكسر ظهورهم ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول غصناً من أغصانها، ولكن الشاب صاح بي يقول: مهلاً، ليس لك منها نصيب! فقلت: ولمن النصيب والشجرة مني؟ فقال: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها؛ فأنتبهت مذعوراً فَزِعاً متغيّر اللون؛ فلمّا قلت هذا، رأيتُ الكاهنة قد تغير لونها لِما سمعت منّي، ثم قالت: لئن صدقَتْ رؤياك، ليَخرُجَنَّ مِن صُلبك ولدٌ يملك الشرقَ والغرب وينَبّأ في الناس».

وقال العباس بن عبد المطلب: «رأيت ذات ليلة في منامي أن قد خرج من مِنخر عبد الله أخي، طائرٌ أبيض، وطار حتى بلغ المشرق والمغرب، ثم رجع حتى سقط على سطح الكعبة، فسجدت له قريش كلها؛ وبينما الناس يتأملونه، إذ صار نوراً بين السماء والأرض، وامتدَّ حتى بلغ المشرق والمغرب؛ ولما انتبهتُ من نومي، أتيت كاهنة بني مخزوم، وقصصت عليها رؤياي، فقالت: يا عباس، لئن صدقَتْ رؤياك، ليخرُجَنَّ مِن صلب عبد الله أخيك ولدٌ يصير أهل المشرق والمغرب تبعاً له».

مولده (ص)
في مكة المكرمة

وكان ذلك على المعروف الصحيح يوم الجمعة عند طلوع الفجر أو عند الزوال[١] من اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول، الموافق للعشرين أو الثامن والعشرين من شهر نيسان أو شباط الرومي، وللسابع عشر من شهر ديماه الفرس، بعد مضي ٤٢ سنة من بداية مُلك كسرى أنوشروان، وبعد هلاك أصحاب الفيل بخمسة وخمسين يوماً[٢] في مكة المكرمة، في دار كانت تُعرف في العهد الأموي بدار «محمد بن يوسف»، وذلك لأنّ هذه الدار كانت للنبي (صلعم)، وكان قد وهبها لابن عمه عقيل بن أبي طالب، وانتقلت منه إلى أولاده، ومنهم إلى محمد بن يوسف، أخي الحجاج بن يوسف الثقفي واشتهرت باسمه، ثم أخذتها «الخيزران» أم الخليفة هارون الرشيد وجعلتها مسجداً ظل يزار ويُصلى فيه إلى أن هدمه الوهابيون في جملة ما هدموه من المقامات الشريفة في العصر الحاضر قبل عشرين سنة تقريباً[٣].

ثم لابد من الإشارة إلى أن ما ذكرناه سابقاً من أن انعقاد نطفته (صلعم) في رحم أمه كان عشية عرفة من شهر الحج، منافٍ في الظاهر لكون ولادته (صلعم) في ربيع الأول، على ما هو المعروف بين العامة والخاصة، فإن الفريقين (ما عدا شرذمة قليلة) اتفقوا على كون ولادته (صلعم) في الشهر المذكور، في الثاني عشر أو السابع عشر منه،

---

١ ـ أي الظُهر.

٢ ـ وقيل إن ولادته (صلعم) كانت بعد وفاة آدم (ع) أبي البشر، بتسعة آلاف وتسع مئة سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام.

٣ ـ لا بأس بالتذكير بأن هذا التاريخ متعلق بزمن تأليف الكتاب، ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩م) ـ المحقق.

وعلى هذا تكون أيام حمله (صلعم) ثلاثة أشهر، أو خمسة عشر شهراً، وكلاهما بعيد عن العادة ومستبعد جداً لم يقل به أحد، والجواب أن شهر الحج أيام الجاهلية كان يدور ويختلف عندهم حسب محصولات زراعاتهم وتجاراتهم، فكانوا يحجون في كل شهر سنتين متواليتين، أي يحجون في ذي الحجة سنتين، وفي شهر محرم سنتين، وهكذا؛ وكانوا يسمّون ذلك «نسيئاً» وهو الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً**﴾[٤] الخ.

وقد وافق انعقادُ نطفة النبي (صلعم) شهرَ حجهم في تلك السنة، وهو شهر جمادى الأولى، فكان انتقاله (صلعم) إلى رحم أمه ليلة التاسع من الشهر المذكور ـ وكانت ليلة حجهم في تلك السنة، وكانوا يسمونها عشية عرفة ـ وعلى هذا تكون أيام حمله (صلعم) في رحم أمه حوالي عشرة أشهر، ولا غرو في ذلك ولا هو بعيد عن العادة.

* * *

المخاض يفاجيء آمنة (ع) ونزول اربع نسوة عليها.

فلما كانت ليلة ولادته (صلعم)، كانت آمنة (ع) في ليلتها جالسة تفكر في أمرها وتحدّث نفسها في حملها، ولم يكن عليها أثر للحمل، إذ هاج بها الحزن والوجد على بعلها، فتوجهت إلى أمها «بَرَّة» وقالت: «يا أماه، إني أحب أن أدخل البيت وحدي، وأبكي ساعة على زوجي وأقطر على شبابه وحسن وجهه دمعي، فلا يدخلْ عليّ أحد»؛ قالت: «افعلي ما شئتِ وابكي، فحقٌّ لك البكاء»؛ فدخلت الحجرة، وأغلقت الباب على نفسها وجلست تبكي وتنوح. وبينما هي كذلك ـ وكان بين يديها شمع يضيء ـ إذ أصابها الطلق، فوثبت مسرعة إلى الباب لتفتحه، وعالجته طويلاً ولكن لم ينفتح حتى يئِست من ذلك، فاشتد بكاؤها وهي تقول: «واوحدتاه!» ولكنها سمعت فجأة وجبة[٥] عظيمة أفزعتها، ثم دخل عليها

---

٤ ـ ج١٠، س٩ التوبة: ٣٧.

٥ ـ الوجيب والوَجْب صوت السقوط وكذا صوت خفقان القلب.

طير أبيض مسح بجناحه على بطنها، فزال عنها ما كانت تجده من الفزع والخوف.

وقد وصفت آمنة (ع) بعدئذٍ حالها في تلك الساعة فقالت: «رأيت عند ذلك أن سقف البيت قد انشق، ونزلت أربع نسوة طوالٌ تفوح منهن رائحة المسك والعنبر، وقد تنقبن بأطمارهن[٦] وهي من العبقري[٧] الأحمر، وبأيديهن أكواب من البلور الأبيض حتى أضاء البيتَ نورُهن، فأخذن يسلينني ويقلن لي: لا بأس عليك يا جارية، إنا جئناك لنخدمك فلا يهمنَّك أمرك!؛ ثم جلست واحدة منهن عن يميني، والثانية عن يساري، والثالثة بين يدي، والرابعة من ورائي، فجعلت أفكر في نفسي وفي كيفية دخولهن، وكنت قد أغلقت الباب، وصرت أنظر إليهن ولا أعرفهن، فناولنَني قدحاً من الشراب وقلن لي: اشربي يا آمنة من هذا الشراب، وابشري بسيد الأولين والآخرين محمد المصطفى!؛ ولما شربتُه أضاء وجهي وعلاني نور ساطع وضياء لامع، وسمعتُ قائلاً ينادي برفيع صوته:

صلَّى الإلهُ وكلُّ عبدٍ صالحٍ والطيبونَ على السِراج الواضحِ
المُصطفى خَيرِ الأنامِ محمدٍ الطاهرِ العَلَمِ الضياءِ اللائحِ
زَينِ الأنامِ المصطفى عَلَمِ الهدَى الصادقِ البَرِ التّقيِ الناصِحِ
صلى عليه اللّهُ ما هبَّ الصَبَا وتجاوَبَتْ وُرْقُ الحَمامِ النائحِ

ثم رأيت أثواباً من الديباج قد نُشِرتْ بين السماء والأرض، وسمعت هاتفاً يقول: خذوه وغَيِّبوه عن أعين الناظرين والحاسدين، فإنه وليُّ رب العالمين!؛ فداخلني الجزع والفزع، وإذا أنا أسمع خفقاناً لأجنحة الملائكة، ثم سمعت تسبيحاً وتقديساً وأصواتاً مختلفة وليس في البيت من أعرفه، وجعلت أحدث نفسي قائلة هل أنا نائمة أو يقظانة؟! وفجأة لمع نور مضيء، فهوَّمتْ عيني وغفوت غفوة، ولما انتبهت رأيت طفلي عند ذيلي، وهو مكتحل العينين، منقط الجبينين والذقن، قد وضع جبينه على

---

٦ ـ تنقبت المرأة: لبست النقاب أي غطاء الوجه. والأطمار جمع طِمْر: الثوب.
٧ ـ العبقري: ما يُعجب كماله وحسنه.

الأرض ساجداً لله، رافعاً يديه إلى السماء مشيراً كالمتضرع إلى ربه وهو يقول: لا إله إلاّ الله؛ ولم أجد في نفسي ثقلاً عند وضعه، ولا رأيت ما تـراه النساء عادةً حين الوضع (أي من النفاس)، وسمعت جلبة عظيمة[٨] وأصواتاً مختلفة، ثم إذا بسحابة بيضاء قد نزلت على ولدي وأخذته وغيبته عني ولم أره، فصرخت وصحت خوفاً عليه، ولكن سمعت قائلاً يقول: لا تخافي؛ وصوتاً آخر يقول: طوفوا بمحمد على مشارق الأرض ومغاربها، برِّها وبحرها وسهلها ووعرها، واعرضوه على الجن والإنس ليعرفوا نعته؛ وبينما أنا كذلك إذ جاؤوا بعد أمد بولدي محمد، وهو مدرج في ثوب أبيض من صوف، وهو مكحل مختون مدهون، وقابض على ثلاثة مفاتح، وسمعت رجلاً قائماً على رأسه يقول: قبض محمد على مفتاح النصرة ومفتاح النبوة ومفتاح الكعبة[٩]. بعدئذٍ نزلت سحابة أخرى أعظم من الأولى، سمعت منها تسبيحاً ووجيباً لم أعرف منه إلاّ أنه نشيش أجنحة الملائكة، جاءت في فوجٍ ثانٍ فأخذت ولدي، فدمعت من ذلك عيني ورجـف قلبـي، وإذا بقـائـلٍ يقـول: طـوفـوا بمحـمـد عـلـى مـولـد النبيـيـن، واعرضوه على سائر المسلمين، وأعطوه صفوة آدم، ورأفة نوح، وحلم إبراهيم، ولسان إسماعيل، وجمال يوسف، وصبر أيوب، وصوت داود، وزهد يحيى، وكرم عيسى، وشجاعة موسى، وأعطوه أخلاق جميع الأنبياء؛ ثم سمعت منادياً يقول لي: لا تخافي على مولودك، وسيُردُّ عليك! ؛ ثم ردّوه علي بعد برهة، فرأيته قابضاً على حريرة بيضاء مطوية يخرج منها الماء، وسمعت قائلاً يقول: قبض محمد على الدنيا بأسرها ولم يبق شيء إلاّ دخل في قبضته.

جبرائيل وميكائيل ورضوان (ع) يخدمون المولود المبارك (ص).

ودخل عليَّ بعدئذٍ ثلاثة أنفار تضيء وجوههم كالشمس يكاد نورهم

---

٨ ـ قيل إن هاتفاً أيضاً صرخ في تلك اللحظة بين السماء والأرض قائلاً:

كم آيةٍ من أجلِهِ ظهرَتْ فما ... تَخفَى وزادَتْ في الأنام ظُهورا
ورأتـهُ آمنـةٌ يسبِّـحُ سـاجـداً ... عنـدَ الـولادةِ للسمـاءِ مُشيـرا

٩ ـ لعلها: مفتاح الحكمة ـ المحقق.

يخطف الأبصار، في يد أحدهم إبريق من عقيق، وفي يد الآخر طشت من ذهب، وفي يد الثالث منهم حريرة مطوية وخاتم من نور يشرق كالشمس؛ فحمل الثالث ولدي وناوله لصاحب الطشت، وجعل صاحب الإبريق يصب عليه، وألهمت حينئذٍ أن صاحب الطشت هو جبرائيل، وصاحب الإبريق ميكائيل، وهما شابان بصورة الآدميين، فجعل جبرائيل يغسله وميكائيل يصب عليه الماء، حتى صب عليه سبع مرات، ثم ناولاه للثالث؛ وألهمت أنه رضوان خازن الجنان، فتناوله رضوان وختمه بين كتفيه بخاتمٍ كان في يده، ولفه تحت جناحه وغيبه عني وأنا جالسة في زاوية البيت فزعة مبهوتة، فقال لي جبرائيل: يا آمنة، إنا لا نغسله من النجاسة، فإنه لم يكن نجساً، ولكن نغسله من ظلمات بطنك؛ ثم أخرجه رضوان من تحت جناحه، وتكلم في أذنه بكلام لم أفهمه، ثم قَبَّله وقال له: أبشر يا محمد، فإنك سيد الأولين والآخرين، وأنت الشفيع فيهم يوم الدين! ؛ ثم بصق في فيه واستنطقه، فجعل ولدي محمد يتكلم، ولم أفهم ما يقول، إلاّ أن رضوان قال في جوابه: في أمان الله وحفظه وكلاءته! قد حشوتُ قلبَك إيماناً وعلماً ويقيناً وعقلاً وشجاعة! أنت خير البشر! طوبى لمن اتبعك، وويل لمن تخلف عنك! ؛ ثم كحلوا عينيه، ونقطوا جبينه بورقة كانت معهم مسكاً وعنبراً وكافوراً مسحوقاً بعضه ببعض، وذرّوا من ذلك فوق رأسه، وسمعت قائلاً يقول لي: وضعتِ خير البشر، فعوِّذيه بالإلهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصَمَد، من شر كل باغٍ وكل حاسد.

ورأيت حولي من طيور القطا شيئاً كثيراً ومقداراً عظيماً قد نشرت أجنحتها، ورأيت نوراً ساطعاً من رأس ولدي كأنه شعلة نار، وكشف الله عن بصري حتى رأيت قصور الشامات، ورأيت ثلاثة أعلام منصوبة، واحداً بالمشرق، وثانياً بالمغرب، والثالث على الكعبة، وسمعت جلبة وكلاماً على الباب؛ فذهب جبرائيل إلى أمام الباب ورجع وقال: إن ملائكة السماوات السبع يريدون السلام على النبي؛ فرأيت البيت قد اتسع، ودخلت الملائك عليه موكباً بعد موكب وهم يقولون: السلام عليك يا محمد! السلام عليك يا محمود! السلام عليك يا حامد! السلام

عليك يا أحمد!![10]؛ وأوحى الله إلى ملائكة السماوات أن اهبطوا إلى الأرض، فهبط عشرة آلاف منهم، بأيديهم قناديل من نور تشتعل من غير دهن، مكتوب على كل منها بخط جلي: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله؛ ونزلوا بها في المفاوز حول مكة، وجعل هاتفهم ينادي: هذا نور محمد رسول الله».

معجزات الطبيعة على الأرض وما فوقها.
ليلة ميلاده (ص).

وقد صارت الكواكب ليلة ميلاده تسير من موضع إلى موضع، يبشر بعضها بعضاً بولادته (صلعم)، وبقيت كذلك ثلاثين ليلة والناس ينظرون إليها؛ ورُمِيَت الشياطين في تلك الليلة بالنجوم والشهب الثاقبة، فإنهم كانوا من قبلُ يخترقون السماوات السبع ويسترقون فيها السمع، فلما وُلد المسيح عيسى (ع)، حُجِبت الأبالسة عن ثلاث من السماوات، وبقيت تخترق أربعة منها فقط، ولما ولد رسول الله محمد (صلعم)، حُجبت عنها كلها، ورميت بالشهب، فاجتمعوا عند كبيرهم يسألونه عن ذلك، فقال: «إنما هو لأمر قد حدث»؛ ثم أمرهم أن يجولوا شرق الدنيا وغربها، فلعلهم يعرفون سرّ ما أصابهم من الرمي بالشهب ومنعهم عن السماوات، فتفرقت الأبالسة وجالت فلم تهتد إلى شيء، فرجعوا إلى كبيرهم وأخبروه بذلك، فقال: «أنا لهذا»؛ وطار في الهواء، وسار في كل جهة، فلما وصل إلى الحرم وجده محفوفاً بالملائكة، ولما همّ بالدخول إليه صاح به جبرائيل (ع) أن: «اخسأ يا ملعون»؛ فولى منهزماً خاسئاً، ثم رجع مثل

---

١٠ ـ ثمة رواية ينسبها بعضهم إلى أهل البيت (ع)، هي أن في بحر الهواء حوتاً أنثى، يقال لها «طينوسا» وهي سيدة الحيتان، وأنها قامت عند ولادة النبي (صلعم) وتحركت واستوت قائمة على ذنبها، فتحركت البحار بحركتها، وارتفعت الأمواج، فتوسلت الملائكة إلى ربها تشكو إليه من فعل طينوسا، فصاح بها الملك العظيم الموكل بها ـ واسمه «استحيائيل» ـ صيحة عظيمة أن: «قري يا طينوسا، ألا تعرفين من تحتك؟»؛ قالت: «يا استحيائيل، إنّ ربي أمرني يوم خلقني أن إذا وُلد محمد بن عبد الله، استغفري له ولأمته، والآن سمعتُ الملائكة يبشر بعضها بعضاً بولادته، فقمت وتحركت سعادة بولادته»؛ ثم انبطحت طينوسا في البحر، وأخذت في التسبيح والتهليل والتكبير والثناء على ربّ العالمين.

الصُرَد[١١] من ناحية جبل حراء، ولقي أيضاً جبرائيل (ع) وسأله عن سبب اجتماع الملائك، فقال جبرائيل (ع): «نبي قد وُلِد، وهو خير الأنبياء!»؛ قال إبليس: «فهل لي فيه نصيب؟»؛ قال: «لا»؛ قال: «ففي أمته؟»؛ قال: «نعم»؛ قال إبليس: «رضيت».

ثم رجع وجمع أولاده وجنوده وقال: «اعلموا يا أولادي أني ما أصابني منذ خُلِقتُ مثل هذه المصيبة! اعلموا أنه قد ولد مولود اسمه محمد بن عبد الله يبطل عبادة الأوثان، ويمنع السجود للأصنام، ويدعو الناس إلى عبادة الرحمان»؛ فجعلت الأبالسة تنثر التراب على رؤوسها حزناً وتصرخ كمداً، ثم نزلوا في البحر الرابع مكروبين، وقعدوا فيه أربعين يوماً.

ولقد قدّست الأشجار أربعين يوماً بأنواع أفنانها وثمارها فرحاً بمولده (صلعم)، وضُرِبَ بين السماء والأرض سبعون عموداً من النور لا يشبه كل منها صاحبه، وبُشر يومئذٍ آدم (ع) أبو البشر بميلاده، فسُرِّيَتْ عنه مرارة الموت وزيد في حسنه سبعون ضعفاً، واضطرب في الجنة نهر الكوثر واهتز، فرمى بسبع مئة ألف قصر من الدر والياقوت نثاراً لمولده (صلعم)، وكُبِّل إبليس وألقي في الحصن أربعين يوماً، وتنكبت الأصنام كلها وصاحت وولولت، وسمع الناس صوتاً من الكعبة يقول: «يا آل قريش، قد جاءكم البشير وجاءكم النذير، معه العزّ الأبد والربح الأكبر، وهو خاتم الأنبياء، وعترته خير الناس بعده، ولايزال الناس في أمان من العذاب مادام في دار الدنيا من عترته أحد يمشي!». ولم يبق يومئذٍ في الأرض دابة تدب ولا طائر يطير إلاّ وقد علم بمولده، ولا جبل إلاّ ونادى صاحبه بالبشارة بذلك بعد التهليل، وقد بُنِيَ في الجنة ليلة مولده سبعون ألف قصر من الياقوت الأحمر، ومثلها من اللؤلؤ الرطب تسمى قصور الولادة، ونجدت الجنان واهتزت وتزينت وضحكت فرحاً بولادته، وهي ضاحكة إلى يوم القيامة.

---

١١ ـ الصُرد: نوع من الطيور، يصطاد صِغار الطير.

وروي أيضاً أنه لما انقضى من تلك الليلة ثُلثها، حمل جبرائيل (ع) بأمر من الله تعالى أربعة أعلام من الجنة نزل بها إلى الدنيا، فنصب منها علماً أخضر على جبل «قاف» مكتوباً عليه بالبياض سطران «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، ونصب الثاني منها على جبل «أبي قبيس»، وله ذؤابتان مكتوب على إحداهما «لا إله إلاّ الله» وعلى الثانية «لا دين إلاّ دين محمد بن عبد الله»، ونصب الثالث منها على سطح بيت الله الحرام وله أيضاً ذؤابتان، مكتوب على إحداهما «طوبى لمن آمن بالله وبمحمد»، وعلى الثانية «الويل لمن كفر بمحمد وردّ عليه حرفاً مما يأتي به من عند ربه»، ونصب العلم الرابع على ضراح بيت الله المقدس، وهو أبيض عليه سطران بالسواد، فالأول «لا غالب إلاّ الله»، والثاني «النصر لله ولمحمد»، وهبط استحيائيل على جبل أبي قبيس ينادي برفيع صوته: يا أهل مكة ﴿آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾[١٢].

وأمر الله غمامة أن تنثر على بيت الله الحرام ريش الزعفران والمسك والعنبر، وتمطر على البيت، ولما أصبح أهل مكة رأوا كل ذلك على البيت، ثم ارتفعت الغمامة ولم يبق في تلك الليلة كتاب من التوراة والإنجيل والزبور وكل ما فيه اسم النبي أو نعته إلاّ وقُطِر فيه تحت اسمه قطرة، وكُتب على كل دير وصومعة لأهل الكتاب اسم «محمد» (صلعم) وبقي كذلك إلى الصباح، حتى قرأه الرهبان وعموم أهل الدير، وعلموا أن النبي (صلعم) قد ولد.

ما رأى عبد المطلب وقريش ليلة ميلاد الرسول (ص).

وكان عبد المطلب تلك الليلة يطوف بالبيت إذ رأى حال طوافه أن الأصنام المعلقة في الكعبة قد تساقطت وتناثرت، وسقط الصنم الكبير على وجهه، ورأى كأن البيت قد اشتمل بجوانبه الأربع وخرج ساجداً في مقام إبراهيم (ع)، ثم استوى في محله وسمعه ينادي «الله أكبر، وربِّ محمد المصطفى الآن قد طهرني ربي من أنجاس المشركين وأرجاس

---

١٢ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٨، السورة ٦٤ التغابن: ٨.

الكافرين»؛ ثم سمع صوت هاتف يقول: «الآن آمنة قد ولدت رسول الله»، فدهش عبد المطلب من كل ذلك، وتلجلج لسانه، وحار فكره، وخفق فؤاده، حتى لم يعد يستطيع الكلام، فخرج من المطاف مسرعاً يريد باب بني شيبة حتى انتهى إلى «الصفا» و«المروة»، فرآهما كأنهما يهتزان فرحاً وسروراً، ورأى برقاً من السماء وسمع منه أصواتاً وجلبات، فبادر مسرعاً نحو منزل آمنة حتى انتهى إليه، وإذا بغمامة بيضاء قد عمت منزلها، وروائح المسك والعنبر قد عبقت بكل مكان؛ فدخل على آمنة وإذا بها جالسة وليس عليها أثر النفاس، فقال لها: «أين مولودك؟ هاتي ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي أريد أن أنظر إليه!»؛ قالت آمنة: «لقد حيل بيني وبينه!»؛ فسلَّ عبد المطلب سيفه وقال: «أَخْرِجي لي ولدي الساعة، وإلاّ علوتك به»؛ قالت: «إنهم قد دخلوا به هذه الدار» (وأشارت إلى الحجرة)؛ فلما همَّ عبد المطلب بالدخول فيها، برز إليه من داخلها شخص عظيم كأنه النخلة السَحُوقُ لمْ يُرَ أهولُ منه، وبيده سيف، فقال له: «ارجع ليس لك ولا لغيرك إلى ذلك من سبيل، حتى تنقضي زيارة الملائكة»؛ فرجع فزعاً مرعوباً.

وكانت زرقاء اليمامة في تلك الليلة جالسة في قصرها في اليمامة وعندها خدمها وجواريها، ولما رأت حركات النجوم وسير الكواكب وتناثُر الشهب، صرخت صرخة عظيمة وغشي عليها حتى وقعت على الأرض كالميتة، ثمَّ لما أفاقت بعد هنيئة أنشأت تقول:

جاء البشيرُ فكيف لي بهَلاَكِهِ هيهاتَ جاءَ الوحيُ بالإِعلانِ

وأما قريش فإنهم لما رأوا سقوط الأصنام وسمعوا صوت الكعبة ونداء الهاتف بولادة النبي (صلعم)، أصابتهم دهشة شديدة، ودمدمت مكة بأهلها، وجعلوا يصعدون على السطوح والمنابر والصروح، ينظرون إلى العجائب والآيات مدهوشين، دون أن يعلموا ما الخبر؛ وبينما هم كذلك، إذ أتاهم إبليس بصورة شيخ كبير زاهد، وجعل ينادي فيهم: «يا أهل مكة، لا يهمنكم ما رأيتم، فإن العفاريت والمردة هي التي أخرجت الأصنام الليلة لتسجد لها!»؛ ثم أمرهم بإرجاع الأصنام إلى محالها، فلما علقوها

في أماكنها سمعوا صوت هاتف يقول: **﴿جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾**[١٣].

ثم اجتمع رؤساؤهم وأكابرهم للتداول في ما يرون من العجائب، فلم يعلموا لها سراً، وأخيراً قرروا الذهاب إلى خارج الحرم إلى حبيب الراهب، فقدموا عليه وسألوه عن الخبر الجلل، عن سقوط الأصنام، وسير الكواكب، وما رأوه وما سمعوه من البَرْقِ الذي بَرَقَ في ليلتهم، والجلبات، والنداء الذي سمعوه، فقال لهم حبيب: «يا قوم، إنكم تعلمون أن ديني غير دينكم، وأنا أقول الحق، إن شئتم فاقبلوا وإن شئتم فلا تقبلوا: ليست هذه العلامات إلاّ علامات نبي مرسل في زمانكم، ونحن وجدنا في التوراة وصفه، وفي الإنجيل نعته، وفي الزبور وفي الصحف اسمه، وهو الذي يبطل عبادة الأوثان والأصنام، ويدعو إلى عبادة الرحمان، ويكونُ عَلِيَّ العلَمِ قاطعَ السيفِ طاعنَ الرمح نافذَ السهمِ، تخضع له ملوك الدنيا وجبابرتها، فالويلُ كل الويل لأهل الكفر والطغيان وعبدة الأوثان من سيفه ورمحه وسهمه، فمن آمن به نجا ومن كفر به هلك»؛ فدهش القوم من كلامه، وقاموا من عنده مكروبين، ورجعوا إلى مكة محزونين مغمومين.

وكان بمكة رجل يهودي اسمه يوسف، فلما رأى في تلك الليلة سير النجوم وحركتها قال: «هذا نبي قد ولد في هذه الليلة، وهو الذي نجد في كتبنا أنه إذا وُلد وهو آخر الأنبياء، رُجِمت الشياطين وحُجبوا عن السماء». ولما أصبح أتى إلى ملأٍ من قريش وفيهم هشام بن المغيرة، وأخوه الوليد، والعاص بن هاشم، وأبو وخرة بن أبي عمرو بن أمية، وعتبة بن ربيعة، فسألهم قائلاً: «أوُلِد فيكم الليلة مولود؟»؛ قالوا: «لا»؛ قال: «فإذاً وُلد بفلسطين غُلام اسمه أحمد، به شامة كلون الخزّ الأدكن، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، ويكون هلاك اليهود وأهل الكتاب على يديه، قد أخطأكم والله يا معشر قريش!»؛ فقام القوم وتفرقوا يحققون الخبر، حتى أُخبِروا أنه وُلد في الليلة غلام لعبد الله بن عبد المطلب، فانطلقوا إلى يوسف اليهودي

---

١٣ ـ القرآن الكريم، ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٨١.

وأخبروه الخبر، فقال: «هل وُلِد قبل أن أقول لكم أو بعد ذلك؟»؛ قالوا: «بل قبل ذلك»؛ فسألهم أن ينطلق معهم إلى الغلام لينظر إليه، فأجابوه إلى ذلك وانطلقوا به إلى دار آمنة، حتى انتهوا إليها وسألوها النظر إلى وجه النبي (صلعم)، فأخرجته إليهم، فلما نظر إليه اليهودي ورأى شامته التي بين كتفيه، صرخ وخرّ على الأرض مغشياً عليه، فقالت آمنة للقوم: «والله إن ابني هذا قد سقط لا كما يسقط الصبيان؛ لقد اتقى الأرض بيديه عند سقوطه، ورفع رأسه إلى السماء ينظر إليها، ثم ظهر منه نور رأيت منه قصور «بُصْرَىٰ»، وسمعت هاتفاً في الجوّ يقول: لقد وَلدتِ سيد الأمة فقولي:

أعيذُهُ بالواحِدِ ... من شرِ كلِ حاسِدِ
وكلِ خَلْقٍ مارِدِ ... يأخُذُ بالمَراصِدِ
في طُرُق المَوارِدِ ... من قائمٍ وقاعد

ثم قال الهاتف: سميه محمداً». فقال القوم: «بارك الله لكِ فيه!».

ثم لما أفاق اليهودي قالوا له: «مالك ويلك؟»؛ فجعل يتأوّه ويقول: «ذهبت نبوة بني إسرائيل إلى يوم القيامة! هذا الغلام والله يبيرهم!»؛ ثم انصرفوا وشاع الخبر بذلك، فهاجت وضجت مكة بأهلها من تلك الحوادث، فقام عبد المطلب مع أولاده وقصدوا دار آمنة ليأخذوا النبي (صلعم) ويطوفوا به على الأصنام، فلعلّ فورة قريش تهدأ بذلك؛ ولما دخلوا على الطفل (صلعم) جعلوا ينظرون إليه وهو كالبدر يضيء وجهه في القماط، ويسبح الله ويقدسه، فازدادوا بذلك عجباً وشوقاً إليه وحبّاً له (صلعم).

عبد المطلب يأخذ حفيده الى الكعبة.

ثم حمله عبد المطلب على ساعده، وأتى به نحو الكعبة حتى انتهى إليها، فلما همّ بالدخول فيها ووضع رجله في العتبة، سمع الطفلَ (صلعم) يقول: «بسم الله وبالله»، وسمع أصواتاً من الكعبة تخاطب النبي (صلعم) وتقول: «السلام عليك يا محمد ورحمة الله وبركاته»، وسمع هاتفاً يقول: **﴿جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً﴾**، فحار عبد المطلب من ذلك، ودهش وازداد عجباً، وأمر خزنة البيت بكتمانه؛ ثم تقدّم وهمّ أن يمسح بدن محمد (صلعم) وقماطه باللات والعزى، فأحسَّ كأنه قد جذبه جاذب

من خلفه، فالتفت وراءه ولكنه لم ير أحداً، فتقدَّم ثانية وهمَّ بذلك، ولكنه أحسّ أيضاً بجذب من خلفه، فنظر إلى ورائه ولم ير أحداً، فلما همَّ بذلك مرة ثالثة، جذبه الجاذب جذبة شديدة حتى أقعده على عجزه، ولم يتمكن من الدنوّ من الأصنام، وسمع قائلاً يقول: «يا أبا الحارث، أتمسح بدناً طاهراً ببدن نجس؟»؛ فقام ووقف بباب البيت ومحمد (صلعم) على ساعده وأنشأ يقول:

الحمدُ للّـهِ الـذي أَعطـانـي ... هـذا الغـلامَ طيـبَ الأَرْدانِ
قد ساد في المَهدِ على الغِلمانِ ... أُعيـذُهُ بـالبيـت ذي الأركـانِ
أعيـــذه مـــن كـــل ذي شِنـــانِ

ثم جعل يقبله ويقول: «الحمد لله الذي أخرجك إلينا بعد أن وعدنا بقدومك، فبعد هذا اليوم لا أبالي أصابني الموت أم لا»؛ ثم أرجعه إلى أمه وقال لها: «اكتميه يا آمنة، ولا تبديه لأحد، واحفظي ولدي هذا، فسوف يكون له شأن عظيم، وإن قريشاً وبني أمية يرصدون في أمره»؛ قالت آمنة: «السمع والطاعة»؛ وجعل الطفل محمد (صلعم) وهو ابن ثلاثة أيام أو أربعة يهشُّ ويضحك لجده وأمه كأنه ابن سنة، وأقبل الناس والجموع من كل ناحية وفجّ عميق إلى عبد المطلب يهنئونه بولادة حفيده اليتيم محمد (صلعم)، وأقبلت النساء إلى آمنة يعتبن عليها بقولهن: «لِمَ لَمْ ترسلي إلينا نساعدك على وضعه؟»؛ وصرن يهنئنها بمولودها، وعبقت بهن جميعاً روائح الطفل (صلعم) كأنها رائحة المسك، حتى أن الرجل كان يقول لزوجته: «من أين لك هذا الطيب؟»؛ فتقول: «من مولود آمنة». وأقبلت القوابل يقطعن سرته فوجدنه مقطوع السرة، وقلن لآمنة: «ما كفاك أنك وضعته وحدك، حتى قطعت بنفسك سرته؟»؛ قالت: «واللّهِ لم أره إلاّ كذلك»؛ وكنّ كلما دخلن عليه يرونه مكحولاً مقمطاً، وأمه تقول: «لم أره إلاّ كذلك»؛ فيزددن حيرة وعجباً[١٤].

---

١٤ ـ وفي إحدى الروايات أن فاطمة بنت أسد أقبلت إلى زوجها أبي طالب (ع) تبشره بميلاد النبي (صلعم) وما رأته فيه من الآيات، فقال أبو طالب (ع): «اصبري لي سبتاً آتيك بمثله إلاّ النبوة، وإنك ستلدين غلاماً يكون وصي هذا المولود». والسبت ثلاثون سنة، فوضعت فاطمة علياً (ع) بعد ثلاثين سنة من مولد رسول الله (صلعم). =

ثم إن عبد المطلب (ع) اشترى لمحمد (صلعم) سريراً أسود من خيزران، له شبكات من عاج مرصع بالذهب الأحمر، وله بركتان من فضة بيضاء، وعُلّقت عليه قطع من الدر واللؤلؤ الكبار التي تلعب بها الصبيان في المهد بألوان الخرز، وغشاه بجلال[١٥] من ديباج أبيض مكوكب بالذهب، وكان محمد (صلعم) إذا انتبه من نومه في سريره يسبح الله تعالى بتلك الخرز بدلاً من اللعب بها.

وكان عبد المطلب في اليوم الرابع من مولده (صلعم) جالساً عند باب الكعبة وقد حفت به قريش وبنو هاشم، إذ أقبل عليه «سواد بن قارب»، وكان رجلاً صدوقاً إذا تكلم أصغى الناس إلى كلامه، فقال: «يا أبا الحارث، سمعتُ أنه قد وُلِدَ لعبد الله ولدٌ ذكر، وأن الناس يقولون فيه عجائب، فأريد أن أنظر إلى وجهه هُنَيْهة»؛ فأجابه عبد المطلب إلى ذلك، وقام معه فانصرفا نحو دار آمنة إلى أن انتهيا إليها، فلما دخلا عليها ـ وكان النبي (صلعم) حينئذٍ نائماً في سريره مغطى الوجه وعليه هيبة الأنبياء (ع) ـ أمر عبد المطلب «سواداً» بالصمت والسكون إلى أن ينتبه النبي (صلعم) من نومه، ثم كشف الغطاء عن وجهه (صلعم)، فبرق من وجهه برق من النور ارتفع إلى السقف ثم إلى عنان السماء، حتى لم يطقه عبد المطلب وسواد، فألقيا كميهما على وجهيهما من شدة الضوء، ثم انكب الرجل على النبي في سريره يقبل وجناته ويقول لعبد المطلب: «أشهدك على نفسي، أني آمنت بهذا الغلام وبما يأتي به من عند ربه»؛ فازداد عبد المطلب فرحاً ونشاطاً وانصرفا راجعين.

* * *

احداث في الطبيعة خارج الحجاز

.. بحيرة «ساوه» ونيران الفرس:

هذا إجمال ما حدث ليلة مولده (صلعم) والأيام التي تلتها في الحجاز ونواحيها، وأما ما حدث تلك الليلة في سائر الأقطار فأمور كثيرة،

---

١٥ ـ جلال: كساء أو غطاء شامل.

منها: أنه غاضت بحيرة في بلاد الفرس بنواحي بلدة يقال لها «ساوه»، ودهش من ذلك أهلها؛ وفاض بالماء وادي «سماوة»، وهي بلدة في العراق؛ وخمدت نيران الفرس التي كانوا يقدسونها مع أنها كانت مشتعلة باستمرار منذ قرون ولم تخمد. وكان ملك الفرس يومئذٍ «كسرى أنوشروان» مشتهراً بالعدل، وكان أعز ملوك الأرض، وأشدها شوكة، وأعظمها هيبة وسلطاناً وتفرعناً، وأكثرها جنوداً ورعية، (وهو جد «كسرى أبرويز» الذي بُعث النبي (صلعم) في عهده، وأرسل إليه ـ كما أرسل إلى غيره ـ يدعوه إلى الإسلام، ولكنه رفض ومزق الكتاب الذي كتبه النبي وأهان رسوله). وكان كسرى أنوشروان قد بنى لمجلسه بنياناً لم يُرَ مثله في الارتفاع والاستحكام، وهو اليوم واقع على شاطىء نهر دجلة في العراق بقرب قبر سلمان (ع) في ضاحية بغداد، ورفع لمجلسه ذلك سقفاً شاهقاً في الهواء، وكان المجلس يسمى «إيواناً» والسقف «طاقاً».

. . انشقاق ايوان كسرى.

ولما كانت ليلة ميلاد النبي (صلعم) ارتج إيوانه، واهتز عُلاهُ وانقصم، وسقطت منه أربع عشرة شرفة؛ ولما أصبح الملك ورأى ما أصاب إيوانه، هاله ذلك، ولكنه تجلد بالتصبر والسكوت، ثم رأى أن لا يخفي ذلك على وزرائه، فجلس على سريره ولبس تاجه وجمعهم فأخبرهم بما أصابه، فدهش القوم وحاروا، وبينما هم كذلك إذ أتاه كتابٌ فيه خبر خمود النار، فازداد الملك غمّاً إلى غمه؛ وكان عنده قاضي قضاة المجوس ـ وهو الذي يقال له «مؤبذان مؤبذ»، أو «رئيس الموابذة» ـ فقال: «وأنا أصلح الله الملك قد رأيت هذه الليلة رؤيا هالتني: رأيت إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً حتى قطعت نهر دجلة وانتشرت في بلاد الفرس»؛ وسأله الملك عن تفسيرها فقال: «حادث يكون بناحية المغرب»؛ فكتب الملك أنو شروان إلى أحد أمرائه بناحية المغرب من بلاده اسمه «النعمان بن المنذر» كتاباً يقول فيه: «من كسرى الملك، إلى النعمان بن المنذر؛ أما بعد فتوجه إليَّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه من المغيبات والأحلام، والسلام»؛ وبعث الكتاب إليه، وأقام قلقاً ينتظر جوابه.

وبينما هو في انتظار الجواب، بلغه ما كان حدث من فيضان وادي

«سماوة»، ثم بلغه بعده ما كان من غيضان بحيرة «ساوه»، فزاد قلقه وتضاعف اضطرابه، ثم ما لبث أن بلغه أن نهر دجلة الواقع بقرب مجلسه، قد انخرقَ وانكسر سَدُّه العظيم الذي كان الملك قد بناه على النهر، وأنفق عليه أموالاً طائلة، فازداد بذلك حزناً وغمّاً ودهشة وفزعاً وهلعاً، وقال بالفارسية: «شاه بشكست» (وترجمته بالعربية: انكسر المَلِك).

وكان عنده عدد كبير من العلماء[١٦] بين كاهن وساحر ومنجم، وكان إذا حزنه أمر يجمعهم ويقول لهم: «انظروا في الأمر الفلاني»؛ فجمعهم يومئذٍ وسألهم أن يبحثوا عن سبب تلك الحوادث ونتائجها، فخرج القوم من عنده وتفرقوا ينظرون في عللها وعواقبها، ولكن أقطار السماء كانت قد أخذت عليهم، وأظلمت عليهم الأرض، فتسكعوا في علومهم وَلم يهتدوا إلى شيء، لأنه ما كان يمضي لساحر سحره، ولا لكاهن كهانته، ولا كان يستقيم لمنجم علمه، عند ولادة النبي (صلعم).

وكان في الكهان رجل من العرب قلما يخطىء في كهانته اسمه «السائب» ـ وكان قد أهداه «باذانُ» أمير اليمن للملك كسرى ـ فبات السائب ليلته على ربوة، أي محل عال من الأرض، يرمق بطرفه نحو السماء؛ ولما كان في بعض الليل، رأى برقاً بَرَقَ من ناحية الحجاز واستطار حتى بلغ المشرق، ورأى تحت قدميه روضة خضراء، فقال في ما قال: «ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ سلطانه الشرق، وتُخصب منه الأرض كأفضل ما أخصبت من مَلِكٍ كانَ قبله». ثم اجتمع مع سائر الكهان والمنجمين وقال بعضهم لبعض: «تعلمون والله ما حيل بينكم وبين علمكم إلاّ لأمر نزل من السماء، وإنه لَنَبيٌّ وُلِدَ أو بُعِث يسلب هذا المُلكَ ويكسره؛ ولئن نَعَيْتم إلى كسرى مُلكه ليَقتُلَنّكم، فاتفِقوا بينكم على أمر تقولونه له حتى تؤخروه إلى شيوع الأمر»؛ فقاموا إلى كسرى حتى دخلوا عليه وقالوا له: «إنا نظرنا في هذا الأمر، فوجدنا أن حسابك الذي رفعت على أساسه طاق مجلسك؛ وكذا حسابك الذي سكرت فيه دجلة العوراء، إنما وضعوه على النحس، وأنا سنحسب لك حساباً تضع عليه بنيانك فلا

---

١٦ ـ قيل إن عددهم كان يصل إلى ثلاث مئة وستين عالماً.

يزول»؛ فصدقهم الملك وأمرهم بإجراء الحساب، فغابوا عنه، ثم رجعوا إليه وقد حسبوا بزعمهم وعينوا له موعداً يبني فيه، فاشتغل في الموعد المعين بالبناء ولإقامة سدّ دجلة، واستمروا فيه مدة ثمانية أشهر، أنفق كسرى خلالها أموالاً طائلة؛ ولما فرغ منه أمر بالبُسُط والفُرُش وبالرياحين ففرشت ووضعت على السدّ، ثم خرج ومعه المرازبة والنقابون ليجلس على السد، ولكنه ما أن استقر عليه حتى انشق البنيان من تحته، ووقع كسرى وجمع كبير من مرافقيه في نهر دجلة، وما خرج منه إلاّ بعد أن كان صار بآخر رمق بعد أن أشرف على الهلاك، فغضب غضباً شديداً على كهانه ومنجميه، وجمعهم وجعل يهددهم بالقتل[17]، وحلف لهم أن يبيدهم عن آخرهم وينزعن أكتافهم ويطرحنهم تحت مواطىء القِيلة أو يَصْدُقوه الخبر، فعند ذلك اضطربوا وصَدَقُوه الخبر وأعلموه بحقيقة الأمر، وأنه لا يستقيم لساحر سحره ولا لكاهن كهانته ولا لمنجم علمه، وأن ذلك لا يكون إلاّ لأمر حدث من السماء، وأنه لابد قد وُلِدَ أو بُعِثَ نبيٌّ، وقالوا: «إنا خشينا مِن نَعْيِنا إليك مُلْكَك أن تقتلنا، وعللناك عن أنفسنا بما ذكرنا، وقد منعَنا من بيان حقيقة الأمر ما تخوفنا من غضبك»؛ فقال: «ويحكم! هلا كنتم بينتم ذلك لي فأرى فيه رأيي؟»؛ ثم غلب عليه الخوف، وجعل يفكر في أمره حتى التهى عنهم وعن سدّ دجلة.

وبينما هو كذلك إذ أتاه من قبل المغرب رجل المغيبات وتعبير الأحلام الذي طلبه من النعمان بن المنذر، وكان رجلاً يُسَمَّى «عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن تغلبة الغساني»، ولما دخل عليه قال له كسرى: «هل عندك علمُ ما أريدُ أن أسألَكَ عنه؟»؛ قال: «ليسألني الملك، فإن كان عندي علمٌ منه، وإلاّ عرَّفتُه بمن يَعلَمُه»؛ فأخبره بما أصاب طاقَهُ وإيوانَه، وبأمر السدّ، ورؤيا المؤبذان مؤبذ، وسأله عن سبب

---

١٧ ـ بل قيل إنه قتل نفراً منهم جعلت بعض الروايات عددهم مئة كاهن وعراف. وتذهب تلك الروايات أيضاً إلى أن المنجمين اعتذروا إلى كسرى بأنهم قد أخطأوا في الحساب، وأنه أمهلهم فأعادوا الحساب وأعاد هو بناء السد مرة ثالثة، ولكنه انهار أيضاً وكاد كسرى أن يغرق مرة ثانية.

كل ذلك، فقال: «علم ذلك كله عند خالٍ لي يسكن بمشارق الشام يقال له: «سطيح»، فأمره كسرى بالمضي إلى «سطيح» إلى الشام وسؤاله عن كل تلك الحوادث، فنهض عبد المسيح وانصرف مبادراً نحو الشام. فلما انتهى إلى سطيح رآه قد أشرف على الموت، فسلم عليه وحياه، فلم يرد سطيح عليه جواباً، فأنشأ عبد المسيح يقول:

أَصَمٌّ أمْ يَسمَعُ غِطْريفُ اليَمَنْ يا فاصلَ الخِطةِ أعْني مَنْ ومَنْ[18]
وكاشفَ الكُرْبةِ في الوَجْهِ الغَضِنْ أتاك شيخُ الحيّ مِن آل سِنَنْ[19]
وأمُّهُ مِن آل ذِئْبِ بْنِ حَجَنْ رسولُ مَلْكِ الفُرسِ كسرى لِلوَسَنْ[20]
لا يَرْهَبُ الرَعدَ ولا رَيْبَ الزَمَنْ

.. سطيح ينذر بالنهاية.

فعند ذلك فتح سطيح عينيه وقال: «عبد المسيح، على جمل يسيح، إلى سطيح، وقد أوتي على الضريح! بعثك مَلِكُ بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا رئيس المؤبذان؛ فقل له يا عبد المسيح: إذا كَثُرَتِ التِلاوة، وبُعِثَ صاحبُ الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوه، فليس الشام لسطيح شاماً! يملك منهم (يعني من الفرس) ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت!»؛ وبينما هو يكلم عبد المسيح لفظ أنفاسه ومات في ساعته، فنهض عبد المسيح إلى رحله وأنشأ يقول:

شَمِّرْ فإنكَ ماضي العزم شَمِّيرُ لا يُفْزِعَنَّكَ تَفريقٌ وتَغييرُ
إن يُمْسِ مَلْكُ بني ساسانَ أَفْرَطَهُمْ فإن ذا الدهرَ أطوارٌ دهاريرُ[21]
وربما كان قد أضْحَوا بمنزلةٍ تُهابُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ المَصاهيرُ[22]

---

١٨ ـ الغِطْريف: السخي، السيد، الظريف، السري.

١٩ ـ الوجه الغضن: الوجه المجعد من الحزن والغم والكرب. آل سِنن: اسم عشيرته، ولعلها مخففة من سنان.

٢٠ ـ الوسن: الحاجة.

٢١ ـ المَلْك (بفتح الميم وسكون اللام): المَلِك (بفتح الميم وكسر اللام). أفرطهم: أكثرهم تقدماً.

٢٢ ـ المصاهير: الشديدة الحرارة والقوة والاندفاع.

فيهمْ أخو الصَرْحِ بَهرامٌ وإخْوتُهُ ... والهُرْمُزانُ وسابورٌ وسابورُ[٢٣]
والناسُ أولادُ عَلاَّتٍ فَمَن علموا ... أن قد أقلَّ فمَحقورٌ ومهجورُ[٢٤]
وهُمْ بَنُو الأُم لما أَنْ رأَوا نَشَباً ... فذاكَ بالغيبِ محفوظٌ ومنصورُ[٢٥]
والخيرُ والشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ ... والخيرُ مُتَّبَعٌ والشرُ مَحذورُ[٢٦]

ثم سار نحو الملك كسرى حتى دخل عليه وأخبره بقول سطيح، فازداد الملك رعباً، وأيقن بخروج النبي (صلعم) ونهاية مُلْك الفرس على يده، وقال: «يملك منا أربعة عشر ملكاً». هذا إجمال بعض الحوادث التي وقعت ببلاد الفرس عند ميلاد النبي (صلعم).

* * *

.. «هِرَقْل» والروم.

وأما في بلاد الروم فقد رأى ملكهم «هِرَقْل» في منامه أنه ظهر مَلِك من مُختتِني هذه الأمة، فلما انتبه من نومه أخبر أصحابه برؤياه، فقالوا: «ليس يختتن إلاّ اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك يقتلوا مَن بها من اليهود»؛ فسكت عن جوابهم وبقي كذلك حتى أتاه رجل أرسله إليه ملك بني غسان، فاستخبره هرقل عمّا وراءه من الأخبار، فأخبره الرجل بولادة الطفل محمد (صلعم) وما ظهر من الآيات عند ولادته، فسأله الملك: «هل هو مختون؟»؛ فأجاب بأنه مختتن، وأخبره أن العرب يختتنون، فقال هرقل: «مَلِك هذه الأمة قد ظهر!».

ثم كتب هرقل كتاباً في ذلك إلى صاحبٍ له برومية، وكان نظيره في العلم، وبعث الكتاب إليه، ثم سار هو إلى حمص وأقام بها، إلى أن أتاه الجواب من صاحبه يذكر فيه أنه يوافق رأي هرقل على خروج

---

٢٣ ـ بهرام وهرمز وسابور الأول والثاني من ملوك فارس.

٢٤ ـ أولاد علات: أولاد من أمهات مختلفة، أي أنهم ذوو أهواء وطبائع مختلفة، فمن أقلَّ، أي افتقر وقل ماله، احتقروه وهجروه، وهو عندئذٍ ليس من أمهم.

٢٥ ـ النشب: المال والعقار. أي عندما يرون عند أحدهم ثراء ينصرونه ويساندونه ويعدون أنفسهم وإياه من أم واحدة.

٢٦ ـ قَرَن: حبل، رباط.

النبي (صلعم)، وأنه نبي؛ فدعا هرقل عظماء الروم إلى الاجتماع في قرية له قرب حمص، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم؟»؛ قالوا: «وما ذاك؟»؛ فأخبرهم بأمر النبي (صلعم) وقال لهم: «بايعوا هذا الرجل»؛ فهاج القوم هياج حمر الوحش، ونفروا من كلامه وعدلوا عنه وعن مجلسه، فخاف هرقل على ملكه بعد أن يئس من إجابتهم له إلى الإيمان بالنبي (صلعم)، فبعث إليهم ثانياً وأحضرهم وقال لهم: «إني قلت مقالتي آنفاً لأختبر بها شدتكم على دينكم، وإني لم أزل ثابتاً على ديني»؛ فصدقوا كلامه ورضوا عنه وسجدوا له، ثم تفرقوا من عنده.

رضاعة النبي (ص) من حليمة السعدية ومراحل نموه ونشأته حتى مفارقته حي بني سعد في الخامسة من عمره

في اليوم السابع من ولادة الطفل محمد (صلعم)، عَقَّ عبد المطلب عنه ـ أي ذبح ذبيحةً يوم حلق شعره بعد أسبوع، على ما كانت عليه عادة العرب ـ ودعا عشيرته وأطعمهم وهو يقول: «هذه عقيقة أحمد، وإنما سُمِّيَ بذلك لمحمدة أهل السماء والأرض له!».

وفاة جده وامه (ص)

ولما بلغ الطفل (صلعم) الشهرين، توفي «وَهَب» جده لأمه، ولما أتى عليه أربعة أشهر[١]، ماتت أمه آمنة بالأبواء، وهو موضع بين الحرمين على رأس ثلاثين ميلاً عن المدينة ـ وقد سمي بذلك لتَبَوُّء السيل ونزوله فيه ـ فقد كانت آمنة قد خرجت به إلى أخواله في يثرب من بني عَدِيّ وبني النجار كي تريهم إياه ويتعرفوا عليه، وكانت معها «أم أيمن» تحضن الطفل (صلعم) وتساعدها على رعايته؛ وأقامت آمنة عند ذويها في يثرب شهراً كان قوم من اليهود أثناءه يختلفون إلى النبي (صلعم)، ينظرون في وجهه ويقولون: «هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته». ثم رجعت آمنة به (صلعم) بعد الشهر إلى مكة، ولكنها لم تصل إليها، لأنها حين بلغت الأبواء توفيت ودُفنت فيه. ومناسب أن نذكر هنا أن النبي (صلعم) مرَّ في العمرة الحديبية في أواخر أيامه على قبر أمه بالأبواء، وأصلحه وجلس عليه يبكي، والناس حوله يبكون لبكائه، وهو (صلعم) يقول: «إن الله قد أذن لي في زيارة قبر أمي، وأدركتني رحمة!».

---

١ ـ هناك رواية تقول إن عمره (صلعم) يوم وفاة أمه كانت ست سنين، والأرجح ما ذكرناه.

الطفل محمد (ص) يرفض الرضاعة.

إذاً أصبح الطفل محمد (صلعم) لطيماً - أي يتيم الأبوين - وهو ابن أربعة أشهر، وليس له أخت أو أخ أكبر يرعاه ويتولاه، فشق ذلك كثيراً على جده عبد المطلب، وبادر إلى كفالته والقيام بخدمته ورعايته أحسن قيام. وكان أول ما فعله عبد المطلب لحفيده الوحيد اليتيم، أن بعث إلى المرضعات من نساء بني هاشم وغيرهن من بنات صناديد قريش[٢]، يدعوهن إلى إرضاعه، ولكن النبي (صلعم) لم يقبل ثدي أية واحدة منهن، حتى بقي ثلاثة أيام بلا رضاع، وهو يبكي جوعاً؛ وكانت عمتاه «عاتكة» و«صفية» بنتا عبد المطلب تلعقانه أحياناً عسلاً صافياً وزبداً طرياً، دون أن يوقِف ذلك بكاءه. ثم ارتضع من «ثُوَيْبَة» مولاة عمه أبي لهب أياماً يسيرة، ولكنه عاد فامتنع عن الرضاع منها. وكان حمزة عمّ النبي (صلعم) قد ارتضع أيضاً أياماً من ثويبة هذه، ولذا لم يقبل النبي (صلعم) في الكبر وبعد الرسالة أن يتزوج ابنته لما عُرضت عليه، لأنّ حمزة كان عمّ النبي من النسب وأخاه من الرضاع.

وقد أقلق امتناعه عن قبول الرضاع من أي من النساء جده وأقرباءه، وبقيت المرضعات وسائر الناس في حيرة من أمر النبي (صلعم)، بل لقد اغتمّ عبد المطلب بسبب ذلك غمّاً شديداً، وكذا سائر بني هاشم، وفيهم إخوة عبد المطلب وهم «نضلة» و«صيفي» و«أبو صيفي» و«أسد» - وهذا الأخير هو والد فاطمة أم أمير المؤمنين علي (ع)، الذي قيل فيه إنه أول هاشمي وُلد بين هاشميين، لأن هاشماً كان جداً لأبويه كليهما - وأخيراً خرج عبد المطلب - لشدة وجده على حفيده (صلعم) - إلى الكعبة، وجلس عند ستارها، واضعاً رأسه بين ركبتيه مفكراً مغموماً كالمرأة الثكلى، وبينما هو غارق في حيرته وهمه، إذ أقبل عليه عقيل بن أبي وقاص، وكان شيخ قريش وأسَنَّهم، فقال له: «مالي أراكَ يا أبا الحارث مغموماً؟»؛ قال: «يا سيد قريش، إن نافلتي من حين ماتت أمه لا يسكن

---

٢ - تجعل إحدى الروايات عدد المرضعات اللواتي اجتمعن لإرضاعه (صلعم) أربع مئة وستين مرضعة.

عن البكاء شوقاً إلى اللبن، وإني بسبب ذلك لا أتهنأ بطعام ولا شراب؛ وقد عرضتُ عليه نساء بني هاشم وقريش فلم يقبل ثدي واحدة منهن، وقد انقطعت حيلتي!»؛ فقال له عقيل: «يا أبا الحارث، إني لأعرف في بيوت أربعة وأربعين صنديداً من صناديد العرب امرأة عاقلة، هي أفصح لساناً وأصبح وجهاً وأرفع حسباً ونسباً من جميعهن، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحرث؛ إنها من عدنان، وينتهي نسبها إلى الخليل إبراهيم (ع)، وهي ذات رضاع، فإن رأيت أن تبعث إليها وتأتي بها، فلعلّ نافلتك يقبل ثديها ورضاعها»؛ فاستبشر عبد المطلب بمقالته وهدأ بعض ما كان به، وقال: «يا سيد قريش، لقد نبهتني إلى أمر عظيم وفرجت عني!».

وكانت حليمة يومئذٍ في حي بني سعد، على ثمانية عشر ميلاً من مكة في طريق جدة، فقام عبد المطلب من وقته، وطلب غلاماً له اسمه «شمردل»، وعجل بإركابه وتسييره إلى حي بني سعد لدعوة عبد الله والد حليمة، فخرج الغلام على ناقته مسرعاً نحوهم حتى وصل إليهم ـ وكانت خِيَمهم يومئذٍ كسائر أهل البوادي من مسح وخوص ـ وأخذ يسأل عن خيمة عبد الله حتى انتهى إليها، فإذا هي خيمة عظيمة، وعلى بابها غلام أسود، فاستأذنه ودخل على عبد الله وقال مسلماً: «أنعم صباحاً يا أبا ذؤيب»؛ فرحب به عبد الله وعرفه وقال: «ما الخبر يا شمردل؟»؛ قال: «اعلم يا سيدي أن مولاي أبا الحارث عبد المطلب قد وجهني نحوك لأدعوك إليه، فإن رأيت أن تجيبه يا سيدي فافعل»؛ قال: «سمعاً وطاعة». ونهض قائماً من وقته ودعا بمفتاح خزانته فأخرج منها جوشنة أفرغها على جسمه، وجعل فوقها درعاً فاضلاً غطى الجوشنة، واستخرج بيضة غطى بها رأسه، وتقلد سيفين، وحمل رمحه، ثم طلب فرسه فركب وخرج مسرعاً مع شمردل نحو مكة.

عبد المطلب يسأل والد حليمة السعدية ان ترضع حفيده.

فلما دخل عبد الله في مكة على عبد المطلب، كان عنده عتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وأشباههم من وجوه قريش، فنهض عبد المطلب حينما رأى عبد الله قائماً على قدميه وصافحه وعانقه مرحباً به، ثم أجلسه بجانبه لصيق ركبته زيادة في تكريمه له.

ولما استقرّ بهما المقام قال عبدُ المطلب: «أتدري لمَ دعوتُكَ يا أبا ذؤيب؟»؛ قال عبد الله: «يا سيدي وسيد قريش ورئيس بني هاشم، حتى تقول فأسمع منك وأعمل بأحسنه!»؛ قال عبد المطلب: «اعلم يا أبا ذؤيب أن نافلتي محمد بن عبد الله مات أبوه ولم يبن عليه أثره، ثم ماتت أمه وهو ابن أربعة أشهر، وهو لا يسكن ولا يتوقف عن البكاء عَيْمَةً[٣] إلى اللبن. ولقد أحضرت له مرضعات كثيرات من أشراف بني هاشم وأجلائهم، فلم يقبل من أي واحدة منهن لبناً. وقد سمعنا أن لك بنتاً ذات لبن، فإن رأيت أن تنفذها لترضع ولدي محمداً، فإن قبل ثديها فقد جاءتك الدنيا بأسرها، وعليَّ غناك وغنى أهلك وعشيرتك، وإن كان غير ذلك، ترى ما رأت النساء غيرها»؛ ففرح عبد الله كثيراً وقال: «إن لي يا أبا الحارث بنتين مرضعتين، لا واحدة، فأيتهما تريد؟»؛ قال: «أريد أكملهما عقلاً وأكثرهما لبناً وأصونهما عرضاً!»؛ قال: «هاتيك حليمة، فإنها لم تكن كأخواتها، بل إن الله تعالى خلقها أكملَ عقلاً وأتمَ فهماً وأفصحَ لساناً وأثجَّ لبناً وأصدق لهجة وأرحم قلباً منهن جميعاً!»؛ قال عبد المطلب: «إني ورب السماء لا أريد إلاّ ذلك!»؛ قال عبد الله: «السمع والطاعة!»؛ وقام من ساعته واستوى على متن جواده وخرج مسرعاً عائداً إلى ديار عشيرته لجلب ابنته حليمة، لرضاع حفيد عبد المطلب اليتيم (صلعم).

وكانت قرى الحجاز والبلاد التي تلي مكة في تلك الفترة في قحط شديد وفي جدب، عدا مكة نفسها فإنها كانت ببركة وليدها محمد (صلعم) مخصبة زاهرة، حتى أن العرب أفواجاً وقبائل جعلت تقصدها وتنزل نواحيها لتستفيد من خيرها وميرها.

قالت حليمة السعدية تصف تلك الأيام قبل أن تصلها دعوة عبد المطلب لإرضاع محمد (صلعم): «كنا نظل أحياناً يوماً كاملاً وأحياناً يومين لا نقتات شيئاً، حتى شاركنا المواشي في مراعيها، وذات ليلة من ليالي تلك الأيام العصيبة، أتاني بين النوم واليقظة آتٍ، فأخذني ورماني في نهر ماء أكثر بياضاً من اللبن، وقال لي: «اشربي»؛ فشربت منه فإذا هو

---

٣ ـ العيمة: شدة اشتهاء اللبن.

أحلى من العسل، ثم أخذني وردّني إلى مكاني وقال: «يا حليمة، عليك ببطحاء مكة، فإن لكِ بها رزقاً واسعاً، وسوف تسعدين ببركة مولودٍ وُلِد بها»؛ ثم ضرب بيده على صدري وقال: «أدرَّ الله لكِ اللبن، وجنَّبكِ المَحْق والمِحَن»؛ وانتبهت فإذا أنا لا أطيق حمل ثديي من كثرة ما به من اللبن، ثم إذا أنا أكتسي حسناً وجمالاً بحيث أصبحت بحالة غير ما كنت عليها قبل الحلم، وهرعت إليَّ نساء قومي يُعجَبْن ويتعجبن مما حلَّ بي، ويسألنني عن سر ذلك، وعن سر حسني وجمالي الذي ظهر فيَّ فجأة، ولكنني ظللت كاتمة أمري وأنا أرى الحسد لي في الكثيرات منهن»[٤].

ولكن مفاجأة حليمة من الحلم، كانت أقل من مفاجأتها وسعادتها حين وصل والدها من مكة ودخل عليها من سفره مباشرة في منزلها وقال لها: «أبشري يا حليمة فقد جاءتك الدنيا بأسرها!!»؛ قالت: «ما الخبر؟»؛ قال: «اعلمي أن عبد المطلب رئيس قريش وسيد بني هاشم سألني إنفاذكِ إليه لترضعي ولده وتُبْشِري بالعطاء الجزيل»؛ ففرحت حليمة بذلك فرحاً شديداً، وقامت من وقتها وساعتها فاغتسلت وتطيبت وتبخرت وأفرغت على نفسها من زينتها. ولما انقضى من الليل نصفه، قام أبوها وزين ناقته، وأركب عليها ابنته، وركب هو جواده، وركب معهما بكر بن سعد زوج حليمة، وخرجوا من الحي في داجٍ من الليل ميمّمين شطر مكة.

ما سمعت ورأت حليمة في طريقها لإرضاع محمد (ص).

ووصفت حليمة بعدئذٍ رحلتها تلك إلى مكة لرضاع الطفل اليتيم (صلعم) فقالت:

---

٤ ـ وثمة رواية عن حليمة أيضاً أنها سمعت بعد انقضاء يومين على الرؤيا هاتفاً لم ترَ شخصه، يهتف في حي بني سعد بنداء سمعه أهل الحي قائلاً: «يا بني سعد، نزلت عليكم البَرَكات، وزالت عنكم التَرَحات، برضاعةِ مولودٍ وُلِدَ بمكة فَضَّلَهُ الواحدُ الأَحَد، فهنيئاً لمن له قَصَد»؛ فاندهش أهل الحي من النداء، وجعلوا يقولون: «إن لهذا المولود شأناً عظيماً»؛ وجعلوا يرحلون إلى مكة، سعياً إلى الارتزاق، ورغبة في مشاهدة الوليد المُخبَر عنه وأملاً في إرضاعه؛ أما حليمة وذووها فما كانوا فيه من الشدة والضيق، حالَ دون ذهابهم إلى مكة».

«لما خرجت إلى مكة لأمر رضاع محمد، كنت في طريقي أسمع العجائب من كل ناحية، ولم أمر بشيء إلاّ استطال إليَّ فرحاً؛ وطالما كنت أسمع صوتاً يقول لي: «طوبَى لثديك يا حليمة، انطلقي فإنك ستأتين بالنور الساطع والهلال البدري، فاكتمي شأنك وكوني من وراء القوم، فقد نزلت بشاراتك!!». وكان معي زوجي، فكنت أقول له: «أتسمع ما أسمع؟»؛ فيقول: «لا، وما لي أراكِ كالخائفة الوجلة تلتفتين يمنة ويسرة؟!». وكانت الأتان تحتي قد بدت عظامها من سوء حالها وشدة هزالها، حتى كان لها من جوفها خضخضة وهي تخفضني طوراً وترفعني طوراً؛ وبينما كنا نجد السير نحو مكة، إذا أنا ذات مرة برجلٍ في بياض الثلج وطول النخلة الباسقة يناديني من الجبل ويقول: «تقدمي ومرِّي يا حليمة، فقد أمرني الله تعالى أن أدفع عنك كل شيطان رجيم». ثم سرنا، حتى إذا كنا على فرسخين من مكة، نزلنا هناك، فرقدت وأخذتني غفوة، فرأيت في منامي كأن على رأسي شجرة خضراء قد ألقت بأغصانها حولي، ورأيت في فروعها نخلة قد حملت أنواعاً من الرطب، ورأيت نساء بني سعد حولي يقلن لي: «يا حليمة أنتِ الملكة علينا»؛ ثم رأيت ثمرة من النخلة تسقط في حجري، فتناولتها ووضعتها في فمي، فوجدت لها حلاوة كحلاوة العسل، ولما استيقظت وجدت أن طعمها مازال في فمي، ولم أزل أجد طعمها ـ وأنا أكتم شأني هذا ـ حتى فارقني محمد ورجع إلى جده، بعد خمس سنين من عمره».

* * *

وصلت حليمة وأبوها وزوجها إلى مكة صباح يوم الاثنين، وتوجهت هي مباشرة إلى دار عاتكة بنت عبد المطلب، عمة الطفل الرضيع محمد (صلعم)، لأنها كانت هي المتكفلة بخدماته ورعايته. وكان محمد (صلعم) حين دخلت حليمة نائماً في مهده، ملفوفاً بثوب أبيض من صوف، تفوح منه رائحة المسك والعنبر، فلما ألقت نظرها عليه ورأته، أحبته من حينها حبّاً شديداً، وفرحت بطلعته فرحاً عظيماً، ولم توقظه من نومه شفقةً عليه، وجلست مع عاتكة والنساء تحادثهن ويحادثنها، وهن يرحبن بقدومها ويظهرن السرور والحبور لها.

فلما طال بها الانتظار ـ وكان بَعلُها يترقب رجوعها ـ همت بإيقاظ الطفل، ولكنها قبل أن تصل يدها إليه فتح محمد (صلعم) عينيه في وجهها، ثم جعل يهش ويضحك لها، وخَرج من فمه نور مضيء تعجبت منه حليمة؛ ووصل في تلك اللحظة عبد المطلب، فدخل عليها وسلم ورحب بها أجمل ترحيب، ودعاها إلى أن ترضع الطفل عسى أن يقبل منها ثديها ورضاعها.

الطفل محمد (ص) يرضع من ثدي حليمة.

بادرت حليمة في الحال إلى إرضاع الطفل؛ تناولته أولاً بيديها ورفعته من مهده، ثم أجلسته في حجرها، وتناولت ثديها الأيسر وقدمته له ـ على عادتها في الرضاع لأن ثديها الأيمن كان جهاماً لا يدر لبناً[٥] ـ ولكن الطفل امتنع عن قبول الثدي الأيسر، بل وجعل يضطرب ويميل إلى ثديها الأيمن حتى تناوله، فانتزعته حليمة من يده، وجعلت تقدم له الأيسر وهو مُعرضٌ عنه لا يميل إلاّ إلى الأيمن، حتى تناوله مرة ثانية وانتزعته حليمة منه أيضاً، وتكرر ذلك حتى ضجت حليمة ومكنته من الثدي الأيمن بنفسها حتى يكتشف جفافه ويتحول عنه، وقالت تخاطبه: «مُصَّ الأيمن يا ولدي، حتى تعلم أنه جهام يابس لا شيء فيه»؛ ولكن الثدي ما إن وضعه محمد (صلعم) في فمه، حتى انفتح ودرَّ في حلقه كأنه ميزاب، وجعل (صلعم) يمص منه حتى امتلأ شدقاه لبناً، فدهشت حليمة من ذلك وصاحت: «واعجباً منك يا ولدي، فوحق رب السماء ان كل الذين أرضعْتُهُم إنما رضعوا من ثديي الأيسر وحده، ولم يذق أحد منهم من الأيمن شيئاً، فالآن أعلم أن ثديي الأيمن هذا لم ينفتح إلاّ ببركتك!»؛ وفرحت حليمة فرحاً شديداً، وكذا سائر من حضر.

وكان سرور عبد المطلب خاصة بقبول حفيده محمد (صلعم) للرضاع يفوق الآخرين، وزاد في إكرام حليمة غاية الإكرام، ثم سألها الإقامة في مكة، وتكفل لها بأن يفرغ لها قصراً خاصاً، وبأن يقدم لها

---

٥ ـ قيل في بعض الروايات انها أرضعت اثني عشر ولداً من ثديها الأيسر، ولم يرتضع من أيمنها أحد.

خيرات كثيرة وهباتٍ راتبة[٦]، فمضت إلى أبيها تستشيره في ذلك، فأشار عليها برفض طلبه وبالعودة إلى بيتها في حي بني سعد، فأخبرت عبد المطلب بذلك، ولكنه ألحَّ عليها بطلبه وحاول كثيراً إقناعها، إلاّ أنها أصرّت على الامتناع وأن لا محيص لها عن الرجوع إلى الحي، إلى أن قالت له لما أكثر الطلب والعروض: «يا أبا الحارث، لو جعلتَ لي مال الدنيا ما أقمت في مكة ولا تركت الزوج والأولاد!». فيئس عبد المطلب من بقائها، ولم يَرَ له بدّاً من إرسال الطفل معها، لترضعه وتربيه مع أولادها في حي بني سعد.

مكثت حليمة ورهطها سبعة أيام بلياليها في مكة، ليستريحوا من عناء السفر، وليتشبع جدّ محمد (صلعم) وأعمامه وعماته منه قبل إبعاده عنهم. وفي إحدى الليالي من ذلك الأسبوع، بعد أن هدأت الأصوات وطاب النوم، انتبهت حليمة في جوف الليل، فإذا برجلٍ عليه ثيابٌ خضرٌ، جالسٍ عند رأس محمد (صلعم) يقبل ما بين عينيه، ونور متلألىء يخرج من محمد إلى سقف الغرفة ونحو السماء، فدهشَتْ من ذلك، ثم نَبَّهَتْ زوجها بكر بن سعد بهدوء وقالت له هامسة: «أنظر يا بكر إلى العجب العُجاب! ألا ترى إلى ما عند هذا المولود وما يرتفع منه؟»؛ فرفع بَعلُها رأسه ونظر إلى محمد (صلعم)، فغلبت عليه الدهشة والعجب، وقال لها: «يا حليمة اكتمي شأنه، فقد أخذتِ شجرة كريمة لا يذهب رسمها أبداً. فمنذ وُلد هذا الغلام قد أصبحت أحبار الدنيا قياماً على أقدامها لا يهنأ لها عيش النهار ولا نوم الليل، وما رجع أحد أغنى منا!».

حليمة تأخذ محمداً (ص) إلى حيّها.

فلما حان موعد رحيل حليمة ومرافقيها بمحمد (صلعم) ورجوعهم إلى حيّهم، قام عبد المطلب فحمل حفيده اليتيم على ساعده نحو الكعبة

---

٦ ـ ذكر بعض الروايات أن عبد المطلب تكفل لحليمة إن أقامت بمكة لإرضاع محمد (صلعم) أن يفرغ لها قصراً نجيباً، وأن يخصص لها كل يوم عشرة «أمنان» (جمع: مَنّ، وهو من الأوزان) من خبز حواري، ولحماً مشوياً، وأن يعطيها كل شهر ألفاً من الدراهم البيض، وستة أثواب رومية.

حتى انتهى إليها، فطاف بها سبعاً حاملاً النبي (صلعم) وهو ملفوف بِخِرَق السندس؛ ثم دعا حليمة وجعل يبالغ في توصيتها بحبيبه محمد (صلعم)، ويطلب منها مع كثير التأكيد أن تحافظ عليه وتحرسه، وأن تنوّمه حين المنام بجانبها، وتدثّره بيمينها وتُوسِّده بيسارها، وأن تخدمه وتحسن إليه أكثر من إحسانها إلى ابنها «ضمرة»، فقالت حليمة: «لك السمع والطاعة يا أبا الحارث، فَوَرَبِّ السماء والأرض إني منذ وقع عليه نظري، قد ثبت حبه في فؤادي!». ثم شرط عليها عبد المطلب أن تحمل إليه حفيده الحبيب بصورة دائمة[7] إلى مكة، ليتمتع جده وأقاربه برؤيته لشدة شوقه وشوقهم إليه (صلعم)، فأجابته إلى ذلك، فقدم لها عبد المطلب هدية نفيسة ونفقة وافية من النقود والثياب والحُلِيّ وسواها[8]، وزوَّدها فوق الكفاية، وهي تقول: «حسبي من الزاد هذا المولود، وإنه لأَحبُّ إليَّ من الذهب والفضة وجميع الأطعمة!». ثم تقدم إليها أبوها أن تركب، وأخذت النبي (صلعم) في حجرها، وسترته بخمارها، وشايعها عبد المطلب بمن معه إلى خارج مكة، حيث ودعوها ورهطها، ثم رجعوا إلى دورهم.

فلما بدأ بنو سعد بالمسير، نظر بكر زوج حليمة إلى وجه محمد (صلعم) ـ كما فعل في أول لقاء له معه ـ فرأى النور يشرف من غرته، فأعجبه ذلك كثيراً وازداد لمحمد (صلعم) حبّاً، وجعل يقول لزوجته: «يا حليمة، لقد فضلنا الله بهذا المولود على سائر العالم، ولا شك في أنه من أبناء الملوك!»؛ وهي تقول: «لقد سعدنا بهذا المولود سعادة الدنيا والآخرة».

كرامات وآيات للرضيع محمد (ص) في الطريق إلى بني سعد

قالت حليمة بعدئذٍ تصف عودتها إلى حيها ومعها محمد (صلعم): «لما هَمَمْنا بالرجوع إلى الحي، ركبتُ أتاني وحملت محمداً في حجري،

---

٧ ـ في روايةٍ أنه طلبَ أن تأتيه بالطفل كل أسبوع مرة، في يوم الجمعة.

٨ ـ في بعض الروايات أن عبد المطلب أعطى حليمة حين خروجها بمحمد (صلعم) إلى حيّها أربعة آلاف من الدراهم البيض، وأربعين ثوباً من خواص كسوته الخاصة، ووهبها أربع جوارٍ رومية، وحُللاً من السندس.

فجعلت الأتان تضرب الأرض بيديها ورجليها، وترفع رأسها نحو السماء فرحة مستبشرة، ثم تحولت بي نحو الكعبة تشير برأسها ثلاث مرات نحوها كأنها تسجد، وجعلت مَن كُنَّ حولي من نساء بني سعد يقلن: «والله إن لها لشأناً عظيماً!»؛ فسمعتُ همهمة من الأتان، بل سمعت صوتاً مختلفاً حتى لكأنها تقول شيئاً[٩]. ولما شرعنا في السير في طريق العودة من مكة إلى حيِّنا، صارت وهي حاملة النبي (صلعم) تسير كالريح، بعدما كانت حين انصرافنا من مكة مهزولة عجفاء ضعيفة، وتقدمت في سرعتها حتى انقطع عنها الركب ولم يلحقها شيء من دوابهم، وجعلت صواحبي يصرخن بي ويقلن متعجبات: «ويحك يا بنت أبي ذؤيب، ارفقي بنا وانتظرينا»؛ وصرن يسألن متعجبات: «أليست هذه أتانك نفسها التي خرجتِ عليها من الحي؟!»؛ فأجيبهن وأنا لا أقل عنهن تعجباً ودهشة: «بلى والله!!».

وتنقل التواريخ أخباراً ووقائع عجيبة، وتخبر عن كرامات وأحياناً معجزات حدثت لحليمة وبني سعد، أثناء عودتهم إلى حيهم ومعهم الرضيع اليتيم محمد (صلعم)، ومعظم هذه الوقائع والكرامات أخبرت بها وحدثت عنها حليمة نفسها.

منها: أنهم لما ساروا وصاروا ببعض الطريق، سمعت حليمة من ورائها صوتَ هاتفٍ يُسمَعُ صوتُه ولا يُرَى شخصُه يقول:

ألاَ أيُّهـا الـرَكْـبُ المُيَمِّـمُ قـاصـداً ... إلى مَسكنِ الأحبابِ هل عِندَكُمْ حُبي؟[١٠]
إذا جئـتَ واديـهِ وجئـتَ خِيـامَـهُ ... وعايَنْتَ بَدْرَ الحُسْنِ في وَجْهِهِ قِفْ بي
وطُفْ بالمطايا حَولَ حُجرة حُسْنِهِ ... وعندَ طَوافِ العِيسِ يا صاحِبي طُفْ بي[١١]

---

٩ - بل في رواية تنقل حديث حليمة أنها سمعت الأتان تقول رداً عليهن: إي والله إن لي لشأناً ثم شأناً! أحياني الله بعد موتي، وردَّ عليَّ سمني بعد هزالي! ويحكنَّ يا نساء بني سعد، إنكن لفي غفلة! أتدرين من حملتُ؟ حملت سيد العرب والعجم محمداً رسول ربّ العالمين! هذا ربيع الدنيا وزهرة الآخرة!!.

١٠ - المُيَمِّم (اسم الفاعل من يَمَّم): المتوجِّه.

١١ - المطايا (جمع مَطِية): الدواب والخيل والنياق التي تُركب.

طوافَ شَجِيِّ القلبِ لا شيءَ مثلُهُ فإن دموعي جارياتٌ من السُحْبِ[١٢]

ثم سمعَت الصوت نفسه يخاطبها منادياً باسمها هي ويقول:

قفي يا حليمةُ ساعةً فلعلني أناشِدُهُ إذْ كانَ في شخصِهِ قُربي
قفي ساعةً حتى نُشاهِدَ حُسْنَهُ قليلاً ونُمسي في وصالٍ وفي قُربِ
فأين ذهابُ الرَكْبِ عن ساكنِ الحِمَى وأين رَواحُ الصب عن ساكن الشِعْبِ[١٣]
فعندَ مَليحِ اللونِ مُهجَتِيَ التي بَراها الأَسَى وَجْداً، كما عنده قلبي[١٤]

ومنها: أن حليمة كانت تسمع أصواتاً كثيرة غير ذلك الصوت، ونداءات من كل جانبٍ تخاطبها قائلة: «استغنيتِ يا حليمة آخر دهرك، فأنت سيدة نساء بني سعد!».

ومنها: أن حليمة مرّت بقطيع من الغنم يقودها راعٍ لها، فأقبلت الأغنام تعدو إلى حليمة كما تعدو إلى سخالها، وسمعت صوتاً من بينها يخاطبها قائلاً لها: «أقرّ الله عينيك يا حليمة! أتدرين ما حملتِ؟ هذا محمد رسول ربّ العالمين إلى كل وُلد آدم من الأوّلين والآخرين!!».

ومنها: أنها مرت بجمع من الرهبان يذكرون النبي الذي سيظهر في عصرهم، ثم عرفوا أن أوصاف الطفل الذي تحمله حليمة هي أوصاف ذلك النبي فأرادوا أذيته، ولكن صاعقة أو نيراناً نزلت من السماء فأصابتهم وأحبطت سعيهم[١٥].

---

١٢ ـ شجي القلب: حزين القلب.

١٣ ـ الرواح: العودة، عكس الذهاب ـ الصَب: العاشق المشتاق.

١٤ ـ بَراها: أضعفها، أهْزَلَها، شَفَّها، أنحفها ـ الأسى: الحزن ـ الوجد: شدة الحنين.

١٥ ـ في بعض الروايات أن الرهبان كانوا من نجران، وأنهم كانوا أربعين راهباً، وكان أحدهم يحدّث عن النبي المنتظَر ويعدد لهم أوصافه، ويخبرهم أن خراب ديارهم وقطع آثارهم يكون على يده، فتقدم إليهم أثناء كلامه رجل (رُوي عن أهل البيت (ع) أنه كان إبليس متصوراً بصورة إنسان) وأخبرهم أن الذي ينتظرونه هو في حجر تلك المرأة ـ وأشار إلى حليمة ـ فبادروا إليه قاصدين قتله أو إيذاءه ونظرت حليمة خائفةً إليه فرأته رافعاً رأسه وشاخصاً ببصره نحو السماء وإذا رعد عاصف شديد يُسمع، ونزلت النار من السماء فأصابتهم وأحبطت سعيهم، وسُمع هاتف يقول: خاب سعي الكهان!.

ومنها: أن أماكن نزلت بها حليمة في الطريق اْخضرت وأنبت الله فيها عشباً وخيراً كثيراً، وأن أشجاراً جلست تحتها حملت أنواعاً من الثمر، ووقائع وعجائب غيرها ذكرتها المصادر، وقالت عنها حليمة إنها ليست كل ما لقيته ورهطها في عودتهم إلى حيهم، وقد كانت تكتم عن صويحباتها ومرافقيها بعض تلك الغرائب، إلى أن وصلوا، أخيراً، إلى حي بني سعد.

في حي بني سعد

قالت حليمة: «لما بلغت الحي، كشفت عن وجه محمد (صلعم)، فبرق من وجناته نور ارتفع في الهواء إلى عنان السماء طولاً وعرضاً، وأضاءت به بيوت حي بني سعد، حتى لم يبق فيهم صغير ولا كبير ولا شيخ ولا شاب إلاّ شاهدوه ودهشوا من ذلك عجباً، واجتمعوا حولي فَرَحاً وهم يتأملون النور المضيء المرتفع من وجناته، ثم جعلوا يتناولونه، يد من يد، ويتباركون بتقبيله ولمسه، ويهنئونني بما رزقني الله تعالى من الكرامة وعظيم النعمة.

وكان حي بني سعد وما حوله من أحياء العرب وديارهم في جدب شديد ومحل عظيم، وفي جهد من العيش، ولم تكن أرض أكثر جدباً وأقل خيراً من أرض الجزيرة تلك السنة، حتى كانت البطون لاصقة بالظهور، والألوان شاحبة متغيرة، وكانت الجبال جرداء، والسهول بلا شجر أو زرع، بل كنا نسمع من كل جانب أنيناً كأنين المرضى، وكادت العرب تهلك هزالاً وجوعاً، فلما جئت حي بني سعد بمحمد (صلعم)، اخضرت الأراضي، وهَمَت السماء بالماء، وأثمرت الأشجار، ثم أصبح قومي وأهل الجوار بمحمد (صلعم) في أخصب عيش وأوسع رزق، فازداد حبهم له، وأصبحت أنا كبنات الملوك تأتي إليَّ نساء الحي يحدّقن بي ويسألنني عن قصتي، وأنا أكتم شأني، لأني كنتُ أُمِرتُ بذلك، وكانت النساء يقلن لي: إن لكِ شأناً عظيماً! . بل إن الحوامل من نساء بني سعد وضعن في تلك السنة غلماناً»[١٦].

---

١٦ - بل إن الرواية تقول إن الرؤوس المشتعلة بالشيب اسودت بمقدم محمد (صلعم)، وان حليمة قالت أيضاً: «إننا سمعنا منادياً بين السماء والأرض يقول: ألا إن قريشاً قد وضعت العام كل بطونها ذكراناً، من أجل مولود في قريش هو شمس النهار وقمر الليل، فطوبى لِثديٍ أرضعه!».

ونقلت المصادر وكتب السيرة والمراجع قصصاً وكرامات أخرى ظهرت في حي بني سعد وفي الديار التي حلّ بها محمد (صلعم) بعد وصوله مع حليمة إلى ديارها، ومعظم هذه القصص والروايات يُنسب نقلها والإخبار بها إلى حليمة نفسها.

منها قولها: «لقد كان لنا في الحي قبل توجهي إلى مكة غنيمات دَبِرات، أي مجروحات مهزولات، فلمّا صار محمد (صلعم) في منزلي، صارت الغنيمات تروح شِباعاً حافلة، تحمل وتضع وتدرّ وتحلب؛ ولم نزل نتعرف من الله سبحانه الزيادة والبركة والفضل والخير في مواشينا وأنعامنا وغيرها ببركته، حتى صار قومنا يعيشون في أكنافنا ونتفضل عليهم، بل وجعلوا يبعثون رعاتهم وأغنامهم مع أغنامنا إلى مراعيها، طمعاً بأن تدر أغنامهم مثل أغنامنا، وأن تحمل وتضع مواشيهم كمواشينا. ولقد كانت غنيماتنا ومواشينا قبل قدوم النبي (صلعم) اثنتين وعشرين شاة، فلما أتيت به وضعت كل شاة من شياهنا توأمين في كل سنة، إلى أن كملت مواشينا في نهاية مكثه عندنا ألفاً وثلاثين رأساً من الثاغية والراغية[١٧].

ومنها أن حليمة دخلت ذات يوم على امرأة فقيرة سيئة الحال من نساء الحي يقال لها «أم مسكين» ومحمد (صلعم) على يدها، فأخذته أم مسكين منها وحملته تقبله، فحسن حالها وأخصبت أرضها في سنتها، فجعلت تأتي إليه كل يوم تحتضنه وتقبل رأسه.

وشاع في حي بني سعد أن الكرامات التي شهدها حيهم إنما هي ببركة رضيع حليمة، حفيد عبد المطلب، فازدادوا له حبّاً وأخذوا يتبركون به، وجعلوا يأتون إليه بمرضاهم فيمسحونهم بقماطه، أو يمررون يده الشريفة على المرضى ليمسحهم بها، فيشفون من وقتهم وساعتهم ببركته، وهم يقولون ويعيدون: «يا حليمة، لقد أسعدنا الله بولدك هذا».

ومن الكرامات التي ظهرت في حي بني سعد بعد نزول

---

١٧ ـ الثاغية، اسم فاعل مؤنث من ثغا يثغو ثغاء، وهو صوت الغنم ـ والراغية من رغا رغاء وهو صوت الناقة (ويطلق الرغاء أيضاً على صوت النعام والضبع).

النبي (صلعم) فيه، أن غنيمات مرت ذات يوم بحليمة ومحمد (صلعم) في حجرها، ففوجئت حليمة بأن شاة من بينها انفصلت عن رفيقاتها وأقبلت نحو محمد (صلعم) إلى أن خرت بين يديه على هيئة الساجد، ثم قامت على قوائمها وقبلت رأسه، ثم انصرفت راجعة إلى صويحباتها[١٨] وازدادت حليمة بذلك عجباً منه وحيرة.

ومن كراماته (صلعم) أيضاً ما ذكرته حليمة كذلك بقولها: «كنا نجتمع كلنا على طعام قليل، فنمد يده الشريفة ونضعها في الطعام، فيبارَك فيه بحيث يشبع كلنا منه ويبقى أكثره.

أوصافه (ص) أثناء شهور الرضاعة

أما أوصافه وحالاته (صلعم) في الشهور الأولى وخلال مرحلة الرضاعة، فقد ذكرت حليمة منها أشياء عدة، فقالت: «إنني ما غسلت له ثوباً قط، إذ اني كلما هَمَمْتُ بغسل ثوبه أو رأسه، وجدت رأسه مغسولاً مطيباً مُدَّهَناً كأنه قد سبقني إلى ذلك غيري، ووجدت عليه ثياباً جديدة، فكنت أتعجب من ذلك وأحار فيه.

---

١٨ ـ نقلت المصادر عدة أعاجيب حدثت من حيوانات تُظهر لمحمد (صلعم) كرامة ومقاماً عند الله سبحانه وعند مخلوقاته العجماء، ومعظم هذه الأعاجيب نقلتها حليمة أيضاً، منها قولها: «أخبرني بعض الرعاة ذات يوم أن ذئباً خطف عنيزةً لي فحزنت لذلك، وأتيت إلى محمد (صلعم) فرأيته رافعاً رأسه إلى السماء، وما شعرت إلاّ وقد أتى الذئب بالعنيزة لم يعقر منها شيئاً». ومنها أن أولادها رجعوا يوماً من المرعى مكروبين، فسألتهم أمهم، فأخبروها أن ذئباً خطف شاتين من شياههم، وكان النبي كَبُر بعض الشيء فقال لهم: «لا عليكم»؛ فتعجب أخوه (في الرضاع) «ضمرة» من قوله وقد وعدهم باسترجاعهما بقدرة الله تعالى، فقال له النبي (صلعم): «إن ذلك لصغير في قدرة الله تعالى!»؛ وفي صباح اليوم التالي حمله ضمرة على كتفه إلى حيث خطف الذئب الشاتين، فسجد النبي (صلعم) على الأرض ودعا الله أن يردهما مشيراً إلى حق حليمة عليه، فما أتمّ دعاءه حتى جاء الذئب يسوق الشاتين أمامه، وانكب على قدمه يقبلها وأنطقه الله فاعتذر من النبي (صلعم). وفي رواية أن الذئب كان سمع منادياً يحذّره من مَسّهما، ففزع الذئب وجعل يحرسهما إلى أن ردهما، وأن الخبر بلغ عبد المطلب فأمر بكتمانه مخافة حسدِ قريش وكيد اليهود وسواهم.

وإني ما هممت بإرضاعه إلاّ سمعت له نغمة كأنه يتكلم وينطق بشيء، وكنت كثيراً ما هممت أن أمسح شفتيه بعد الرضاع، فأراهما نظيفتين ممسوحتين قد سبقني إلى ذلك سابق.

وكان له في كل يوم وقت واحد لقضاء الحاجة، ولا يعود إليه حتى مثل ذلك الوقت من الغد[١٩]. وكان عند شعوره بالحاجة، يتقلب من جنب إلى جنب، فأحِسُّ بحاجته وأخرجه فيقضي حاجته، وإني ورب السماء ما شممت منه رائحة النتن قط.

ولما كَبُر بعض الشيء، كان يتوضأ دائماً بعد قضاء الحاجة؛ ولقد كان الأطفال في عمره يصبحون غُمْصاً رُمْصاً[٢٠]، ويصبح هو (ص) صقيلاً دهيناً. وكان كشْفُ بدنه أبغض شيء إليه، فكان إذا كشفتُهُ يصرخ ويصيح إلى أن أستر عليه.

وكان إذا رقد تبقى عيناه مفتوحتين، ويبقى وجهه هاشاً باشاً كأنه يضحك. وكان ينزل عليه كل يوم نور يغشاه كنور الشمس ثم ينجلي عنه.

ولم يكن أحسنُ منه خُلقاً ولا أيسر منه مؤونة، ولم يبكِ ولم يسيء خلقه قط، وكان يتناول ما يريد بيمينه دون يساره. وإني ما أخرجتُه قط في الشمس أو في المطر إلاّ رأيت فوق رأسه سحابة تظلله من الشمس أو تكنّه من المطر، ولم يزل أيام إقامته عندي يتلألأ نور ممدود من خيمتي إلى السماء، ولا أصابني مدة إقامته عندي حَرٌّ ولا برد، في أثناء كان الناس يصيبهم من ذلك أشد ما يكون.

ولما استهلَّ بالنطق كان يقول في مبتدأ الأكل: «بسم الله ربّ محمد»؛ وكذا كان يقول في مبتدأ كل عمل يعمله، ويقول عند الفراغ من

---

١٩ ـ في الرواية أن حليمة لم تر في ثيابه بولاً ولا غائطاً ولا نجاسة، إذ أن الأرض كانت تبتلع ما يخرج منه، وأن حليمة لم تَرَ قط شيئاً من ذلك.

٢٠ ـ الغُمص، جمع غمصاء: مُختَقَرة وَسِخة؛ رُمْص، جمع رَمصاء: في عينيها رَمَص، وهو الوسخ الأبيض الذي يكون في مجرى العين، عمشاء.

أكل أو شرب: «الحمد لله ربّ محمد». وانتبهت ذات ليلة من المنام بعيد استهلاله بالكلام، فسمعته يتكلم في جوف الليل بكلام فصيح لم أسمع قط أحسن منه قائلاً: «لا إله إلاّ الله قُدُّوساً قدوسا! قد نامت العيون والرحمان لا تأخذه سنة ولا نوم!»؛ فدهشت من ذلك عجباً!؟.

وكنت أهابه (صلعم) على صغر سنه وحسن خلقه لما فيه من الوقار والهيبة، وقد اجتنبت الزوج لا أغتسل منه هيبة له (صلعم)، حتى تمت له سنتان كاملتان. ولقد كان نموه سريعاً، حتى لأكاد أقول إنه كان ينمو في الشهر مثل ما ينمو غيره في السنة».

ورُوي عن حليمة أن النبي (صلعم) جلس وهو ابن ثلاثة أشهر، وأنه جعل يلعب مع الأطفال والأولاد وهو ابن تسعة أشهر، وأنه طلب أن يسير مع الغنم وهو ابن عشرة أشهر، وأنه ناضل الغلمان بالنبل وهو ابن خمسة عشر شهراً؛ وصارعهم وهو ابن ثلاثين شهراً.

ولما كمل له من العمر عشرة أشهر، عزمت حليمة على حمله إلى مكة ليراه جده عبد المطلب وأعمامه وبقية خاصته. قالت: «فأتيته فوجدته نائماً في الخيمة، فانصرفت عنه وجلست خارج الخيمة أترقب أن يستيقظ، إلى أن خرج بعد برهة، فوجدته مغسول الرأس مُسَرَّح الذوائب وقد زُين بأحسن زينة وعليه ألوان الثياب من السندس والاستبرق فعجبت من ذلك[٢١]؛ ثم لما حملته إلى عبد المطلب ودخلت به عليه، قام له جده وضمه إلى صدره وأجلسه في حجره[٢٢]، ثم أمر لي بهدية نفيسة[٢٣]، وأمرني بكتمان ما أشاهد من آيات محمد (صلعم)».

---

٢١ ـ في الرواية أن حليمة سألت محمداً (صلعم): من أين لك يا ولدي هذه الثياب الفاخرة والزينة الكاملة، فقال (صلعم): أما الثياب فمن الجنة، وأما الزينة فمن الملائكة.

٢٢ ـ في الرواية نفسها أن عبد المطلب أيضاً بعد أن أجلس حفيده محمداً (صلعم) في حجره سأله عن الثياب والزينة فقال (صلعم): يا جد استخبرْ حليمة فاستخبرَها فقالت له: إن ذلك ليس منا؛ وأخبرته بما سمعته من النبي (صلعم).

٢٣ ـ ذُكر أن عبد المطلب أمر لحليمة في تلك الزيارة بألف درهم أبيض، وعشرة أثواب، وجارية رومية.

بعد الرضاعة

لما كمل عمر محمد (صلعم) سنتين، أحب أن يخرج مع إخوته من الرضاعة إلى المرعى مع الأغنام، وقال لحليمة: «ما أنصفتني يا أماه!»؛ قالت: «وكيف ذلك يا ولدي؟»؛ فقال (صلعم): «أكون أنا في الظل وإخوتي في الشمس والحر الشديد لرعي الأغنام، وأنا أشرب من لبنها؟!»؛ قالت: «يا بني، أخشى عليك من الحساد، وأخاف أن يطرقك طارق، فيطلبني بك جدك!»؛ قال: «لا تخشي عليَّ يا أماه من شيء، وإذا كان غداة غد، أخرج مع إخوتي، فإني أحب أن أنظر إلى البر والسهل والجبل، وأنظر إلى الإبل كيف ترضع اللبن من أمهاتها، وأنظر إلى قطعان الضأن والعنز، وإلى عجائب الله تعالى في أرضه، وأعتبر من ذلك وأعرف المنفعة من المضرة»؛ فضعفت حليمة أمام إصراره وصمتت راضخة.

فلما كان صباح اليوم التالي، نهض محمد (صلعم) عازماً على الخروج إلى المرعى مع إخوته، فعمدت حليمة إليه، رغم خوفها من خروجه، فغسلت رأسه وسرحت شعره ودهنته ومشطته وألبسته ثياباً فاخرة، وجعلت في رجليه نعلين من أحذية مكة، وشدت منطقته في وسطه، ثم عمدت إلى سلة فجعلت له فيها أطعمة جيدة، وناولته بيده عكازاً، ثم جعلت تتشدد في توصية ولديها به وبإطعامه وسقيه ومراعاته في السير؛ فخرج (صلعم) وقد أحاط به من كل جانب عبد الله أبو حليمة، وابناها «ضمرة» و«قرة»، وهو بينهم كالبدر بين النجوم؛ وجعلوا في طريقهم يسمعون السلام على محمد (صلعم) بعبارات مختلفة[٢٤].

---

٢٤ ـ في الرواية أن كل ما مرّوا به من حجر أو مَدَر جعل يسلم على محمد (صلعم) بأسماء وألقاب له عديدة، كقولها: «السلام عليك يا محمد.. السلام عليك يا أحمد.. السلام عليك يا حامد.. السلام عليك يا محمود.. السلام عليك يا صاحب القول العدل..»؛ ومنها ما كان يناديه بعبارات فصيحة «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله.. طوبى لمن آمن بك، والويل لمن كفر بك وردّ عليك حرفاً تأتي به من عند ربك!»؛ وأمثالها من التحيات والتسليمات، والنبي (صلعم) يرد عليها تحياتها وتسليماتها، ودهش القوم من ذلك وازدادوا له حباً وتقديراً.

وانتشر في الحي نبأ خروجه (صلعم) إلى المرعى، فأقبل أهله إلى حليمة يعاتبونها على ذلك، مستنكرين كيف طاب قلبها ورضيت بخروج محمد (صلعم) إلى المرعى على صغر سنه وكثرة حساده وأعاديه، فأخبرتهم حليمة بحقيقة الأمر، وأنه لم يَنْتَهِ بِنَهْيِها، ولم يمتنع عن الخروج بمنعها، وجعلت تدعو قائلة: «أسأل الله تعالى أن يصرف عنه السوء وكل مكروه»؛ ثم أنشأت تقول:

يا رَبِّ بارِكْ في الغلام الفاضِلِ   محمدٍ سليلِ ذي الأفاضِلِ[٢٥]
أَبْلِغْهُ في الأعوام غيرَ آفِلِ   حتى يكونَ سيِّدَ المَحافِلِ

محمد (ص) ينتهي الى خميلة جميلة، واولاد حليمة يفتقدونه.

ثم لما سار محمد (صلعم) مع المواشي وارتفع النهار وحميت الشمس، ارتفعت على رأسه سحابة بيضاء تظلله من حرارة الشمس، ثم انهمل المطر من السحاب على السهل والجبل، ولكن لم تقطر منه على رأس محمد (صلعم) قطرة واحدة، وسالت الأودية وتوحلت الأرض ما خلا طريقه الذي يمشي فيه[٢٦]؛ وبعد برهة من الشدة في الجو والأرض وصلوا في مسيرهم إلى نخلة في الطريق، فجلسوا عندها ليستريحوا، وأقبل النبي (صلعم) أيضاً فجلس واستند إليها[٢٧].

فلما جعل يتأمل ما حوله ويتطلع في الطبيعة ومحاسنها، وقع نظره على روضة خضراء كان وراءها تل كؤود عليه أنواع من النباتات المختلفة، فاشتهت نفسه أن يمضي إلى الروضة وأن يصعد على التل، فسأل مَن معه

---

٢٥ ـ ذي الأفاضل: هؤلاء الأفاضل، أو سليل صاحب الأفضال، أو صاحب الأفاضل والكرام من الأبناء.

٢٦ ـ في الرواية أن القوم رأوا أنه ينزل من السحابة على رأس النبي (صلعم) بأمر الله سبحانه ريش الزعفران وسنابل المسك.

٢٧ ـ ذكرت رواية أن النخلة التي استند إليها مرافقو النبي (صلعم) كانت نخلة عادية، قد يبست أغصانها وتناثرت أوراقها منذ سنين، فلما جلس النبي (صلعم) تحتها واستند إليها، اخضرت النخلة من ساعتها وأورقت وأرطبت وأثمرت بألوان مختلفة خضراء وحمراء وصفراء.

عن التل وعما وراءه، فأخبروه أن وراءه مَفاوِزَ وبراري، فأظهر لهم رغبةً في رؤية ذلك كله، فثقل عليهم مضيّه (صلعم) إلى هناك وحده، وسألوه الرخصة في مرافقتهم له، ولكنه أبى ذلك وانطلق إلى الروضة وحده.

فلما بلغ الروضة، جعل يسير فيها وينظر ويتأمل جمالها إلى أن انتهى إلى التل، فرآه جبلاً شاهقاً مرتفعاً في الجو كالجدار المعتدل، يصعب الصعود عليه، ولكنه تقدم وصعد بقدرة الله تعالى إلى أعلاه بسهولة[٢٨]، ونزل إلى الجانب الآخر منه، فرأى هناك عين ماء بارد عذب حلو كالعسل، وجلس عندها[٢٩]، ثم غفا بعد قليل نائماً قربها[٣٠].

ثم لما طال مكث النبي (صلعم) في تلك المفاوز، اضطرب أولاد حليمة في انتظاره شديد الاضطراب، واستوحشوا من إبطائه كثيراً، وقاموا في طلبه إلى كل وجه وناحية فلم يجدوه، إلى أن رجعوا إلى أمهم

---

٢٨ ـ نقلت رواية عن صعوده إلى ذلك الجبل أن النبي (صلعم) كان يفكر في أمر الجبل وصعوبة ارتقائه حين صدر صوت يخاطب الجبل يقول: «ويحك أيها الجبل، إن محمداً خير المرسلين يريد الصعود عليك، فانخفض؛ ويا أيتها الحيات والعقارب غيبوا أنفسكم في جحوركم لا يراكم سيد الأولين والآخرين»؛ فتراكم الجبل بعضه إلى بعض كما يتراكم الجلد في النار، وغابت الحيات والعقارب التي كانت فيه واختفت تحت الصخور وداخل الجحور.

٢٩ ـ في الرواية أنه حين جلس (صلعم) عند عين الماء، نزل عليه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ودردائيل (ع) يسلمون عليه بأسماء عديدة وصفات كثيرة، كالمدثر وطه وخاتم النبيين وأمثال ذلك، والنبي (صلعم) يرد عليهم التحية والسلام ويسألهم عن أسمائهم. ورُوي أيضاً في بعض الأحاديث العامية أنهم هناك شقوا بطنه وخرقوا قلبه بريش أجنحتهم وأخرجوا منه نكتة سوداء وغسلوه.

٣٠ ـ جاء في رواية أن محمداً (صلعم) حين غفا قرب العين، رأى في منامه شجرة فوق رأسه ثابتة الأصل باسقة الفرع، عليها أغصان غلاظ مرتفعة في الهواء إلى السماء، وسمع نداء يقول له: «أتدري يا محمد ما هذه الشجرة؟ إنها أنت، والأغصانُ أهلُ بيتك، والحشيشُ الذي تراه عند ساقها بما لا يمكن وصفُهُ هم مُحِبوك ومُوالوك، فأبشر يا محمد بالنبوة الأثيرة والرياسة الخطيرة». وجاء فيها أيضاً أنه رأى في منامه ذاك أنه وُزن بأمته، ثم بالأنبياء والمرسلين (ع)، ثم بجميع مخلوقات الله من الملائكة والجن والإنس والنباتات والجمادات والأمطار وأمثالها، فرجح عليهم، وكان ذلك كناية عن أفضليته (ع) عليهم جميعاً.

وأخبروها بذلك، فقامت ذاهلة العقل وهي تصرخ وتصيح في حيّها، وقامت الصيحة في الحيّ أن محمداً قد افتُقِد، وخرجت حليمة إلى الصحراء وقد مزقت ثيابها وخدشت وجهها ونتفت شعرها، وجعلت تعدو في البراري والقفار إلى كل جانب كالمجانين، حافية القدمين والدماء تسيل منهما لكثرة الشوك الداخل فيهما، وهي تنادي: «واولداه واقرة عيناه! واثمرة فؤاداه!!»؛ وتقع على الأرض مرة وتقوم أخرى، وتلطم صدرها وخدها، وقد تبعتها نساء بني سعد باكيات صارخات، وتفرق رجالهم في البراري في طلبه، وفي مقدمهم عبد الله والد حليمة وقد غارت عيناه في رأسه غضباً وغيظاً، وهو يصرخ ويهدد ويتوعد.

اضطراب عبد المطلب لاختفاء محمد (ص) والبحث عنه.

ثم إن حليمة رأت من الصلاح أن تخبر عبد المطلب باختفاء الصغير، فمضت إليه يرافقها بعض من رهطها، ولقيته جالساً عند أستار الكعبة في بني هاشم ورؤساء قريش، فانفعل وتأثر كثيراً بخبر فقد حبيبه الحفيد اليتيم (حتى قيل إنه أغمي عليه)، ثم نهض بعد هنيهات، وجعل ينادي: «يا آل غالب، يا آل عدنان، يا آل فِهْر، يا آل نِزار، يا آل كنانة، يا آل مُضَر، يا آل مالك...»، فبادر إليه الكثيرون مستجيبين مستوضحين، وإذ علموا بالخبر تأثروا لعبد المطلب، ثم رافقه عدد كبير منهم[٣١] للبحث عن حفيده، حتى انتهى بهم إلى حي بني سعد الذين اضطربوا كثيراً لرؤية عبد المطلب حتى أن بعضهم بكى وصرخ تأثراً، وجعل عبد الله والد حليمة خاصة يهدد ويقسم بالأصنام على الانتقام إن لم يجد محمداً، فرق له عبد المطلب، وقال له ولمن معه من قومه: «ارجعوا أنتم إلى حيكم، وإني إن لم أجد محمداً الساعة لأرجعن إلى مكة ولا أدع فيها يهودياً ولا يهودية ولا أحداً ممن اتهمه بمحمد حتى أمدهم تحت سيفي مداً طلباً بدمه!!»؛ وانصرف هو وإياهم لمتابعة البحث عن محمد (صلعم)، والقلق والاضطراب والحزن تتأكلهم.

---

٣١ ـ في رواية أن عدد الذين ركبوا مع عبد المطلب للبحث عن محمد (صلعم) بلغ عشرة آلاف رجل.

أما ما كان من أمر النبي (صلعم) بعد أن أفاق من نومه (وقد رأى فيه حلماً يبشره بالنبوة والرياسة)[٣٠] فإنه شاهد فجأة بعض الرجال مقبلين من ناحية اليمن، هم أبو مسعود الثقفي، وورقة بن نوفل، وعقيل بن أبي وقاص؛ فلما قربوا من مكانه (صلعم) نظروا فإذا هم بشجرة نابتة في الوادي تُرى في طريقهم من بُعد، فقال ورقة: «إني سلكت هذا الطريق ثلاثين مرة ولم أرَ قط هذه الشجرة!»؛ فصدَّقه عقيل وأيّد قوله وقال لصاحبيه: «مُرّوا بنا ننظر ما هي»؛ فمضوا نحوها إلى أن انتهوا إليها، وإذا هم بصبي تحتها ووجهه كالقمر المنير، لم يَرَ الراؤون مثله، وقد أعجبهم جماله ونور جبهته، فقال عقيل وورقة: «إن هو إلاّ جني!»؛ وقال ثالثهم: «إن هو إلاّ من الملائكة!»؛ وكان النبي (صلعم) يسمع كلامهم فاستوى جالساً.

وتقدم إليه القوم، وقال له أحدهم: «من أنت يا غلام؟ أجني أم إنسي؟» قال: «بل إنسي»؛ قال: «ما اسمك؟»؛ قال (صلعم): «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»؛ قال: «أنت نافلة عبد المطلب؟»؛ قال: «نعم»؛ قال: «كيف وقعت هاهنا؟»؛ فقص النبي (صلعم) عليهم قصته، فنزل أبو مسعود عن ناقته وأركبه عليها أمامه، وجعلوا يسيرون حتى قربوا من حي بني سعد، ورأوا تفرقهم في البراري.

ظهور محمد (ص) وفرح جده والناس به.

ورأى محمد (صلعم) جده عبد المطلب قبل أن يراه مرافقوه الثلاثة، فأخبرهم به وأشار إلى مكانه، فتوجهوا نحوه إلى أن قربوا منه، فما أن رأى عبد المطلب حفيده الحبيب المفقود حتى أسرع إليه ووثب عن فرسه، ثم أخذ النبي (صلعم) فضمه إلى صدره وجعل يقبله ويشمه ويبكي شوقاً إليه وسروراً به، وراح يسأله عن سبب غيبته ومكان اختفائه، وجعل النبي (صلعم) يخبره بقصته، وغلب الفرح والسرور على عبد المطلب وسائر الناس، وهم يشكرون الله على سلامة النبي (صلعم) ورؤية طلعته الشريفة.

ثم إن جده عبد المطلب أركبه على فرسه أمامه، وانصرف به

وبجموعه راجعين إلى مكة، وأمر لأبي مسعود ولصاحبيه ولوالد حليمة وزوجها وولديها بهدايا نفيسة[٣٢]؛ وقد تبعه ذوو حليمة إلى مكة يسألونه إرجاع النبي (صلعم) إلى حيّهم ويلحون عليه في ذلك كل الإلحاح وهو يأبى بشدة إرجاعه إليهم، إلى أن وافق بعد رجاء وإلحاح وتوسلات شديدة، فأخذوه وقفلوا راجعين به إلى حيهم.

* * *

وقد بقي النبي (صلعم) في ديار بني سعد بعد عودته إلى حيِّهم، مقيماً عندهم في نهاية العز والإكرام، وهم يحافظون عليه تمام المحافظة، ويحيطونه بالرعاية والتغذية والتقوية والتكريم، وهو ينمو عندهم ويقوى أضعاف غيره، واستمر على هذا الحال إلى أن أكمل خمس سنين من عمره، وكان خلال مدة إقامته عندهم بعد عودته من مكة إليهم، تظهر منه باستمرار آيات وكرامات مشهودة مشهورة..

منها أنه كان حين خروجه إلى المرعى إذا قال للغنم «سيري» سارت، وإذا أمرها بالتوقف توقفت مطيعة خاضعة..

ومنها أنه أثناء خروجه (صلعم) ذات يوم مع إخوته إلى المرعى، بلغ وإياهم وادياً عشيباً تهابه الرعاة لكثرة ما فيه من السباع؛ وبينما هم سائرون فيه، إذ أقبل عليهم أسد هائل الخِلقة وهو يزمجر، إلى أن قرب من الأغنام وهمَّ أن يهجم عليها، فغلب الفزع والخوف على القوم، ولكن النبي (صلعم) تقدم إليه، فزاد على خوف القوم من الأسد همّهم على محمد (صلعم)، ولكن الأسد ما أن رآه حتى نكس رأسه وولّى هارباً[٣٣]..

ومنها أن أخاه «ضمرة» ضرب مرةً شاةً فكسر رجلها، فأقبلت نحو

---

٣٢ ـ في رواية أنه أمر لأبي مسعود بخمسين ناقة، ولصاحبيه بستين (لكل واحد ثلاثين) ولعبد الله والد حليمة بألف مثقال من الذهب الأحمر وعشرة آلاف درهم أبيض، ولزوجها بكر بن سعد بجملة من الدراهم والدنانير، ولولديها بمئتي ناقة.

٣٣ ـ وفي رواية أن القوم دهشوا من ذلك، وأحاطوا بالنبي (صلعم) يسألونه عن اجترائه على الأسد وهل قال له شيئاً، فقال (ص): «نعم، قلتُ له لا تعد إلى قرب هذا الوادي بعد اليوم».

النبي (صلعم) كأنها تلوذ وتتوسل به، فمسح النبي (صلعم) على رجلها بيده الشريفة، وعادت الشاة أحسن مما كانت عليه، بل ان النبي (صلعم) كلمها بكلمات، وانصرفت مسرعة كالغزال بين الأغنام. .

وغيرها كرامات وآيات كثيرة يتعذر ذكر تفاصيلها جميعها.

عودة محمد (ص) من حي بني سعد إلى مكة

لما كمل لمحمد (صلعم) من عمره خمس سنين، رأت حليمة في منامها رؤيا هائلة أفزعتها خوفاً من أن يطرق محمداً (صلعم) طارق، فاستشارت بعلها في إرجاع النبي (صلعم) إلى جده، فأبى بعلها بكر بن سعد إرجاعه حبّاً منه للنبي (صلعم) واستيحاشاً من فراقه، فقد كان اعتاد على أنس محمد (صلعم) حتى كان يعزه أكثر من أولاده؛ ولكن حدث في ذلك الحين بالذات، أن جاءهم أمر عبد المطلب بأن يحملوا ولده محمداً (صلعم) إليه، فأقبلت حليمة على النبي (صلعم) تقول: «يا ولدي، إن جدك وأعمامك مشتاقون إليك، فهل لك أن تسير إليهم؟»، فرحب (ص) بالأمر وقال: «نعم».

فقامت حليمة وتجهزت وجهزته للمسير إلى ذَويه، ثم لما حان يوم تركه لحي بني سعد، شدت على راحلتها وركبت، وأخذت النبي (صلعم) في حجرها، وسارت به نحو مكة[1]

---

١ ـ جاء في رواية أن حليمة بلغت في مسيرها حياً من أحياء العرب فيهم كاهن قد سقط حاجباه على عينيه من كبر العمر، والناس مجتمعون حوله عاكفون عليه، فلما ظهرت حليمة لهم في مجمعهم، رآها الكاهن، فخرَّ لساعته على الأرض مُغمىً عليه، ولما أفاق بعد برهة نادى في أصحابه: «ويلكم بادروا إلى المرأة التي مرت بكم راكبة، وخذوا منها الصبي الذي في حجرها واقتلوه قبل أن يخرب بلادكم»؛ فهمّوا مبادرين إلى اللحوق بها، ولكنهم حين قربوا منها وهموا بمهاجمتها ـ وكانت قد شعرت هي بهم وغلب عليها الفزع والجزع ـ هبَّت عليهم ريح شديدة صرعتهم على الأرض، حتى لم يتمكنوا من القيام، وبذلك تمكنت حليمة من البعد عنهم بناقتها والهرب منهم.

وانتهت حليمة إلى باب مكة، فسلمت محمداً (صلعم) إلى جده[٢] عبد المطلب الذي احتضنه وجعل يقبّله ويبكي، ثم أقرَّه في بيته وهو يحافظ عليه ليله ونهاره، ويبذل في سبيل راحته وفي رعايته غاية جده وجهده، ويرقّ عليه رقة لم يرقّ مثلها على أحد من أولاده.

شدة حب عبد المطلب لمحمد (ص) ورعايته وإيثاره له

كان ولوع عبد المطلب بحفيده اليتيم محمد (صلعم) جلياً وغير

---

٢ ـ ثمة رواية أن حليمة فقدت محمداً (صلعم) مرة ثانية حين سارت به إلى ذويه في مكة، وأنها بعد وصولها إليه وإناختها راحلتها، حدث أن اعتزلت بنفسها قليلاً إلى ناحية لبعض أعمالها، وما لبثت أن سمعت أصواتاً وجلبة، فهرولت مسرعة نحو الناقة، ففوجئت بأن محمداً (صلعم) ليس حيث تركته بجوارها، فصرخت برفيع صوتها حزينة باكية فزعة، وراحت تدور في كل جانب والهة حائرة، وهي تلطم وتنادي: «واولداه! واقرة عيناه! واثمرة فؤاداه! وامحمداه!!.. وحق الكعبة والمقام، إن لم أجده رميتُ بنفسي من أعلى الحائط حتى أموت». وقد لقيها شيخ كبير يتوكأ على عكازته، وإذ علم قصتها وعدها خيراً وطمأنها إلى أنه يَعْرف من يدلها عليه ويُعَرِّفها بمحله، ولكنه توجه إلى «هُبَل» الصنم الأكبر على الكعبة يسأله عن مكان محمد (صلعم)، وأن الصنم حين سمع اسمه (صلعم) سقط على وجهه، ودهش الرجل وولّى خائفاً فزعاً.

فانصرفت حليمة عندئذٍ إلى عبد المطلب تخبره الخبر، فقامت قيامته وجعل يصرخ والهاً، حتى اجتمعت إليه القبائل، وأخبرهم بأنه خائف على الفتى من السحرة والكهنة، وركب مع جمع يبحثون عنه في أعالي مكة وأسافلها دون جدوى، وطاف بالكعبة سبعاً ثم تعلق بأستارها يدعو ويتضرع إلى ربه وأنشأ يقول:

يا رَبِّ رُدَّ راكبي محمدا ... رُدَّ إليَّ واتخِذْ عندي يدا

أنت الذي جعلتَه لي عَضُدا ... يا ربِ إنْ أحمدُ لم يوجدا

فجمْعُ قومي كلهم تبدَّدا

فسمعت الجموع منادياً في السماء لا يُرى يطمئنهم إلى أن رب محمد لا يضيعه، وأنه بمكان كذا (قيل إن المكان كان في تهامة)، فبادر عبد المطلب والجمع إليه فرأوه تحت شجرة (قال البعض إنها شجرة موز)، فاحتضنه عبد المطلب وسأله عن حاله، فقال (صلعم): اختطفني طير أبيض ونقلني إلى هنا، وجعت وعطشت فأكلت من ثمر الشجرة وشربت من الماء بجوارها. ونقل البعض (عن أهل البيت (ع) أن الطير كان جبرائيل (ع)، وأن عبد المطلب تصدق على الفقراء بعد لقياه محمداً بنياق كثيرة وذهب كثير.

عادي. كان يقرّبه دون باقي الأحفاد ويدنيه ولا يفارقه، وكان لا يأكل طعاماً قبل أن يحضروه إليه ليأكله معه، وكان يجلسه بجانبه وعلى فراشه، وينومه ساعة المنام في حضنه.

وكان يوضع لعبد المطلب فراش بظل الكعبة لا يجلس عليه أحد سواه، ويجلس بنوه حوله إجلالاً له، إلاّ محمداً (صلعم) فإنه كان حين يأتي يجلس عليه بجوار جده ويَعْظُم ذلك على أعمامه، إلى أن همّوا ذات يوم أن ينحّوه عن الفراش، فصاح بهم عبد المطلب صارخاً مستنكراً: «دعوا ابني دعوه! ألَا إنّ له لَشأناً عظيماً، وإني أرى أنه سيأتي يوم يكون فيه سيدكم. إن غرَّته غرة تسود الناس!»؛ ثم جعل يمسح ظهر النبي (صلعم) ويقبّل خده ويقول: «ما رأيت قبلة أطيب ولا أطهر قط من قبلته، ولا جسداً ألين من جسده!».

وكان عبد المطلب يحمله غالباً على عنقه ويطوف به الكعبة ولا يقرّبه إلى الأصنام لعلمه بكراهة محمد (صلعم) لها، وكان يوصي به دائماً سائر أولاده، ويخصّ أبا طالب في التوصية به لكونه أقرب أعمامه إليه، ويقول له ويردد دائماً: «يا أبا طالب، إن لهذا الغلام لَشأناً عظيماً، فاحفظه واستمسك به، فإنه فرد وحيد، وكن له كالأم، لا يصل إليه شيء يكرهه».

كرامات وظواهر لمحمد (ص)
أثناء إقامته ببيت جده

وكانت تظهر من محمد (صلعم)- وهو بعدُ في بيت جده حَدَثٌ في مقتبل عمره- كراماتٌ وظواهر أحياناً خارقة، تلفت نظر أهله وأقاربه وأهل مكة وحتى الأبعدين[٣]، وقد حدث أن أصاب محمداً (ص) مرة رمد شديد، فحمله عبد المطلب إلى طبيب راهب كان بالجحفة في صومعة له، فلما انتهى به إليه وكشف عن وجهه بناء على أمر الطبيب، تزلزلت

---

٣ - في رواية أن كاهناً رأى النبي مرة فدهش من سمانه وعلامات رآها فيه، فخرج يدعو الناس لقتل «هذا الصبي، فإنه يفرقكم ويقتلكم»، حتى فزعت قريش من كلامه، وجعل بعض الناس يتحذرون من ظهور أمر النبي (صلعم)، ويعملون في دحضه كل حيلة.

الصومعة، فدهش الراهب وغلب عليه الفزع، وأخذ يحد النظر في وجه النبي (صلعم) ثم نادى «أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً هذا رسول الله»؛ وقال لعبد المطلب: «أيها الشيخ ما عسى أن أقول فيه؟ لا بأس عليه مما نزل به. اسمع ما أقول لك: إنه سيد العرب، بل سيد الأوّلين والآخرين، والمُشفَّع فيهم يوم الدين، تنصره الملائكة المقربون، ويأتيه الأمر من الله بأن يقاتل من يُخالِفه، وسينصره الله نصراً عزيزاً، وإن أشدَّ الناس عليه قومه»؛ قال أبو طالب مندهشاً: «ما تقول يا راهب؟!»؛ قال: «والله الذي لا إله إلاّ هو إنه لَحَقٌ ما أقول، وإن أدركتُ زمانه لأَنصُرَنَّه! فاحفظ وَلَدَك وارجع به إلى بلدك!». فرجع به عبد المطلب وازداد تشدداً في حراسته والمحافظة عليه.

وكان أن تتابعت على قريش سنون أمْحَلَت الضَرْع [٤]، وأوهنت العظم، وأصابهم فيها مَحْلٌ [٥] شديد، فرأت «رقيقة بنت صيفي بن هاشم» في منامها هاتفاً صَيِّتاً [٦] يصرخ برفيع صوته قائلاً: «يا معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم، هذا إبّان نجومه [٧]، فحيٍّ بالحبا [٨] والخصب! ألا فانظروا منكم رجلاً وسيطاً عُظَّاماً جُساماً [٩] أبيض، أشم العِرْنِين [١٠]، سهل الخَدِين [١١]، له فخر يَكظِمُ [١٢] عليه، ألاَ فلْيَخْلُصْ [١٣] هو ووُلْده [١٤] ـ ألاَ وفيهم

---

٤ ـ أمَحلَ: أيْبَسَ ـ الضَرْع: حَلَمة اللبن عند الشاة أو البقرة، وهو بمثابة الثدي للمرأة.

٥ ـ مَحِلَ المكانُ: أجدَبَ ـ المَحْل: الجَدْب، فقدان الزرع.

٦ ـ صَيِّت: شديد الصوت، قويّه.

٧ ـ إبان: أوَان، حين ـ نجوم: جمع نجم، وهو النبات الذي لا ساق أو جذع له، أي أمثال القمح والشعير، لا كالشجر ـ إبان نجومه: حانت مطالع نباتاته وزروعه.

٨ ـ الحبا (بالباء) والحيا (بالياء): السحاب.

٩ ـ عظام (بضم العين) وعُظَّام (بضم العين وتشديد الظاء): عظيم ـ جُسام (بضم الجيم): جسيم عظيم.

١٠ ـ العِرنِين (بكسر العين والنون): الأنف ـ أشم العرنين: أي ذو أنفة وعزة وكرامة.

١١ ـ الخَدِين (بفتح الخاء وكسر الدال): العشير والصاحب والصديق، أي سهل العشرة رقيق المصاحبة لطيف التعامل (أو سهل الخَدَّين، مثنى الخَدّ: أي حسن المواجهة مع الناس وناعم الصحبة).

١٢ ـ يكظم على فخره، أي يتمسك بفخره ويعرف له قيمة (وقد وردت في الأصل: يكضم).

١٣ ـ فليخلص: فليخرُج.

١٤ ـ وُلْده: جميع أولاده وسلالته.

الطيّبُ الطاهرُ لذاته ـ وليَدْلُف[١٥] إليه مِن كل بطنٍ[١٦] رَجُل، فلْيَشِنوا[١٧] من الماء، وليَمَسُّوا من الطيب، وليطوفوا بالبيت سبعاً! ألاَ فلْيَسْتَسْقِ الرجل وليُؤَمِّن القوم[١٨]؛ ألاَ فغنمتم وعشتم إذا شئتم!!».

قريش يستسقون بالفتى محمد (ص).

فاستيقظت رقيقة من نومها مذعورة قد قفَّ جلدها وذهل عقلها، وقصت رؤياها على قومها، وانتشر خبرها بين قريش، فقالوا بأجمعهم: «ليس الموصوف في المنام إلاّ شيبة الحمد»[١٩]؛ وتتابعوا إليه أفواجاً أفواجاً، وانقض إليه من كل بطن رجل يسألونه الخروج بهم للاستسقاء، فقام عبد المطلب واعتضد النبي (صلعم) وهو يومئذٍ غلام يافع، فرفعه على عاتقه وخرج به نحو البيت.

وطفقت الأقوام والجموع حوله يدفّون[٢٠]، حتى انتهى بهم إلى الكعبة المعظمة، فطاف بها سبعاً، ومسها واستلمها، وصعدت الأقوام على جبل «أبي قُبَيس» (المشرف على مكة) حتى ارتقوا ذروته؛ وتوقف عبد المطلب، ثم توجَّهَ نحو الكعبة والنبي (صلعم) على عاتقه، ورفع رأسه إلى السماء متضرعاً إلى الله، يدعو ويقول: «اللهم سادَّ الخَلَّة[٢١] وكاشف الكَربة، أنت عالمٌ غير مُعلَّم، وهذه عبيدك وإماؤك بعَذِرات[٢٢] حَرَمك، يشكون إليك سِنَتَهُم التي أذهبت الخُفَّ والظِلف[٢٣]، فأسمَعنِ

---

١٥ ـ ليدلف إليه: ليأتِ إليه، ليلتحق به.

١٦ ـ البطن: الفرع من القبيلة.

١٧ ـ فليَشِنوا من الماء: فليتناولوا قليلاً من الماء.

١٨ ـ فليستسق: فليطلب من الله السقاء والمطر ـ ليؤمّن القوم: ليقولوا بعد استسقائه: آمين.

١٩ ـ شيبة الحمد هو لقب عبد المطلب، أي أن هذه الأوصاف لرجل فيهم عُظَام جُسام أشم العرنين... لا يجمعها إلاّ عبد المطلب.

٢٠ ـ يَدِفّون: يمشون مشياً خفيفاً.

٢١ ـ الخلة، في الأصل: الثقب، الفراغ ـ سادّ الخلة: مالىء النقص وكافي الحاجة.

٢٢ ـ العذرات: الآثار؛ هنا بمعنى الديار والبقاع.

٢٣ ـ الخُفّ: للجمال منتهى الرِجل، مثل الحافر للخيل، وكذلك الخُف: الحذاء للأشخاص ـ الظِلف، للحيوانات المجترة كالبقر والغزلان: مثل الخُف للجمال والحافر للخيل. المقصود أن السنة المجدبة قد أماتت المواشي.

اللهم، وأمطِرَنْ علينا غيثاً مُريعاً[٢٤] مغدقاً»؛ فلم يتم دعاءَه ولم ينصرف عن البيت، حتى انفجرت السماء بمائها، وكُظَّ[٢٥] الوادي وامتلأت الرحاب بالأمطار، فأقبلت مشايخ العرب وفيهم عبد الله بن جذعان، وحرب بن أمية، وشهاب بن المغيرة، وأمثالهم من وجوه القبائل وأمرائها إلى عبد المطلب، يهنئونه بالنبي (صلعم) وما ظهر له من الكرامة قائلين: «هنيئاً لك يا أبا البطحاء!»؛ وأنشأت رقيقة ابنة أخيه في ذلك تقول:

بشيبة الحمد أسقَى الله بلدتنا ... فقد فقدنا الحبا واْجلَوَّذ المطَرُ[٢٦]
فجاد بالماء جَونِيٌّ له سُبُلٌ ... سحّاً[٢٧] فعاشت به الأنعام والشَجَرُ[٢٧]
مَنّاً من الله بالميمونِ طائره ... وخيرِ مَن بُشِّرَتْ يوماً به مُضَرُ
مبارَك الاسم يُستَسْقَى الغمامُ به ... ما في الأنام له عِدْلٌ ولا خَطِر[٢٨]

---

٢٤ ـ مُرِيع: مُعجب، مُرضٍ، مُسعِد.
٢٥ ـ كُظ الوادي: مُلِىءَ.
٢٦ ـ اجلوَّذ المطر: طال انقطاعه.
٢٧ ـ الجَوني: النهار. ـ جاد بالماء سَحّاً: مُنصَباً بغزارة.
٢٨ ـ العِدل (بكسر العين): النظير والمساوي والمثيل. الخَطِر: ذو القيمة والقدر.

خروج عبد المطلب إلى ملك اليمن وسماعه فيها علائم ظهور النبي (ص)

لما حارب ملكُ اليمن سيفُ بنُ ذي يَزَن الحبشةَ وتغلب عليها، أنفذَ ابنَه إلى مكة والياً عليها، فاستعمل هذا العدلَ والإنصاف فيها بأمر أبيه. وقد عزم عبد المطلب بعد أمد على المضي إلى اليمن، لتهنئة الملك سيف بالغلبة على خصمه، فدعا صناديد قريش ورؤساء بني هاشم، وفيهم عُتْبَة بن ربيع، والوليد بن المغيرة، وعُقْبة بن أبي معيط، وأُمَيَّة بن خَلَف، وأمثالهم من الأكابر؛ ولما اجتمعوا في دار الندوة وأخذوا مراتبهم، استشارهم عبد المطلب في عزمه وقال لهم: «يا قوم انكم تحتاجون إلى أن تخرجوا معي إلى اليمن، لتهنئة سيف بانتصاره وهلاك عدُوّه، ليكون أرفق بنا وأميل إلينا»؛ فاستحسن القوم رأيه واجابوا دعوته، ثم تفرقوا يستعدُّون للسفر ويتجهزون للمسير.

ثم إن عبد المطلب خرج بهم، وهم سبعة وعشرون من الصناديد، نحو اليمن على جياد مُجمَّلة، ولما انتهوا إليها ودخلوا «صنعاء» عاصمتها، جعلوا يتساءلون عن طريقة الوصول إلى الملك، حتى عرفوا أن الملك قد دخل قصره الوردي المعروف باسم قصر «غمدان»، وأن من عادته أن يدخل القصر أيام الورد، ولا يخرج منه إلا بعد نيف وأربعين يوما يلتهي خلالها بنسائه وجواريه ولذائذه، ولا يصل إليه في تلك الأيام زائر ولا ذو حاجة قط. وكان القصر في بستان له باب واحد يُفتَح إلى البرية، وعليه بواب حارس، والبستان حول القصر كأنه جنة من الجنان، قد حُفَّ بالورد والياسمين وأنواع الفواكه والرياحين، وفيه أنهار جارية وأشجار مثمرة، فعزم عبد المطلب على الوصول إلى الملك في القصر.

نهض عبد المطلب بقومه نحو البستان إلى أن انتهوا إليه، وتقدم هو

أولاً بنفسه إلى الباب وسلم على البواب، ثم سأله أن يمكِّنه من الدخول إلى البستان والقصر، فغضب الرجل وصاح به قائلاً: «واعجبا منك! ما أقل فهمك وأضعف رأيك! أمصروع أنت يا مجنون؟!»؛ قال عبد المطلب: «ما رأيتَ من جنوني؟»؛ قال: «أما علمت أن الملك مع جواريه وخَدَمه في القصر، وإن بَصُر بك أمر بقتلك وسفك دمك حالاً، وان ذلك لأهون عليه من شربة ماء؟»؛ قال: «دعني ادخل ويكون اليّ من المَلِك ما يكون»؛ قال: «امض عني يا مغلوبَ العقل، فإن المَلِك عيناه إلى الباب والبواب، وإذا رمقك أمر بقتلي وقتلك»؛ فقال عقيل بن أبي الرقاص: «يا أبا الحارث، أما علمتَ أن المصباح لا يضيء إلا بالدهن»؛ فصدّقه عبد المطلب، ودعا بكيس أديم فيه ألف دينار فصبها بين يدي البواب وقال له: «إن تركتَني ادخل البستان، جعلتُ هذا بِريّ إليك، فاقبل صِلَتي وخلِّ سبيلي»؛ فدهش البواب وجعل ينظر إلى الدنانير ويتأمل في أمره ويتفكر في نفسه، إلى أن رضي بتخلية سبيله، وادخله البستان بعدما أخذ عليه العهود المؤكدة أن يقول للملك عند احضاره بين يديه ان البواب كان نائماً ولم يعلم بدخوله، فقبل عبد المطلب العهود، وأخذ عليه العهد أن يصدِّقه في كلامه ذلك إذا احضر عند الملك، وهدده أنه إن لم يصدقه البواب على كلامه، أخبر الملك عن الصلة، فيزيد عقابه للبواب.

لقاء عبد المطلب والملك سيف

لما دخل عبد المطلب البستان، كان الملك متكئاً على عمود المنظرة من قصره، فلما رمقه الملك غضب غضباً شديداً وصاح بعبيده وغلمانه: «من هذا الذي دخل عليَّ بغير إذني؟ ايتوني به سريعاً»؛ فتبادر الغلمان والخدم نحو عبد المطلب حتى اختطفوه واتوا به إلى الملك. ولما أُدخِل القصر رآه قصراً مبنياً على حجرٍ مَطليٍ وردي، منقَّشاً بنقش لازوردي، ولما قَدِم على الملك رأى بقربه عموداً من عقيق أحمر له رأس من ياقوت أزرق مجوف محشو بالمسك، ورأى عن يساره إناءً من ذهب أحمر، وعلى فخذه سيف نقمة، قيل كان مكتوباً عليه بماء الذهب:

رُبَّ لَيثٍ مُدَجَّج كان يحمي الـف قِرن مُغَمَّدِ الأغماد[١]
وخَميسٍ مُلفـفٍ بخميس بَدَّد الدهرُ جمعَهم في البلاد[٢]

وكان يحف بالملك عن يمينه وشماله وبين يديه من الجواري ما لا يحصى؛ ولما أُوقف عبد المطلب بين يديه، لم يكلم أحدُهما الآخَرَ حتى شرب الملك من انائه ما شرب، ثم جعل ينظر إلى عبد المطلب ـ وكان قد شاهده قبل ذلك ولكن استنكره ـ وقال: «مَن الرجل؟»؛ فدنا منه عبد المطلب واستأذنه في الكلام، فقال له الملك: «إن كنت ممن تتكلم بين يدي الملوك، فقد أذِنّا لك»؛ فقال عبد المطلب: «أيها الملك، إن الله أَحَلَّكَ محلاً رفيعا صعبا منيعا شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابتْ أَرومَتُه[٣] وعزَّتْ جُرثومتُه، وثَبَت أصلُه، وبَسَقَ[٤] فرعُه، في أكرم موطن وأطيب معدن، فأنت ـ أَبَيْتَ اللعن[٥] ـ ملكُ العرب وربيعُها الذي به تُخصِب، أنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد، وعمودُها الذي عليه العماد، ومَعقِلها الذي يلجأ إليه العباد! سَلَفُك خيرُ سَلَف، وأنت لنا منهم خيرُ خَلَف، فلن يَخمَدَ مَن أنت سلفُه، ولن يَهلِك مَن أنت خَلَفُه! نحن أيها الملك أهلُ حَرَمِ الله وسَدَنَةُ[٦] بيتِه، أشخَصَنا إليك الذي ابهَجَنا مِن كشفك الكَرْبَ الذي فَدَحَنا، وقد جئتُ إليك وأصحابي بالباب لنهنئك بولايتك، وما قيَّض الله لك من النصر، واجراه على يدك من هلاك عدوك، فالحمد لله الذي نصرك وأقرّ عينيك، وافلج حجتك وأقر عيوننا بخذلان عدوك، فأطال الله تعالى في سوابغ نِعَمِه مدتَك، وهنأك بما منحك ووصلها بالكرامه الابدية، ولا خيَّبَ دعائي فيك أيها الملك! نحن وفد

١ـ اللَيْث: ابن الأسد ـ ليثٌ مدجج: يقصد رُبَّ محارب قوي كالليث ممتلئ بالاسلحة ـ القِرن: المَثيل، المُشابِه، الكُفْء، المُوازي.

٢ـ الخميس: الجيش.

٣ـ الأرومة: الأصل، أرومة الشجرة: قعرها، جذرها.

٤ـ بَسَقَ: ارتفع وامتد وعلا.

٥ـ أَبَيْتَ اللعن: بصيغة الماضي هي للدعاء، مثل «رحمك الله» والمقصود «ليرحمك الله»؛ وأَبَيْتَ: رفضتَ ورددت ـ والمقصود أنك لا تفعل ولا تقبل ما يسبب اللعن والعار.

٦ـ السَدَنة، جمع سادن: خَدَم المعبد.

التهنئة لا وفد المَرْزِئة»[٧]؛ فاستبشر الملك بخطابه وفصاحته وقال: «وأيُّهم أنت أيها المتكلم؟»؛ فقال: «أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن فلان بن فلان. . .» حتى انتهى في نسبه إلى أبي البشر آدم (ع)، فازداد الملك ابتهاجا وقال: «ابن اختنا؟!»؛ قال عبد المطلب: «نعم أيها الملك، انا ابن اختك»؛ ـ (وكان سبب ذلك أن الملك كان من آل قحطان، وإسماعيل بن الخليل (ع) كان من أولاد أخت قحطان، وصار ذلك سببا لتسمية أولاد إسماعيل (ع) أولاد أخت قحطان) ـ فعند ذلك أقبل الملك عليه وقال: «مرحباً وأهلاً، وناقةً ورَحْلا، ومُستناخا سهلاً»!

ثم أخذ يلاطفه إلى أن صافحه بيده وأذن له بالجلوس، وخاطبه بكُنْيَتِهِ أبي الحارث، وأذن لاصحابه على الباب بالدخول عليه، ولما دخلوا أخذوا يهنئونه، فَرَحَّب الملك بقدومهم وقال: «قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، وأنتم أهل الليل وأهل النهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء[٨] إذا ظعنتم[٩]».

ثم أمرهم أن ينطلقوا إلى دار الضيافة والوفود، إلى أن يأذن لهم بالحضور إلى مجلسه، فقاموا وودعوه وانصرفوا من عنده وقد حف بهم غلمان الملك وعبيده حتى انزلوهم دار الضيافة، وبالغوا في توصية خدمها باكرامهم واعزازهم، وأمر الملك أن يُجرى عليهم كل يوم الف درهم بيض؛ فأقاموا هناك شهرا في عز وسرور ونعمة وحبور، لا يصلون إلى الملك ولا يأذن لهم بالانصراف.

الملك سيف يبوح لعبد المطلب بصفات النبي الموعود حفيده محمد (ص).

ثم انتبه لهم الملك وتذكرهم، فارسل إلى عبد المطلب حتى قدم عليه، فأدْنَى مجلسه واختلى به ثم قال له: «أيا عبد المطلب، إني مفوِّضٌ

٧ـ المَرزِئَة: التعزية، والمصيبة ـ وتحتمل معنى آخر وهو طَلَب العطاء والمنفعة والبِرّ والهبة.

٨ـ الحِباء: العطاء والهبة والهدية والمنحة.

٩ـ ظَعَنتم: رحلتم.

إليك من سر علمي امراً لو كان غيرك لم أَبُحْ له به، ولكني رأيتك معدنَه، فأطلِعُكَ عليه طلعة، فليكن عندك مَطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ امره! اني أجد في الكتاب المكنون، والسر المخزون الذي اخترناه لأنفسنا وأُخْبِرناه دون غيرنا، خبراً عظيماً وخَطَراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة»؛ فقال عبد المطلب: «مِثلُكَ أيها الملك مَن سَرَّ وَبرَّ، فما هو؟ فِداك أهلُ الوَبَر زُمَراً[١٠] بعد زُمَر؟»؛ فقال: «يا أبا الحارث، إذا وُلِد بتِهامة[١١]، غلامٌ حسن الوجه جميل القامة، بين كتفيه شامة، وأنبت اللّهُ على رأسه شجرة النبوة وظلّلَتْه الغمامة، وهو المبعوث في تِهامة، وصاحب الشفاعة يوم القيامة، مكتوب على كتفيه بخاتم النبوة «لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله» كانت له الإمامة، ولكم من بعده الزعامة، إلى يوم القيامة؛ وإني وجدت صفته في كتب بني إسرائيل أَبيَنَ واشرح من القمر بين الكواكب!».

فقال عبد المطلب: «أَبَيْتَ اللعن أيها الملك! ولقد أُبتُ[١٢] بخيرِ ما آب بمثله وافِد، ولولا هيبةُ المَلِكِ وإجلالُه وإعظامه، لَسألتُه مِن أَسراره ما أزدادُ به سروراً».

قال الملك: «وهذا حِينُه الذي يولد فيه، أو هو قد وُلِد؛ واسمه «محمد»؛ يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وقد وَلَدناه سِرارا، والله باعثه جِهارا، وجاعلٌ له منا انصارا؛ يُعِزُّ بهم أولياءَه، ويُذِل بهم أعداءه؛ يضرب بهم الناس عن عَرْض، ويستبيح بهم كرائم الأرض؛ يكسر الأوثان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمان، ويدحر الشيطان؛ قوله فَصْل، وحكمه عَدل، يأمر بالمعروف ويَفعلُه، ويَنْهى عن المنكر ويُبطِلُه».

فقال عبد المطلب: «أيها الملك، عزَّ جارُك، وعلا كعبُك، ودام

١٠ـ زُمَراً: أفواجاً.

١١ـ تِهامة: السهل الساحلي المواجه للضفة الشرقية من البحر الأحمر.

١٢ـ أُبتَ، من آبَ يؤوب: أي رجع وانقلب. أُبتُ بخير: دعاء بمعنى: رجعتُ بخير وعاد عَلَيَّ خير.

مُلْكُك، وطال عمرك! فهل الملِك سارِّي[١٣] بافصاح، فقد أوضح لي بعضَ ايضاح»؛ فقال الملك: «والبيتِ ذي الحُجُب، والعلامات على النُصُب، إنك يا عبدَ المطلب لَجَدُّه غير كَذِب!»؛ فابتهج عبد المطلب سروراً، وخرَّ على الأرض ساجداً حمداً لله وشكورا، إلى أن قال له الملك: «ارفع رأسك ـ ثَلَج صدرُكَ وعلا أَمْرُك ـ فهل أحسستَ بشيء مما ذكرتُه لك؟».

قال عبد المطلب: «كان لي ابن كنتُ به معجباً وعليه شفيقا، فزوجتُه كريمةً من كرائم قومي، آمنة بنت وَهَب، فجاءت بغلام، فسميته محمداً؛ مات أبوه وأمه، وكفلتُه أنا وعمه، بين كتفيه شامة، وكل ما ذكر الملك فيه من علامة».

فقال الملك: «إن الذي قلتُ لك كما قلتُ، فاحتفظ بابنك واْحذر عليه اليهود، فانهم له أعداء، ولكن لن يجعل الله لهم عليه سبيلا؛ واْطوِ ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة[١٤]، من أن تكون له الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون لو نبأتهم من غير شك! ولولا علمي أن الموت مجتاحي قبل مبعثه، لسرت نصرةً له بخيلي وَرَجِلي حتى أصير بيثرب دار مُلْكه! لكني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دار ملكه، وبها استحكام أمره، وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أني أخاف فيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ أمره على حداثة سنه في هذا الوقت، ولأَوْطَأتُ أسنان العرب عقبه، ولكني صارف إليك عن ذلك بغير تقصير مني بمن معك، وأشهدك على نفسي يا أبا الحارث أني مؤمن به وبما يأتي به من عند ربه».

ثم تأوَّه ثلاثاً، وجعل يتمنى رؤيته ونصرته والنظر إليه، إلى أن قال: «يا أبا الحارث، عليك بكتمان ما ألقيته عليك، ولا تُظهِرْه إلى أن يُظْهِرَهُ الله تعالى!»؛ فقال عبد المطلب: «السمع والطاعة للملك!!»؛ ثم قام

١٣ـ سارِّي: أي يَسُرني ويسعدني.

١٤ـ النفاسة: الغيرة والتسابق إلى التقدم.

وخـرج مـن عنـده، ووعـده الملك الحبـاء فـي غدٍ، لينصرفوا راجعين إلى مكة.

ولما انتهى عبد المطلب إلى أصحابه في دار الضيافة، رآهم قد غلبهم الخوف والوجل رقةً عليه، حتى لقد اصفرت ألوانهم من وفرة ما أكثروا الفكر في أمره، وسبب دعاء الملك له في تلك الساعة؛ فلما دخل عليهم هبوا قائمين إليه يتلقونه، وأمطروه بالاسئلة عن سبب طلب الملك له، فلم يخبرهم بحقيقة ما جرى بينه وبين الملك، وقال: «إنما كان يسألني عن رسوم مكة وآثارها».

الملك سيف يرسل هدايا لمحمد (ص).

ولما كان من غد، طلع عليهم رسول الملك يطلب حضورهم عنده، فقاموا وتطيبوا وتزينوا، ومضوا نحو القصر يتقدمهم عبد المطلب، ولما انتهوا إلى الملك ودخلوا عليه، رآه عبد المطلب حالكاً مخضباً رأسه ولحيته بالسواد، وقد كان فارقه في الأمس وبرأسه ولحيته شعرات بيض (وقـد رُوي أنـه أول مـن خضـب بـالسـواد)، فقـال عبـد المطلـب: «أيهـا الملك، إني تركتك أبيض اللحية، فما هذا؟»؛ فقال الملك: «إني استعمل الخِضاب»؛ فقال أصحاب عبد المطلب: «إن رآنا الملك أهلاً لذلك الخضاب، فليفعل»؛ وكانوا بيض الرؤوس واللِحَى، فأمر لهم الملك الى الحمام والخضاب، فخضب القوم شعورهم. ولما رجعوا الى الملك، أمر لكلٍ منهم ببدرة[١٥] من الدراهم البيض، وجارية وغلام، وتخت وثياب، وحمَّل كلاً منهم على دابة وبغل، وأمر لعبد المطلب بعشرة عبيد وعشر إماء، وحُلَّتين من البرود، ومِئةٍ من الابل، وخمسة ارطال ذهباً وعشرة ارطال فضة، وبكرش مملوء عنبرا (وروي أكثر من ذلك وأضعافها)، ثم قال لعبد المطلب: «إذا حال الحَول فأتني»؛ فقام من بينهم أمية بن عبد شمس، وأنشأ يقول:

١٥ـ بَدْرَة: صُرَّة.

جلبنا الضَحَّ تَحملُهُ المطايا — على أَكْوار أجمال ونُوقِ[١٦]
مُغَلغلةً مَرافقها تعالى — إلى «صنعاء» مِن فج عميقِ[١٧]
تَؤُمُّ بنا ٱبنَ ذي يَزَنٍ وتُهدي — ذواتَ بطونها أمَّ الطَريقِ[١٨]
وتُرْجي مِن مخائله بروقاً — مُواصِلَةَ الوميضِ إلى بروقِ
فلما وافَقَتْ صنعاءَ صارت — بدار المُلْكِ والحَسَب العريقِ
إلى مَلِكٍ يدرّ لنا العطايا — بحُسْنِ بشاشَةِ الوجه الطليقِ

ثم دعا الملك بفرسه العُقاب[١٩]، وبغلته الشهباء[٢٠]، وناقته العضباء[٢١]، وأعطاها عبد المطلب هدية منه للنبي (صلعم) وقال: «يا أبا الحارث، اعلم أني ما طلبتُ على هذا الفرس شيئاً إلا وجدته، وما قصدني عدوٌ وأنا راكب على الناقة إلا وقد نجَّانيَ الله منه، وأما البغلة فإني كنت أقطع بها الدكادك[٢٢] والجبال لحسن سيرها، وما كنت أنزل من على ظهرها ليلي ونهاري؛ وكلُّ هذا اسلمها إليك أمانة في عنقك تحفظها إلى أن تسلمها إلى محمد إذا بلغ مبلغ الرجال، وأْمُرْهُ إن يحتفظ بها ويجعلها تذكرة لي، وبلغه عني التحية الكثيرة»؛ قال عبد المطلب: «السمع والطاعة لأمر الملك!»؛ ثم ودعه وخرج.

١٦ـ الضَحّ: لم نجد له معنى محدَّداً للفظه، ولعله بمعنى النِعَم والخيرات، وقد يكون منه «الاضحية» أي الغنم والانعام والحيوانات الاضاحي، التي تُذبح يوم عيد الأضحى ـ أكوار: قِطعان الإبل أو البقر.

١٧ـ مغلغلة: الارجح أنها من الغل: القيد، أي مقيَّدة ـ المَرافق: ما يُرْبَطُ من البعير من المَوصِل الذي بين الساعد والعضد ـ تعالى: أي تتعالى ـ الفج: الطريق بين جبلين.

١٨ـ ذوات بطونها: ما في بطونها.

١٩ـ العقاب: طائر من الجوارح معروف قوي المخالب، وجُعل نعتاً للفرس لأن الفرس يذكّر ويؤنث، وهو هنا مذكر بمعنى الحصان.

٢٠ـ الشهباء: مؤنث الأشهب، وهو من أسماء الفرس؛ كما أن اللون الأشهب يعني البياض يتخلله سواد.

٢١ـ العَضْباء: المشقوقة الاذن؛ وكذلك: المكسورة القرن.

٢٢ـ الدكادك (جمع الدَكْدَاك أو الدِكدِك): الأراضي الغليظة.

عودة عبد المطلب ورهطه إلى مكة

ثم ان عبد المطلب انصرف في اليوم التالي بأصحابه راجعين من صنعاء نحو مكة، إلى أن قَدموها؛ وسرى الخبر بسرعة بوصولهم، فوقعت الصيحة في البلد بقدومهم، وخرج الناس افواجا افواجاً يتلقونهم، وجعلوا يؤهّلون ويرحّبون. أما عبد المطلب بينهم خاصة فكان يقول ويردد: «يا معشر قريش، لا يَغبطَني أحدٌ منكم بجزيل عطاء المَلِك وإن كَثُر، فإنه إلى نفاد، ولكن لِيَغبطْني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذِكْرُهُ وفخرهُ وشرفه، وستَعْلَمُنَّ نبأ ما أقول ولو بعد حين!»؛ وكان يقصد من قوله ذاك ما حدَّثه به الملك سيف عن حفيده وحبيبه محمد، وهو كان يستشعر تلك الدلائل والبشائر ويؤمن بها، وقد ازداد بأخبار الملك شوقُه لحفيده اليتيم ولهفته على لقاه، وكان يفكر في هل يتاح للملك سيف أن يدرك أيام صعود نجم الفتى الموعود، أو هل يعيش إلى أوان ظهور رسالته، ولكن قَدَر الملك سيف كان أنه مات في سنته تلك نفسها، وقبل أن يحول عليه الحول.

ثم إن عبد المطلب الذي كان شوقه شديداً إلى حفيده محمد، والذي زادت أقوال الملكُ عنه وُلوعَه به، كان في تقدمه بين مستقبليه وسائليه والمرحبين به من عامةٍ وخاصة، يتفقد بعينيه وحواسه جميعها محمده الصغير، ويتنسم رائحته ويحاول أن يصطاد صوته، ولكن الحفيد العزيز كان حينئذٍ جالساً في الطريق على صخرة منفرداً بنفسه، ينتظر هو أيضاً قدوم جده الذي كان له جداً وأباً وكافلاً وحبيباً، وقد ألقى كمه على وجهه من حرارة الشمس، بينما كان أعمامه قد سبقوه في جملة الناس لملاقاة أبيهم عبد المطلب، فلما التقوه واستعرض وجوههم ولم ير محمداً معهم وبينهم، استوحش مضطرباً وصرخ بهم قائلاً: «أين حبيبي وسيدي محمد؟»؛ فأخبروه أنه في بعض الطريق جالس ينتظر قدوم جده، فأسرع عبد المطلب في السير حتى انتهى إليه، فلما رآه رمى بنفسه من على مركوبه، وهرع إليه فاحتضنه وضمه إلى صدره يقبّل خديه وما بين عينيه، ثم سلّمه الفرس والبغلة والناقة امانة الملك سيف، وبلّغَه عنه التحية الطيبة؛ ثم أمر عبدُ المطلب بحمل محمد على الفرس، فلما استوى

النبي (ص) على ظَهْره، صهل الفرس صهيلاً عالياً، وظَهَر عليه نشاط وفرح وسعادة غير عادية[٢٣].

ثم ان القوم ساروا نحو الحرم فرحين مستبشرين، وقد قبض أبو طالب بزمام فرس حفيده الحبيب، وحفَّ به أعمامه محافظين عليه من جوانبه، فقال لهم النبي (ص): «خلوا عني، فإن ربي يحفظني ويكلأُني!».

وقد ظل محمد (ص) كذلك، مكرَّماً ومعظَّماً، ومحافَظاً عليه، ومحاطاً بالرعاية الكاملة عند جده عبد المطلب طوال ما بقي من حياته معه.

وفاة عبد المطلب

حين بلغ عبد المطلب الثانية والثمانين من عمره، اعتلَّ يوماً، ثم ازداد مرضه حتى شعر بأعراض الوفاة، ثم ازدادت حاله سوءاً حتى أيقن بحلول أجله، فأمر عندئذٍ بحمل سريره إلى الكعبة، ثم ظهرت عليه علائم الموت، واحتفَّ به ابناؤه التسعة، وجلسوا حول فراشه يبكون، وسرى الخبر في مكة، فاجتمعت عنده بطون العرب وصناديد قريش ودموعهم منهملة على خدودهم، وأتى محمد ـ ص ـ فرمى بنفسه الشريفة عليه، فأخذه عبد المطلب وضمه إلى صدره وهما يبكيان، فقام «أبو لَهَب» (وكان يحسد النبي (ص) ويبغضه) وهمَّ بأن يُنحّيه عن صدر جده، فصاح به عبد المطلب وقال له: «مَهْ يا عبد العُزَّى، أنت لا تنفكُ عن عداوتك وبغضك لولدي محمد! أقعد مكانك وأَمْسِكْ عنه!»؛ فرجع مخذولاً.

وأقبل عبد المطلب على ابنه «أبي طالب» يوصيه بحراسة محمد (ص)، ويُشَدِّد عليه ببذل جهده في المحافظة عليه ورعايته، وقال: «يابني، أوصيك بعدي بقرة عيني محمد، وأنت تعلم محله مني ومقامه لديَّ، فأكْرِمْهُ أجلَّ الكرامة، وليكن عندك ليلَه ونهاره ما دمتَ في الدنيا»؛

٢٣ـ قيل إن هذا الفرس العقاب كان من نسل الحيوان الذي كان يُسَمَّى «الريح»، وقد خُلِقَ بأمره سبحانه من غير أب ولا أم، بل بوحي منه تعالى أن «كُنْ»، فكان.

ثم ازداد في البكاء والنحيب وهو يقول ويعيد: «الله الله في حبيبي محمد! يا أبا طالب، انظر أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أمه، وليكن من جسدك بمنزل كبدك، فإني قد تركت بَنِيَّ كلَّهم وخصصتُكَ بالوصية به، لأنك من أم أبيه! يا أبا طالب، لو كُنتَ أدركتَ أيامه، لكنتَ تعلم أني كنتُ مِن أبصر الناس وأنظرهم وأعلمهم به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بلسانك ويدك ومالك، فإنه والله سيسودكم ويملك ما لم يملكه أحد من بني آبائي؛ يا أبا طالب، ماأعلمُ أحداً من آبائك مات عنه أبوه وأمه على حال أبيه وأمه، فاحفظه لوحدته!».

ثم ازداد محمد (ص) بكاء، واشتد صريخه على صدر جده، إلى أن أنشأ عبد المطلب يقول مخاطباً ولده أبا طالب:

أُوصيكَ يا عبدَ مَنافٍ بَعدي ... بمُوحَدٍ بعَد أبيهِ فَرْدِ[٢٤]
فارَقَهُ وهو ضَجيعُ المَهدِ ... فكنتُ كالأم له في الوَجْدِ[٢٥]
وكنتُ أُولِيهِ الحَشَى والكِبْدِ ... حتى إذا خُفتُ فراق الوَحْدِ[٢٦]
أوصيكَ أَرْجَى أهلِنا بالرِفْدِ ... بأبنِ الذي غَيَّبْتُه في اللَحْدِ[٢٧]
بالكُرْهِ مني ثَمَّ لا بالعَقدِ ... وخيرة الله يشا في العَبْدِ[٢٨]

إلى أن قال له: «هل قبلت وصيتي يا أبا طالب؟»، قال: «نعم، قد

٢٤ـ مُوحَد: تُرِكَ وحيداً.

٢٥ـ الوَجْد: شدة الحب، والشوق.

٢٦ـ الكِبْد (بكسر الكاف وسكون الباء) والكَبد (بفتح الكاف وسكون الباء أو كسرها): العضو أو الجهاز المعروف في الحشى قرب الامعاء على الجانب الأيمن من البطن الذي يفرز الصفراء ـ الوَحْد (بفتح الواو وسكون الحاء) الوحيد.

٢٧ـ أَرْجى أهلنا: أي أكثر مَن نرجو ونأمل من أهلنا ـ الرِفد: العطاء والبرّ والخير... أي: يا مَن هو أكثرُ مَن نرجو ونأمل منه الخير بين أهلنا، أوصيك بالرفد بابن عبد الله الذي دفنتُه وغيبتُه في لحد القبر.

٢٨ـ بالكره مني غيبتُ ولدي، أي رغماً عني ـ ثَمَّ: أي هناك (في اللحد) ـ لا بالعقد، أي لا بالرضا والتوافق مني ـ والأفضل عند الله ما يشا، أي ما يشاؤه، في عبده... أي هذا هو الأفضل مادام الله سبحانه يشاؤه في عبده.

قبلت! ان نفسي ومالي دونه فداء، أُنازعُ مُعاديه، وانصر مُواليه، واللّهُ عليَّ بذلك شاهد، فلا يهمنك أمره»؛ قال: «فمُدَّ يدك»؛ فمدَّ أبو طالب يده إلى أبيه، وتناول عبد المطلب يد النبي (ص) ووضعها في يده كالوديعة وقال: «الآن خفَّ عليَّ الموت!»؛ ثم توجه إلى سائر أولاده يوصيهم بالنبي أيضاً ويقول لهم: «أكرِموا وجَلِّلوا محمداً، وكونوا عند إعزازه وإكرامه، فسترون منه امراً عظيماً، وسترون آخر أمره علياً»؛ قالوا: «السمع والطاعة يا أبانا، نفديه بأنفسنا وأموالنا، ونحن له فدية»؛ وقال أبو طالب: «قد أوصَيتَنا يا ابتاه بمن هو أفضل مني ومن اخواني!»؛ قال: «نعم».

ثم أغمض عينيه، وعاد ففتحهما ينظر إلى قريش وإلى سائر الناس ويوصيهم أيضاً بالنبي (ص) قائلاً: «يا قوم، أليس حقي واجباً عليكم؟»؛ فصرخ القوم والجموع كلهم يقولون: «بلى! حقُّكَ واجب على الكبير والصغير، فنِعم القائدُ كنتَ فينا ونِعم السائق، فجزاك الله تعالى عنا خيراً، وهوّن عليك سكرات الموت، وغفر لك ما سلف من ذنوبك!»؛ فقال عبد المطلب: «أوصيكم بولدي محمد بن عبد الله، فأحِلُّوه محل الكرامة، وبُرُّوه ولا تَجفُوهُ، ولا تستقبلوه بما يكره»؛ قالوا: «قد سمعنا واطعنا فيه!»؛ ثم سمَّى عليهم ولياً مقدماً من بعده «الوليد بن المغيرة»، فصرخ الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء.

ثم ضمَّ عبد المطلب النبيَّ (ص) إلى نفسه، ولم يزل يقبله ويقول: «أشهد أني لم أقبل أحداً من ولدي أطيب ريحاً منك ولا أحسن وجهاً، وتمنيت أن أبقى حتى أدرك زمانك!»؛ إلى أن تغير وجهه، وظهرت على وجنتيه آثار الموت، واخضرت اظافيره وهو يكثر التقلب من جنب إلى جنب، يقبض رِجْلا ويبسط أخرى، واشتد بكاء النبي (ص) والجموع عليه، وهمَّ النبي (ص) أن يقوم من عنده باكيا صارخاً، ففتح عبد المطلب عينيه وشعر بذلك، فمنعه عن مفارقته له وقال: «يا ولدي، وحقِ رب السماء إني لفي راحةٍ ما دمت عندي!».

فجلس النبي (ص)، ولكن لم يكن إلا قليل حتى قضى عبد المطلب نحبه، فضجت مكة بأهلها وقامت قيامتهم، ثم أخذوا في تجهيزه،

وحملوه إلى الصفا، ولم يبق منهم يومئذ شيخ ولا شاب ولا رجل ولا امرأة إلا حضر جنازته، إلى أن دفنوه في مقابر قريش، ورثاه الراثون وبناتُه الخمس «عاتكة» و«صفية» و«بَرَّة» و«أرْوَى» و«آمنة».

وقد روي عن النبي (ص) أن عبد المطلب أول من قال بالبداء[٢٩]، وأنه يحشر يوم القيامة وعليه سيما الأنبياء وهيبة الملوك، ويُبعَث امةً وحده كما قال الله تعالى في حق خليله (ع): ﴿ان إبراهيم كان أمة قانتاً﴾[٣٠] الخ، وأنه مات على ملة إبراهيم (ع) وشريعة عيسى (ع)، وكان من بين قومه متفرداً بدين الحق.

٢٩ـ البداء: مصطلح أو تعبير في علم الكلام، يراد منه أن المقدرات الإلٰهية تتبدل أو تتعدل بسبب أحوال جديدة تولّدت أو تبعاً لاعمال من العبد «بدا» لله تعالى بعدها أو بسببها تبديل ما كان مُقدَّراً منه جل جلاله، مكافأة للعبد أو عقاباً له. ومعتقد البداء هذا هو من الموضوعات التي سببت جدلاً كبيراً بين فرق المسلمين خلال قرون طويلة.

٣٠ـ القرآن الكريم، الجزء ١٤، السورة ١٦ النحل، الآية ١٢٠.

محمد (ص) في كفالة عمه أبي طالب (ع)

قام أبو طالب (ع) بعد وفاة أبيه عبد المطلب، بكفالة الحفيد اليتيم محمد (ص) ـ ابن أخيه عبد الله ـ ورعايته ونصرته على أفضل وجه، وضمّه إلى نفسه حتى أنه لم يكن يفارقه ليله ولا نهاره، ولا يأتمن عليه احداً، بل انه كان ينوّمه معه في فراشه.

محمد (ص) يسافر مع عمه إلى الشام

وحدث أن أبا طالب عَرَضَ له سفر إلى الشام في تجارة له، فقرر أخذ محمد (ص) معه، رغم أن الموسم كان موسم شدة الحَر، فأقبل عليه قومه يمنعونه عن حمل محمد (ص) معه ولو بسبب الحر، ولكنه لم يعبأ بكلامهم وأخرجه معه.

وقد كانت سفرةُ محمد (ص) هذه في قافلة عمه قصةً غريبة ممتعة، فقد ظهر فيها من الكرامات والفضائل للفتى اليتيم الشيء الكثير.

فمنها أنه كان كلما اشتد الحر في الطريق، ارتفعت سحابة بيضاء فوق رأسه تُظَلِّلُه[1]، وكانت تسير بِسَيْرِهِ وتقف بوقوفه[2].

ومنها أنه ضاق الماء بالقافلة أياماً في الطريق ـ كما حدَّث أبو طالب نفسُه وذكره لقومه بعد رجوعه من السفر إلى مكة ـ حتى أنهم لم يكونوا يصيبون القِربَةَ[3] من الماء إلا بدينارين، فدعا الفتى محمدٌ (ص) فكثرت المياه في المنازل التي كانوا ينزلونها، وفي الحياض حتى امتلأت، واخضرت الأرض ببركته، فساروا في طيب من الخير.

١ـ تُظَلِّلهُ: تجعل فوق رأسه ظِلاً (يقيه حرارة الشمس).

٢ـ بل وتذهب روايات إلى سقوط الفواكه عليه اثناء الطريق.

٣ـ القِربة وعاء يوضع فيه الماء (أو اللبَن).

ومنها أن جمال قوم منهم توقفت في الطريق ولم تتحرك، لا بالصوت لها، ولا باغراء الطعام أو الماء، ولا بالضرب والتخويف، فمشى محمد (ص) إلى ناحية أولئك القوم، ومسح بيده على الجِمال، فانطلقت حالاً وجعلت تسير أحسن سير حتى نهاية الرحلة، وحتى وصلوا إلى مشارف أول بلدة بأرض الشام، وتُدعَى «بُصْرَى»[٤].

محمد (ص) بمدخل «بُصرَى» الشام
وملاقاة الراهب «بَحيرا»

حين قَرُبَت قافلة أبي طالب ورهطه من «بُصْرَى»، ظهرت لهم صومعةٌ لراهبٍ، ما لبث حين وصلوا إليها[٥] أن خرج منها يستقبلهم، فجعل ينظر إليهم متأملاً متعجباً، وهم ينظرون إليه متعجبين أيضاً من اندهاشه ومن نظراته، ذلك ان السحابة المُظَلِّلَة لمحمد (ص) استوقفته وجَمَّدَت نظره عليه، فجعل يتأمل ويطيل النظر، وقال أخيراً يخاطب محمداً (ص) بهمسٍ وكأنه يخاطب نفسه: «إن كان أحدٌ، فأنت أنت».

فلما حط القوم في باحةٍ أمام الصومعة، وأسند محمد (ص) ظهره إلى شجرة عظيمة كانت هناك[٦]، بادر الراهب إلى تعريفهم بنفسه وكان اسمه «بَحِيرا»، وإلى التعرف عليهم بعد أن رأى من الفتى محمد (ص) من علائم تنطبق على ما في الكتب القديمة من علائم لموعودٍ منتظَر. وقد

٤ـ بُصْرَى (بضم الباء وتسكين الصاد وفتح الراء بعدها ألف)، وفي عهود متأخرة (العهد العثماني) باسم «بُصرى أسكي شام»: بلدة بجنوبي بلاد الشام، قرب الحدود السورية الاردنية اليوم، على بعد أربعين كيلومتراً إلى الشرق من مدينة «دِرْعا» على الحدود الجنوبية.

٥ـ في روايةٍ أن الصومعة نفسها حين قربوا منها، تحركت نحوهم وأقبلت تخدّ الأرض مسرعة حتى توقفت واستقرت أمامهم، وخرج منها الراهب متعجباً مندهشاً من تحرّكها.

٦ـ في الرواية السابقة نفسها أن الشجرة التي اسند النبي (ص) إليها ظهره، لم يكن لها حمل وكانت قليلة الاغصان، فلما استند (ص) إليها اهتزت لساعتها وتفرعت أغصانها، ثم حملت وألقت أنواعاً ـ قيل كانت ثلاثة ـ من فواكه الصيف والشتاء، فكانت مثار عجب القوم ودهشتهم.

وصف أبو طالب بعد عودته من الرحلة ما حدث ساعتئذٍ مع بحيرا، فقال: بادر الراهب ـ بعد السلام والتعرف ـ إلى صومعته، وما لبث أن عاد بطعام قليل قدر ما يكفي رجلاً واحداً، ثم توقف وسأل: مَن يتولى أمر هذا الغلام؟؛ فقلتُ أنا؛ قال: فما تكونُ أنت منه؟؛ قلت: أنا عمُّه؛ قال: يا هذا، إن له أعماماً كثيرين، فأيُّهم أنت؟»؛ قلت: أنا شقيق أبيه، فأنا وأبوه من أم واحدة؛ فقال مخاطباً نفسه: أشهد أنه هو، وإلا فلستُ بحيرا!!. ثم قال لي: يا هذا، أتأذن لي أن أقرِّب له هذا الطعام ليأكله؟؛ قلت: نعم؛ وقلت لمحمد: يا بني، رجل أحبَّ أن يكرمك بهذا الطعام!؛ فقال محمد (صلعم) للراهب: أهو لي دون أصحابي؟؛ قال: نعم، هو لك خاصة!؛ فقال محمد (ص): فإني لا آكل دون هؤلاء!؛ فقال بحيرا: لم يكن عندي أكثر من هذا؛ فقال محمد (صلعم): أفتأذن يا بحيرا أن يأكلوا معي؟؛ قال: نعم.

فطلب محمد (ص) من كل الذين كانوا معنا أن يأكلوا معه، وكانوا مئة وسبعين رجلاً، فوالله لقد أكل كلٌ منهم حتى شبع وتجشَّأ، وكان بحيرا قائماً على رأس محمد مدهوشاً وهو يقول: هو هو ورب المسيح!!؛ والناسُ لا يفقهون. ثم انكبَّ عليه يقبل رأسه ويافوخه[7] ويكرر ذلك، فقال له أحد القوم: إن لكَ لشأناً، وقد كنا نمرُّ بك قبل اليوم، فلا تفعل هذا البِرَّ بنا!؛ قال بحيرا: والله إن لي لشأناً وشأناً، وإني لأرى ما لا ترون، وأعلم ما لا تعلمون! وإن تحت هذه الشجرة لغلاماً لو كنتم تعلمون منه ما أعلم، لحملتُمُوه على أعناقكم! والله ما أكرمتكم إلا لأجله! ولقد رأيتُ عند قدومه نوراً من أمامه بين السماء والأرض، ورأيت رجالاً بأيديهم مراوح من الياقوت والزبرجد يروّحونه، وآخرين ينثرون عليه أنواع الفواكه، ثم هذه السحابة فوق رأسه لا تفارقه[8]... ثم هذه الحياض قد ظهر فيها الماء

٧ـ اليافوخ: أعلى جمجمة الرأس.

٨ـ ورد هنا، في نص الرواية التي أسلفنا الاشارة إليها (في الحاشيتين ٥ و٦) أثناء تعداده للآيات التي ظهرت، إشارة أيضاً من بحيرا إلى انتقال الصومعة، وإلى حمل الشجرة اليابسة أنواعاً من الفواكه.

بعد أن كان غائراً فيها منذ أيام تَمَرُّج[٩] بني إسرائيل عند ورودهم اياها بعد الحواريين، وقد وجدنا في كتاب شمعون الصفا أنه دعا عليهم، فغارت الحياض وجفَّ ماؤها، ثم قال: متى رأيتم قد ظهر الماء في هذه الحياض، فاعلموا أنه لاجل نبي يخرج من أرض تهامة، مَهْجَرُه إلى يثرب، اسمه في قومه الأمين، وفي السماء أحمد، وهو من عترة إسماعيل بن إبراهيم لصلبه؛ . . . فوالله إنه لَهُو!.

ثم توجه بحيرا إلى محمد (ص) وقال: يا غلام، اسألك عن ثلاث خصال، فبحق اللاَّتِ والعُزَّى الا ما أخبرتني عنها؛ فغضب محمد لذكر اللات والعزى، وقال له: «لا تسألني بهما، فوالله ما ابغضتُ شيئاً كبغضي لهما! إنهما صنمان من حجارة لقومي»؛ قال بحيرا: «هذه واحدة!»؛ ثم قال له: «فبالله الا ما أخبرتني»؛ قال: سَلْ ما بدا لك، فإنك قد سألتني بإلٰهي وإلٰهك الذي ليس كمثله شيء!.

فجعل بحيرا يسأله عن نومه ويقظته وبعض شؤونه، ومحمد (ص) يخبره عنها بما وافق ما كان في كتبه، حتى انكب بحيرا على محمد (ص) يقبل يديه ورجليه مرة بعد أخرى، ويقول له: «يا بُنَيَّ ما أطيب ريحك! يا أكثر النبيين أتباعاً، يا مَن بهاءُ الدنيا ونورها مِن نوره، يا مَن بذكره تعمر المساجد، كأنني بك قد قدَّمت الاجناد والخيل الجياد، وتَبِعكَ العرب والعجم طَوْعا وكَرْهاً، وكأني بك قد كسرتَ اللات والعزى، وصار البيت لا يملكه غيرُك، تضع مفاتحه حيث تريد! كم من بطل تصرعه من قريش والعرب، ومعك مفاتح الجنان والنيران، ومعك الربح الأكبر! أنت الذي لا تقوم الساعة حتى تدخل الملوك كلها في دينك صاغرة ذليلة، لئن أدركتُ زمانك لأضرِبَنَّ بالسيف بين يديك ضرب الزند بالزند! أنت سيد وُلْد آدم، وأنت سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين! واللّهِ لقد ضحكت الأرض يوم ولادتك فهي ضاحكة إلى يوم القيامة فرحاً بك، واللّهِ لقد بكت البِيَع والاصنام والشياطين يومئذ فهي باكية إلى يوم القيامة!

٩ـ تَمَرُّجهم: اطلاق مواشيهم ودوابهم في المروج لترْعَى.

أنت دعوة إبراهيم وبشارة عيسى، المقدَّس المُطهَّر من أنجاس الجاهلية!!».

وتابع ابو طالب قائلاً: «ثم التفت الراهب إليَّ وسألني ثانية عن نسبة محمد (ص) إليَّ، فقلت له: إنه ابني؛ قال بحيرا: ما هو ابنك، وما ينبغي له أن يكون والده الذي ولده حياً، ولا أمه؛ فقلت: إنه ابن أخي، قد مات أبوه وهو في رحم أمه، وماتت أمه وهو رضيع، فأنا حاضنٌ له بمثابة ابني؛ قال: صدقت، هكذا هو، ولكني أرى لك أن ترده إلى بلده عن هذا الوجه[١٠]، فإن اليهود وأصحاب الكتاب قد علموا بولادة هذا الغلام، ولئن رأوه وعرفوا منه ما قد عرفت أنا منه، لَيَبْغِيُنَّهُ شراً، وأكثرهم في ذلك اليهود؛ فسألتُ بحيرا: ولمَ ذلك؟؛ قال الراهب: «لأنه كائن لابن أخيك الرسالة والنبوة، ويأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى»، فقلت له: «كلا لا كان كيدهم ان شاء الله، وان الله تعالى لم يكن ليضيّعه!!».

قال أبو طالب: «ثم لما هَمَمْنا بالارتحال من الصومعة، اتى الراهب إلى محمد (ص) ليودّعه، فجعل يبكي بكاءً شديداً ويقول: «يا ابن آمنة، كأني بك قد رمتك العرب بِوَتْرِها[١١] وقطعك الاقارب، ولو أنهم عرفوك لكنتَ عندهم أعز من الأولاد!»؛ ثم توجه إليَّ وقال: «أما أنتَ يا عم فأرْعَ فيه قرابتك الموصولة، واحفظ فيه وصية أبيك، فإن قريشاً ستهجرك فيه فلا تبالِ بذلك؛ وأُعْلِمُكَ انه سيؤمن به ولدٌ تلده أنت، وسينصره نصراً عزيزاً، اسمه في السماوات البطل الهاصر، والشجاع الانزع، ومنه الفرخان المستشهدان، وهو سيد العرب ورئيسها وذو قَرْنَيها[١٢]، وهو في الكتب أعرف من أصحاب عيسى (ع)!».

١٠ـ ترده عن هذا الوجه، أي ترجعه من هذا المكان.

١١ـ الوتْر (بفتح الواو وكسرها): الثأر، أو الظلم، أو الكيد. رمتك بوترها: وجَّهَت إليك سهامها وغضبها وحقدها.

١٢ـ يبدو أن عبارة «ذي القرنين» كانت اللقب والعنوان للمالك الأقوى ولصاحب السلطة الأشمل والأنفذ، تشبيهاً بملك قديم سابق حمل هذا اللقب، جاء ذكره في القرآن الكريم (في سورة الكهف) والشائع غالباً في التواريخ العربية والإسلامية أنه الاسكندر المقدوني، ولكن نظرية حديثة تذهب إلى أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو ملك فارس القديم «كورش» وقد أورد وزير المعارف الهندي الأسبق أبو الكلام آزاد عدة دلائل تثبت ذلك وترجحه. =

ثـم ارتحـل أبـو طـالـب بمـن معـه، وكـان رجـال مـن اليهـود رأوا محمداً (صلعم) وعرفوه بصفاته، فأرادوا أن يغتالوه، وانطلقوا إلى بحيرا يشاورونه في ذلك، فنهاهم أشد النهي وقال لهم: «أتجدون صفته في التوراة؟»؛ قالوا: «نعم»؛ قال: «فما لكم إليه من سبيل!»؛ فصدقوه في ذلك وعدلوا عما همّوا به وانصرفوا».

في «بُصرَى».. ومع رهبانها

انطلق أبو طالب بمحمد (ص) في مَن معه من العير نحو قرية بصرى، وكان في العير خالد بن أَسْيَد وطليق بن أبي سفيان بن أمية. وقد حدَّث هذان عن دخولهما بصرى وما لقيا فيها، فقالا ما مضمونُه:

«لما توسطنا سوق بُصرى، تلقانا قوم من الرهبان أتوا إلينا مبادرين مسارعين وقد تغيرت ألوانهم كأن على وجوههم الزعفران، ورأينا فيهم علائم الفزع الشديد ومظاهر الخوف، ثم تقدموا إلينا يطلبون إلينا الذهاب معهم إلى كبيرهم في الكنيسة العظمى، وأن يضيّفونا عنده، فقلنا لهم: ما لنا ولكم؟؛ قالوا: هذا شيء لا يضركم، ولعلنا نكرمكم؛ وكان القوم يظنون أن أحدنا محمد (ص)، فذهبنا معهم دون محمد (ص)، إذ بقي بمن معه في السوق.

فلما دخلنا الكنيسة ـ وكانت عظيمة البنيان ـ رأينا كبير الرهبان قد توسطهم وحفَّ به تلامذته، وقد نشر أمامه كتاباً كان بيده، فلما رآنا جعل ينظر إلينا مرة وفي الكتاب مرة، ثم توجه إلى أصحابه قائلاً لهم: ما صنعتم شيئاً، ولم تأتوني بالذي أريد، وهو الآن في بُصرى؛ ثم قال لنا: مَن أنتم؟؛ قلنا: رهط من قريش؛ قال: من أي قريش؟؛ قلنا: من بني عبد شمس؛ قال: هل معكم غيركم؟؛ قلنا: نعم، شاب من بني هاشم نسميه يتيم عبد المطلب؛ فوالله ما ان سمع الراهب الكبير منا ذلك حتى نخر[١٣] نخرة كاد أن يغشى عليه بها، ثم وثب وقال: أَوَّه أَوَّه. . .؛ وجعل يردد عبارات التعجب والتخوف، ثم قَام واتكأ على صليب له متفكراً

١٣ـ نَخَر (الانسان أو الدابة): أصدر صوتاً مع نفس مديد في خياشيمه.

ـ وكان حوله نحو ثمانين من البطارقة والتلامذة ـ وقال لنا: أفيمكنكم أن تُروني إياه؟؛ قلنا: نعم؛ فمضى معنا حتى دخلنا السوق، وإذا بمحمد قائم ووجهه يتلألأ نوراً كأنه البدر، فوالله لكأنا لم نَرَ وجهه إلا يومئذٍ، وفاجأنا أنه ببقائه في السوق قد اشترى الكثير وربح الكثير.

فلما هممنا أن نعرّف القسَّ به، رأينا القس يهرع إليه، فقد عرفه حالما رآه، وسبق تعريفنا له، فلما وقف أمامه جعل ينظر إليه ويقول: هوهو، قد عرفته والمسيح!؛ ثم دنا منه يقبّل رأسه ويقول له: أنت المقدس. ثم سأله عن أشياء من علائمه، ومحمد (ص) يجيبه، إلى أن قال له القس: لئن ادركتُ زمانَك لأُعطِيَنَّ السيف حقه!. ثم توجه إلينا وقال: أتعلمون ما مع هذا الغلام؟ معه الحياة والموت! مَن تعلق به حييَ طويلاً، ومن زاغ عنه مات موتاً لا يحيا بعده ابداً! هو الذي معه الربح الأعظم!؛ ثم عاد القس إلى تقبيل خد محمد قبل أن ينصرف راجعا...».

محمد (ص) في الشام

اتجهت القافلة بعد بصرى إلى الشام، وقد قال أبو طالب في وصفه للرحلة بعدئذٍ واصفاً تلك الساعات: «حين قربنا من الشام، رأيتُ والله قصورها تهتز، وعلا منها نور أبيض أضوأ من نور الشمس ادهش الناس؛ وشاع الخبر بذلك، فتجمع الناس من كل جانب وازدحموا أفواجاً ينظرون إلى وجه محمد ونورانيته، وكان فيهم كثير من الاحبار والرهبان، حتى كاد يصعب علينا أن نجوز السوق لكثرة الزحام.

وأخيراً نزلنا جانباً من السوق، فجاء حَبر عظيم اسمه «نسطور»، وجلس تجاه محمد (ص) وجعل ينظر إليه طويلاً دون أن يكلمه بشيء، ثم انصرف راجعاً. وفي اليوم التالي جاء هو نفسه وفعل كما فعل في اليوم الأول، وانصرف أيضاً دون أن يكلم محمداً (ص) أو سواه، ثم عاد كذلك في اليوم الثالث، وجلس تجاهه يطيل النظر إليه، ثم قام على قدميه وجعل يدور خلف محمد (ص) كأنه يلتمس منه شيئاً، فقلت له: ما بك أيها الراهب؟ لكأنك تريد منه شيئاً!؛ قال: أجل!. ثم سأل بعد قليل: ما اسمه؟؛ قلت: محمد بن عبد الله؛ فتغير والله لونه ثم قال: أَفَتَرى أن

يكشف لي عن ظهره لأنظر إليه؟؛ فكشفت له عن ظهر محمد (ص)، وما إن رأى نسطور الراهب الختم بين كتفيه حتى أكبَّ عليه يقبله ويبكي، ثم رفع رأسه إليَّ وقال لي: يا هذا، أسرع بردِّ هذا الغلام إلى موضعه الذي وُلِد فيه، فإنك لو تدري كم عدوٍ له في أرضنا، ولو كنتَ تعلم ذلك ما كنتَ بالذي تُقْدِمُهُ معك!».

ثم انصرف نسطور راجعاً، وظل يرجع إلى محمد (ص) ويتعهده كل يوم من أيام اقامتنا هناك ويحمل له الطعام، إلى أن هممنا بالانصراف، فأتاه نسطور بقميص وسأله أن يلبسه ويذكره به، فاعتذر محمد (ص) عن قبوله متعففاً، فلما رأيت منه ذلك التمنع عن القبول، خفتُ أن يغتم الراهب، فتقدمتُ أنا وتناولت منه القميص، وتكفلتُ له بقبول محمد (ص) إياه».

العودة من الشام.. ورعاية أبي طالب وزوجِهِ لمحمد (ص)

بعد انتهاء أعمال القافلة التجارية، عجَّل أبو طالب بإرجاع محمد (ص) إلى مكة، ولعل ما سمعه من أقوال وتحذيرات ونصائح وانذارات من الرهبان وسواهم، وما شهده من كرامات الفتى وردود الفعل على أعماله وأقواله وتصرفاته، هو ما جعلهُ يعجّل برد محمد (ص) إلى أرضه ودياره. ولما قربت القافلة من مكة ـ وكانت الأخبار قد نقلت للناس بعض ما صدر عن محمد (ص) وما لقِيَهُ ـ خرج الناس بعد شيوع الخبر جموعاً من رجال ونساء، وصغار وكبار، يرحبون بالقافلة وسلامة وصولها، ويتلقون محمداً (ص) شوقاً إليه وترحيباً به، إلا أبا جهل، فهو إضافةً إلى بغضه للنبي وحسده له من بدء أمره، كان ساعة وصول القافلة ثملاً من سُكْر الخمرة. قال أبو طالب مع وصفه لذلك اليوم وما لقي ابن أخيه محمد (ص) من اكرام الناس وتقديرهم: «لقد رأيت في محمد (ص) كل ما وصفه بحيرا الراهب من حسد الناس له، بل وأكثر مما وصف!!».

بقي محمد (صلعم) بعدئذٍ في كفالة عمه أبي طالب حتى بلغ مبلغ الرجال، وكان حب العم للفتى ابن أخيه وولوعه به ومحافظته عليه وضمه

إلى نفسه وحذره عليه من سائر الناس، تزداد يوماً بعد يوم، حتى انه لم يكن يفارقه ليله ولا نهاره، بل كان يمتنع عن تناول شيء من الطعام ولا يُغَدّي أحداً من أولاده حتى يحضر محمد (ص)، فيأكل عندئذٍ، بل وكان ينوّمه في فراشه، ويرعاه بأرفع صنوف الرعاية والحنان.

أخلاق الفتى محمد (ص) وحالاته في صباه من خلال وصف أبي طالب وزوجته له.

حدَّثَ مرةً أبو طالب يصف فتاه العزيز في تلك الأيام فقال: «أمرتُهُ ذات ليلة أن يخلعَ ثيابه قبل أن ينام بجواري، فرأيت في وجهه الكراهة لذلك. ثم قال: يا عماه! اصرف وجهك عني حتى اخلع ثيابي؛ فسألته عن سبب ذلك، فقال: لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي؛ فعجبت من كلامه، وصرفت وجهي عنه حتى دخل الفراش».

ويتابع أبو طالب وهو يصف أحواله أثناء نومه بجواره في فراشه: «كنت إذا دخلتُ الفراش أرى بيني وبينه ثوباً ما كنتُ ادخلتُه في فراشي، وكنت أَمسُّهُ فإذا هو ألينُ ثوب، وأشمُّهُ فأراه كأنه غُمِسَ في مسك، فإذا أصبحتُ لا أرى له أثراً، وكثيراً ما كنت افتقده في الفراش في جوف الليل، فلا أجده في الفراش، فأقوم في طلبه فإذ هو يَظهر ويبادر عائداً إلى الفراش قائلاً: ها أناذا يا عم!!. وكثيراً ما كنت اسمع منه في ظلام الليل ما يعجبني ويسرني من كلام عذب وشيق.

وكان يأتي «زَمْزَم» ويشرب منها، وربما عَرَضْتُ عليه الطعامَ فلا يَقبلُ ويُظهِرُ الشبع، مع أنني لا أكون رأيتُ منه تناولَ طعام. ونحن ـ قبله ـ لم نكن نُسمّي على طعام ولا شراب حتى سمعناه يقول عند الابتداء في الطعام والشراب: «بسم الله الأحد»؛ وعند الفراغ منهما: «الحمد لله كثيرا»؛ كل ذلك على صغر سنه.

ولم أر منه كذبةً ولا جاهليةً قط، ولا رأيته يضحك ضحكاً في غير موقعه، ولا كان يقف مع الصبيان في لهو ولا لعب، ولا كان يلتفت إليهم. كان يحب التواضع، وكان يحب الوحدة والخلوة بنفسه، وربما أَتيته على غفل، فرأيت نوراً ممدوداً من لدن رأسه إلى عنان السماء.

أما بشأن لَعبِهِ في عُمر الفتيان والصبيان، الذين في سنه، فإنه كان يجمع أحياناً الصبيان، من بني مخزوم وبني عبد المطلب وسائر صبيان بني هاشم، فيجعل نفسه أميراً عليهم، وهم يذعنون ويخضعون له بذلك، وفيهم من هو أكبر منه سناً، ثم يعلّمهم الحرب وكيفيتها، وعندما ينتهي لعبهم، كان يأتي إلى «فاطمة بنت أسد» ـ وكانت هي المتكفلة بخدمته ـ فيناديها: يا أماه، أعطيني «ديوان العسكر»[١٤]؛ وكانت هي تجمع كل يوم الرُطَب والتمر الذي يسقط من نخلة كانت في دارها، وتجعله في اناء يُسمى «الدوخلة»[١٥] يُشبه السلة والزنبيل، ويُعمَل من خُوصٍ[١٦]، فإذا كان عند ارتفاع النهار وقتُ الضحى، يأتيها النبي (ص) ويأخذ الدوخلة، ويقسم ما فيها على عسكره من الصبيان.

قالت فاطمة في ما بعد تصف تلك الآونة وتعرض ذكرياتها عن طفولة النبي (ص) ولعبه: «كان في صحن دارنا نخلة يابسة قد مضت عليها مدة طويلة، فأتى إليها محمد(ص) ذات يوم ومَسَّها، فاْخضرت وأَوْرَقَت وأرطبت من وقتها وساعتها، فجعلتُ بعدئذٍ اجمع ما يسقط من ثمرها كل يوم وأضعه في الدوخلة، ثم اعطيها محمداً (ص)، فيأخذها على عادته ويفرقها على عسكره. وحدث أن مرَّ علينا يوم لم يسقط فيه من النخل شيء قط، فلما كان الضحى وأتاني محمد (ص) على دأبه يطالبني بديوان عسكره، كدت أذوب حياء منه وقلت: يا ولدي، اعلم أن النخلة ما أعطتنا اليوم شيئاً؛ فوحق نور وجهه لم يتم كلامي حتى رأيته قد تقدم نحو النخلة وكلمها بكلمات، وإذا بالنخلة قد انحنت ونكّست رأسها وقدمت ما عليها من الرطب، فتناول منها ما أراد، ثم رفعت رأسها وعادت إلى ما كانت عليه، واْزددت بذلك حيرة ودهشة وحباً له. في ذلك اليوم كان ان رَفعتُ

١٤ـ ديوان: سجل الحسابات ـ ديوان العسكرِ: رواتب الجند، أي كان لعبهم وكأنه هو الأمير عليهم أو القائد، وهم الجنود الذين يدفع لَهم رواتبهم.

١٥ـ الدُوخلة: لم نجد لها ذكراً في المراجع التي بين يدينا، ولعلها في الأصل «الدِخلة» وحُرِفَت في اللفظ. والدخلة ما له جوف وداخل، وقد ذكر في المتن انها تشبه السَلة أو الزنبيل.

١٦ـ الخُوص: ورق النخل، واحدة خُوصة.

رأسي نحو السماء، ودعوت ربي أن يرزقني ولدا يكون أخاً له، ولم أزل بعدئذٍ أؤمل ذلك، إلى أن حملتُ بعليٍّ[١٧]، فلما رُزقتُهُ ووضعتُه، رأيت منه من الآيات ما كنت أراه من محمد (ص)، وعلمت أن الله تعالى قد أجاب دعوتي، وقد كان كمحمد، لم يزل يكره الأصنام منذ صغره وأيام رضاعه، لم يقربها ولم يسجد قطُّ لشيء منها».

كانت فاطمة بنت أسد تحب محمداً (ص) كحب بعلها أبي طالب له، حباً شديداً، وكانت تؤثره ـ كما كان يؤثره ـ على أولادهما طالب وعقيل وجعفر. وقد حدث أن دخل أبو طالب ذات يوم على زوجته يوصيها بعزيزه محمد (ص) ويشدد عليها في المحافظة عليه، وقال لها في جملة كلامه لها: «اعلمي أن ابن أخي هذا هو أعز عندي من نفسي ومالي، واياك أن يتعرض له أحد في ما يريد»؛ فتبسمت فاطمة (ع) من كلامه وقالت له مستهجنة مستنكرة: «توصيني بولدي محمد الذي هو أحبُّ إليَّ مِن نفسي وأولادي؟»؛ ففرح أبو طالب (ع) من كلامها، وتوجه إلى النبي (ص) وانشأ فيه معجَباً بحسن طلعته ونور جبهته وحُسنه وجَماله يقول:

نُـورُ وَجْهِـكَ الـذي فـاقَ حُسْـ ـنُهُ على نورِ شمسِنا والهِلالِ[١٨]
أَنْـتَ واللّـه يـا مُنـايَ وسُؤْلـي الـذي فـاقَ نـورُهُ المتعـالـي[١٩]
أنت نُور الأَنامِ من هاشِمِ الغُرِّ فُقْتَ كل العُلَى وكلَّ الكمالِ[٢٠]
وعُلُـوُّ الفخـارَ والمجـد أيضـا ولقـد رَقِيـتَ أعْلَـى المَعـالـي

وينسب إلى أبي طالب (ع) أشعار عدة قيل إنه نظمها حباً بمحمد (ص) وافتخاراً به، منها قصيدة دالية معروفة، يقول في جملتها:

إنَّ ابْـنَ آمنـةَ النبـيَّ محمـداً عنـدي بمثـلِ مَنـازلِ الأولادِ

١٧ـ أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع).
١٨ـ فاق عليه: فاقه؟
١٩ـ سؤلي: الشيء الذي أسألُهُ وأَطلبُه وأتمناه.
٢٠ـ الغُرّ (جمع أَغَرّ): أصحاب الرفعة والعزة.

راعَيتُ فيه قرابةً مَوْصولةً   وحفِظتُ فيه وصيةَ الأجدادِ
وأمرتُهُ بالسيرِ بينَ عُمومةٍ   بِيضِ الوُجوهِ مَصالتٍ أنجادِ[٢١]

وقد كثرت الاخبار النقولة عن النبي (ص) وعن آله الاطهار (ع)، أن أبا طالب كان مؤمنا بالله ورسوله (ص)، وأنه كان كأبيه متكتما بايمانه متفرداً بدين الحق مِن بين قومه، وأن مَثَلَهُ كَمَثَلِ مؤمنِ آلِ فرعون الذي ذكره الله سبحانه في كتابه واثنى عليه بقوله عز وجل: ﴿**وقال رجل مؤمن مِن آلِ فِرعونَ يَكتُمُ إيمانَه**﴾[٢٢] الخ، وأنه لم يمت إلا بعد الإقرار بنبوة محمد (ص) والايمان به، وقد تكفل النبي (ص) بالشفاعة له ولزوجته، وانه لم يُسْلِمْ من أعمام النبي (ص) إلا أبو طالب وحمزة والعباس (وهو آخر من مات منهم) وأسلَم مَن عماته أَرْوَى وعاتِكَةُ وصَفِيَّة (وهي آخر من مات منهن).

وقد ظل محمد (ص) في قومه وبين أهل بيته وأعمامه وأقاربه معززاً مكرماً، حتى في السنوات القاسية التي حاربته فيها قريش بعدئذ وباقي العرب حين أعلن دعوته، واستمر أبو طالب (رض) في حمايته والبر به حتى السنة العاشرة من بعثته (صلعم)، أي حتى سنة وفاة أبي طالب (ع)، وقد كان النبي (ص) حينها في حوالي الخمسين من عمره، وسمي ذلك العام «عامَ الحزن»، لأنه خسر فيه إلى جانب عمه أبي طالب، زوجَه الأولى الجليلة «خديجة» (ع) بعد ثلاثة أيام فقط (على الأصح الأرجح) من وفاة عمه، وكانا ـ رضوان الله عليهما ـ الركنين لدعوته وانتشار دينه وشريعته (صلعم).

٢١ـ بيض الوجوه: يُفتخر بهم ـ مَصالِت (جمع مِصْلَت): الشجعان أصحاب العزم الماضون في حوائجهم أنجاد (جمع نَجدِ): شجعان مقدمون على ما يعجز عنه الغير.

٢٢ـ الجزء ٢٤، السورة ٤٠ غافر: الآية ٢٨.

سفر محمد (ص) إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد (ع) بعد سماعها لاخباره وميلها إليه (ص)

أن قصة حب خديجة (ع) للرسول (ص) التي أنتهت بزواج الرسول بها، هي من الجوانب البارزة في السيرة الشريفة، وتُعَدُّ من قصص العاطفة القوية، العفيفة والماتعة:

خديجة (ع) . . قبل زواج النبي (ص) بها.

كانت خديجة (ع) أعظمَ قُريشٍ شرفاً، وأعلاهم نسباً، وأكثرهم أموالاً، فقد كان لها من الأموال والمواشي شيء كثير يكَاد لا يحصى، حتى قيل إنه كان لها عدة ألوف من الجِمال متفرقة في نواحي مصر والحبشة والشام وغيرها للتجارة عليها، وكان أكثر أهل الحجاز ينتفعون بتجارتها وجِمالها، مضافةً إلى ما كان لها من العبيد والمماليك. وبالجملة لم يكن يومئذ بمكةَ من يضاهيها في العز والغنى، حتى لكأنها ملكة عظيمة.

وكانت خديجة (ع) قد تزوجت قبل رسول الله (ص) بزوجين، خلَّصت نفسها من كلٍ منهما بعد كراهتها لهما، ثم خطبها ملوك العرب، وصناديد قريش، وسادات بني هاشم، واشراف اليمن وسلاطينها، وأكابر الطائف، ورؤساء القبائل، وفيهم أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان صخر بن حرب، وعُقْبَة بن أبي معيط، والصَلْت بن أبي يهاب ـ وكان الأخيران يملك كل منهما من الرقيق أربع مئة عبدٍ وأَمَةٍ ـ وبذلوا لها الأموال الجزيلة، وهي تأبى اجابتهم إلى رغبتهم، وترى نفسها أشرف منهم، إلى أن تولعت بالنبي (ص)، ومال قلبها إليه، وذلك لما سمعت

مِن الأحبار والرهبان والكَهَنة عن أمر النبي (ص)، وما كانوا يذكرونه من دلالاته وآيات نبوته، حتى صارت تتمنى وِصالَه وتقول وتردد: «سَعِدَتْ مَن تكون لمحمد قرينةً، فإنه يَزِينُ صاحبَه ولا يَشِينُه». ولم يزل إعجابها به يزداد شيئاً فشيئاً، حتى انقلب إلى حب، وإلى أن نالت مُناها ومَنَّ الله عليها بزواجِ النبي (ص) منها، فأضاف إلى عزها عزاً، وإلى شرفِها في الدنيا شرفَ الآخرة.

خديجة تُعجب بأخبار الكهان وبأوصاف أهل الكتاب لمحمد (ص)

وكانت بداية قصة حبها للنبي (ص)، أنها كانت ذات يوم مجتمعة مع نساء من قريش في عيد لهن في المسجد الحرام، وإذا برجل يهودي وقف عليهن يقول: «لَيُوشِكُ أن يُبْعَثَ فيكنَّ نَبِيّ، فأيُّكن ٱستَطاعت أن تكون له أرضاً يطأُها فلتفعل»؛ فقرَّ قوله في قلب خديجة، في حين رمته النسوة بالحصباء. ولم يزل يزداد بها الشوق والحب له، إلى أن ترعرع النبي (ص). وحدث ذات يوم أنه مَرَّ على منزلها وهي جالسة في مَلإٍ من نسائها وجواريها، وعندها حَبْرٌ من أحبار أهل الكتاب، ولما وقع نظر الحبر على النبي (ص) عند مروره، قال: «يا خديجة، اعلمي أنه قد مرَّ الآن ببابك شاب حَدَثُ السن، فَأْمُري مَن يأتي به، فلعلي أُخبرُك عنه بأمر عجيب!»؛ فأرسلت إليه جارية، فلما انتهت إليه قالت له: «يا سيدي، ان مولاتي خديجة تطلبك!»؛ فأقبل النبي (صلعم) معها إلى أن دخل على الحبر، فقالت خديجة: «أيها الحبر، أهذا الذي أشرت إليه؟»؛ قال: «نعم، هذا محمد بن عبد الله»؛ ثم توجه إلى النبي (ص)، وسأله أن يكشف له عن بطنه وظهره، فاستجاب له النبي (ص)، فلما كشف ونظر الحبر إليه، تغير لونه وقال: «هذا والله خاتَمُ النبوة!»؛ فقالت خديجة: «ويلَكَ أيها الحَبْر، لو رآك عمُّه وأنت تفتشه لَحَلَّت منه عليك نازلةُ البلاء، فإن أعمامه لَيحذرون عليه من احبار اليهود»؛ قال الحَبر: «ومن يقدر على محمد هذا بسوء؟ هذا وحقِ الكليم رسولُ الملك العظيم في آخر الزمان، فطوبَى لامرأة يكون لها بعلاً، وتكون له زوجاً واهلاً، فإنها تكون قد حازت شرف الدنيا والآخرة»؛ فقالت خديجة: «أيها الحبر، بِمَ عرفتَ أن محمداً نبي؟»؛ قال: «وجدت صفاته في التوارة، وأنه المبعوثُ آخر

الزمان، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وانه يتزوج بامرأة من قريش هي سيدة قومها وأميرة عشيرتها» (واشار الحبر في كلامه إلى خديجة)؛ ثم قال لها: «احفظي ما أقول لك يا خديجة»؛ ثم انشأ يقول:

خديجةُ لا تَنْسَي ٱلآنَ قَوْلي — وخُذي منه غايةَ المَحصولِ
خديجة اي هذا النبيُّ وَلا شكَّ — هٰكذا قد قرأتُ في الإنجيلِ
سوف يأتي مِنَ الإلهِ بِوَحْيٍ — ثم يُحْيي الأرواحَ بالتنزيلِ
ويُلاقي ذاتَ الفَخارِ فيَضْحَى — في الوَرَى شَامخاً على كل جيلِ

ثم قام الحبر لينصرف من عندها وقال لها وهو يغادرها: «اجتهدي أن لا يفوتك محمد، فهو الشرف في الدنيا والآخرة»؛ فأخذ كلامه بمجامع قلبها، ووقع منه موقعا عظيماً، حتى أودعَ فيها هماً شديداً وحباً كثيراً.

وكان لخديجة (ع) عم يقال له «وَرَقَة»، وكان عالماً حَبْراً قد قرأ الكتب وعرف صفات النبي الخارج في آخر الزمان، وانه يتزوج بامرأة من قريش تسود قومها وتنفق عليه مالها وتمكنه من نفسها وتساعده على الامور كلها، وكان يؤمل أن تكون خديجة هي المشار إليها في الكتب، لذا كان يقول لها: «يا خديجة، سوف تَتَبَعَّلينَ برجلٍ يكون اشرفَ أهل الأرض والسماء!»؛ فكان بذلك يزيد فيها الحسرة والشوق إلى النبي (ص)، حتى التهت ليلها ونهارها بالتفكير في حيلةٍ تنال بها وِصال النبي (ص).

وحدث أن اجتمعت ذات يوم بعمها فقالت له: «يا عم، اني أريد أن أتزوج وما أدري بمن يكون، وقد أكثر الناس عليَّ بذلك، وقلبي لا يقبل احداً منهم»؛ فقال: «يا خديجة، ألاَ أُعَلِّمُكَ حديثاً غريباً وامراً عجيباً؟»؛ قالت: «وما هو يا عم؟»؛ قال: «عندي كتاب من عهد عيسى (ع)، فيه طلاسم وعزايم، اعزم بها على ماء، فتأخذينه وتغتسلين به، ثم اكتب كتاباً فيه كلماتٌ من الزَبُورِ وكلماتٌ من الانجيل، فتضعينه حين النوم تحت رأسك، فإن الذي يكون زوجَكِ يأتيك في منامك، حتى إنك لتَعرفينه باسمه وكنيته»؛ قالت: «إفعلْ يا عم!»؛ قال: «حباً وكرامة!». فعمل وَرَقَةُ ذلك، ولما وضعت خديجة (ع) كتابه عند المنام تحت وسادتها، رأت في

منامها أن قد أقبل إليها رجلٌ جميل الوجه حَسَنُ القَدِ، لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللازق[١]، أدعجُ العينين[٢] أزَجُّ الحاجبَينِ[٣]، أحْوَرُ المُقلتَين[٤] عَقيقِيُّ الشفتينِ، مورَّد الخدين، ازهر اللون، مليح الكون، معتدل القامة، تظلله الغمامة، بين كتفيه علامة، وهو راكب على فَرَسٍ مُزَمَّمٍ[٥] بسلسلة من الذهب، وسَرْجُه من عقيق مرصع بالدر والجوهر، له وجه كوجه الآدميين، وهو منشق الذَنَب، له ارجل كالبقر، وخطوتُهُ مدُّ البصر، وهو يرفل[٦] بالراكب، وكان خروجه من دار أبي طالب، فضمته خديجة إلى صدرها واجلسته في حُجْرها؛ ثم افاقت من نومها، وغلب عليها القلق والأرق بقية ليلتها. ولما أصبحت مضت إلى عمها وقالت له: «نَعِمتَ صباحاً يا عم!»؛ قال: «وانتِ لقيتِ نجاحاً، فلعلكِ رأيتِ في منامك شيئاً؟»؛ قالت: «نعم، رأيتُ... كذا وكذا»؛ فقال: «يا خديجة، إن صدَقَتْ رؤياكِ تَسعَدِين وتَرشُدين، فإن الذي رأيتِهِ هو المتوَّجُ بتاج الكرامة، المشفَّعُ في العُصاة يومَ القيامة، سيدُ العرب والعجم، محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم»؛ قالت: «وكيف لي بما تقول يا عم، وأنا كما يقول الشاعر:

أسيرُ اليكُمْ قاصداً لأَزورَكُمْ ... وقد قصَّرَتْ بي عندَ ذاكَ رواحلي
ومُلْكُ الأماني خدعةٌ غير أنني ... أُعلِّلُ حَدَّ الحادثاتِ بباطلِ
أُحَمِّلُ بَرْقَ الشَرْقِ شوقاً إليكُمُ ... وأَسألُ ريحَ الغَرْبِ رَدَّ رَسائلي»

ثم ازداد بها الوجد، وانصرفت راجعة وقد اختنقت بعبرتها، ولم تزل في هموم وسكرات وعبرات وحسرات، تكتم أمرها وتخفي شوقها عن قومها وعن سائر الناس، ولم يزل يَبْلُغُها عن النبي (ص) وصِدْقِ

١ـ اللازق: اللصيق بالأرض لفرط قِصَره.
٢ـ ادعج العينين: عيناه واسعتان شديدتا السواد.
٣ـ حاجب أزج: .. رقيق مع طول.
٤ـ المقلتان (العينان)، سوادهما شديد السواد وبياضهما شديد البياض.
٥ـ فرسٌ مُزَمَّم: .. له زمام، مِقود، (مَرَس).
٦ـ يرفل: يزهو ويتبختر.

حديثه وعظيمِ أمانته وكَرَم اخلاقه وصَباحةِ مَنظرِه ونور جبهته ما يَهيجُ اشجانَها، إلى أن بعثت إلى النبي (ص) عبداً لها يقال له «مَيْسَرة»، وعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً كغيره من التجار، وتعطيه أكثر مما تعطي غيره، فلم يبلغها عن النبي (ص) جواب على ذلك، إلى أن مضت عليها أيامٌ وشهورٌ، وهي تخلو بنفسها وتفيض عبرتها وتسكب دمعتها لهفاً على فراق النبي (ص)، وتنشد في ذلك ابياتاً تترنم بها.

ابو طالب يقترح على محمد (ص) في تجارة خديجة (ع).

ومضى على خديجة على ذلك عهد طويل، استمر إلى أن بلغ النبي (ص) الخامسة والعشرين من عمره، وكان عمه أبو طالب قد كبر في العمر وضعف عن السفر والتجارة، وكانت ضاقت عليه أمور معاشه واشتد الزمان به، ولم يكن له همٌّ إلا أمر محمد (ص)، فكان يتفكر في أمره ليلَه ونهارَه، حتى لاحظ عليه النبي ذلك وسأله ذات يوم قائلاً: «ما لي أراك يا عمُ مهموماً؟»؛ قال: «اعلم يا ابن أخي أنه قد اشتد الزمان علينا، ولم يبقَ لنا مال، وليس لنا مادة، وأنا قد كبرتُ وضعُفَ جسمي وقلَّ ما بيدي، وإني أُحِبُّ قبل أن انزل ضريحي أن ارى لك يا ولدي زوجةً يُسَرُّ بها قلبي لتسكن إليها، ومعيشة يرجع إليك نفعها»؛ فقال النبي (ص): «ما عندك يا عم من الرأي في ذلك؟»؛ قال: «اعلم يا ابن أخي أن هذه خديجة بنت خُوَيْلِد قد أنتفع بمالها أكثرُ الناس، وهي تعطي مالَها كلَّ مَن يسألها التجارةَ يسافرون به، فهل ترى يا أبن أخي أن نمضيَ إليها ونسألَها أن تُعطيَكَ مالاً تتجر به؟»؛ قال (ص): «افعل ما بدا لك»؛ فبعث أبو طالب إلى اخوته وعرض عليهم ذلك، وسألهم أن ينطلقوا معه إلى دار خديجة يحادثونها في الأمر، فأجابوه إلى ذلك، وقاموا من وقتهم وساعتهم إلى دارها.

وكان لخديجة دار جد وسيعة، حتى انهم قالوا في وصفها انها تَسَعُ أهل مكة جميعاً، وكانت قد جَعلت في أعلاها قبةً من الحرير الأرزق، ورَقَمت[7] بجوانبها تماثيلَ الشمس والقمر والنجوم، وربطتها بحبال من الابريسم[8]

٧ـ رقمت: نقشت، رسمت.

٨ـ الابريسم: الحرير.

وأوتادٍ من الفولاذ، ولما انتهى أولاد عبد المطلب إلى دارها وكانت هي حينئذ جالسة وحدها تبكي وتترنم بأبيات تقول:

كم أُسِرُّ الوجدَ والاجفانُ تَهْتِكُهُ وأُطْلِقُ الشَوقَ والأَعْضاءُ تُمسِكُهُ[٩]
جفا بيَ القلبُ لَمَّا أنْ تَمَلَّكَهُ غيري، فوا أسفا لو كنتُ أملِكُهُ
ما ضرَّ مَن لمْ يَدَعْ مني سِوى رَمَقٍ لو كان يَسمحُ بالباقي فيَتْرُكُهُ

إذ طُرِقَ البابُ فبادرت مسرعةً تقول لجاريتها: «انزلي وانظري مَن بالباب، فلعل ثمة خبرٌ من الاحباب!»؛ ثم أنشأت تقول:

أيا ريحَ الجنوبِ لعلَّ عِلْماً من الأحبابِ يُطفي بعضَ حرِّي
ولِمْ لا حَمَّلُوكِ إليَّ مِنهُمْ سلاماً أشتريهِ ولوْ بعُمْري
وَحقِّ ودادِهِمْ إني كَتُومٌ وإني لا أبوحُ لهُمْ بِسِرّي
أَراني اللّهُ وَصْلَهُمُ قريباً وكَمْ يُسرٍ أَتَى مِن بَعدِ عُسْرِ
فَيَومٌ مِن فراقِكُمْ كَشَهْرٍ وشهرٌ مِن وِصالِكُمُ كَدَهْرِ

فلما نزلت الجارية وفتحت الباب، إذا أولاد عبد المطلب قد أقبلوا يريدون الاجتماع بخديجة، فرجعت إليها مسرعة تقول: «يا سيدتي، إن بالباب ساداتِ العرب، ذوي المعالي والرُتَب، أولاد عبد المطلب»؛ فرمقت خديجة بسماع ذلك رَمَقَ الهَوى[١٠]، ونزل بها دَهَشَ الجَوى[١١]، وصاحت مسرعة بالجارية أن «افتحي لهم الباب، واخبري ميسرة أن يعدّ لهم المساند والوسائد، فإني لأرجو أن يكونوا قد أتوني بحبيبي محمد»؛ وأَنشأت تقول:

أَلَذُّ حياتي وَصْلُكُمْ ولِقاكُمُ ولستُ أَلَذُّ العيشَ حتى أَراكُمُ[١٢]

٩ـ أُسِر الوجد: أخفي الشوق ـ الاجفان تهطل دموعاً فتهتكه، أي تفضحه ـ واطلق الشوق اريد أن أعبر عن وجدي، ولكن الاعضاء من اعصاب وحياء تمسكه وتمنعه عن الظهور.

١٠ـ الرمَق: بقية الحياة ـ رَمِقت رمق الهوى: اشتد بها الهوى حتى بلغ بها الرمق الأخير تقريباً.

١١ـ الجَوَى: العشق الشديد ـ نزل بها دَهَشُ الجَوى: حلت بها حيرة الحب وتيهُهُ.

١٢ـ أَلَذُّ حياتي: الألَذُ في حياتي... أو«أَلَذَّ حياتي» (بفتح الذال): جعلها لذيذة ـ لستُ أَلَذُّ العيشَ: لا أجد العيش لذيذاً.

وما اَسْتَحْسَنَتْ عيني مِنَ الناسِ غيرَكُمْ ولا لَذَّ في قلبي حبيبٌ سِواكُمُ[١٣]
على الرأسِ والعينينِ جملةُ سَعْيِكُمْ ومَن ذا الذي في ما ارَدْتُمْ عَصاكُمُ
فها أنا محسوبٌ عليكُمْ بأجمعي ورُوحي ومالي يا حبيبي فِداكُمُ
وما غيرُكُمْ في الحبِ يسكُنُ مُهجَتي وإن شئتُمُ تفتيشَ قلبي فهاكُمُ

فبادر ميسرة إلى تزيين المجلس بأنواع الفرش والوسائد والمساند، إلى أن دخل القوم واخذوا مجالسهم، وخديجة تنظر إليهم من وراء الستار قد أصابتها الرعدة طرباً وشوقاً، ولم يستقر الجلوس بالقوم حتى قُدِّمت لهم أصنافٌ من الطعام، وفواكه الطائف والشام، فتناولوا إلى أن فرغوا منه، فنادتهم خديجة من وراء الحجاب بصوت عذب وكلام رطب تقول: «يا سادات مكة، أضاءت بكم الديار واشرقت بكم الأنوار! ولعل لكم حاجةً فتُقْضَى، أو مُلِمَّةً فتُمْضَى، فإن حوائجكم مَقْضِيَّة، وقناديلكم مُضِيَّة!»؛ فأجابها أبو طالب وقال: «يا خديجة، جئناك في حاجة يعود نفعها إليك وبركتها عليك!»؛ قالت: «يا سيدي، وما ذلك؟»؛ قال: «جئناك في أمر ابن اخي محمد»؛ فكادت خديجة أن تغيب عن الوجود بذكر النبي (ص)، وأيقنت بحصول المقصود، واسترجعت حالاً أبيات الوَجْد التي تقول:

بذِكرِكُمُ يُطفا الفؤادُ مِنَ الوَقْدِ ورؤيتكُمْ فيها شِفا الأعْيُنِ الرُمْدِ[١٤]
ومَن قال إني أشتفي مِن هَواكُمُ فقد كذبوا لو مُتُّ فيه مِن الوَجْدِ
وما لِيَ لا أملأ سروراً بِقُرْبِكُمْ وقد كنتُ مشتاقاً إليكُمْ على البُعْدِ
تشابَهَ سِرِّي في هَواكم وجاهري فأُبدِي الذي أُخْفِي، وأخْفِي الذي أُبدِي

ثم قالت: «يا سيدي، أين محمد حتى نسمع ما يقول؟»؛ فنهض العباس قائماً وقال: «أنا آتيكم به»؛ ومضى إلى الابطح يدور في طلبه يميناً وشمالاً إلى أن قيل له انه في جبل «حِراء»، فبادر نحو الجبل، فلما انتهى

١٣ـ لا لَذَّ في قلبي: لا طاب في قلبي، لم أجد لذيذاً في قلبي.
١٤ـ الرَمَد: وجع العين، هياج والتهاب في العين ـ الأعين الرُمْد: جمع العين الرمداء ـ شِفا الأعين. . : شفاء الأعين. .

إليه رأى النبي (ص) نائماً في مرقد إبراهيم الخليل (ع)، وقد التفَّ ببردته، وعند رأسه ثعبان عظيم في فمه طاقة ريحان يروّحه بها، فدهش من ذلك وغلب عليه الخوف اشفاقاً على النبي (ص)، فعمد إلى جذب سيفه وهمَّ بالثعبان، ولكن الثعبان حمل عليه، فلم يملك نفسه دون أن صرخ منادياً: «ادركني يا ابن اخي»؛ ففتح النبي (ص) عينيه، فغاب الثعبان حالاً. ولما رفع النبي (ص) رأسه ورأى عمه قال له: «ما لي أرى سيفك مسلولا؟»؛ فأخبره العباس عن الثعبان وحَمْله عليه، فتبسم النبي (ص) وقال: «يا عم، ليس هذا بثعبان، ولكنه ملك من الملائكة، قد رأيته مراراً وخاطبته جهاراً، وقال لي: يا محمد، اني مَلَكٌ موكل من عند ربي بحراستك في الليل والنهار من كيد الاعداء والاشرار»؛ فازداد العباس عجباً وقال: «ما يُنْكَرُ فضلك يا محمد!».

ثم قال: «قم الآن وسر معي إلى دار خديجة، تكونُ أميناً على أموالها تسير بها حيث شئت»؛ قال (ص): «إني أريد الشام»؛ قال: «ذلك إليك»؛ فنهضَا جميعاً منصرفَينِ إلى دار خديجة، فلما قَرُبا منها، سبق نور النبي (ص) إلى داخلها (وكانَ ذلك شأنه قبل دخوله كل موضع) فظنَّتْ خديجة أنه نور الشمس من خلل الخيمة، فصاحت بعبدها ميسرة تلومُهُ على الغفلة عن الخيمة حتى عبر نور الشمس إلى المجلس، فقال العبد: «لست بغافل عنها»؛ ثم خرج يتجسس عن خلل الخيمة، فإذا هو يرى النبي (ص) مقبلا قد تلألأ النور من جبينه حتى أضاء دار خديجة ومجلسها، فهرعَ العبد إلى سيدته وقال: «يا مولاتي، ان هذا النور الذي ترينه في المجلس، انما هو من جبين محمد!»؛ فنهضت خديجة مسرعة كي تتحقق من الخبر، فشاهدت النبي (ص) يدخل المجلس ومعه عمه العباس، ورأت أعمامه ينهضون قياماً على اقدامهم اجلالاً له، حتى اجلسوه في أوساطهم.

خديجة (ع) تضع أموالها في تصرف محمد (ص).

وما أن استقر به الجلوس، حتى قُدِم له من الفواكه والطعام شيء كثير، وخديجة تنظر من وراء الستار إلى غرَّة جبينه وطلعة وجهه الغرَّاء، وروحها تكاد تفارقها شوقاً إليه، إلى أن فرغ من الأكل، فتقدمت إليه من

وراء الحجاب ترحب بقدومه وتقول: «يا سيدي، أَنِسَتْ بك الديار، وأضاءت بك الاقطار، واشرقت من طلعتك الأنوار!»؛ ثم قالت بعدئذ: «أَترضى يا سيدي أن تكون أميناً على أموالي، تسير بها حيث شئت؟»؛ قال (ص): «نعم رضيتُ، وأريد الشام»؛ قالت: «ذلك إليك!»؛ ثم اضافت: «إني قد جعلتُ لمن يسير بها مئة أوقية من الذهب الأحمر، ومئة أوقية من الفِضة البيضاء، وَحِمْلَين وراحِلَتين، فهل أنت راضٍ بذلك؟»؛ فأجابها أبو طالب وقال: «نعم رَضِيَ ورضينا، وأنت يا خديجة محتاجة إليه، وانه مِن حينما خُلِقَ لم تقِفْ له العربُ على صَبْوَة[١٥]، وإنه مكين أمين».

قالت بعدئذ خديجة للنبي (ص): «أَتُحسِنُ أن تَشُدَّ يا سيدي على الجَمل وترفع عليه الأحمال؟»؛ قال (ص): «نعم»؛ فأشارت إلى عبدها ميسرة وقالت له: «ائتِني ببعير حتى انظر كيف يشدُّ عليه سيدي محمد»؛ فخرج العبد وأتى ببعير شديد المراس قوي البأس، لا يجسر أحد من الرُّعاة على أن يقرب منه لشدة بأسه وعظيم صولته، وما إن أدناه من النبي (ص) ليعطيه زمامه، حتى هدر الجمل وشقشق واحمرت عيناه، حتى فزع منه القوم، وغضب العباس بسبب ذلك على العبد وقال له مستنكراً: «ألم يكن عندك أَهونُ من هذا البعير؟ إنما اتيتَ به تريد أن تمتحن اَبنَ اخينا»؛ فناداه النبي (ص) وقال له: «دعه يا عم»؛ فلم يتم كلامه حتى توجه البعير نحوه ينظر إليه، ثم برك فجأة على قدميه يمرّغ عليهما خدَّيه، وجعل النبي (ص) يمسح ظهره.

دَهِشَ الحاضرون من أعمامه، وكذا خديجة ونساؤها وراء الحجاب، مما رأوا من الجمل، ثم سمعوا بأجمعهم نخيراً من الجمل[١٦]، فازداد القوم عجباً ودهشة، وقالت بعض النسوة لخديجة: «ما هذا إلا سحر عظيم، قد احكمه هذا اليتيم!»؛ فصاحت بهن تقول: «أَقْصُرْنَ

١٥ـ الصَبْوة: طيش الشباب، وجهلة عمر المراهقة والفتوّة.

١٦ـ جاء في رواية أن الجَمَل نادى بكلام طلق فصيح قائلاً: مَن مِثلي مَن مِثلي وقد لمس ظهري سيد المرسلين؟!.

وٱسْكُتْنَ فليس هذا بسحر، وإنما هو آيات بينات وكرامات ظاهرات!». وفي قصة هذا البعير نُظِمت الأبيات التالية التي قيل أيضاً إن خديجة انشدتها ورددتها:

نطقَ البعيرُ بفضل أحمدَ مُخبِرا ... هذا الذي شَرُفَتْ به امُّ القُرَى
هـذا محمـدُ خيـرُ مبعـوثٍ أتَـى ... فهو الشفيعُ وخيرُ مَن وَطَأَ الثرَى
يا حاسديه تمزَّقوا مِن غَيْظِكُمْ ... فَهو الحبيبُ ولا سواه في الوَرَى

بعدئذ توجهت خديجة (ع) إلى النبي (ص) وقالت: «يا سيدي، أما معك غيرُ هذه الثياب؟ فهذه لا تصلح للسفر»؛ قال (ص): «لست أملك غيرها»؛ فبكت خديجة وقالت: «عندي يا سيدي ما يصلح للسفر، غير أنها طِوالٌ فأَمْهِلْ حتى أُقَصِّرَها لك»؛ قال (ص): «هَلُمِّي بها» ـ (وكان (ص) إذا لبس القصير يطول، وإذا لبس الطويل يقصر حتى يغدو بطول قامته) ـ فأتت خديجة له بثوبين من قِباطي[17] مصر، وجُبَّةٍ عَدَنية، وبُرْدَة يمانية، وعمامة عِراقية، وخُفَّينِ من الأديم[18]، وقضيب خيزران، ولما لبس النبي (ص) الثياب صارت كلها على طول قامته الشريفة، من غير زيادة ولا نقصان، كأنها مُفَصَّلة عليه، وخرج بين عمومته كأنه البدر التمام إذا انجلى عنه الغمام، فجعلت خديجة تنظر إليه فرحة مسرورة وتترنم بهذه الأشعار:

أُوتِيتَ مِن شَرَفِ الجَمالِ فُنونا ... ولقـد فَتَنْـتَ بـه القلـوبَ فُتُـونـا
قد كُوِّنَتْ للحُسْنِ فيك جَواهِرٌ ... فبهـا دُعِيـتَ الجَـوْهَـرَ المَكنـونـا
يـا مَـن أعـارَ الظَبْـيَ فـي فَلَـواتِـهِ ... للحُسْـنِ جِيـداً سـامِيـاً وجُفُـونـا
أُنظُرْ إلى جِسْمي النَحيلِ وكيف قد ... أَجْـرَيْـتَ مِـن دَمْـعِ العُيـونِ عُيـونـا
أسهَـرْتَ عَينِـي فـي هَـواكَ صَبابَـةً ... ومَـلأْتَ قلبـي لَـوْعَـةً وجُنُـونـا

محمد (ص) في سفر التجارة . . الى الشام.

ثم ودع القومُ وخرجوا، وانصرف النبي (ص) يتجهز للسفر. وأمرت

١٧ـ القباطي: من قماش الكتان، منسوبة إلى القبط.
١٨ـ الأديم: الجلدُ المدبوغ.

خديجةُ بخروج العير للتجارة إلى الشام، فأخرجوا الجِمال وحَّملوها البضائعَ والأموال؛ ولما صار الوقت الموعود للسفر، خرج عبيدُها بالجِمال والأحمال إلى الأبطح، وحضر النبي (ص) في عمومته وعشيرته إلى بيت خديجة لتوديعها؛ فلما ودَّعوا وهمَّ محمد (ص) بالانصراف من عندها نحو العير، قالت له: «يا سيدي، هل عندك ما تركب عليه؟»؛ قال (ص): «إذا تعبتُ ركبتُ أيَّ بعيرٍ اردتُ»؛ فقالت: «وما يحملني على ذلك؟ كانت الأموال دونك يا محمد»؛ فأتى العبد بالناقة ـ وكانت مما تزيد على الأوصاف، كأنها خيمةٌ مضروبةٌ أو قُبَّةٌ منصوبة ـ وقدمها للنبي (ص)، فلما همَّ بالخروج، امرت خديجةُ عبدَيْها «ميسرة» و«ناصح» أن يخرجا معه، وشدَّدت عليهما التوصية به تقول: «اعلما أني قد ارسلت معكما أميناً على أموالي، وأنه أمير قريش وسيدها، لا يَدَ على يده، ولا أمرَ فوقَ أمره، فإن باع لا يُمْنَع، وان تَرَك لا يؤمَر، وليكن كلامكما له بلطف وأدب، ولا يعلو على كلامه»؛ فقال ميسرة: «والله يا سيدتي انه كان لمحمد في قلبي محبة عظيمة قديمة، والآن قد تضاعفت لحبك له».

ثم ان النبي (ص) ودع خديجة، وركب راحلته وخرج من الدار، وميسرة وناصح بين يديه وقد حفَّ به بنو هاشم، فجعلت خديجة تنظر إليه من ورائه وقد اختنقت بعبرتها على فراقه، ثم أنشأت تقول:

قلبُ المُحِبِّ إلى الاحباب مَجذوبُ ... وجِسْمُـهُ بيـد الأسقـام منهـوبُ
وقائلٍ: كيف طَعْمُ الحُبِ؟ قلتُ له: ... الحـبُّ عَـذْبٌ ولٰكـنْ فيـه تعـذيـبُ
أَفدي الذين على خَدِّي لِبُعْدِهِمُ ... دَمْـي ودمعـيَ مَنفـوحٌ ومَسكـوبُ
ما في الخيامِ وقد سارتْ ركائبُهُمْ ... إلا مُحِـبٌّ لـه فـي القلـبِ مَحبـوبُ
كـأنَّمـا يـوسـفٌ فـي كـلِّ نـاحيـةٍ ... والحُـزْنُ فـي كـل بيـتٍ فيـه يَعقـوبُ

ولما صاروا خارج مكة، ودع محمد (ص) عشيرته من بني هاشم، وخرج بمن معه وفيهم عماه حمزة والعباس، وابن عمته الزُبَيرُ، وكانت العِيرُ وجِمالُ خديجة قد سبقتهم بِرُعاتها وأُجَرائها إلى «الابطح»، ومعهم وجوهٌ من تجار قريش واكابرهم، من بني مَخزوم، وبني النَضر، وبني عَدِيّ، وبني زَهْرة، وفيهم أبو جهل، وأبو سفيان، ومُطعِم بن عَدِيّ،

وعَمْرُو بن هشام، وأمثالهم من الفراعنه والامراء، ولما انتهى إليهم النبي (ص) تلألأ من جبهته نورٌ أضاءَ ما حولهم وادهشهم، وجعلوا ينظرون إليه وقد غلب على أكثرهم الحسد والكمد، فأنشأ العباس يقول:

يا مُخجِلَ الشمسِ والبَدْرِ المُنيرِ إذا   تبسَّمَ الثَغْرُ لَمْعُ البَرْقِ منه أَضا[١٩]
كم مُعْجِزاتٍ رأينا منكَ قد ظَهَرَتْ   يا سيداً ذِكْرُهُ يَشفَى بِهِ المُرَضا

نظر محمد (ص) فإذا أموال خديجة (ع) على الأرض لم يحُمَل منها شيء، فصاح بالعبيد ورعاة الجمال مستنكراً وقال: «ما الذي منعكم عن شدّ رحالكم؟»؛ فاعتذروا إليه بقلة العَدَد وكَثرةِ الأموال، فبادر بالنزول مِن على ظهر ناقته، ولوَّى ذيله[٢٠]، وأخذ يشدُّ الرحال ويحمل الأحمال بنفسه على الجمال، وكان كلما حمَّل جَمَلاً زعق به، فتُبادر الجِمال إلى القيام بأمره، والقوم ينظرون إليه وقد دهشوا من قوته وإطاعة الجِمال لأمره، ورآه العباس قد احمرت وجناته من العَرَق، فأخذته الغيرة، وعمد إلى خشبة ليتخذ منها سترةً يُظَلِّلُ النبي (ص) بها، إذ ارتفعت غمامةٌ انتشرت على رأس النبي (ص) حتى استغنى بها عن الظلال[٢١]، فشخصت الابصار من القومِ نحو رسول الله (ص) حيرة وعجبا، وقال العباس: «واللّهِ ان محمداً لَكريم على ربه، ولقد استغنى عن خشبتي!»؛ وأنشأ في مدح النبي (ص) ابياتا من الشعر.

متاعب في الطريق.

ثم سار القوم حتى نزلوا جُحْفَةً[٢٢] حطوا بها رحالهم، فقام فيهم مُطعِم بن عَدِيّ ـ وكان من أكابرهم ـ وقال: «يا قوم، انكم سائرون إلى

١٩ـ أضَا: مخففة من: أضاءَ.

٢٠ـ لوَّى ذيله: رفَعَ أسفل جلبابه، طوى ورفع ثوبه الخارجي الممتد طولاً

٢١ـ في بعض الروايات عن أهل بيت العصمة (ع) أنه قد ارتجت في تلك اللحظة الاقطار، وتجلى الملك الجبار، وأُوحِيَ إلى الأمين جبرائيل (ع) أن اهبط إلى رضوان خازن الجنان، وخذ منه الغمامة التي خلقتُها لحبيبي محمد قبل أن أخلق آدم بالفي عام، وأنشُرْها على رأسه.

٢٢ـ جحفة: منبسط من الأرض مجرد من النتوء والالتواءات نتيجة جرف السيول لما عليه.

أرض كثيرة المَهامٍ والأوعار، وليس لكم مُقدَّم تستشيرونه وترجعون إلى امره عند التنازع والخلاف، والرأي عندي أن تقدّموا عليكم رجلاً لِتَشُدُّوا إلى رأيه وترجعوا إلى امره عند المَنازِع والمَخالِف»؛ فأجابه الأقوام إلى ذلك وقالوا: «نعمَ ما أشرتَ به!»؛ ثم عَيَّنَتْ كلُ قبيلةٍ منهم اميراً عليها من كبرائها، فعيَّن بنو مخزومٍ أميرَهم عَمْرَو بنَ هشام، وعيَّن بنو عدي مُطعِم بن عدي، وعيَّن بنو النضرِ النضرَ بن الحارث، وعين بنو زهرة أُحَيْحَةَ بن الجلاّح، واختار بنو لُؤَي أبا سفيان صخرَ بَنَ حرب، وقال ميسرة وبنو هاشم: «نحن والله لا نُقدِّمُ علينا إلا سيدَنا محمدَ بن عبد الله»؛ واختاروه أميراً عليهم.

ثم لما همَّ القوم بالمسير، اختلفوا في مَن يتقدم في السير من الأمراء، ورغب كثير منهم في تقديم محمد (ص) بقومه على سائر الأمراء، فغضب أبو جهل من ذلك ونادى فيهم: «والله لَئِن قدَّمتم علينا محمداً لأضَعَنَ السيفَ في بطني وأخرِجهُ من ظهري»؛ فقام إليه حمزة مُغضِباً، وجرد سيفه، ثم قبض على يد أبي جهلٍ وهمَّ أن يبطش به وقال له: «يا وَغْدَ الرِجالِ ويا نَذْلَ الفِعالِ، والله إني ما أريد إلا أن يَقطعَ الله يديكَ ورجليكَ ويُعمِيَ عينيك»؛ فأعترضه النبي (ص) ومنعه عن ذلك وهو يقول: «اغمد سيفك يا عماه! لا تستفتحوا سفركم بالشرّ! دعوهم يسيرون أول النهار ونحن نسير آخره، فإن التقدم لقريش»؛ فتقدم أبو جهل ومَن يلوذُ به أمام الجموع، وأنشأ يقول وهو يشعر بالحبور والفرح لانه انتزع من بني هاشم فرصة التقدم:

لقد ضَلَّتْ حُلومُ بني قُصَيٍّ ... وقد زعموا بتسديد اليتيم[٢٣]
وراموا للرياسة غيْرَ كُفْؤٍ ... فكيف يكون ذا الأمرِ العظيم[٢٤]
وإني فيهُمُ ليثٌ حَمِيٌّ ... بمصقولٍ وذي جَدٍّ كريمِ[٢٥]

٢٣ـ حلوم: عقول ـ لقد ضلت عقولهم لأنهم ادعوا أن اليتيم هذا مسدد الرأي والعمل.

٢٤ـ هذا الذي ليس كفؤاً، كيف يكون صاحبَ الأمر العظيم والقيادة؟

٢٥ـ أنا أسَدٌ ذو حمية، لأني صاحب سيف مصقول وقوة حرب من جهة، وصاحب جد كريم ونسب أصيل عريق من جهة أخرى، يجعلانني المؤهل للقيادة والرئاسة.

فلـو قصـدوا عُبَيْـدَةَ أو ظليمـاً　　وصَخْرَ الحربِ ذا الشرفِ القديمِ
لكنـا قـد رضينـاهـم وكنـا　　لهُـمْ تِبْعـاً بـلا خُلْـفٍ ذَميـمِ[٢٦]

فأجابه العباس بن عبد المطلب قائلاً :

إلا أيُّها الوَغْدُ الذي رامَ ثَلْبَنا　　أَتَثْلُبُ قِرناً في الرجالِ كريما[٢٧]
أتثْلُبُ يا ويكَ الكريمَ أخا التُقَى　　حبيباً لربِ العَالمينَ عظيما[٢٨]
ولولا رجالٌ قد عرفنا مَحلَّهُمْ　　وهم عندنا في مجدبٍ ومُقيما[٢٩]
لَدارَتْ سيوفٌ يَفْلُقُ الهامَ حَدُّها　　بأيدي رجالٍ كالليوث تُقيما
حُماةٍ كُماةٍ كالأسودِ ضِراغِمٍ　　إذا برزوا أَرْدُوا الجميعَ رَغيما

. . وكرامات ومعجزات.

ثم ارتحل القوم إلى أن بلغوا «وادي الأَمْواه»، وكان مجمع السيول والأنهار، فنزلوا به، وما إن حطوا رحالهم حتى ارتفع السحاب فوقهم، ثم ما لبث النبي (ص) أن لحق بهم بمن معه، وهو يحذِّر قومه من نزول السيل عليهم، لذا لم ينزل مع القوم إلى بطن الوادي، بل أمر أصحابه أن يصعدوا إلى الجبل ويُنزلوا رِحالَهم عليه، ونادى مناديه في الجموع بأمره ذاك، أي أن ينقلوا رحالهم إلى الجبل مخافة السيل، فأطاعت القبائل أمره ونقلوا رحالهم، عدا رجل واحد من بني جمح ـ يقال له مصعب ـ وكان ذا مال كثير، فإنه أبى أن ينتقل من مكانه، وجعل يستهزيءُ بالاقوام لاطاعتهم أمر النبي (ص)؛ ولكنه ما ان استتم كلامه حتى ترادفت السحائب وارعدت السماءُ وابرقت، ثم نزل المطر كافواه القِرَب، ولم

٢٦ـ لو كانوا اختاروا للقيادة والتقدم أصحاب الشرف والرئاسة في القبائل، كنا نتبعهم دونما اختلاف ذميم وتنازع بيننا.

٢٧ـ رام: طلبَ وأراد ـ ثَلَبَ (ثلْباً): طَعَن وعاب وذمَّ ـ القِرْن (في الرجال): الكُفْء والكريم والبارز.

٢٨ـ وَيْك: وي (علامة التعجب) وكاف المخاطب ـ وقد تقارب: يا ويلكَ.

٢٩ـ عرفنا محلهم ومكانتهم وفعلهم في أيام الجدب التي تدفع للرحيل، وفي أيام الخصب أيام الاقامة.

يكن بأقرب من أن نزل السيل وامتلأ الوادي من الحافة إلى الحافة، ولم يبق من الجمحي وأمواله أي أثر.

أقام القوم محالهم بناحية الجبل أربعة أيام، كان السيل خلالها يزداد يوماً بعد يوم، إلى أن تقدم ميسرة إلى النبي (ص) بعد اليوم الرابع وقال: «سيدي ان هذه السيول لا تنقطع إلى شهر، وإن أقمنا هاهنا أضرَّ بنا المقام ويفرغ الزاد، والرأي عندي أن نرجع إلى مكة»؛ فلم يجبه النبي (ص) بشيء، إلى أن نام ورأى (ص) في منامه مَلَكا يقول له: «يا محمد لا تحزن، وإذا كان غداة غد، فأمُرْ قومك بالرحيل وقفْ أنتَ على شفير الوادي، فسترى طيراً أبيض قد هبط وخط بجناحه على وجه الماء، فاتبع الخط وانت تقول «بسم الله وبالله»، وأمُرْ قومك أن يقولوها ويتبعوك، فمن قالها سلم، ومن حاد عنها غرق»؛ فاستيقظ النبي (ص) فرحا مسروراً، ولما كان في غد، نادى مناديه في الناس بالرحيل، فشدَّ ميسرةُ رحاله فاعترضه الناس وقالوا: «كيف نسير وهذا الماء لا تقطعه السفن؟»؛ قال: «إن محمداً أمرني بذلك، وأنا لا أخالفه»؛ فعندها قالوا: «ونحن أيضاً لا نخالفه»؛ ثم بادروا إلى رحالهم فشدوها؛ وركبوا جِمالَهم، وتقدمهم النبي (ص) حتى وقف بهم على شفير الوادي، فإذا بالطير قد هبط وخط على الماء بجناحه خطاً أبيض يلمع، فشمَّر النبيُ اذياله، ونادى مناديه في الجموع يأمرهم باتباعه على الخط، والتسمية باسم الله، ويخبرهم أن من قالها سَلِم، ومن حاد عنها ارتطم بالماء وغرق.

ثم اقتحم (ص) الماءَ وقال: «بسم الله وبالله»، واتبع الخط يسير على وجه الماء، حتى عبر الوادي وانتهى إلى حافته، وخرج منه ولم يصل الماء إلى نصف ساقه، فتبعه الناس واقتحموا الماء وهم يقولونها، ولم يخالف امره أحد من القوم سوى رجل من بني جُمَح أيضاً، فإنه عند اقتحامه الماء قال: «باسم اللاتِ والعُزّى»؛ فارتطم بالماء وغرق مع أمواله وهلك، فاغتم أبو جهل لذلك وقال: «ما هذا إلا سحر عظيم!»؛ فقال له بعض اصحابه: «أَقْصِرْ يا ابن هشام، ما هذا سحر، ولكن والله ما أظلَّت الخضراءُ ولا اقلَّت الغبراءُ أفضلَ من محمد!»؛ فازداد غيظاً وكمداً، ولم يردَّ جواباً.

سار القوم بعدئذ حتى نزلوا على بئر كانت القوافل تنزل عليها، ولما قضوا وطرهم منها وهموا بالرحيل قبل قدوم النبي (ص) وأصحابه، قال أبو جهل: «والله اني لأجد في نفسي حرقة عظيمة إن رجع محمد من سفره هذا سالما، وكيف لي بالحيلة في قتله وهو ينظر ويرى من ورائه كما ينظر ويرى من أمامه، ولكني سأفعل وسوف ترون»؛ ثم نهض وعمد إلى البئر يكبسها بالرمل والحصى ويقول: إني أريد طَمَّ البئر ودفنها، حتى إذا جاء رَكْبُ بني هاشم وقد أجهدهم العطش، لم يجدوا ماء، فيموتوا عن آخرهم عطشا»؛ فتبعه قومه وبادروا إلى طمّ البئر حتى لم يتركوا لها أثراً، فقال أبو جهل: «الآن بلغت مرادي!»؛ ثم توجه إلى عبدٍ له يقال له «فلاح»، وأعطاه راحلة وزاداً وقِربة ماء، وأمره بالاختفاء تحت الجبل إلى أن يقدم رَكْبُ بني هاشم ويراهم قد هلكوا من العطش، فيلحق بسيده ويبشره بهلاكهم، فأجابه العبد إلى ذلك وقال: «حباً وكرامة!»؛ ووعده أبو جهل لقاء البشارة بعتقه وتزويجه بأي بنت احبها، ثم ارتحل أبو جهل بمن معه وتأخر العبد واختفى يرقب كما أمره مولاه.

فلما اقبل ركب بني هاشم يتقدمهم النبي (ص) وقد أجهدهم العطش، تبادروا نحو البئر فلم يجدوا لها اثراً، فاستوحشوا من ذلك كثيراً وضاقت صدورهم حتى ايقنوا بالهلاك، وشكوا إلى النبي (ص) ولاذوا به، فأقبل (ص) بهم حتى وقف على شفير البئر، ورفع طرفه إلى السماء يقول: «يا عظيم الاسماء، يا باسط الأرضِ ويا رافع السماء، قد اضرَّ بنا الظَمَأُ فاسقنا الماء»؛ فما استتم دعاءه حتى تصلصل الرمل والحصى عن البئر، ونبع الماء من تحت قدميه وفاض حتى جرى على وجه الأرض، فبادر إليه أصحابه حتى ارتووا، وتزودوا من الماء وسقوا دوابهم منه، وكل ذلك بمرأى ومنظر من العبد، فركب العبد راحلته يجدُّ السير إلى أن لحق العِيرَ وتلقاه أبو جهل فسأله: «ما وراءك يا فلاح؟»؛ قال: «سيدي واللهِ ما افلَح مَن عادى محمداً!»؛ وحدّثهم بما رأى، فازداد أبو جهل غضباً، وامتلأ غيظاً وكمداً، وقال للعبد: «غَيِّبْ وجهَكَ عني، فلا افلحت أبداً».

ثم ارتحل القوم بعدئذ وساروا إلى أن بلغوا «وادي ذيبان»، وهو من

أودية الشام كثير الأشجار، يقدمهم أبو جهل، فاعترضهم فجأة ثعبان عظيم كأنه النخلة السَحوق، قد فتح فاه يزفر ويخرج الشرر من عينيه كأنهما جمرتان، فجفلت منه ناقة أبي جهل وجعلت تتخبَّطُ بيديها ورجليها، إلى أن رمت به من على ظهرها وأنْرضَّ بعض اضلاعه وأُغميَ عليه، فاجتمع عليه أصحابه وعبيده يمرغونه[٣٠] ويعالجونه وقد علاهم الخوف والفزع إلى أن افاق. فلما أستقر وهدأ، أمَرَ عبيده وركْبَهُ أن ينحازوا عن الطريق وينتظروا ركب بني هاشم، فإذا أقبلوا يتقدمهم النبي (ص)، يقدمونه عليهم في السير، فعسى أن ترى ناقتُهُ الثعبانَ وتجفل وترمي به فيموت؛ فانحاز القوم إلى حاشية الطريق يترقبون قدوم بني هاشم، إلى أن اقبلوا يتقدمهم النبي (ص)، فتوجه (ص) إلى أبي جهل وقال له: «يا ابن هشام، اراكم قد نزلتم وهو ليس وقت نزولكم»؛ قال: «يا محمد، واللّهِ لقد استحييتُ أن اتقدم عليكَ وانتَ سيدُ أهل الصَّفا والأعلى حسباً ونسباً، فتقدمْ، فلعن الله مَن يُبغضك»؛ فاغتر العباس بكلامه وفرح به، وهمّ أن يتقدم، ولكن النبي (ص) نهاه عن ذلك وقال له: «ارفق يا عم، فما تقديمهم لنا إلا عن مكيدة»؛ ثم سبق النبي (ص) بنفسه الركائبَ كلها يتبعه الناس حتى بلغ شِعْبَ الثعبان، فإذا به قد ظهر وزفر، وجفلت منه ناقة النبي (ص)، فزعق (ص) بها يقول لها: «ويحك! كيف تخافين وعليك خاتَم النبيين وإمام المرسلين؟»؛ فسكنت الناقةُ واستقرت.

ثم توجه النبي (ص) إلى الثعبان وصاح به يقول له: «ارجع من حيث اتيت، وإياك أن تتعرض لأحد من الركْب»؛ فلم يُتِمَّ كلامَه حتى سكن زفير الثعبان، ونادى فجأة بلسانٍ طلق فصيح يقول: «السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد»؛ فأجابه النبي (ص) وقال: «السلام على من اتبع الهُدى، وخشيَ عواقبَ الردَى، وأطاع الملِكَ الأعلَى»؛ فدهش القوم من ذلك. ثم قال الثعبان بعدئذ: «يا محمد، ما انا مِن هَوامِّ الأرض، وإنما أنا مَلِك من ملوك الجن، واسمي «الهام بن الهيم»، وقد آمنتُ على يد ابيك إبراهيم الخليل وسألته الشفاعة، فقال: إنما هي لولدِ

٣٠ـ يمرّغونه: يقلّبونه.

يظهر من نَسلي يقال له محمد، ووعدني أن اجتمع بك في هذا المكان، وقد طال بي الانتظار، وقد شاهدتُ المسيح عيسى بنَ مريم ليلةَ عُرِجَ به إلى السماء وهو يوصي الحواريين باتباعك والدخول في ملتك، والآن قد جمع الله شملي بك، فلا تنسني من الشفاعة يا سيد المرسلين»؛ فوعده النبي (ص) بذلك، وأمره بالرجوع، ونهاه عن التعرض للركب، فازداد الناس بذلك عجباً ودهشة وتقديراً للنبي (ص)، وازداد أبو جهل واصحابُه حسداً وكمدا، وأنشأ العباس يقول:

يا قاصداً نحوَ الحَطيمِ وَزمْزَمِ   بلِّـغْ فضـائـلَ أحمـدَ المُتكـرِّمِ[٣١]
واشرحْ لهمْ ما عايَنَتْ عيناكَ مِن   فضـلٍ لأحمـدَ والسحـابِ الأَرْكـمِ[٣٢]
قد بانتِ الآياتُ في السَيْلِ الذي   مـلأ الفِجـاجَ بسَيْلِـهِ المُتَـراكِـمِ[٣٣]
ونجا الذي لم يُخْطِ قولَ محمدٍ   وهَوَى الذي أَخْطَى بوَسْطِ جهنَّمِ
والبئـر لمـا أنْ أضـرَّ بنـا الظَمـا   فـدعـا الحبيبُ إلى الإلٓـه المُنْعِمُ
فاضَتْ عيوناً ثم سالَتْ أَنْهُراً   وغـدا الحسـودُ بحسـرةٍ وتَغَمْغُـمِ
والهـامُ إبـنُ الهيـمِ لمـا أنْ رأى   خيـرَ البَـرِيَّـةِ جـاء كـالمُسْتَسلـمِ
نـاداه أحمـدُ فـاستجـابَ مُلَبِّيـاً   وشكـا المحبـةَ كـالكئيـبِ المُغْـرَمِ[٣٤]
من عهدِ إبراهيمَ ظَلَّ مكانَهُ   يرجو الشفاعةَ خَوفَ جسرِ جَهَنَّمِ
من ذا يقايسُ احمداً في الفضلِ مِن   كل الوَرَى بين الفصيحِ والأَعْجَمِ
وبـه تَـوَسَّـلَ فـي الخطيئـةِ آدمٌ   فلْيَعْلَـمِ الأخبـارَ مَـن لـم يَعْلَـمِ

ثم نهض الزبير ابن عمة النبي (ص) وأنشأ يقول:

يا لَلرجالِ ذَوي البصائِرِ والنَظَرْ   قُوموا انظُرُوا أمراً مَهُولاً قد حَضَرْ
هـذا بيـانٌ صـادقٌ فـي عَصْـرِنـا   مِن سيّدٍ عالي المَراتِبِ مُفْتَخَرْ

٣١ـ الحطيم: جدار الحجر الأسود في الكعبة (؟)، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام ـ زمزم: بئر الماء التي قرب الكعبة (وقد تقدم حديثها في كتابنا هذا).

٣٢ـ الأركم: الكثير التجمع.

٣٣ـ الفجاج (بضم الفاء): الطريق الواسع بين جبلين وجمعه فِجاج (بكسر الفاء).

٣٤ـ المغرم: العاشق ـ الكئيب المغرم: العاشق الحزين.

آياتُهُ قد أَعجَزَتْ كلَّ الورَى — مَن ذا يُقايسُ عدَّها أو يُنحصَرْ
منها الغمامُ تُظِلُّهُ مهما مشَى — أنَّى يسيرُ تُظِلُّهُ وإذا حضَرْ
وكذلكَ الوادي أتَى مُتَرادِفاً — بالسَيلِ يَسحَبُ للحجارةِ والشَجَرْ
ونجا الذي قد طاعَ قولَ محمدٍ — وهَوَى المُخالفُ مُستقِراً في سَقَرْ
وأزالَ عنا الضَيْمَ مِن حَرِّ الظَما — مِن بعدِ ما بانَ التَقَلْقُلُ والضَجَرْ
والبئرُ فاضَتْ بالمياهِ وأقبَلَتْ — تَجري على وَجْهِ الثرَى شِبْهَ النَهرْ
والهامُ فيه عبارةٌ ودلالةٌ — لِذَوي العقولِ ذوي البَصائرِ والفِكَرْ
كادَ الحَسودُ يذوبُ مِما عايَنَتْ — عيناهُ مِن فضلٍ لأحمدَ قد ظَهَرْ
يا لَلرجالِ ألا انْظُروا أنوارَهُ — تَعلُو على نُورِ الغزالةِ والقمرْ[35]
اللَّهُ فضلَّ أحمداً واختارَهُ — ولقد أذلَّ عَدُوَّهُ ثم احْتَقَرْ

ثم وثب حمزة (ع) وأنشأ يقول:

ما نالَتِ الحُسَّادُ فيكَ مُرادَهُمْ — طلبوا نُقوصَ الحالِ منكَ فزادا
كادوا وما خافوا عواقِبَ كَيْدِهِمْ — والكَيْدُ مَرجِعُهُ على مَن كادا
ما كلُّ مَن طلبَ السعادةَ نالَها — بمَكِيدةٍ أو أن يَرُومَ عِنادا
يا حاسدينَ محمداً يا وَيْلكُمْ — حَسَداً يُمزِّقُ مِنكُمُ الأكبادا
اللهُ فضَّلَ أحمداً واختارَهُ — ولَسَوْفَ يُملِكُهُ الوَرَى وبلادا
ولَيَمْلأَنَّ الأرضَ مِن إيمانِهِ — ولَيَهْدِيَنَّ عنِ الغوَى مَن حادا

ثم ساروا باجمعهم يتقدمهم النبي (ص) حتى نزلوا وادياً كانوا يتعاهدون فيه الماء قديماً، فلم يجدوا فيه أثراً منه، فشكوا ذلك أيضاً إلى النبي (ص)، فشمَّر عن ذراعيه وغمس كفَّيهِ في الرمل، ورمق بطرفه نحو السماء يحرِّك شفتيه، وإذ بالماء ينبع من بين أصابعه، ثم يفيض حتى يجري على وجه الأرض شبه النهر، إلى أن خاف المرافقون على أموالهم وأنفسهم من الغرق، فناداه العباس مستنجداً: «أَمسِكْ يا ابنَ أخي، فقد كاد أن يُغرِق أموالَنا»؛ فرفع النبي (ص) كفه من الرمل، وما إن فعل حتى

٣٥ـ الغزالة: أحد ألقاب الشمس.

انقطع الماء، فشربوا وتزودوا منه بأجمعهم وسقوا دوابهم، وازداد حسادهم غيظاً وحسداً[٣٦].

كرامات أخرى للنبي (ص) وافتتان الرهبان به

ثم أخذوا بعدئذٍ في السير إلى أن بلغوا «عَقَبَةَ أَيْلَةَ[٣٧]» التي كان بها ديرٌ كثير الرهبان، يتميز بينهم راهب كبير يرجعون إلى رأيه وعقله اسمه الفيلق بن يونان بن عبد الصليب، ويكنى أبا جبير، وكان هذا الراهب قد قرأ الكتب القديمة، وكان عنده سِفْرٌ من عهد المسيح (ع). وكان هذا الفيلق كثيراً ما يذكر النبي (ص) ويَعِدُ الرهبان بخروجه، وكان إذا قرأ السِفْر عليهم ووصل فيه إلى ذكر صفاته (ص)، يبكي ويقول: «يا أولادي، متى تبشرونني بقدوم البشير النذير الذي يبعثه الله من تهامة، متوَّجاً بتاج الكرامة، تُظلِلّهُ الغمامة، يشفع في العُصاةِ يوم القيامة؟»؛ ولم يزل كذلك يبكي ليله ونهاره شوقاً إلى النبي (ص)، حتى قال له الرهبان: «لقد قتلت نفسك بالبكاء والتشوق إلى هذا الذي تذكره، فعسى أن يكون

٣٦ـ ذُكرت للنبي (ص) في رحلته هذه التي قام بها بعد لقائه خديجة (ع) وسَيْرِه في تجارتها، عدة كرامات ومعجزات أخرى غير التي تقدمت، ومثلها، منها أنه (ص) بعد استخراجه الماء نبعاً حتى طفح كما ذكرنا، طلَبَ من ميسرة شيئاً من التمر، فلما أتاه به، جعل (ص) يأكل منه ويغرس النَوَى في الأرض، فسأله العباس عن الهدف من ذلك، فقال: «يا عم أريد أن اغرسها نخلاً»؛ قال العباس: «ومتى تطعم؟»؛ قال (ص): «نأكل منها، ونتزود ان شاء الله تعالى»؛ قال: «يا أبن أخي، النخلةُ إذا غُرِسَت لا تثمر في أقل من خمس سنين»؛ قال (ص): «يا عم سوف ترى من آيات ربي الكبرى». ثم ارتحل (ص) بالجموع، فلما تواروا عن الوادي، توجه إلى العباس وقال: «يا عم ارجع إلى الموضع الذي فيه النخلات، واجمع لنا ما نأكله»؛ فرجع العباس إلى موضع الغَرْس، فإذا فيه نخلات قد كبرت وازهرت وتمايلت اثمارها، فازداد حيرة وعجباً، ثم أوقر من تلك الاثمار راحلتَه، وانصرف يجدّ في السير حتى التحق بالنبي (ص) وبمن معه وقَدَّمها إليه، فجعل النبي (ص) يأكل منها ويطعم جموع القافلة الذين حاروا بذلك ودهشوا عجباً، بينما أبو جهل جعل ينادي فيهم «يا قوم لا تأكلوا مما يصنعه محمد الساحر»؛ فردّ عليه كثيرون منهم يقولون له: «أقصر يا ابن هشام عن الكلام، فما هذا بسحر!».

٣٧ـ تقع عقبة أيلة بمنتهى الساحل الشمالي الشرقي من البحر الأحمر، جنوبي دولة شرقي الأردن اليوم، ومازال تسمى: العَقَبة.

قد اقترب أوانُه!»؛ فقال: «اي والله! إنه قد ظهر بالبيت الحرام، ودينه عند الله الإسلام، فمتى تبشرونني بقدومه من أرض الحجاز؟»؛ ثم أنشأ يقول:

لَئِنْ نظرَتْ عَيني جمالَ أحِبَّتي وَهَبْتُ لِبُشْرَى ٱلوَصْلِ ما مَلَكَتْ يدي
وَملَّكْتُهُ روحي وما ليَ غيرُها وهذا قليلٌ في مَحَبَّةِ أَحْمَدِ
سأَلْتُ إلَهي أنْ يَمُنَّ بِقُربِهِ ويَجمَعَ شَمْلي بالنبِيِّ مُحمَّدِ

ولم يزل يزداد في البكاء والنحيب حتى نحل جسمه وذهب بصره، وتضاعفت حسرَته ولهفته، حتى كانت رحلة النبي (ص) في تجارة خديجة نحو الشام.

حين أقبل النبي (ص) واقترب بمن معه من الدير، صادف أن أحد الرهبان كان يشرف على الطريق ويتأمل القافلة وهي تتقدم، فلما رأى نور جبينه دَهِش وتعجب، ثم جعل يصرخ وينادي سائر الرهبان، فاجتمعوا ينظرون إلى الركب مقبلين من الحجاز، وقد تلالأ منهم النور في الفلا، وأشرق الضوء وعلا، يتقدمهم سيد الأمم وقد نشرت على رأسه الغمامة، فبادروا مسرعين نحو الراهب الكبير وقالوا له: «يا سيدنا يا أبا جبير، هذا ركبٌ قد أقبل من الحجاز»؛ فقال: «يا أولادي، كم ركبٍ قد اقبل وأتى، وأنا اعلل نفسي: بِلَعَلَّ وعَسَى»؛ قالوا: «يا أبانا رأينا منهم نوراً قد علا»؛ قال: «إذاً فقد زال الشقاء وذهب العناء»؛ ثم رفع طرفه نحو السماء وقال: «إلَهي وسيدي ومولاي، بحق هذا المحبوب الذي زاد فيه تفكري، إلا ما رَدَدْتَ عليَّ بصري!»، فما استتم كلامه حتى انقشعت العشوة عن عينيه، وردَّ الله عليه بصره مكتملاً، فازداد بذلك يقيناً بالنبي (ص) وحباً له، وعجبت الرهبان من ذلك، فقال لهم: «كيف رأيتم مقام هذا المحبوب عند علام الغيوب؟»؛ ثم انشأ يقول:

بَدا النُورُ مِن وَجهِ النبيِّ فأَشْرَقا وأَحْيا مُحِباً بالصبابة مُحْرَقا
وأبرا عيوناً قد عَمِينَ مِنَ البُكا وأَصبحَ مِن سُوءِ المَكارِهِ مُطْلَقا
تُرَى هلْ تَرَى عَيْنايَ طَلْعَةَ وَجْهِهِ وأُصبِحُ مِن رِقِّ الضَلالَةِ مُعْتَقا

ثم قال: «يا أولادي، إن كان النبيُّ المبعوثُ في هذا الركب، فهو

ينزل تحت هذه الشجرة التي هي يابسة من عهد عيسى بن مريم (ع)، وانها تخضَرُّ وتثمر من ساعتها، فهذه قد جلس تحتها عدة من الانبياء، وإن هذه البئر لم يُرَ فيها ماء من مدة مديدة، وإنه لَيأتي إليها، فينبع فيها الماء ويشرب هو منها»؛ فما كان إلا قليل حتى أقبل الركب ونزلوا حول البئر، ثم حطوا الأحمال عن الجِمال، والرهبان وكبيرهم مشرفون عليهم يتأملونهم وينظرون إليهم.

وكان النبي (ص) يحب الخلوة بنفسه، فلما اطمأن إلى نزول القوم وانزال الاحمال، توجه وحده نحو الشجرة حتى جلس تحتها، ورأى الرهبانُ أنها اخضرت واثمرت من وقتها وساعتها، كما أخبر به الراهب الفيلق، ثم قام النبي (ص) بعد برهة من تحت الشجرة ومضى إلى البئر، فنظر إليها واستحسن عمارتها، ثم تفلَ فيها فتفجر منها في الحال ماء كثير معين، فازداد الرهبان بذلك يقيناً، وأمرهم كبيرهم أن يستعدوا لضيافة الركب وقال: «يا أولادي، هذا هو المطلوب، بادروا بصنع الولائم من أحسن الطعام، لنتشرف بسيد بني هاشم فإنه سيد الأنام، لنأخذ منه الذمام لسائر الرهبان»؛ فبادروا طائعين لأمره، مسرعين إلى إرادته، وصنعوا الولائم الطيبة الفاخرة، ثم قال لهم: «انزلوا إلى أمير هؤلاء القوم وقولوا له إن أبانا يسلم عليك، وهو قد أعدّ لكم وليمة، ويسألك أن تجيبه إليها وتأكل من زاده»؛ فنزل أحد الرهبان إلى الركب، وجعل يتطلع فيهم ليميز أميرهم، إلى أن رأى أبا جهل وظنه كبير القوم ـ ولم ير رسول الله (ص) ـ فتقدم إلى أبي جهل، وأخبره بمقالة كبير الرهبان وبلغه سلامه، فانتفخ أبو جهل وفرح وتبختر بنفسه، وقام ينادي في الركب: «إن هذا الراهب قد صنع لأجلي وليمة، وأريد أن تجيبوا دعوته»؛ فقالوا: «ومن نترك عند أموالنا؟»؛ قال: ـ ولَنِعْمَ ما قيل في هذا المقام ـ «اجعلوا عليها محمداً فهو الصادق الأمين».

ومناقِبٌ شَهِدَ العدوُّ بِفَضْلِها　　　والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ
وَمليحَةٌ شَهِدَتْ لها ضراؤها　　　والحُسْنُ ما شَهِدَتْ بِهِ الضرّاءُ[٣٨]

٣٨ـ الضرّاء: في الأصل حالة الضرر والضيق، يقابلها: السرّاء؛ وواضح ان المقصود بها هنا الزوجة الضَرَّة، أي الزوجة الثانية (أو أكثر) المنافسة لزوجة الرجل؛ بل وتحتمل «ضراؤها» (الواردة في آخر الشطر الأول) أن تكون: ضراتها. =

فاستحسن القوم رأيه ومضوا إلى النبي (ص) يسألونه مراقبة أمتعتهم، فأجابهم النبي (ص) إلى ذلك.

قام القوم كلهم وانطلقوا نحو الدير، يتقدمهم أبو جهل معجباً بنفسه، إلى أن دخلوا على الراهب فحياهم بأحسن ترحيبٍ وإكرام، ثم قدموا لهم الولائم والطعام، ولما أخذ القوم في الأكل، جعل الراهب يدور حولهم وبيده سِفْر ينظر فيه مرة وفي وجوه القوم أخرى، يتأملهم واحداً واحداً، إلى أن ظهرت عليه آثار الحسرة والغضب، ثم أخذ القلنسوة فجأةً من على رأسه وضرب بها الأرض، وراح ينادي صراحة وعلناً برفيع صوته: «واخيبتاه! واطول شقوتاه!»؛ ثم انشأ يقول:

يا أهلَ نجدٍ تَقَضَّى العمرُ في أَسَفٍ مِنكمْ وقَلبيَ لمْ يبلُغْ أَمانيهِ
يا ضَيْعَةَ العُمْرِ لا وَصْلٌ أَلوذُ بِهِ مِن قُرْبِكُمْ لا ولا وَعْدٌ أُرَجِّيهِ

فبُهِتَ القوم من عمله وصريخه، وسألوه عن سبب ذلك فقال: «يا سادات قريش، هل بقي منكم أحد لم يحضر معكم؟»؛ فأجابه أبو جهل وقال: «نعم، بقي منا صبيٌّ صغير أجير على أموال بعض نسائنا»؛ فغضب بنو هاشم من كلامه، وقام إليه حمزة وضربه حتى ألقاه على قفاه، واجتمع القوم حتى خلَّصوه من يده وهو يقول لأبي جهل: «يا وغد الأنام ويا أرذل اللئام، لِمَ لمْ تقل: تأخر منا البشير النذير السراج المنير، وما تركناه عند بضائعنا وأموالنا إلا لأمانته ولم يكن فينا أصلح منه؟»؛ ثم توجه إلى الراهب وقال: «أرني السِفْر واخبرني بما فيه»؛ قال: «سيدي، هذا سفرٌ فيه صفة النبي، وأنه لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق، معتدل القامة، بين كتفيه علامة، تظلله الغمامة، يبعث من تهامة، شفيع العُصاة يوم القيامة»؛ فناداه العباس وقال: «يا راهب إذا رأيتَه تعرفه؟»؛ قال: «نعم»؛ فقال له العباس: «سر معي إلى الشجرة، فإن صاحب هذه الصفات تحتها»؛ فبادر الراهب إلى النزول من الدير، وراح يهرول في خطواته مسرعاً نحو الشجرة حتى انتهى إليها، فنهض إليه النبي (ص) قائماً، وتلقاه مستبشراً متواضعاً لا متجبراً ولا متكبراً، وقال له مبتدئاً: «مرحباً بالفيلق!»؛ فقال الراهب: «السلام عليك يا أبا الفتيان»؛

قال (ص): «وعليك السلام يا عالم الرهبان، يا ابن اليونان ويا ابن عبد الصليب»؛ قال: «وما ادراك إني الفيلق بن اليونان بن عبد الصليب؟»؛ قال (ص): «الذي أخبرك أني أبعث في آخر الزمان بالأمر العجيب»؛ فانكبَّ الراهب على قدميه يقبلهما ويقول: «يا سيد البشر، لعلك تجيبنا إلى وليمتنا، لتحصل لنا الكرامة، ونفوز بحبك يوم القيامة»؛ قال (ص): «إن القوم أَودعوني أموالهم»؛ قال: «يا مولاي تصدّق علينا بالمسير، وإن عُدِمَ[٣٩] لهم عِقال[٤٠]، فعليَّ ببعير»؛ فأجابه النبي (ص) إلى دعوته، وسار معه نحو الدير.

وكان للدير بابان كبير وصغير، وكان تجاه الصغير منهما كنيسة فيها تماثيل وتصاوير لا محيص لمن يدخل عَبْرَهُ من انحناء رأسه كأنه يسجد لها، فأحبَّ الراهب أن يدخل النبي (ص) الدير من الباب الصغير، كي يشاهد كراماته وغرائب آياته، ولما انتهى به إلى الباب، تقدم على النبي (ص) ودخل الباب منحنياً ـ على فزع من هيبة النبي (ص) بسبب تقدمه ـ فلما تبعه النبي (ص) وهمَّ بالدخول، ارتفعت بأمر الله عضادتا الباب على طول قامته، ولم يدخله إلا منتصباً، فدهش الراهب من ذلك وازداد عجباً ويقيناً به.

ومضى النبي (ص) نحو حجرة القوم يتبعه الراهب إلى أن اشرف عليهم، فنهضوا بأجمعهم قائمين على أَقدامهم اجلالاً له، ثم أجلسوه في أوساطهم بأعلى مكان، ووقف الراهب وقد حف به الرهبان بين يدي النبي (ص) كأنهم عبيد مماليك بين يدي سيدهم، وقدّموا له طرائف الشام وأنواع الفواكه والطعام، ثم رمق الراهب بطرفه نحو السماء وقال: «إلّهي وسيدي ومولاي، أرني خاتم النبوة»؛ فلم يُتم دعاءه حتى ارتفعت أمام عينيه ثياب النبي (ص) عن ظهره بأمر الله سبحانه، وبانَ خاتم النبوة بين كتفيه، وسطع منه نور أضاء به المجلس، فخرَّ الراهب ساجداً، ثم رفع رأسه وقال للنبي (ص): «أنت هو حقاً!»؛ فشكره النبي (ص)، ثم تفرّق

٣٩ـ عُدِم: فُقِد.

٤٠ـ العِقال: الحبل الذي يُربَط ويُشَد به الحيوان من بعير أو غيره.

القوم إلى رحالهم وقد كمد أبو جهل غيظاً وحسداً، وبقي ميسرة والراهب مع النبي (ص)؛ وإلى لقائه هذا مع الرهبان، جاءت الاشارة في الأشعار التالية التي نسبت إلى حمزة عم النبي (ص):

أنتَ المُظَلَّلُ بالغَمام وقد رأى الـ ... رُهبانِ أنَّكَ ذاكَ وأنكشَفَ الخَبَرْ
وربيتَ في بَحْبُوحِ مكَّةَ حيثُ ما ... وَضعَ الخليلُ وفاقَ فَخْرُكَ مَن فَخَر
ورَضَعْتَ في سَعْدٍ لِثَدْيِ حليمةٍ ... كَرَماً ففاض الثَدْيُ نحوكَ وأنْحَدَر

أوصاف النبي (ص) في أسفار الرهبان، وبشائرهم له بالنصر وبقاء الذكر

ثم قال الراهب للنبي (ص): «يا سيدي، أبشِرْ فإن الله يُوطِىءُ لك رقابَ العرب، وتملك سائر البلاد، وينزل عليك القرآن، وتدين لك الأنام، ودينك عند الله هو الإسلام، وتنكس الأصنام، وتمحق الأديان، وتخمد النيران، ويبقى ذكرك إلى آخر الزمان، فأسألك يا سيدي أن تتصدق علينا بالذِمام[٤١] لسائر الرهبان، حين تأخذ أمتك منهم الجزية في ذلك الزمان، فياليتني كنتُ معك حتى تُبعَثَ يا سيدَ ولدِ عدنان!»؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك وأعطاه ما سأله من الذمام. ثم قال الراهب لميسرة: «يا ميسرة، اقرأ مولاتك عني السلام، وأَعلِمْها انها قد ظفرت بسيد الأنام، وانه سيكون لها شأن من الشأن حتى إنها تَفْضُلُ سائر الخاص والعام، وحَذِّرْها من أن يفوتها القرب من هذا السيد الرفيع المقام، فإن الله تعالى سيجعل نسلها من نسله، ويبقي ذكرها إلى آخر الزمان، ويحسدها عليه كل احد، وأعلِمْها أنه لا يدخل الجنة إلا من يؤمن به ويصدّق برسالته، وأنه أشرف الأنبياء وأفضلهم وأصفاهم سريرة، واحذر عليه من اعدائه اليهود في الشام، حتى يعود إلى البيت الحرام». ثم نهض النبي (ص) وودع الراهب، ونزل من الدير حتى التحق بركبه وبدأوا يتجهزون لمتابعة رحلتهم، ثم حملوا رحالهم وساروا نحو الشام.

وكان قد سبقهم نَفَرانِ من العير هما «عبد مناة بن كنانة» و«نوفل بن

٤١ـ الذِمام: الحُرمة والحصانة والحماية.

معاوية»، فلقيهما في بعض الطريق راهب من الشام يقال له «أبو المويهب» وسألهما: «من انتما؟»؛ قالا: «نحن تجار من أهل الحرم من قريش»؛ قال: «من أي قريش؟»؛ فعرّفاه بهما، فقال الراهب: «هل قَدِمَ معكما مِن قريش غيرُكما؟»؛ قالا: «نعم»؛ واخبراه بخبر العير، حتى انتهيا إلى ذكر النبي (ص) فقالا: «وفي العير شاب من بني هاشم اسمه محمد»؛ فظهرت آثار الدهشة على وجه الراهب، وقال «إيّاهُ واللهِ أردْتُ!»؛ فقال الرجلان: «والله ما في قريشٍ أَخْمَلُ منه ذِكْراً، إنما سموه يتيم قريش، وهو أجير لامرأة منا يقال لها خديجة، فما حاجتك إليه؟»؛ فأخذ الراهب يحرّك رأسه ويقول: «هو هو والله بعينه!»؛ ثم قال: «تدلانني عليه؟»؛ قالا: «تركناه في سوق بُصْرَى»؛ وبينما هم في الكلام إذ طلع عليهم رسول الله (ص) فقال الراهب: «هو هذا!»؛ ثم تقدم إليه، واختلى به ساعة يناجيه ويكلمه، ثم أخذ يقبل بين عينيه، واخرج شيئاً من كمه فقدمه للنبي (ص)، والنبي يأبى أن يقبله، إلى أن افترقا ورجع الراهب إليهما وقال لهما: «تسمعان مني؟ هذا والله نبيّ آخر الزمان! والله سيخرج عن قريب يدعو الناس إلى شهادة أن لا إلّه إلا الله، فإذا رأيتم ذلك فاتبعوه»؛ ثم قال: «هل وُلِدَ لعمه أبي طالب ولدٌ يقال له عليّ؟»؛ قالا: «لا»؛ قال: «اما إنه قد وُلِدَ أو سيولَدُ عن قريب، وهو أوَّلُ مَن يؤمن به، وإنا لَنعرفُهُ ونجد صفته عندنا بالوصية، كما نجد صفة محمد بالنبوة، وإنه سيد العرب وربَّانيها وذو قَرْنَيْها، يعطي السيف حقه، اسمُهُ في الملأ الأعلى: علي، وهو أعز الخلائق يوم القيامة ذكراً بعد الأنبياء، وتسميه الملائكة البطل الأزهر المفلح، لا يتوجه إلى وجه إلا افلح وظفر، واللهِ هو اعرف في السماء من الشمس الطالعة!»؛ ثم مضى الراهب لسبيله.

وسارت العير بعدئذٍ متابعة رحلتها باتجاه الشام، وحدث أن انقطع عنهم بعيران لخديجة، وكان معهما ميسرة، فخاف على نفسه وعلى البعيرين، فانطلق يسعى مسرعاً حتى لحق بالنبي (ص) في أول الركب يخبره بضعف البعيرين وتوقفهما، فأقبل النبي (ص) معه إلى البعيرين ووضع يديه على أسفل أرجلهما، وأخذ يعوّذهما بكلمات، فلم يتم تعويذه حتى قام البعيران ولهما رغاء، وأخذا يسرعان في المشي حتى تقدما على

الركب، وكان حينئذٍ «خزيمة بن حكيم» حاضراً ـ وكانت له قرابة مع خديجة (ع) ، وكان يحب النبي (ص) كثيراً ـ فلما رأى ذلك ازداد للنبي حباً، وله ملازمة، وعلى حفاظته حرصاً.

ثم سار الركب يتقدمهم النبي(ص) إلى أن نزلوا قريباً من صومعة راهب من رهبان الشام، فنزل النبي (ص) وحده تحت شجرة يابسة قحلة[٤٢] قد تساقط وَرَقُها ونُخِرَ عُودُها، ونزل الناس متفرقين، وما إن اطمأن النبي (ص) تحت الشجرة حتى أنْوَرَتْ وأشرقَتْ وٱعشَوْشَبَ ما حولَها، وأينعَ ثمرها وتدلّت اغصانها حتى رفرفت على رأسه الشريف، وكان ذلك بعين الراهب، فلم يملك نفسه عن أن ينحدر من صومعته مسرعاً، وتقدم إلى النبي (ص) مبادراً يقول: «سألتك باللات والعزى»، فانقبض النبي (ص) من سماع ذلك وغضب، ثم قال له: «إليك عني! فما تكلمت العرب بكلمة أثقل عليَّ من هذه الكلمة!» ـ وكان ذلك من الراهب مكراً واختباراً ـ وكان معه رَقٌّ[٤٣] أبيض، فأخذ ينظر فيه مرة وإلى النبي أخرى، إلى أن أكب على النبي (ص) ينظر فيه مَليّاً ويقول: «هو هو ومُنزِلِ الانجيل».

حدث ذلك بمرأى ومسمع من خزيمة، فظن أن الراهب يريد مكراً بالنبي (ص)، فضرب بيده على قائمة سيفه وانتزعه، وجعل ينادي برفيع صوته: «يا آل غالب، يا آل غالب»؛ فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية يسألونه عما راعه، ففزع الراهب من ذلك، وانصرف هارباً يسعى نحو صومعته، إلى أن دخلها وأغلق عليه بابها، ثم اشرف عليهم يقول: «يا قوم، ما الذي راعكم مني؟ فوالذي رفع السماواتِ بغيرِ عَمَدٍ ما نزل بي ركبٌ احبُّ إليَّ منكم، واني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين، يُبعَثُ بالحق المقبول والسيف المسلول[٤٤]، وهو خاتم النبيين، فمن اطاعه نجا، ومن عصاه غوى»؛ ولم

٤٢ـ قحلة: جافة يابسة وهزيلة.

٤٣ـ الرَّق: جلد رقيق يُكتَبُ عليه.

٤٤ـ في الأصل في الطبعة الأولى: السيف المسلول وبالذبح الأكبر(؟؟).

يزل الراهب يكلمهم بأمثال ذلك، إلى أن هدأت الفورة فيهم، ثم أقبل على خزيمة يسأله عن نسبته إلى النبي (ص) وهل هو من قومه؟ فقال خزيمة: «لا، ولكني خادم له»؛ ثم حدَّثه بحديث البعيرين، فقال الراهب: «إعلم أيها الرجل أنه النبي الذي يُبعَثُ في آخر الزمان، وإني مفوِّضٌ إليك أمراً ومُسْتَكْتِمُكَ خبراً، وعاهدٌ إليك عهداً»؛ قال خزيمة: «وما هو؟ فإني سامعٌ لقولك، وكاتمٌ لسرّك، ومطيعٌ لأمرك»؛ فقال الراهب: «إني أجد في هذه الصحيفة أنه يَظْهَرُ على البلاد، ويُنْصَرُ على العباد، ولا تُرَدُّ له راية، ولا تدرك له غاية[٤٥]، وان له أعداءً اكثرُهم اليهود أعداءُ الله، فاْحذرهم عليه»؛ فأسرَّ خزيمة ذلك في نفسه، ثم اقبل على النبي (ص) يقول: «يا محمد، إني لأرَى فيك شيئاً ما رأيتُه في أحد من الناس، وإني لأحسبُكَ النبيَّ الذي يُذكَر أنه يخرجِ من تهامة، وإنك لصريح في ميلادك، والأمينُ في أنفُسِ قومك، واني لأرى لك من الناس محبة شديدة، وإني مصدقُكَ في قولك، وناصرُكَ على عدوّك»؛ فلم يردّ عليه النبي (ص) بشيء.

النبي يربح في تجارته أضعاف ربح مرافقيه

ثم انطلقوا يسيرون نحو الشام، إلى أن بلغوا مدينة تسمى «براة»، فنزلوا وحطوا بها رحالهم، وبادر أهل المدينة إليهم لشراء المتاع، فباعتهم قريشُ بضائعها بأيسر بيعٍ وأغلى ثمن، ما خلا النبي (ص)، فإنه لم يبع شيئاً من متاعه وتجارته، وفرح بذلك أبو جهل وأصحابه مستهزئين بالنبي (ص) وقلة معرفته بأمر التجارة، حتى قال أبو جهل: «والله ما رأتْ خديجةُ سفرةً أشأمَ من هذه السفرة، فهو لم يبع من بضائعها شيئاً»؛ إلى أن انقضى النهار وتفرق الناس إلى محالّهم.

فلما أصبح الصباح، اقبلت جموع من العرب وقبائلهم من كل جانب ومكان، يريدون التجارة وابتياع البضائع، فقد كان بلغهم قدوم التجار والركب من الحجاز، فلم يجدوا إلا أحمال النبي (ص) وبضائع خديجة، فباعها النبي (ص) بأضعاف ما باعت به قريش، وغنم أرباحاً

٤٥ـ غايتُه لا تُدرك: لا أحد يَبْلُغُها.

كثيرة واضعافاً مضاعفة، فازداد أبو جهل حسداً وغيظاً، واغتمَّ من ذلك غماً شديداً.

حبْر يهودي يحاول قتل النبي (ص)، ورهطه يقاتلون بني هاشم.

وكان قد بقي من أحمال النبي (ص) حملُ أديم[٤٦] فقط، فجاء إليه رجل من أحبار اليهود وكهانهم ـ اسمه «سعيد بن قمطمور» ـ كان قد اطلع في كتبه على صفة النبي (ص)، فلما نظر إليه عرفه بالنور الذي في جبهته، وجعل يقول لنفسه: «هذا هو الذي يُسفِّهُ أَحلامَنا ويعطل أدياننا ويرمل نساءنا، ولابد لي من أن احتال على قتله»، فدنا منه وقال: «يا سيدي، بكم هذا الحِمل؟»؛ قال (ص): «بخمس مئة درهم لا ينقص منها شيء»؛ قال: «اشتريت، بشرط أن تسير معي إلى منزلي وتأكل من طعامي، حتى تحصل لنا البركة»؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وحمل اليهوديُ حِملَ الأديم يتبعه النبي (ص)، إلى أن قربا من داره، فسبق اليهودي إلى زوجته وأمرها أن تصعد بفردة الرَحَى[٤٧] إلى فوق باب الدار، ثم ترميها على رأس النبي (ص) عند انصرافه وخروجه منها؛ فدخل النبي (ص) الدار، وفعلت المرأة ما أمرها به بعلها. ولما قبض النبي (ص) الدراهم وانصرف راجعاً إلى باب الدار وهمت المرأة بالقاء الرحى، اشرق من وجهه (ص) نور غشِيَ عينَ المرأة، ورجف قلبها واضطربت جوارحها، وأمسك الله يديها عن التحرك حتى مرّ النبي (ص) وخرج من الدار، فلما ابتعد (ص) قليلاً زال عن المرأة ما أصابها، ورمت الرحى فسقطت على ولدين لها كانا قائمين بفناء الباب وهلكا في ساعتهما، فصرخ اليهودي وزوجته، وجعل ينادي في قومه من بني قريظة ويستغيث بهم، حتى اجتمعوا إليه من كل ناحية، فأخبرهم الخبر وقال لهم: «اعلموا أنه قد حل ببلدكم هذا الرجلُ الذي يعطل اديانكم ويسفِّهُ احلامكم، وقد دخل منزلي وأكل من طعامي،

٤٦ـ الأديم: الجلد المدبوغ.

٤٧ـ الرَحَى: الطاحون، والمقصود الصخرة الكبيرة التي تسحق وتطحن ما تدور فوقه.

ثم قتل أولادي وانصرف»؛ فركبت اليهود خيولهم، وجردوا سيوفهم، ومضوا نحو ركب النبي (ص) ليهجموا عليهم ويبيدوهم عن آخرهم، فأحسّ بهم الركب، فنهض بنو هاشم يتقدمهم الأسد الهجوم حمزة (ع)، وارتفع الصياح، فاستعدوا للكفاح وشهروا الصِفاح، استعداداً واستقبالاً لليهود.

وكان حمزة (ع) قد ركب على جواد مُضمَّر حسن المنظر، مليح المخبر صافي الجوهر ـ قيل انه كان من خيل قيصر ـ وتقلد سيفه ولبس درعه واعتقل رمحه، ثم بادر فهجم هو على اليهود، وتبعه أصحابه، فجاشت خيل بني هاشم عليهم من كل مكان، إلى أن أحلُّوا بهم الوَبال، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفرقوهم تفريقا ومزّقوهم تمزيقا، حتى انصرفوا هاربين من سيوف بني هاشم إلى بيوتهم، وقد اجهدهم ما نزل بهم، بعد أن غنمت قريش منهم اسلابا كثيرة[٤٨].

بدء العودة إلى مكة

ثم تجهز ركب قريش للانصراف والرجوع إلى مكة، وارتحلوا إلى أن نزلوا منزلاً كثير الأشجار والأنهار، فقام فيهم ميسرة وقال: «يا قوم، ما منكم أحد إلا وقد سافر مراراً للتجارة، فهل رأيتم سفرة أكثر بركة وربحاً من هذه السفرة؟ ألا إن ذلك إنما كان ببركة محمد! وإنه قد نشأ فيكم وهو قليل المال، فهل لكم أن تجمعوا له شيئاً بينكم تقدمونه له على سبيل الهدية حتى يستعين به على حاله؟»؛ فأجابه القوم إلى ذلك، وأخرج كل منهم من ماله شيئاً، فجمعوها واتوا بها إلى النبي (صلعم) على أنها هدية ـ وكان (ص) يحب الهدية ويكره الصدقة ـ فأخذها (ص) ودفعها إلى ميسرة كي لا يكون ردَّ احسانهم وهداياهم.

ثم ارتحلوا يجدون السير ويقطعون الفيافي والأودية، إلى أن نزلوا

٤٨ـ ذُكر أيضاً أن اليهود بعد هزيمتهم تلك، حاولوا الوصول إلى النبي (ص) عن طريق خطفه، وكذا عن طريق اقناع رفاق سفره من قريش وحتى بني هاشم بتسليمهم اياه لأنه سيخرب ديارهم ويكسر أصنامهم ويعطل رجالهم، ولكن محاولتهم تلك أيضاً باءت بالفشل.

الوادي الذي تزودوا منه التمر، ونزل النبي (ص) منفرداً ـ كعادته ـ في ظل شجرة هناك، كانت قريبة من صومعة راهب يقال له «نسطور»، فأخرج الراهب رأسه من صومعته، وما إن رأى النبي (ص) ونور جبينه حتى أقبل نحو ميسرة وسأله: «مَن هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟»؛ قال: «هذا رجل من قريش من أهل الحرم»؛ فقال: «ما نزل تحت هذه الشجرة على هذه الصورة إلا نبي». ثم أقبل نحو النبي (ص) ينظر في وجهه، حتى عرفه بالصفات التي في كتبه، فانكب على يديه ورجليه يقبلها ويقول: «اشهد أن لا إلٰه إلا الله، وانك محمد رسول الله»؛ ثم توجه إلى ميسرة يوصيه بملازمة خدمته وقال له: «أَطِعه في أَوامره ونواهيه، فإنه نبي؛ والله ما جلس هذا المجلسَ بعد عيسى أحدٌ غيره، ولقد بشر به عيسى، وهو يملك الأرض بأسرها»؛ ثم انصرف. ولم يزل ميسرة يزداد حباً للنبي (ص) ويقيناً به، ويقول له: «قد ربحنا في هذه السفرة ببركتك يا محمد ما لم نربحه من أربعين سنة».

ثم تابع الركبُ رحلة العودة، حتى بلغوا «الجُحْفَة» (وهي محاذية لمسجد الشجرة على بعد ستة أميال عن المدينة اليوم، وبينها وبين مكة مسافة عشرة أيام سيراً) فنزلوا بها، وأقبل الركب يُنفِذون رسلاً على عادتهم إلى مكة يبشرون أقاربهم بقدوم الركب وسلامتهم وغُنْمِهم، وأبو جهل يقول: «يا قوم ما ربحنا في أية سفرة ربحاً أكثر من سفرتنا هذه»؛ وهم يقولون: «نعم، ولكن أكثرنا ربحاً محمد»؛ قال: «ما كنت أحسب أنه يجلب العرب من خارج المدن ويبيعهم بأغلى ثمن».

ثم أقبل ميسرة على النبي (ص) يقول له: «يا قرة العين، هل ارشدك إلى خير يصل إليك؟»؛ قال (ص): «ما هو»؟؛ فأشار عليه ميسرة بالمضي إلى مكة مع الرسل المبشرين، ليكون هو (ص) المبشرَ لخديجة بسلامة أموالها وكثرة ارباحها (وكان من عادة خديجة أنها تعطي مَن يبشرها بذلك خيراً كثيراً، وأحب ميسرة أن يكون ذلك للنبي (ص) دون غيره) فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وتجهز للمسير وهو يوصي ميسرة بنفسه وبالمال خيراً، ثم ركب من ساعته مستقبَلَ الطريق، وخرج منفرداً بنفسه نحو مكة

إلى أن غاب عن الأبصار. وقد طوى الله تعالى له الأرض، حتى قطع مسافة عشرة أيام بأقل من ساعة[٤٩].

قصد النبي (ص) حين استيقظ منزل خديجة، فسمعها تردد لنفسها: «متى يصل محمد؟ متى اتمتع بالنظر إليه؟»؛ وكانت تقوم وتقعد مضطربة منتظرة حين قرع النبي (ص) الباب، فنادت الجاريةُ: «من بالباب؟»؛ قال (ص): «أنا محمد، جئت أبشّر خديجة»؛ وسمعت خديجة كلامه فاهتزت فرحاً وسروراً، وبادرت إلى النزول من أعالي قصرها مسرعة. ودخل النبي (ص) الدار وقال: «السلام عليكم يا أهل البيت»؛ فتقدمت إليه من وراء الحجاب، وردت عليه السلام ورحبت بقدومه مستبشرة، ثم قالت: «هنيئاً لك السلامة يا قرة العين!»؛ قال (ص): «وأنتِ تَهنيكِ سلامةُ أموالك»؛ قالت: «إنما تهنئني سلامتُكَ يا قرة العين فوالله أنت عندي خير من جميع الأهل والأموال!»؛ قالتها وهي تردد في نفسها الشعر الذي يقول:

جاء الحبيبُ الذي أهواهُ مِن سَفَرٍ ... فالشمسُ قد أثّرتْ في وجهِهِ أثَرا
عَجبتُ لِلشمس مِن تقبيلِ وَجْنتِهِ ... والشمسُ لا يَنْبَغي أن تُدرِكَ القَمَرا

٤٩- هنا يُنقل عن أهل البيت (ع) ان الله تعالى بعث ملكاً يقرِّب له البعيد ويهوّن عليه الصعب الشديد، وأنه حين دنا من مكة، نزلت عليه بأمر من الله سبحانه قبة من السماء فنشرت على رأسه الشريف (وقد كانت من الياقوت الأحمر، معلقة بعلائق من اللؤلؤ الأبيض، يُرَى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها، ولها أربعة أركان، وأربعة أبواب من الزبرجد والياقوت والعقيق واللؤلؤ، قد احدقت بها الملائكة ترفع أصواتها بالتسبيح والتقديس)، وهبت ريح الرحمة، وصفّقت الأشجار والأطيار والملائك، وتطاولت الجبال قائلات: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، هنيئاً لكَ مِن عبدٍ ما أكرمك على الله!»، وتباشرت الحور العين في الجنان، وأشرفن من قصورهن ينظرن إليه وينادين: «لك الحمد يا رحمٰن، هذا صاحب القبة وسيبعث». وكانت خديجة (ع) حينئذ في قصر عال لها تنظر إلى شعاب مكة، فكشف الله تعالى عن بصرها، فرأت من جهة «باب المعلى» نوراً ساطعاً وضياً لامعاً، ورأت القبة وعليها ثلاثة أعلام وقد أحدقت بها طيور خضرة، ثم رأت النبي (ص) نائماً تحتها على ظهر ناقتها الصهباء، فسألت النسوة وهي مبهورة فقلن: «لا نرى شيئاً»؛ ثم دخلت الناقة بين شِعاب مكة وغابت عن عينها.

ثم سألته عن الركب قائلة: «أين خلفتَهم؟»؛ قال (ص): «بالجحفة»؛ قالت: «ومتى عهدُكَ بهم؟»؛ قال: «ساعتي هذه»؛ فدهشت من كلامه واقشعرت عجباً وحيرة وقالت: «سألتُك بالله أنك فارقتَهم بالجحفة؟»؛ قال (ص): «نعم، ولكن طوى الله ليَ البعيد»؛ ثم قالت: «والله يا حبيبي ما كنتُ أحبُ أن تجيء هكذا وحيداً، بل كنتُ أحب أن تكونَ أولَ القومَ، وتأتي مع الركب وأنت مقدَّم الرجال، وأنا انظر إليك وأرسل إليك الجواري والعبيد على رؤوس الجبال، يتلقونك وبأيديهنّ المباخر والمعازف، ويذبحون لك الذبائح، وينحرون لقدومك العقائر، ويكون لك يوماً مشهوداً»؛ قال (ص): «إني اتيت ولم يعلم بي أحد من أهل مكة، فإن اردتِ ان أرجع رجعت الساعة، وتفعلين مُرادَك»؛ قالت: «يا سيدي أمْهِلْ قليلاً أعملْ لك زاداً»؛ ثم بادرت لعمل الزاد، إلى أن فرغت منه ووضعته في مزادة وهو ساخن يرتفع منه البخار ـ وكانت العرب تعرف طعام خديجة وتميزه من غيره بنقائه وطيب ريحه ـ ثم ملأت له قربة من ماء زمزم، وأمرت بحمل كل تلك على الناقة، فحُملت عليها، وركبها النبي (ص)؛ ثم قالت له خديجة مودعةً: «ارجع أوْدعتُك مَن طوى لك البعيد».

ولما انصرف النبي (ص) راجعاً، صعدت خديجة (ع) إلى قصرها، ورنت إلى منظرتها العالية، وراحت تنظر إلى محمد (ص) وهو يبتعد راجعاً إلى الجحفة[٥٠]، وراحت تردد قول الشاعر:

نعم ليَ مِنكُمْ مُلزِمٌ أيُّ مُلزم وَوَصْلٌ مَدَى الأيام لَمْ يَتَصَرَّمِ
ولو لَمْ يَكُنْ قلبي المُتَيَّمُ فيكُمُ جريحاً لما سالَتْ دُموعِيَ بالدَمِ
ولم يَخْلُ طرفي ساعةً مِن خَيالِكَمْ ومِن حُبِّكُمْ قلبي ومِن ذِكْرِكُمْ فَمي
ولو جَبَلٌ حَمَّلْتُموهُ بُعادَكُم لَمالَ، فما حالي بِجِسْمي وأَعظُمي؟
أَشُدُّ على كَبْدِي يَدِي فَيَرُدُّها بما فيه مِنَ وجْدِ منَ الشوقِ مُضْرَمِ

٥٠ـ في الرواية السابقة نفسها أن النبي (ص) حين فارقها عائداً، رأت خديجة (ع) القبة قد عادت ونُشرت فوق رأسه، واحدقت بها الملائكة على هيئة طيور خضر.

طَوَيْتُ الهَوَى والشوقُ يَنْشُرُ طَيَّهُ   وكَتَّمْتُ أشجاني فلَمْ تَتَكَتَّمِ
فيارب قد طالَتْ بنا مُدَّةُ النَوَى   وانتَ قديرُ تَنْظِمُ الشَمْلَ فَانْظِمِ

ثم إن النبي (ص) بعد ان سار قليلاً طويت له الأرض ثانية، والتحق بالركب في ساعة أو أقل من ذلك، وكان ذلك في ظلام الليل، وتوجه نحو خيمة ميسرة، فصرخ ميسرة يقول: «من الطارق في هذا الليل العاكر؟»؛ فأجابه النبي (ص) وقال: «أنا محمد بن عبد الله»؛ فقام إليه ميسرة يتلقاه وقال: «سيدي ما عهدتك تهزأ، وعهدي بك أنك سرت إلى مكة، فما الذي أرجعك؟»؛ قال (ص): «نعم، لقد سافرت إليها ثم رجعت»؛ فضحك ميسرة وقال: «سيدي لعلكَ سافرتَ إلى ذيل هذا الجبل ورجعت؟»؛ قال (ص): «بل قصدت البيت الحرام، ودخلت على سيدتِكَ خديجة وبشرتُها ورجعت»؛ قال: «سيدي ما عهدت منك إلا الصدق»؛ قال (ص): «يا ميسرة ما قلتُ لكَ إلا الصدق، فإن كان عندك شك في ذلك فانظر إلى زاد خديجة، فهذا خبز مولاتك، هذا ماء زمزم في القربة»؛ فلما رأى ميسرة ذلك دهش وحار، وجعل ينادي في الركب وهم بين ايقاظ ورقود ويقول: «يا معاشر قريش، يا بني النضر، ويا بني زهرة، ويا بني هاشم، هل غاب محمد عنكم غير ساعتين أو أقل؟»؛ قالوا: «لا»؛ قال: «لقد سافر إلى مكة ورجع في هذا الوقت القصير، وهذا خبز مولاتي خديجة، وهذا ماء زمزم قد أتى بهما»؛ ولما اجتمع القوم عنده ورأوا ما أخبر به ولمسوا صحة ذلك، دهشت عقولهم وراحوا يتذاكرون بينهم، فنادى فيهم أبو جهل: «يا قوم لا عجب في ذلك، ولا يبعد مثل تلك الأمور من هذا الساحر».

وصول القافلة الى مكة، واخبار محمد (ص) فيها تفتن خديجة (ع).

ثم لما اصبح الصباح، تجهز الركب للمسير، ثم ساروا نحو مكة إلى أن قربوا منها؛ وكان قد سبقهم إليها خبر قدومه وخرج أهلها يتلقونهم، وكانت جواري خديجة (ع) قد تفرقن بأمرها في الشعاب والأودية والطرقات، وبأيديهن المعازف والمباخر، يتلقَيْنَ النبيَ (ص) ويُبَخِّرْنَهُ وينثُرْنَ على رأسه الأوراد والتحف والهدايا، وكذلك تفرق عبيدها

بأمرها في الطرقات وعلى ممر النبي (ص)، ومعهم نياق يعقرونها وجمال ينحرونها كلما مرَّ (ص) على أحد منهم، فَرَحاً برجوعه وسلامته، إلى أن قدم (ص) بالأموال والبضائع المبادَلة والمشتراة محملة على الجِمال التي اقبلت متهادية كالعرائس إلى دار خديجة، وقد اصطف الناس صفوفاً وازدحموا مجتمعين يشاهدونها، وتحت كل جِملٍ ناقة هيفاء قد حملت من البضائع والتجارة والأموال ما يكاد لا يُحصَى، فدهشت الجموع من ذلك وذهلت عقولهم عجباً وحيرة، يسأل بعضهم بعضاً قائلين: «لمن هذه البضائع والأموال والجمال؟»؛ فكان يقال لهم: «هذه كلها مما استفاده محمد لخديجة من الشام».

وكانت جِمال خديجة (ع) يصيب كثيراً منها ما يصيبُ غيرها في اسفارها من الموت والجرب وغير ذلك من البلاء، ولكنها في تلك السفرة لم يصبها شيء قط من تلك الأمور، ولم يمت منها أية واحدة، فجعلت خديجة (ع) تنظر إليها وإلى أموالها وبضائعها قد تضاعفت، فازدادت عجباً وحباً للنبي (ص)، وجعل ميسرة وسائر العبيد يفكون الرحال ويعرضون الأموال شيئاً فشيئاً على خديجة (ع) وهي وراء الحجاب، فبعثت إلى أبيها خُوَيْلِد لتعرّفه بذلك، فلما دخل عليها وهو متقلد سيفه متزين بثيابه، قامت إليه فرحَّبت به واجلسته إلى جانبها، ثم جعلت تعرض عليه البضائع وترغبه في النبي (ص) وتقول: «يا ابتِ، كلُ هذا ببركة محمد! واللّهِ يا أَبتاهُ انه مبارَكُ الطَلْعةِ ميمونُ الغُرَة، وما ربحتُ ربحاً أعظمَ من هذه السفرة!».

ثم توجهَتْ إلى ميسرة وقالت: «حدثني كيف كان سفركم؟ وما الذي عاينتموه من محمد؟»؛ قال: «يا سيدتي، وهل أطيق أن أصفَ لك بعضاً من صفاته وما عايَنْتُ منه؟! كنا نأكل معه حتى نشبع، وكان يَبقَى الطعامُ كما كان ولا ينقص منه شيء، على قلته وعلى كثرتنا، وكنت أرى وقت الهاجر مَلَكينِ يُظَلِلانِ...»؛ ثم جعل يحدثها بحديث السيل، والبئر، والثعبان، والنخل، وما أخبر به الرهبانُ، وما اوصاه به الراهب الكبير أن يُبلّغَهُ اياها، وغير ذلك... إلى أن امتلأت خديجة حباً للنبي (ص) وشوقاً إليه، ولم تطق أن تسمع أكثر مما سمعت، فقالت:

«حسبك يا ميسرة، لقد زِدتَني شوقاً إلى محمد، اذهب فأنت حرّ لوجه الله، وكذا زوجتك وأولادك!»؛ ثم انعمت عليه ـ مضافاً إلى عتقه ـ بعشرة آلاف درهم وراحلتين وخلعة سنية، حتى امتلأ فرحاً وسروراً.

ثم دعت رجالاً من قومها، وقدمت للنبي (ص) طبقاً من رُطَب وأمرتهم بالأكل معه، فأكلوا كلهم معه (ص) حتى شبعوا ولم ينقص منه شيء، وهي تنظر إليهم، فلما رأت تلك الكرامة في الرطب من النبي (ص)، لم تملك نفسها عن أن رفعت الحجاب، وتقدمت إلى النبي (ص)، ثم أمرت فنُصبَ له كرسي من العاج والآبنوس[٥١] وأجلسته عليه، وجعلت تسأله عن سفره وتجارته، فأخذ (ص) يحدثها بما باع وما اشترى، فقالت: «يا سيدي، لقد فرَّحتَني بطلعتك واسعدتني برؤيتك، فلا لقيتَ بؤساً ولا رأيت نحوساً، إن فرحي بطلعتك وسلامتك ورؤيتك لا بالاموال وتَضاعُفِها، ثم انشأت تقول:

فلو أنني أمسَيتُ في كلِّ نِعمةٍ ‌‌ ‌ ودامَتْ ليَ الدُنيا ومُلْكُ الأكاسِرَة
لَما عادَلَتْ عندي جَناحَ بَعوضَةٍ ‌ ‌ ‌ إذا لم تكنْ عَيْني لِعينِكَ ناظِرَة

ثم قالت: «يا سيدي، إن لك عندي حق البشارة، زيادة على ما كان بيننا، فهل لك الساعةَ من حاجةٍ فتُقْضَى؟»؛ فقال (ص): «حتى استريح واعود إليك»؛ ثم قام لينصرف على أن يعود في الغد.

٥١ـ شجر صلب العود كثيراً لذا هو ثمين، خشبه أسود اللون وهو ينمو في البلاد الحارة.

زواج محمد (ص) وخديجة (ع)

خرج محمد (ص) من دار خديجة (ع) وتوجه مباشرة نحو منزل عمه أبي طالب؛ وكان أبو طالب قد علم بكثرة ما ربحه النبي (ص) في سفره لخديجة وفرح بذلك فرحاً شديداً، فلما دخل عليه النبي (ص)، قام إليه واعتنقه يقبل بين عينيه ويُرحب بقدومه، وكذا بقيةُ اعمامه وعمته صفية، إلى أن جلس بينهم واحاطوا به وهو يحدثهم عن سفره وتجارته، إلى أن سأله أبو طالب يقول: «يا ولدي، ما الذي أعطتك خديجة؟»؛ قال (ص): «وعدتني بالزيادة على ما بيننا»؛ ففرح أبو طالب وقال: «هذه نعمة جليلة، وقد عزمتُ أن اترك لك مما تقبضُهُ من خديجةَ بعيرينِ تسافر عليهما، وراحلتين تصلح بهما شأنك؛ أما الذهب والفضة فأخطب لك بهما فتاة من نساء قريش، ثم لا ابالي بعدئذٍ بالموت متى أتى وكيف نزل»؛ فقال النبي (ص): «يا عماه، افعل مابدا لك».

ثم لما كانت غداة غد، قام النبي (ص) واغتسل من وعك السفر، وتطيب وسرَّح رأسه، ولبس أفخر اثوابه، ثم مضى نحو دار خديجة حتى انتهى إليها ودخل عليها، وما كان عندها سوى ميسرة، فبادرت إلى القيام له والترحيب بقدومه، وهي تردد في نفسها الأشعار التي تنطبق عليه:

دنا فَرَمَى مِن قوسِ حاجبِهِ سَهما — فصادَفَني حتى قُتِلتُ بهِ ظُلْما
وأسْفَرَ عن وجهٍ وأَسْبَلَ شَعْرَهُ — فباتَ يُباهي البدْرَ في ليلةٍ ظَلْما
ولم أدرِ حتى زارَ مِن غير مَوْعدٍ — على رَغْمِ واشٍ ما أحاط بهِ علما
وعَلَّمني مِن حُسنِ طِيبِ حديثِهِ — مُنادَمَةً تَستنطقُ الصَخرةَ الصَمّا

ثم قالت: «ياسيدي، نَعِمْتَ الصباح، ودامت لك الأفراح، هل مِن

حاجةٍ فتُقْضَى؟»»؛ فَٱسْتَحْيَى النبي (ص) حتى طأطأ رأسه وعرق جبينه، فاقبلت عليه تلاطفه بالكلام إلى أن قالت: «يا سيدي، إذا سألتك عن شيء هل تخبرني به؟»»؛ قال (ص): «نعم»؛ قالت: «إذا أخذتَ الجمال والمالَ مِن عندي ما تريد أن تصنع بها؟»»؛ قال (ص): «وما تريدين بذلك»»؛ قالت: «أزيدك ما أقدر عليه»؛ قال (ص): «اعلمي أن عمي أبا طالب قد رأى أن يترك لي بعيرين أسافر عليهما، وراحلتين أُصلِح بهما شأني؛ وأما الذهب والفضة فيخطُبُ لي بهما امرأةً من قومي، تقتنع مني بالقليل ولا تكلفني ما لا أطيق»؛ فتبسمت خديجة (ع) وقالت: «يا سيدي، أما ترضى أني أَخطُبُ لك امرأة تَحْسُنُ بقلبي؟»»؛ قال (ص): «بلى»؛ قالت: «قد وجدتُ لك زوجة من أهل مكة من قومك، اكثرهن مالاً، وأحسنهن جمالاً، وأعظمهن كمالاً، وأعفهن فرجاً، وأبسطهن يداً، وهي طاهرة مصونة، تساعدك على الأمور، وتقنع منك بالميسور، ولا ترضى من غيرك بالكثير، وهي قريبة منك في النَسَبْ، يحسدك عليها الملوك والعرب؛ غير أني أصف لك عَيْبَها كما وصفتُ لك خيرَها»؛ قال (ص): «وما ذلك؟»»؛ قالت: «أنها عرفَتْ قبلَكَ رجلين، وهي أكبر منك سناً»؛ فسألها النبي (ص)؛ عنها وقال: «سَمّيها لي»؛ فقالت: «سيدي هي مملوكتك خديجة»؛ فأطرق النبي (ص) رأسه خجلا، وعرق جبينه وأمسك عن الكلام، فأعادت عليه القول تلحّ عليه بالجواب، وهو ساكت لا يتكلم، إلى أن قالت: «سيدي مالك لا تجيب، وأنت لي والله لَحَبيب، وإني لا أُخالِف لك أمراً»؛ ثم اختنقت بعبرتها وهي تنظر إليه بحسرة صامتة تردد في خاطرها وبعينيها:

يا سَعدُ إن جُزْتَ بوادي الأَراك ... بلِّغْ قُلَيباً ضاعَ مني هُناك
وٱسْتَفْتِ غِزلانَ الفَلا سائِلاً ... هل لأسيرِ الحُبِ منهم فِكاك
وإنْ ترى رَكْباً بوادي الحِمَى ... فٱسأَلْهُمُ عني ومَن لي بذاك
نعَمْ سَرَوْا وٱسْتَصْبَحُوا ناظري ... والآنَ عيني تشتهي أن تَراك
ما فِيَّ مِن عُضْوٍ ولا مِفْصَلٍ ... إلا وقد رُكِّبَ فيه هَواك
عذَّبْتَني بالهَجْرِ بَعدَ الجَفا ... يا سيدي ماذا جرى، أَخبِرْ بذاك
وٱحكُمْ بما شئتَ وما تَرتَضي ... فالقلبُ لا يُرضيهِ إلا رِضاك

ثم عادت تكرر عليه الكلام حتى قال لها: «يا ابنة العم، انتِ امرأةُ ذاتُ مال، وأنا فقير لا أملك إلا ما تجودين به عليَّ، وليس مثلُك مَن يرغبُ في مثلي، وإني أَطلبُ امرأةً يكون حالها كحالي ومالها كمالي، وانت ملكة لا يصلح لك إلا الملوك»؛ فقالت: «والله يا محمدُ إن كان مالُكَ قليلاً فمالي كثير، ومن يسمح لك بنفسه كيف لا يسمح لك بماله؟ فأنا ومالي وجواريّ وجميع ما أملك بين يديكَ وفي حُكمك، لا امنعك منه شيئاً؛ وحقِ الكعبة والصفا ما كان ظني أن تُبعِدَني عنك»؛ ثم ذرفت عبرتها واسترجعت اشعار الوَجْد التي تقول:

واللّه ما هبَّ نسيمُ الشِمال	إلا تذكرتُ لَيالي الوِصال
ولا أَضا مِن نحوكم بارِقٌ	إلا تَوَهَّمتُ لطيفَ الخَيال
أحبابَنا ما خطَرَتْ فُرقَةٌ	منكمْ غَداةَ الوَصْلِ مني ببال
جَورُ الليالي خَصَّني بالجَفا	مِنكمْ ومَن يأمَنُ جَورَ الليال
رِقُّوا وجُودوا وٱرحَمُوا وٱعطِفُوا	لابدَّ لي مِنكمْ على كُلِ حال

ثم قالت له فجأة: «أُقْسِمُ بربِ ٱحتجَبَ عن الابصار، وعلمَ حقيقةَ الأسرار، اني محقةٌ لك في هذا الأمر، قم إلى عمومتك، وقل لهم يخطبوني لك من أبي، ولا تَخَفْ كثرةَ المَهْر فهو عندي، وأنا أقوم لك بالهدايا والمصانعات، فسِرْ وأَحسِنِ الظَنَّ في من أَحسنَ بك الظن»؛ فقام النبي (ص) وخرج من توه قاصداً عمه أبا طالب.

فلما دخل على أبي طالب، وجد بقية أعمامه مجتمعين عنده؛ ونَظَر إليه أبو طالب، فرأى في وجهه أثر السرور، فقال: «يا ابن أخي؛ يهنيك ما أعطتك خديجة، وأظنها قد غمرتك من عطاياها»؛ قال (ص): «يا عم، لي إليك حاجة»؛ قال: «وما هي؟»؛ قال (ص): «تنهض أنت وأعمامي هذه الساعة إلى خُوَيلِد، تخطبون لي منه خديجة»؛ فبُهِتَ أولادُ عبد المطلب من كلامه، ولم يردَّ عليه أحدٌ منهم جواباً، إلا أبو طالب إذ قال: «يا حبيبي، إليك نصير وبأمرك نستشير! أنت تعلم أن خديجةَ امرأةٌ كاملة ميمونة فاضلة، تخشى العار وتحذر الشنار[1]، ورغم أنها عَرفَتْ من

١ـ الشنار: أقبح العيب.

قبلُ رجلين، فقد خطبها ملوك العرب ورؤساؤهم، وصناديد قريش، وسادات بني هاشم، وملوك اليمن، وأكابر الطائف، وبذلوا لها الأموال الجزيلة، فلم ترغب في أحد منهم، ورأت نفسها أكبر منهم؛ وأنتَ يا ٱبنَ أخي فقيرٌ لا مالَ لك ولا تجارة، وان خديجة امرأة مزَّاحة، ولعلها مزحت عليك بكلمة، فلا تعلل نفسك بمزاحها، ولا تُسمِعْ قريشاً هذا الأمر»؛ ثم جعل أبو لهب يعاتبه في ذلك قائلاً: «يا ابن أخي، لا تجعلنا مضغة في أفواه العرب، وأنت لا تصلح لخديجة»؛ وبقي يقول أمثال ذلك حتى غضب العباس عليه وقام إليه ينتهره، وقال له: «مَهْ مَهْ، ألاَ ما عسى أن يقولوا في ابن أخي وانه والله اكثر منهم جمالاً وأزيد كمالاً؟ وبماذا تتكبر عليه خديجة؟ أبمالها أم بزيادة كمالها وجمالها؟ أُقسِمُ برب الكعبة، لئن طلبت عليه مالاً لأَركبنَّ جوادي وأطوف في الفلوات، ولأدخلنَّ على الملوك حتى اجمع له ما تطلب منه خديجة».

ثم كثرت المشاحنات بينهم في ذلك، والنبي (ص) ساكت لا يتكلم، إلى أن قال (ص): «يا معاشر الأعمام، قد اطلتم الكلام في ما لا فائدة فيه، قوموا واخطبوا لي خديجة من أبيها، فما عندكم مِن العلم مثلُ ما عندي عنها»؛ فعند ذلك نهضت صفية بنت عبد المطلب وقالت: «أنا أعلم ان ابن أخي صادق في ما يقول، ويمكن أن تكون خديجة مازحة عليه، ولكن أنا أمضي إليها، وأبين لكم الأمر». ثم لبست أفخر ثيابها وخرجت نحو دار خديجة، فلقيتها في الطريق إحدى جواري خديجة، وعرفت عزم صفية على الدخول عليها، فسبقتها إلى سيدتها واعلمتها بقدوم صفية ـ وكانت خديجة قد عزمت على النوم في حجرة تختلي فيها بنفسها ـ فبادرت إلى النهوض لتتلقاها، فعثرت بذيلها، فقالت: «لا أَفلح من عاداك يا محمد!»؛ وكانت صفية قد وصلت إلى الدار، فسمعت كلامها وقالت في نفسها: «أجاد الدليل»؛ ثم طرقت الباب ودخلت الدار، فتلقتها خديجة بكل ترحاب وتحية، وهمت أن تقدّم لها شيئاً من الطعام والفاكهة، فقالت: «يا ابنة العم، ماجئت لآكل الطعام، بل جئتُ أسألك عن كلام أهو صحيح أم لا؟»؛ فبادرت خديجة إلى الجواب قبل السؤال وقالت: «بل هو صحيح، إن شئتِ تخفينه أو شئتِ تبدينه، إنما أنا قد

خطبت محمداً لنفسي، وتحملت عنه مَهري، فلا تكذّبوه إن كان ذكَرَ لكم شيئاً من ذلك، وإني قد علمتُ أنه مؤيَّد من رب السماء»؛ فتبسمت صفية وقالت: «واللّهِ إنك لمعذورة في من احببت! واللّهِ ما شاهدتْ عيني مثلَ نور جبينه، ولا سمعت أذني أعذب من كلامه وأجلى من لفظه»؛ فأنشأت خديجة (ع) تقول:

اللّهُ أكبرُ كلُّ الحُسْنِ في العرَبِ　　كم تَحتَ غُرَّةِ هذا البَدْرِ مِن عَجَبِ
قِـوامُـهُ، ثـم إن مـالَـتْ ذَوائبُـهُ　　مِـن خلْفِـهِ، فهي تُغْنيهِ عن الأدَبِ[٢]
تبَّتْ يـدا لائمـي فيـهِ وحـاسِـدِهِ　　وليس لي في سِواهُ قَطُّ مِن أرَبِ

شعرت صفية بسعادة غامرة، وهبت لتخرج وتبشر إخوتها بما رأت وما سمعت، فقالت لهَا خديجة: «إمهِلي قليلاً»؛ وبادرت مسرعة فأخرجت خلعة سنية خلعتها على صفية، ثم ضمتها إلى صدرها باكية وهي تقول: «بالله عليكِ يا صفية إلا ما أَعَنْتِني على وصال محمد»؛ فوعدتها بذلك، ورجعت مسرعة إلى اخوتها.

لما دخلت صفية على بني هاشم، رأتهم متلهفين، وما ان رأوها حتى قالوا: «ما وراءك يا ابنة الطيبين؟»؛ قالت: «يا اخوتي، بادروا وقوموا ان كنتم قائمين، فوالله إن لها في ابن أخيكم محمد لرغبةً لا تُدرَك»؛ ففرحوا كلهم بذلك - إلا أبا لهب، فإنه ازداد غيظاً وحسداً للنبي (ص) - فزعق بهم العباس قائلاً: «انهضوا، فما قعودكم إن كان قد حصل الأمر؟»؛ فنهض القوم بأجمعهم وخرجوا نحو دار خويلد، بعد أن عمد أبو طالب إلى النبي (ص) وألبسه أحسن الثياب، وقلده سيفاً واركبه على جواده، وسار كالقمر وقد أحدقت به عمومته نجوماً حوله.

وحدث بعد انطلاقهم بقليل ان لقيهم أبو بكر بن أبي قحافة في بعض الطريق، فرحب بهم ثم قال: أين تريدون يا أولاد عبد المطلب؟ لقد كنت قاصداً إليكم في حاجة ببالي»؛ قال العباس: «وما هي؟ اذكرها»؛ قال: «رأيت في منامي كأنَّ نجماً قد ظهر في منزل أبي طالب، وارتفع إلى أفق

٢- الذوائب (جمع ذؤابة): خُصَل الشعر في الرأس.

السماء وأنار واستنار، إلى أن صار كالقمر الزاهر، ثم نزل بين الجدران، فتبعته فإذا هو قد دخل بيت خديجة بنت خُوَيْلد، ودخل معها تحت الثياب، فما تأويله؟»؛ قال أبو طالب: «ها نحن لها قاصدون، وعلى خطبتها معوِّلون».

ثم انطلقوا حتى انتهوا إلى دار خُوَيلِد، فسبقتهم الجواري إلى خويلد يخبرنه بقدوم بني هاشم إليه، وكانت الخمر قد لعبت حينئذ في رأسه، فنهض قائماً يتلقاهم إلى أن دخلوا عليه، فرحَّبَ بهم يقول: «مرحباً واهلاً بأبناء آبائنا وأعزِّ الخلق علينا»؛ ثم لما استقر بهم الجلوس قال أبو طالب: «يا خويلد، ما جئناك إلا لحاجة، وانت تعلم قُرْبنا منكم، ونحن في هذا الحرم أبناء أب واحد، وقد جئناك خاطبينَ ابنتك خديجة لسيدنا محمد، ونحن لها راغبون»؛ فغضب خويلد وقال: «مَن الخاطبُ منكم ومَن المخطوبةُ مني؟»؛ قال: «الخاطبُ منا محمد ابن أخي، والمخطوبة خديجة»؛ فاستشاط غضباً وازداد غيظاً، وكَبُرَ عليه ذلك حتى تغير لونه وقال: «والله إن فيكم لَكفاية، وانتم أعزُّ الخلق علينا، ولكنَّ خديجة قد ملكت نفسها، وإن عقلها أوفرُ مِن عقلي، وإني لم يطِبْ قلبي أن خطَبَتها الملوك، فكيف وهذا محمد فقير صعلوك؟»؛ فغضبوا بأجمعهم من جوابه، وقام إليه الأسد الهجوم حمزة فزعق به قائلاً له: «يا بادي الجهل، ويا سخيف العقل، لا تقدّر اليوم بالأمس، ولا تشاكل القمر بالشمس، أَما علمتَ أنك قد ضلَّ رُشْدُكَ وغاب عقلك؟ اتَثْلُبُ آبن أخينا؟ أما علمتَ أنه إذا أراد قدَّمنا أموالنا وأرواحنا بين يديه؟ ولكن سوف يُبيَّنُ لك غبُّ فِعْلِك»؛ ثم نهض قائماً ونفض أثوابه وصرخ باخوته يأمرهم بالنهوض والانصراف، فقاموا وانصرفوا إلى منازلهم وقد امتلأوا غيظاً وغضباً على خويلد.

وبلغ الخبر خديجةَ من جارية لها دخلت عليها؛ فقالت خديجة لها: «ما وراءكِ؟»، قالت: «أمر يغم القلوب»؛ قالت: «وما ذاك ويحَكِ؟»؛ قالت: «إن اباك قد ردَّ أولاد عبد المطلب خائبين»؛ فغلب عليها الغم والحزن، وقالت: «اطلبي لي عمي وَرَقَة»؛ فخرجت الجارية واتت به، فقامت إليه خديجة ورحَّبت به أحسن ترحيب تقول: «مرحباً بك يا عم،

فلا غابت طلعتُكَ عني!»؛ ثم اطرقت برأسها إلى الأرض وقطبت حاجبيها، فسألها ورقة عن ما بها وقال لها: «حاشاك يا خديجة من السوء! ما الذي حلَّ بك؟»؛ قالت: «يا عم، ما حال السائلِ وما نالَ المسؤول[٣]، أنا في أخسّ حال!»؛ قال: «أراك تخاطبينني بهذا الكلام كأنكِ تريدين الزواج»؛ قالت: «أجل»؛ قال: «يا خديجة، لقد خطبك الملوك والصناديد، ولم ترضي بأحدٍ منهم»؛ قالت: «ما أريد مَن يُخرجني من مكة»؛ قال: «وقد خطبكِ مَن هو مِن مكة، مثل شيبة، وعقبة، وأبي جهل، والصلت بن أبي يهاب، فرفضتهم»؛ قالت: «ما أريد مَن فيه عيب، يا عمّ صف لي عيبَ هؤلاء»؛ قال: «أما شيبة ففيه سوء الظن، وأما عقبة فهو كبير السن، وأما أبو جهل فهو بخيل متكبر كريه النفس، وأما الصلت فهو رجل مطلاق»؛ قالت: «لعن الله مَن ذكرت!».

ثم قالت خديجة لورقة بعد ان رأته قد صمت ولم يعقّب بقول: «وهل تعلم يا عم أنه قد خطبني غير هؤلاء؟»؛ قال: «سمعت أنه قد خطبك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم»؛ قالت: «يا عم صف لي عيبه»؛ فأطرق ورقة برأسه ـ وكان عنده علم بالكتب السالفة وبما يكون من أمر النبي (ص) ـ وتأمل هنيهة ثم رفع رأسه وقال: «أصف لكِ عيبه؟»؛ قالت: «نعم»؛ قال: «اعلمي يا خديجة ان اصله أصيل، وفرعه طويل، وطرفه كحيل، وخلقه جميل، وفضله عميم، وجوده عظيم! والله يا خديجةُ ما كذبتُ في ما قلت»؛ قالت: «يا عم صِف لي عَيْبه كما وصفت حُسْنَه»؛ قال: «يا خديجة إن وجهه أقمر. وجبينه أزهر، وطرفه أحور، ولفظه أعذب من المسك الأذفر[٤]، وكلامه أحلى من السكر، وإذا مشى كان كالبدر إذا بَدَر، والوَبْل[٥] إذا امطر»؛ قالت: «يا عم، إني أقول لك صف لي عيبه»؛ قال: «يا خديجة، انه مخلوق من الحسب الشامخ، والنسب الباذخ، وهو أحسن العالَم سِيرة، وأصفاهم سريرة، إذا مشى

٣ـ أي: كيف يكون حال الذي سألَ شيئاً وطلبه، وما نال مسؤوله ومطلوبه؟!

٤ـ الأذفر: الشديد الرائحة.

٥ـ الوَبْل: السحاب الحامل الماء.

تخاله ينحدر من صَبَب[٦]، وشعره كالغَيْهَب[٧]، وخداه ازهر من الورد الأحمر، وريحه أزكى من المسك الأذفر، ومنطقه أعذب من الشهد وأخير، وإني أشهِدُك يا خديجة أني أحِبه»؛ قالت: «يا عم، أراكَ كلما قلتُ لكَ صفْ لي عيبَهُ وصفتَ لي حُسْنه»؛ قال: «يا ابنتي، وهل أنا أقدر على وصف خيره؟ هيهات هيهات ذلك!»؛ ثم أنشأ يقول:

لقد عَلِمَتْ كلُّ القبائِلِ والمَلَا ... بأنَّ حبيبَ اللَّهِ أطهرُهُمْ قلبا
وأصدقُ مَن في الأرض قَوْلًا ومَوْعداً ... وأفضلُ خلقِ اللَّهِ كِلِهم قُرْبا

قالت: «يا عم ان أكثر الناس يثلبونه»[٨]؛ قال: «ان ثلبهم له أنه فقير»؛ قالت: «يا عم أما سمعت قول الشاعر:

إذا سَلِمَت روسُ الرجالِ مِنَ الأذى فما المالُ إلا مثلُ قَلْمِ الاظافِرِ

يا عم، إذا كان ماله قليلاً فمالي كثير، وإني مُحبة له على كل حال، وأريد أن أتزوج به»؛ قال: «إذاً والله تَسعَدِينَ وتَرْشُدِينَ وتحظَيْنَ بنبي كريم»؛ قالت: «يا عم، أنا التي خطبتُهُ لنفسي، ولكنَّ أبي عَمِلَ ما عَمِل...»؛ ثم اخبرته بما كان من أمر أبيها، فقال لها: «فما الذي تعطِينَني إن زوَّجتُكِ الليلةَ بمحمد؟»؛ قالت: «يا عم وهل لي شيء وهذه ذخائري بين يديك ومنزلي لك، وأنا كما قال القائل:

إذا تحقَّقَ ما عندَ صاحبِكُمْ ... مِن الغرام فذاكَ العُذْرُ يَكْفيهِ
الأنتم سكنتُمْ بقلبي فَهْوَ منزِلُكُمْ ... وصاحبُ البَيتِ أَدْرَى بالذي فيهِ»

قال: «يا خديجة إني لست أريد شيئاً من حطام الدنيا، وإنما أريد أن تشفعي لي عند محمد يوم القيامة، واعلمي يا خديجة أن بين أيدينا حساباً وكتاباً، وعقاباً وعذاباً، ولا ينجو يومئذ إلا مَن اتبع محمداً وصدَّق برسالته، فياويلَ من زُحزِحَ عن الجنة وأدخِلَ النار»؛ قالت: «يا عم لك عندي ما طلبت!».

٦ـ صَبَب أرض منحدرة، يسيل عنها الماء بسهولة، وهو يقصد أن مشيه سهل رخاء.
٧ـ الغَيْهَب: الليل الشديد السواد.
٨ـ الثَلْب: الهجاء، الطعن، الانتقاد؛ ضد: المدح.

قام وَرَقة عندئذٍ وخرج من عندها حتى دخل على أخيه خُوَيلد ـ وكان قد غلب عليه السُكر ـ فجلس عنده ورقة وقد ظهر في وجهه الغضب، إلى أن قال له: «يا أخي، ما اغفلك عن نفسك! تريد أن تقتلها أنت بنفسك!»؛ قال خويلد: «ولماذا يا أخي؟»؛ قال: «لقد خلَّفتَ بني عبد المطلب وقلوبُهم تَغلي عليك كَغلْيِ القِدْر، حتى أراد أن يهجم عليك حمزة في دارك»؛ قال: «لماذا يا أخي؟ وأيَّ ذنبٍ أذنبتُهُ إليهم؟»؛ قال: «سمعتُهُم يقولون إنك تثلُبُ ابنَ اخيهم، فإن كان وقع منك ذلك فهو عليك قبيح، وإنه واللّهِ ما وطأ الحَصَى مثلُ محمد؛ أنسيتَ ما جرى له في صغره وما بان له في كبره؟ والله ما يثلُبُه إلا لئيم!»؛ قال: «واللّهِ يا أخي ما ثَلَبتُ الرجل، وإنه خيرٌ مني، وإنما أراد أن يتزوج بخديجة»؛ قال: «وماذا تنكر منه؟»؛ قال: «والله يا أخي ما أقول فيه شيئاً، ولكن خشيتُ من وجهين: الأول أن تَسُبَّني العرب... لأني رَدَدْتُ أكابرهم وساداتهم، والآن أزوِّجها بفقير لا مال له، والثاني أن خديجة لا ترضى به»؛ قال ورقة: «أما العرب فما منهم أحد إلا وهو يحب أن يزوّجه بابنته، ويشتهي أن يكون محمد نسيبه وقريبه، وأما خديجة فإنها مذ عايَنَت فضله رضيت به، وأما أنت فقد جلبتَ. . لنفسك عداوة من بني هاشم على غير شيء، وانهم لا يتركونك، ولا سيما الأسد الهجوم، حمزة القضاء المحتوم، لا يَصُدُّه عنك صادّ ولا يردُّه منك رادٌّ، واللّهِ إن قبلتَ نصيحتي وسرتَ معي إلى بني هاشم، كان ذلك أصلحَ لك، وسألتَهم أن يرفعوا عنك يدَ العداوة وتزوج محمداً بخديجة، فإنها والله لا تصلح إلا له، وهو لا يصلح إلا لها»؛ قال: «يا أخي أخاف أن يهجموا عليَّ ويقتلوني»؛ قال ورقة: «ضمانُ هذا الأمر عليَّ، فقم معي ولا تخف»؛ فنهضا وقاما معاً وخرجا نحو دار أبي طالب، حتى انتهيا إليها ووقفا على الباب (وكان من المقدر أن أولاد عبد المطلب كانوا حينئذ مجتمعين وبينهم النبي (ص) يذاكرونه في ما صدر من خويلد) فسمعا وراء الباب حمزةَ يقول للنبي (ص): «ما فكركَ يا قُرةَ العين؟ والله لئن أمرتَني لآتينكَ الساعةَ برأس خويلد»؛ فاهتز خويلد من سماع الكلمة وغلب عليه الخوف وقال لأخيه: «اسمع يا أخي»؛ قال ورقة: «اسمع أنت»؛ قال: «دعني أرجع»؛ قال: «لا، وانظر

الآن ما أصنع؛ دعنا نأتي إليهم، فإنهم لا يُبعِدون مَن يأتيهم»؛ ثم قرع الباب، فسمعا النبي (ص) داخل الدار يقول لعمومته: «قد جاءكم خويلد وأخوه ورقة»؛ ولما فُتح لهما الباب ودخلا ـ وكانت يد خويلد في يد أخيه ـ نادى خويلد فيهم: «نعمتم صباحاً ومساءً، وكُفِيتُم شرَّ الأعداء يا أولاد زمزم والصفا»؛ فأجابه أبو طالب قائلاً: «وأنتَ يا خويلدُ كُفِيتَ ما تحذر وتخشى»؛ فانتهره حمزة (ع) وقال: «لا أهلاً ولا سهلاً لمن طلب منا بُعداً وأرانا هجراً وصدّاً»؛ قال خويلد: «ما كان ذلك مني يا سيدي، وانتم تعلمون أن خديجة وافرة العقل، وهي مالكة لنفسها، وإنما تكلمتُ بما تكلمتُ حتى أَسمَعَها ما تقول، والآن عرفت أن المرأة فيكم راغبة، فلا تؤاخذوني بما جرى، ونحن كما قال الشاعر:

ومِن عَجَبِ الأيامِ أنكَ هاجِري … ومازالتِ الأيامُ تُبدي العَجائبا
وما ليَ ذنبٌ أَستَحقُ به الجَفا … وإن كان لي ذنبٌ أتيتُكَ تائبا

وإني الآن قد رضيت لرضاها، ولأجل القرابة والنسب»؛ ثم أنشأ يقول:

عَوِّدوني الوِصالَ فالوَصْلُ عَذْبُ … وأرحموا فالفِراقُ والهَجْرُ صَعْبُ
زعَموا حين عاتَبوا أن جُرْمي … فَرْطُ حبي لهُمْ، وما ذاكَ ذَنْبُ
لا وحقِ الخضوعِ عند التلاقي … ما جزا مَن يُحِبُّ ان لا يُحَبُّ

فعند ذلك قال حمزة: «يا خويلد، أنتَ عندنا عزيز كريم، ولكنْ ما كان يجوز منك إذ جئناكَ أن تُبعِدَنا»؛ فأجابه ورقة وقال: «سيدي إنا لَنُحبُ محمداً أشدَّ محبة، ونحن على ما تقولون قَبِلْنا خطبتكم، ولكني أريد يا بني هاشم أن تكون هذه الخطبة في غَداة غدٍ على رؤوس الأشهاد، حتى يسمع الحاضر والغائب»؛ قال حمزة: «لا نخالفكم في ما تقولون»؛ فقال ورقة: «أُعْلِمُكم أن أخي له لسانٌ لا يَخْلُصُ به عند العرب، وأريد أن يوكلني في أمر ابنته خديجة، حتى أصير أنا متولي الأمر؛ وأنتم تعلمون أني قد قرأت سائر الكتب، وعرفت سائر الأديان»؛ فقال حمزة: «وكّله يا خويلد على ذلك»؛ قال خويلد: «اشهدكم يا أولاد هاشم أني قد وكلت أخي ورقة في أمر ابنتي خديجة»؛ فقال ورقة: «إني أريد أن يكون هذا الأمر عند الكعبة».

فنهضوا وخرجوا بأجمعهم نحو الكعبة، ولما انتهوا إليها وجدوا العرب مجتمعين بين زمزم والمقام، وهم جماعات كثيرة، وفيهم الأكابر والصناديد، مثل «الصلت بن أبي يهاب» و«وليمة بن الحجاج» و«هشام بن المغيرة» و«أبو جهل» و«عثمان بن مبارك» و«أسد بن غويلب» و«عقبة» و«أمية بن خلف» و«أبي سفيان» وسواهم، فوقف ورقة عليهم ونادى برفيع صوته: «نعمتم صباحاً يا سكان حرم الله»؛ فأجابوه بأجمعهم مرحبين به يقولون له: «أهلا وسهلا يا أبا البيان»؛ قال: «يا معاشر قريش، يا جميع من حضر، إني أسألكم: ما تقولون في خديجة بنت خويلد؟»؛ فرفع القوم أصواتهم بأجمعهم يقولون: «بَخٍ بَخ! لقد ذكرتَ واللهِ الشرفَ الأوفَى، والنسب الأعلى، والرأي الأزكى، ومَن لا يوجد لها نظير في نساء العرب والعجم»؛ قال: «أتحمدون أن تكون بلا بعل؟»؛ قالوا: «ليس بواجب، وقد وجدنا الخُطَّاب لها كثيرين وهي تأبى القبول»؛ قال: «يا سادات العرب، ألا إن هذا أخي قد وكلني في أمرها، وهي أمرتني أن أزوّجها، واعلمتني أن لها رغبة في سيد من سادات قريش أَبَتْ أن تسميه لي، واني أحب أن تسمعوا الوكالة منه، وان تحضروا كلكم جميعاً غداة غد في منزلها، فما يسعكم غير دارها، وان دارها تسع أهل مكة»؛ فاهتم القوم كلهم بكلامه، وطمع كل منهم أن يكون هو المطلوب، وقالوا له: «نِعْمَ الوكيلُ أنت ونعم الكفيل»؛ فتوجه إلى أخيه خويلد وقال: «تكلم ما دام السادات حاضرين»؛ فنادى خويلد يقول: «أشْهِدُكم يا سادات العرب، على أني قد نزعت نفسي من أمر ابنتي خديجة، وجعلت وكيلي وكفيلي في هذا الأمر أخي، فلا رأي فوق رأيه، ولا أمر فوق أمره»؛ فقال ورقة: «اسمعوا أيها السادات، وانه غير مجنون ولا مجبور ولا مخمور، واني أزوجها بمن شئت»؛ فنادى القوم بأجمعهم: «سمعنا وشهدنا»؛ ثم تفرق الناس إلى منازلهم فرحين، وشاع الخبر وباتت مكة تغلي بأهلها، وانصرف خويلد وقد نزع من يده حكم ابنته.

وبادر ورقة مسرعاً مسروراً إلى منزل خديجة حتى دخل عليها، فتلقته بالترحاب وقالت: «يا عم، لعلك قضيت الحاجة؟»؛ قال: «نعم، بما يَهنيكِ، وقد رجعَتْ احكامك إليَّ، فأنا وكيلك، وفي غداة غد

أزوّجك بمحمد إن شاء الله تعالى»؛ ففرحت خديجة فرحاً شديداً، وخلعت عليه خلعة سنية كان ميسرة قد اشتراها من الشام بخمس مئة دينار، فقال ورقة: «لا ترغبيني في مثل هذا، فلست براغب فيه، وإنما الرغبة في شفاعة محمد»؛ قالت: «لك ذلك عليّ»؛ قال: «قومي يا خديجة الساعة، وجهزي أمرَكِ وجمّلي منزلك، وأخرجِي ذخائرك، وعلقي ستورك، وانشري حُلَلَك، واكمدي عدوّك، فما يُدَّخر المال إلا لمثل هذا اليوم، واصنعي وليمة لا يُعْوِزُكِ فيها شيء، فإن العرب كلهم في غداة غد يأتون إلى دارك»؛ فنهضت خديجة مسرعة وبادرت إلى ما أشار به عمها، ونادت في عبيدها وجواريها، وامرتهم فأخرجوا الستور والمساند والوسائد والبُسُط المختلفة الألوان، والحلل ذوات الأثمان، والعقود والقلائد، ونشروا الرايات، وذبحوا الذبائح، وعقروا العقائر، وأعدّوا الحلويات المختلفة من كل لون، واتوا بالفواكه من كل جنس، وكانت خديجة قد اختارت للقيام بكل أمر من امور الضيافة وخدمة الوافدين، صنفاً خاصاً من جواريها وعبيدها، وعينت لحمل الأواني ونقلها ثمانين عبداً.

وخرج ورقة نحو دار أبي طالب حتى دخل عليه، فوجده واخوته مجتمعين، فأنعمهم صباحاً وقال: «ما يحبسكم عن اصلاح أمركم؟ انهضوا في أمر خديجة، فقد صار أمرها بيدي، وفي غداة غدٍ أزوّجها بمحمد إن شاء الله تعالى»؛ فقال النبي (ص): «لا انسى لك ذلك يا ورقة، وجزاك اللّه فوق صنيعك معنا»؛ وفرح أبو طالب واخوته فرحاً شديداً، وشكروه على مساعيه.

ثم لما أصبح الصباح، اقبلت الجموع والطوائف من الأكابر والقبائل والعشائر إلى دار خديجة، فوجدوها قد أعدَّت لهم المساند والوسائد والكراسي، وقد جعلت لكل منهم مجلساً في مرتبته ومحله، فدخل أبو جهل في قومه من بني مخزوم وقد أحدقوا به، وهو يختال في مشيته وزينته، قد أرخى ذوائبه من ورائه، والقى حمائل سيفه على منكبه؛ ونظر إلى صدر المجلس، فرأى كرسياً عظيماً قد نُصِبَ هناك، في أعلى مكان منه، وتحته أحد عشر كرسياً مصفوفة لم يُرَ أحسن منها، فتقدم إلى الكرسي الرفيع وهمَّ بالجلوس عليه، فصاح به ميسرة وقال: «أَمهِلْ قليلاً

ولا تَعجَلْ، فقد وُضِع كرسيُكَ عند بني مخزوم»؛ فرجع وجلس على كرسيه الذي خُصِص له وقد ظهرت عليه آثار الخزي والغضب، وٱمتلأ غيظاً وكمداً.

ولما استقر بالأقوام المقام بعد أن غص المجلس بأهله، وأخذ الناس مراتبهم، إذا بأصوات قد ارتفعت، فتواثب الكثيرون ليروا ما حدث، وإذا بأبي طالب قد دخل المجلس، ووراءه محمد (ص) يحيط به حمزة والعباس إلى جانبيه، وهو مُعْتَمٌّ بعمامة سوداء يلوح ضياءُ جبينه من تحتها، وعليه قميص جده عبد المطلب، وفي رجليه نعلاه[٩]، وبيده قضيب[١٠]، وبأصبعه خاتم من العقيق الأحمر[١١]، فشخصت إليه الأبصار عجباً من نور جبهته، وقام كل قاعد على قدميه تعظيماً له وترحيباً بقدومه، ولم يظلّ أحد منهم جالساً غير أبي جهل الذي كاد يتقطع غيظاً وحسداً.

تقدم النبيُّ (ص) ـ العريس ـ فأجلسوه في أعلى مكان، على الكرسي الاعلى الذي منعوا عنه أبا جهل وأصحابه[١٢]، وأحدق بالنبي (ص) أعمامه وعشيرته على الكراسي التي حول كرسيه ودونه، فازداد أبو جهل كيداً وحسداً وغيظاً وغضباً، وقال مستنكراً وساخراً بصوت عال: «إن كان الأمر لخديجة، لتَأخُذَنَّ محمداً»؛ فتقدم إليه الأسد

٩ـ وقيل انه كان يرتدي بُردة إلياس (ع).

١٠ـ قيل ان القضيب الذي كان بيده، انما كان قضيب إبراهيم الخليل (ع).

١١ـ جاء في رواية ان حمزة حين كان يتقدم مع رهط بني هاشم، كان يحجب محمداً (ص) عن أعين الناظرين، ثم انه جرّد سيفه من الغمد ونادى في الجموع: «يا أهل مكة... انهضوا على الأقدام ودعوا الكبر، فقد جاءكم راعي الذمار، محمد المختار، من الملك الجبار، المتوّج بالأنوار، صاحب الهيئة والوقار».

١٢ـ وروي عن أهل البيت (ع) انه عندما جلس النبي (ص) ذلك المجلس، اهتز العرش والكرسي فرحاً، وسجد الملائكة شكراً، واوحى الله تعالى إلى رضوان خازن الجنان أن يزينها، ويصفّ الحور والولدان، ويهيىء اقداح الشراب، ويزيّن الكواعب والاتراب، وأوحى إلى الأمين جبرائيل (ع) أن ينشر لواء الحمد على الكعبة، وان الجبال تطاولت وسَبحّت بحمد الملك المتعال على ما خص به محمداً، وفرحت الأرض بذلك، وشخصت إليه الموجودات يسلمون عليه ويشيرون إليه.. إلى غير ذلك من الأمور الخفية التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وأولياؤه الراسخون في العلم.

الباسل حمزة (ع) مغضباً، وقبض على أطرافه وهدده واقامه ليطرده، فمد أبو جهل يده وقبض على قائم سيفه، فسبقه حمزة وقبض على يده يعصرها[١٣]، فوكزه الحارث يقول له: «ويلك يا ابن هشام، ما أنت عديلُ مَن نهض إليك! وليس هو أمرءاً عادياً من جملة الناس الذين ترى نفسك أشرف منهم؛ لئن لم تقعد لَيأخذن رأسك»؛ فسكن أبو جهل مخافة الفتنة، وطمعاً في أن يصبح هو زوج خديجة.

ولما جلس القوم ثانية واستقر بهم المجلس، وقبل أن يقف ورقة ليتكلم، إذا بخويلد يظهر فجأة وعليه آثار الغضب، فأقبل ودخل على ابنته خديجة وراء الحجاب ـ وكان عندها من النساء خلق كثير ـ فصرخ مغضباً يقول لها: «أين عقلك يا خديجة؟ واين سؤددك؟ اني لم أرضَ لك بالملوك ورددْتُهم كبراً عليهم، وترضَينَ الآن لنفسك بصبي يتيم فقير ليس له مال، وقد كان لك بالأمس أجيراً، فيكون لك اليوم بعلاً؟ لا كان ذلك أبداً وان قَبِلتِه الآن لأَعْلُيَنَّكِ بهذا السيف، ولا شك أن هذا اليوم يوم تسفك فيه الدماء!»؛ ثم خرج من عندها كأنه مجنون، ودخل المجلس وهو ممتلىء غيظاً وغضباً، حتى توقف وسط الجمع وجعل ينادي برفيع صوته: «يا معاشر العرب، ويا ذوي المعالي والرتب، أُشهِدُكم على اني لم أرضَ محمداً لابنتي بعلاً، ولو دفع لي وزن جبل أبي قُبَيْسٍ ذهباً، فما بيني وبينه إلا السيوف، فما مثلي مَن يُخدَع بشرب المدام»؛ ولم يزل يصرخ بهفواته حتى أنشأ يقول:

ولو أنها قالتْ نَعَمْ لَعَلَوْتُها بشَفرةِ حَدٍّ للجماجمِ فاصِلِ
فَمَن رامَ تزويجَ ٱبنتي بمحمدٍ وإن قبلَتْ يا قومِ لستُ بقابلِ

فغضب أعمام النبي (ص) وعشيرته من كلامه، وتوجه حمزة إلى اخوته وقال: «ما بقي للجلوس موضع، قوموا بنا»؛ وبينما هم يهمون بالقيام إذ أقبلت جارية لخديجة واشارت إلى أبي طالب؛ فقام أبو طالب إليها وأخذته الجارية خلف الحجاب، فإذا بخديجة (ع) هناك، فسلمت

١٣ـ بل قيل أنه جعل الدم يخرج من تحت اظافره.

عليه وقالت له: «نعمت صباحاً ومساءً يا سيد العرب»؛ فردَّ عليها التحية، فقالت: «لا تغترَّ بشَقْشَقَةِ أبي، فإنه ينصلح بشيء قليل»؛ ثم ناولته كيساً فيه ألفا دينار وقالت: «يا سيدي، خذ هذا وسر به إليه كأنك تعاتبه، وأرمه في حجره»؛ فتناول أبو طالب الكيس ورجع إلى المجلس فنادى خويلد بِمَلإٍ مِن الناس وقال له: «ادنُ مني»؛ فأجابه مغضباً: «لا أدنو منك أبداً»؛ قال: «يا خويلد، انه كلام تسمعه، فإن لم يُرضِكَ فلا أحَدَ يقهرك»؛ فتوجه إليه خويلد، ولما دنا منه فتح أبو طالب الكيس وصبه في حجره، وقال: «هذه عطيةٌ من ابن أخي لك، غير مهر ابنتك»؛ فدهش خويلد من رؤية الدنانير، وانطفأت حرارته وسكن غضبه، وتبسم في وجه أبي طالب، وقبل أمر الزواج، ثم انصرف راجعاً إلى موقِفه بأعلى المجلس، وجعل ينادي على رؤوس الاشهاد برفيع صوته: «اعلموا يا معاشر العرب، يا ذَوي المعالي والرُتب، واللّهِ ما أظلَّت الخضراء ولا أقلت الغبراء، أفضلَ من محمد، ولقد رضيته لابنتي بعلاً وكفواً، فكونوا على ذلك من الشاهدين».

عندئذٍ نهض العباس قائماً وجعل ينادي في الناس: «يا معاشر العرب، هل سُقيتم الغيث إلا بابن أخي؟ وهل اخضرّ زرعكم إلا به؟ هل لأحد أن ينكر فضل محمد؟ كم له من أياد، حتى على الذين يكتمونها ويلتزمون بالحسد والعناد! قسماً لا أحد يعادل صيانته ولا أمانته! ألا فاعلموا ان محمداً لم يخطب خديجة لمالها ولا لجمالها، ان المال زائل وإلى نفاد!».

ثم توجه خويلد نحو النبي (ص) وجلس بجانبه، فأمسك الناس عن الكلام ليسمعوا ما يقول، ولكنه توجه إلى أبي طالب وقال: «فيم الانتظار يا أبا طالب عن ما طلبتم؟ اقضوا الأمر فإن الحكم لكم، وانتم الرؤساء والخطباء، وانتم البلغاء والفصحاء، فليخطبْ خطيبُكم، ويكون العقد لنا ولكم»؛ فنهض أبو طالب قائماً، وأشار إلى الناس فأنصتوا، فقال:

«الحمد لله الذي جَعَلنا مِن نَسل إبراهيمَ الخليل، وأَخرجَنا من سلالة إسماعيل، وفضَّلنا وشرَّفنا على جميع العرب، وجعلنا في حَرَمه، واسبغ علينا من نِعَمه، وصرف عنا شر نِقَمِه، وساق إلينا الرزق من كل فج عميق

ومكان سحيق، والحمد لله على ما أولانا، وله الشكر على ما أعطانا، وما به حبانا وفضلنا على الأنام، وعصمنا عن الحرام، وأمرنا بالمقاربة والوصل، وذلك ليكثر منا النسل.

وبعد، فاعلموا يا معاشر مَن حَضَر، ان ابن اخينا محمدَ بن عبد الله، لا يُوازَن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس بأحد منهم إلا عَظُم عنه، وإن كان في المال مُقِلاً، فإن المال وَرِقٌ حائل وظل زائل، وله والله خطب عظيم، ونبأ شائع، وهو خاطبٌ كريمتكم خديجة التي هي بالسخاء موصوفة، وبالعفة معروفة، المذكور فضلها، الشامخ خطبها، قد خطبها من أبيها خويلد على ما يحب من المال».

فأجابه ورقة وكان جالساً إلى جنب أخيه خويلد وقال: «إنا نريد مَهرَها المُعَجَّلَ دون المؤجل، أربعةَ آلافِ دينارٍ ذهباً، وألفَ ناقة سُودِ الحَدَق، حُمْرِ الوَبَر، وعَشرَ حُلَل، وثمانيةً وعشرين عبداً وأمة، وليس ذلك بكثير علينا»؛ قال أبو طالب: «رضينا بذلك»؛ فقال خويلد: «وأنا قد رضيتُ، وزوَّجتُ خديجة بمحمد على ذلك»؛ وقبِلَ النبي (ص) عقد النكاح[١٤].

نهض عندئذٍ حمزةُ فنثر على الحاضرين دراهم كانت معه، ثم نهض كلٌّ من أصحابه وعشيرته ونثروا ما كان معهم، وكاد أبو جهل أن يتقطع حسداً وعناداً، حتى أنه قام من مجلسه ينادي: «يا قوم هل الرجالُ مَن يمهرون النساء، أم النساء مَن يمهرن الرجال؟»؛ فقام إليه أبو طالب مغضباً وهمّ أن يبطش به، وقال له: «ما لَكَ يالُكَع[١٥] الرجال ويا رئيس الارذال؟ مثلُ محمدٍ يُحْمَلُ إليه ويُعطَى له، ومثلُكَ يُهدي ويُعطي ولا يُقبَلُ منه»؛ ثم رُفِع الحجاب فخرجت من ورائه جوارٍ بأيديهن نثار ينثرنه على الناس، وقام عبد الله بن غنم يخاطب خديجة مهنئاً وقال:

١٤- في بعض الروايات أنه حين وقع العقد، سمع الناس منادياً ينادي من السماء «ان الله تعالى قد زوج الطاهر بالطاهرة، والصادق بالصادقة»؛ وامتلأ الجوّ بأمر الله سبحانه من الطِيب، حتى جعل أهل مكة يسأل بعضهم بعضاً عنه، فيقول له صاحبه: «هذا من طيب محمد».

١٥- اللُكع: اللئيم.

هَنيئاً مَريئاً يا خديجةُ قد جَرَتْ ... لكِ الطيرُ في ما كانَ منكِ بأسعَدِ
تـزوجتِـهِ خيـرَ البَـرِيَّـةِ كلِّهـا ... ومَن ذا الذي في الناسِ مثلُ محمدِ
لقد بَشَّر البَرَّانِ عيسى بنُ مريم ... وموسى بنُ عُمرانٍ بِهِ قربَ مَوعدِ[١٦]
أَقـرَّتْ بـه الكُتَّـابُ قِـدْمـاً بـأنَـهُ ... رسـولُ مِـنَ البَطحـاءِ هـادٍ ومُهتَـدِ

ثـم نهـض النـاس إلـى منـازلهـم، وخـرج النبـي (ص) بيـن عمـومتـه وعشيرته كالقمر بين الكواكب، فرحين مسرورين نحو دار أبي طالب؛ وتوجهت نسوة بني هاشم ونساء قريش والفتيات إلى دار خديجة (ع) يضربن بالدفوف ويُقِمْن مراسم الفرح والزواج.

ولم يكن بعد وصول الرجال إلى دار عبد المطلب إلا قليلٌ، حتى أتى رسول خديجة (ع) بأربعة آلاف دينار ذهباً، ومعها خلعة سنية انفذتها إلى النبي (ص)، مع رسالة فيها: «سيدي انفذها إلى أبي»؛ فقام أبو طالب والعباس وأخذا المال والخلعة إلى خويلد، فألبساه الخلعة وسلماه المال، فازداد فرحاً ونشاطاً، وقام من وقته إلى دار خديجة حتى دخل عليها وقال لها: «يا ابنتي، في مَ الانتظار؟ قومي جهزي نفسك، فهذا مَهرُكِ قد أتوا به إليَّ، واعطوني هذه الخلعة، فوالله ما تزوج أحد بمثل زوجِك في الحُسْن ولا في الجمال».

ثم بعثت خلعة سنية أخرى مع جارية لها إلى النبي (ص) ليخلعها على عمها ورقة كي يزداد فيه حباً، ثم بعثت بعدئذٍ تطلب عمها ورقة فأقبل إليهـا، ولمـا دخـل عليهـا نـاولتـه شيئـاً كثيـراً مـن الأمـوال ليـأخـذهـا إلـى النبي (ص)، وقالت له: «سر بها إلى محمد، وقل له هذه هدية له، وهي ملكه يتصرف بها كيف يشاء، واْعلمْ يا عمُ أن مالي وعبيدي وجميعَ ما أملك وما هو تحت يدي، قد وهبته لمحمد اجلالاً واعظاماً له»؛ فانصرف ورقة مبتهجاً مسروراً مسارعاً إلى دار أبي طالب، فدخلها وقدم المال إلى

١٦ـ البَرَّان: مثنى «بَرّ»، والبَرُّ: البارُ ـ جاء في سورة مريم (ع) في القرآن الكريم على لسان عيسى المسيح (ع) في طفولته: «وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً» (الجزء ١٦، السورة ١٩ مريم، الآية ٣٢).

النبي (ص)؛ وبلغه كلام خديجة وما وهبته له، فازداد أعمامه نشاطاً وسروراً وبهجة.

بعدئذٍ قام النبي (ص) وافرغ عليه خلعة خديجة، ثم زاده خلعة أخرى، فازداد ورقة بذلك حسناً وجمالاً، ثم قام وخرج نحو الكعبة، وقد عَجِبَ الناسُ من حسنه وجماله، حتى وقف بين زمزم والمقام ينادي الجموع، فلما اجتمع الناس عنده، نادى فيهم برفيع صوته: «يا معاشر العرب، ان خديجة تُشهِدُكم على انها قد وهبت نفسها ومالها وعبيدها وخَدَمها وجميعَ ما ملكت يمينُها والمواشيَ والصِداقَ والهدايا هديةً لمحمد، اجلالا منها له، وتعظيماً ورغبة فيه، وجميع ما بَذَلَ لها مقبول منه، فكونوا عليها من الشاهدين!»؛ فكادت أحشاء أبي جهل تتقطع، واشرف على الهلاك كمداً وحسداً، وجعل يقول: «هذا المال الذي دفعه بنو هاشم إلى خويلد في مهر ابنته، كله من عند خديجة»؛ وكان يزري عليها بذلك، فقال بعضهم: «يا عجباً أتمهر النساءُ الرجال؟!».

وبلغت هذه الأقوال أبا طالب، فخرج إلى الأبطح متقلداً سيفه، حتى وقف بين الجموع فيه، ثم نادى: «يا معاشر العرب، سمعنا قول قائل وعيب عائب، فإن كانت النساء قد قمن بواجبِ حقِنا، فليس ذلك بعيبٍ، وانه لَحقٌ أن يُعطَى محمدٌ وأن يهدى إليه على رغم انف من تكلم». ثم بلغ الخبر خديجَةَ وان نساءً من قريش من زوجات الحاسدين والمتعصبين يزرين عليها مع ازواجهن في ذلك، فدعتهن وصنعت لهن طعاماً، ولما اجتمعن قالت لهن: «معاشر النساء، بلغني أن بعولتكن يعيبون عليَّ اني تزوجت بمحمد، وأنا أسألكم: هل فيكم أحد مثله؟ أو هل يوجد في بطن مكة نظيره في جماله وكماله وفضله وأخلاقه الرضية؟ الا فاْعلمن أني تزوجته لما قد رأيت فيه وسمعت عنه، فلا يتكلمَنَّ أحدٌ في ما لا يعنيه»؛ إلى أن انصرفن عنها.

ثم لما كان اليوم الثالث، اجتمعت السادات والأكابر من بني هاشم على عادتهم في دار خديجة، وأقبلت نساؤهم وعماتُ النبي (ص) حتى دخلن عليها، ولما اكتمل جمعهم نهض العباس بينهم وأنشأ يقول:

أَبْشِـروا بـالمَـواهِـبِ يـا آلَ فِهْـرٍ وغـالِـبِ
إفْخَـروا آلَ قَـوْمِنـا بـالثَنـا والـرَغـائـبِ
شاعَ في الناس فضلُكُمْ وعَـلا فـي المَـراتِـبِ
قـد فَخـرْتُـم بـأحمـدٍ زَيْـنِ كـلِّ الأَطـائِـبِ
فَهُـوَ كـالبـدرِ نُـورُهُ مُشْـرِقٌ غيـرُ غـائِـبِ
قـد ظفَـرْتِ خـديجـةٌ بجليـلِ المَـواهِـبَ
بِفَتَـى هـاشِـمِ الـذي مـا لَـهُ مِـن مُنـاسِـبِ
جمـعَ اللّـهُ شمْلَكُـمْ فَهْـوَ ربُّ المَطـالِـبِ
أحمـدٌ سيّـدُ الـوَرَى خيـرُ مـاشٍ وراكِـبِ
فعليـهِ الصـلاةُ مـا سـارَ عِيسٌ يـراكـبِ

هذا وخديجة وراء الستار تهتز فرحاً وسروراً، وهي تقول: «إن شأنَ محمدٍ لَعظيم وفضلَه لَعميم، وجودَه لجَسيم»؛ ثم نثرَتْ على الرجال والنساء من المال والطِيب ما أدهش الجميع، إلى أن قاموا كلهم بعد التهاني وتناول الأطعمة والأشربة، وانصرفوا إلى منازلهم.

ثم نهضت خديجة وانفذت إلى أبي طالب (ع) من الغنم والدراهم والدنانير والثياب والطيب ولوازم الوليمة أشياء كثيرة، فبعث أبو طالب ودعا أهل مكة، وأعدّ لهم على مدى ثلاثة أيام بلياليها وليمة عظيمة عجبت منها الجموع، وألزم النبي (ص) نفسه خلالها بخدمة جميع الضيوف، فشدّ وسطه ووقف يخدم الكل يشاركه اعمامه وعشيرته مستبشرين مبتهجين، والناس يدخلون عليهم افواجاً افواجا، يتمتعون بالطعام والشراب والفواكه والحلويات، وينصرفون وقد مُلىء المحبون حباً وسروراً، والحاسدون كمداً وغيظاً.

ثم أخذت خديجة (ع) في إعداد جهازها، فبعثت إلى الطائف وغيرها من النواحي تدعو أهل الصنائع، حتى اجتمع منهم خلق كثير، وَاشتغلوا بصنائعهم، فصاغوا لها المصاغ والحُلِيّ، وفصلوا الثياب، وعملوا شموعاً من العنبر على هيئة الشجر، وأجروا عليها الذهب، وعملوا فيها التماثيل من المسك والعنبر، واعدوا لها صنوفاً من الذهب

والفضة وفيهما المسك والطيب، وهكذا لم تزل تعمل في شغل العرس ستة أشهر، ولما اكملت ما ارادت وفرغت من كل ما تحتاج إليه، علقت ستور الديباج المطرز المنقش فيها صورة الشمس والقمر، وفرشت المجالس، ووضعت المساند والوسائد من الخز والديباج، وفرشت للنبي (ص) مجلساً خاصاً به، ويختاً من الابريسم والوَشْي على سرير من العاج والأبنوس المصفح بصفائح الذهب الوهاج، وألبست جواريَها وخدمها ثياب الحرير والديباج المختلفة الألوان، ونظمت شعورهن باللؤلؤ والمرجان، وسوَّرتهن[١٧] وعلقت على اعناقهن قلائد الذهب، واوقفت الخدم وبأيديهم المجامر والدفوف من الذهب، وفيها الطيب والعنبر والبخور من الندّ والعود، وجعلت بيد كلٍ منهم مروحة منقشة بالذهب ومُقَبَّضة[١٨] بالفضة، وأمرت الجواري أن يقفن حول مجلس الرسول (ص) وبايديهن الدفوف والشموع، ونصبت وسط الدار شموعاً كثيرة طويلة على أمثال النخيل.

بعدئذ، وبعد أن اكملت كل مقدمات الفرح، حددت الليلة التالية موعداً للزفاف، وأذنت بذلك مُعْلمةً كل سامع، وبَعثت إلى بني هاشم أن يأتوا بالنبي (ص) في تلك الليلة للزفاف، ثم دعت نساء مكة جميعاً، فأقبلن أفواجاً أفواجاً، وكانت قد رفعت مجالس عمات النبي (ص) عن غيرهن.

ولما حلَّ الليل، أقبل النبي (ص) في أحسن زينة وفرحة، وقد أحدق به أعمامه وعشيرته كأنهم أسود الشرى، وهم يكبّرون الله تعالى ويحمدونه على ما وصلوا إليه من الكرامة، وحولهم عبيدهم بأيديهم الشموع والمصابيح، وهو (ص) بينهم كالبدر ليلة تمامه وكماله، وقد علا نورُ جبهته نورَ المصابيحَ، وعليه ثياب من قباطي مصر، وعمامة حمراء، والنور يخرج من بين ثناياه ومن تحت ثيابه حتى اذهل الناس، وقد كثرت الجموع في شِعاب مكة وأزقّتها، ومنهم من وقفوا على السرادقات ينظرون

١٧ـ سَوَّرتهن: ألبستهن الأساور.

١٨ـ مُقَبَّضة (بالفضة): جُعل مقبضها، . . . يدها، مسكتها (من فضة).

إلى نور جبينه، وقد دهشوا من حسنه وجماله وهيئته ووقاره، إلى أن دخل دار خديجة بين عمومته، وجلس على تخته وسريره، وذهلت النساء من نور جماله.

بدأت الجواري بضرب دفوف التهاني، ثم رحن من فرط الفرح والسرور ينشدن أبياتاً من الشعر، وأخذت النسوة بعدئذ في جلاء خديجة أولاً وثانياً وثالثاً، يأتين بها في كل مرة بجلوة خاصة مختلفة إلى النبي (ص). أما في المرة الأولى فقد أتين بها وعليها ثياب مغمدة، وعلى رأسها تاج من الذهب الأحمر مرصَّع بالدرّ والجوهر، وفي رجليها خلخالان من الذهب منقوشان بفيروزج لم يُرَ له نظير، وعليها قلائد لا تحصى من الزُّمرُّد والياقوت، وتقدمن بها إلى النبي (ص) وهن حولها يضربن الدفوف ويقلن:

أَضحَى ٱلفخارُ لنا وعِزُّ الشانِ ... ولقد سَمَوْنا في بَني عَدنانِ
أَخديجَ قد نِلتِ العُلَى بينَ الوَرَى ... وفَخَـرْتِ فيـه جُملـةَ الثَقَـلانِ[19]
أعنـي محمـداً الـذي لا مثلـهُ ... وَلَـدَ النِسـا فـي سـائر الأزمـانِ
فيه المَكارمُ والمَعالي والحَيا ... ما غَنَّت الاطيارُ في الاغصانِ
صلُّوا عليهِ وسلِّموا وترحَّمُوا ... فَهُوَ المُفضَّلُ مِن بني عَدنانِ
فَتَطاولي فيهِ خديجةُ واعلمي ... أَنْ قد خُصِصْتِ بصَفْوةِ الرَحمانِ[20]
نَبَتَ العُلَى فيكِ ويعلو في الورى ... وتقاصَرَتْ عن مَجدِكِ الثَقَلانِ

ثم اخذتها النساء بعد ظهورها أمام النبي (ص)في الجلوة الأولى، وارجعنها إلى حجرتها استعداداً للجلوة الثانية؛ ولم يكن إلا قليلٌ حتى اقبلن بها إليه ثانيةً، وقد زاد الله فيها ـ بفضل رسوله (ص) وعطيةً منه له ـ نوراً لم يَرَ الراؤون مثله، وعجِبَتْ منها النساء وبنات عبد المطلب خاصة، وأشرق من وجهها نورٌ علا نورَ المصابيح كلها حتى ذهلت النساء منه ـ وكانت خديجة (ع) امرأة طويلة شامخة بيضاء لم يُرَ في عصرها أَلطفُ

١٩ـ فَخَرتِهم: زِدتِهم فخاراً.
٢٠ـ تطاولي: ارتفعي وازدهي وتعالي (شوفي حالك).

ولا أحسنُ منها ـ فخرجت إلى النبي (ص) بين النساء وقد فاقتهن جميعاً، وعليها سقلاط[٢١] أبيض مذَهَّب، مرصع بالجوهر الأحمر والأخضر والأصفر وسائر الألوان، وخرجت أمامها وبين يديها صفيةُ بنت عبد المطلب (ع) وهي تنشدُ وتقول:

جاءَ السرورُ مع الفَرَحْ ومضى النُحوسُ مع التَرَحْ
أنوارُنا قد أقبَلَتْ والحالُ فينا قد نجح
بمحمدِ المذكورِ في كلِ المفَاوِزِ والبِطَح
لَوْ أنْ يوازَنَ احمدٌ بالخلقِ كلهِم رَجَح
ولقد بَدا مِن فضلِهِ لِقريشَ امرٌ قد وَضَح
تَمَّ السعودُ لأحمدٍ والسَعدُ منه ما بَرَح
بخديجةٍ نَبتَ الكما لُ وبحرُ نائِلِها طَفَح
يا حُسْنَها في حَلْيها والحِلمُ منها مُتَّضِح
هذا الامينُ محمدٌ ما في مدائِحِهِ كَلَح
صَلُّوا عليه لِتَسْعَدوا واللّهُ عنكمْ قد صَفَح

إلى أن أَوقَفْنَها بين يدي محمد (ص)، وأخذنَ التاج عن رأسها ووضعنه على رأسه، وهن يُهَنِّئْنَها ويقُلْنَ: «يا خديجة، لقد خُصِصْتِ الليلةَ بشيء ما خُصَّ به غيرك، ولا ناله سواك من جميع القبائل من كل العرب والعجم، فهنيئاً لك ما أوتيتِه وبَلَغتِهِ من العز والشرف».

ثم أَرْجَعْنَها إلى حجرتها تمهيداً للجلوة الثالثة، وبعد قليل عُدنَ بها وعليها ثوب أصفر، عليه حُلِيٌّ نفيسة براقة، وعلى رأسها اكليل بأعلاه جوهرة كبيرة، وبأدناه ياقوتة حمراء تضِيءُ، حتى لتكاد تكون الدار قد أشرقت منها ومن لمعانها، وزاد ذلك من حسن خديجة (ع)، ومن نورها الذي اضاء المجلس، واقبلت صفية مرة أخرى بين يديها تقول منشدة بسعادة:

---

٢١ ـ السَقلاط: ثوب ينسب إلى سَقلاطون (بفتح السين) بلدة بديار الروم ـ والسِقِلأط (بكسر السين والقاف وتشديد اللام) ومثلها السِجِلاّط: ثوب كتان مُوَشماً.

أَخذَ الشوقُ مُوثِقاتِ الفؤادِ ... وأَلِفتُ السُهادَ بَعدَ الرُقادِ
فَلَيالي اللِقا بنورِ التَداني ... مُشرقاتٌ خِلافَ طولِ البُعادِ
فُزْتِ بالفخرِ يا خديجةُ إذ ... نِلتِ منَ المُصطَفَى عظيمَ الوِدادِ
فغدا شُكرُهُ على الناسِ فَرضاً ... شاملاً كلَّ حاضرٍ ثم بادي
كَبَّرَ الناسُ والملائكُ جَمْعاً ... مع جبريل في السماء تُنادي
فُزْتَ يا أحمدي بكل الأماني ... فنَحَى اللّهُ عنكَ أهلَ العِنادِ
فعليكَ الصلاةُ ما سَرَتِ العِيـ ... سُ وحَطَّتْ لِثِقلِها في البلادِ

ثم أجلسْنَها على سرير النبي (ص)، وأَخْلَينَ لهما المجلس وخرجن من عندهما، وأَتْمَمْنَ بذلك الزفاف، وتركن العروسين ليختليا ويبدءا حياتهماالمشتركة في أحسن حال وارخى بال[٢٢].

---

٢٢ ـ وقد روي عن أهل البيت (ع) أنه عند ذلك أوحى الله تعالى إلى جبرائيل أن اهبط إلى الجنة، وخذ من مسكها قبضة، وكذا من كافورها وعنبرها، وأنثرها على جبال مكة، فامتلأت حينئذٍ شعاب مكة وأوديتها ومنازلها وطرقها من ذاك الطيب، حتى شمته عامة الناس وعجبوا منه، وجعلوا يتحادثون فيه، ونَثَرت في الجنة شجرةُ «طوبى» النثارَ على الحور العين، وأخذت الحور يلتقطنه ويتهادَيْنَه فرحاً بزواج محمد (ص) وخديجة (ع).

بين الزواج... والبعثة:

عاش النبي (ص) مع زوجه أم أولاده خديجة (ع) قرابة خمس وعشرين سنة، خمس عشرة منها قبل البعثة، وعشر سنوات بعدها. كانت حياتهما مثالاً للبناء والعطاء والوفاء. الزوج الذي يصغر زوجه بخمسة عشر عاماً والذي يعيش في بيئةٍ وزمنٍ كان العُرْفُ فيهما الإكثار من الزوجات حتى يُعَدّ الإكثار مفخرة، لم يَقرِن لها زوجاً ضُرَّة طوال حياته معها... والزوجة التي تتربع على عرش من الذهب والمال، وضعته كله بين يدي زوجها الحبيب، وصرفت كل ما في يمينها من العبيد والجواري والمواشي والأمتعة والخزائن والذهب والفضة والدُرَر والمجوهرات وغيرها في سبيل حمايته وراحته ونصرة دعوته التي كانت هي أيضاً أول امرأة آمنت بها، حتى أن الرسول (ص) قال: «أن هذا الدين إنما قام بمال خديجة وسيف علي (عليهما السلام)».

ومن الأمثلة على كرمها لأجله وتشجيعها الذين يدخلون في دينه، أنها حتى جاءت حليمة السعدية وزوجها يزوران النبي (ص) بعد اعلان دعوته، ورأت زوجها الرسول (ص) يقوم واقفاً إجلالاً لها وترحيباً بها وهو يقول «أمي أمي»، ويُبسط لها رداءه لتجلس عليه، وشهدت حليمةَ وزوجها يعلنان اسلامهما على يده (ص)، اعطت زوج حليمة أربعين رأساً من الشياة والبعير.

لذا أحب النبي (ص) خديجة (ع) حباً شديداً جعله يشتاق اليها كثيرا إذا ابتعد عنها، وما كان هذا الحب لانها كانت له زوج بيتٍ وأم أولادٍ فقط، بل لأنها كانت صديقته أيضاً ومهوى فؤادِهِ، ومَلْجَأَهُ في همومه ومُتنفَسَه في جَهوم ساعاته، فقد لقي في سنوات الدعوة قبل هجرته ـ كما سنرى ـ كثيراً من المشاق والمؤامرات والآلام وصنوف الرد والتكذيب

والطرد والإيذاء، فكان في كل أَوقات العذاب والضيق يلجأ اليها، فتهوِّن عليه الأمر وتخففه عنه، وتُسْلِيه وتثبِّتُه في دعوته، وتشجعه وتشعره بمزيد من النصرة والمؤازرة، وتفرِّج عنه الغم والكرب والهمّ. بل ان في سيرة خديجة (ع) أثناء حياتها الزوجية مع الرسول (ص)، أنه كان من نتيجة إنفاقها ثم إنفاقها في سبيله، أنْ نفد جميع ما كانت تملك، بل حتى أنها افتقرت، وحتى أعرض عنها الناس، من قريش ومن غير قريش.

هذا الاخلاص من خديجة (ع) هو الذي جعل النبي (ص) وامقاً بها ويسكن إليها لفرط حبه لها، بل ويحزن لفراقها، وكم كان حزنه (ص) كبيراً عندما أمره الله تعالى باعتزالها أربعين ليلة، توطئة لحملها بالصديقة فاطمة عليها السلام.

وكان أصل تلك القصة ـ على ما روي عن أهل البيت (ع) ـ أن النبي (ص) كان ذات يوم بالأبطح في مكة المكرمة وعنده بعض من أعمامه ومن المؤمنين به، حين هبط عليه (ص) جبرائيل (ع) في صورته العظمى، قد نشر أجنحته حتى امتدت من المشرق إلى المغرب، وناداه: «يا محمد، العلي الأعلى يقرئك السلام، ويأمرك ان تعتزل خديجة أربعين يوماً»؛ فشق ذلك على النبي (ص)، ومضى إلى بيت عمه أبي طالب (ع)، وبعث عمّاراً إلى خديجة (ع) يخبرها الخبر ويقول لها: «يا خديجة، لا تظني أن انقطاعي عنك هجرة أو قِلا، ولكن ربي عز وجل أمرني بذلك لِيَنفُذَ أمرُه، فلا تظني يا خديجة الا خيرا، فإن الله عز وجل لَيباهي بك كرام ملائكته كل يوم مراراً، فإذا جنك الليل، فأجيفي الباب، وخذي مضجعك من فراشك، حتى يأتي امر الله تعالى»؛ ولما بلغ الخبر خديجة، حزنت على فراق رسول الله حزناً شديداً، وجعلت تتزايد عليها الهموم يوماً فيوماً.

أقام النبي (ص)في منزل عمه أبي طالب أربعين يوماً وليلة، يصوم نهاره ويقوم ليله؛ ولما كان كمال الأربعين عند غياب الشمس، هبط عليه الأمين جبرائيل (ع) وقال له: «يا محمد، العلي الأعلى يقرئك السلام، ويأمرك أن تتأهب لتحيته وتحفته»؛ قال (ص): «يا جبرائيل، وما تحفة رب العالمين وما تحيته؟»؛ قال جبرائيل (ع) «لا علم لي بذلك»؛

فبادر (ص) يتهيأ لما سيأمره به الله تعالى، فأفطر أولاً من صيامه،[١]. ثم قام (ص) ليصلي، فأقبل عليه جبرائيل (ع) ينهاه عن ذلك وقال له: «ان الصلاة محرمة عليك في وقتك هذا، حتى تأتي منزل خديجة وتقاربها، فإن الله عز وجل قدَّر أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرية طيبة»؛ فوثب رسول الله (ص) قائماً وانصرف نحو دار خديجة حتى انتهى إليها، وكانت خديجة (ع) ـ التي ألفت الوحدة ـ قد أوت حينئذٍ إلى فراشها وغطت رأسها، بعد أن ارسلت ستارها واغلقت بابها وصلّت وِرْدَها وأطفأت مصباحها، على عادتها في ليالي اعتزال النبي (ص) لها، وكانت بين النوم واليقظة حين قرع النبي (ص) باب دارها، فوثبت من فراشها مستوحشة، وصاحت: «من هذا الذي يقرع حلقة لا يقرعها إلا محمد؟»؛ فناداها النبي (ص) بعذوبة كلامه وحلاوة منطقه: «افتحي يا خديجة، فأنا محمد»؛ ففرحت خديجة واستبشرت كثيراً، وبادرت مسرعة نحو الباب ففتحته، ودخل النبي (ص) فرحبت كثيراً بقدومه، وجعلت تضحك في وجهه وتفديه بنفسها. وكان من عادة النبي (ص) في سوابق الأيام عند دخوله عليها، أن يدعو باناء فيتطهر، ثم يقوم فيصلي ركعتين مختصرتين، ثم يأوي إلى فراشه؛ وأما في تلك الليلة فلم يدعُ باناء، ولم يتأهب للصلاة، بل آوى من وقته وحين دخوله الدار إلى فراش خديجة. قالت خديجة (ع) بعدئذٍ: «فلا والذي سمك السماء وأنبع الماء، ما تباعد عني النبي (ص) حتى أحسَسْتُ بثقل فاطمة في بطني».

ثم إنه لما انقضى من حمل خديجة (ع) أيام ـ وكانت نساء مكة خلالها قد هجرنها لا يدخل منهن عليها أحد، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، وكانت مستوحشة بذلك ـ سمعت ذات يوم الجنين في رحمها

---

١ ـ في بعض الروايات أن ميكائيل (ع) هبط حينئذٍ على النبي (ص) ومعه طبق مغطى بمنديل من سندس واستبرق، ووضعه بين يدي النبي (ص) وقال له: «يا محمد، ربك يأمرك أن تجعل الليلة افطارك على هذا الطعام، وانه محرم على غيرك»؛ فكشف النبي (ص) الطبق، وإذا فيه عِذقٌ من رُطَب وعنقود من عنب، فأكل منهما شبعاً وشرب عليهما الماء رياً، ثم ارتفع فاضل الطعام مع الإناء إلى السماء، وغسل جبرائيل وميكائيل (ع) يديه (ص).

يحدثها ويؤنسها، فازدادت بذلك وحشة وعجباً، واقامت على ذلك مدة وهي تكتم الأمر عن النبي (ص)، إلى أن دخل عليها رسول الله (ص) ذات يوم وسمع ذلك، فسألها وقال لها: «من يحدثك يا خديجة»؟ فأخبرته الخبر، فقال النبي (ص): «يا خديجة، هذا جبرائيل يبشرني أنها انثى، وأنها النسمة الطاهرة الميمونة، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة في الأمة يجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه».

مولد فاطمة (ع)

ولم تزل خديجة (ع)على حالها، سعيدة بحملها، مستأنسة بحديث جنينها، إلى أن حضرتها الولادة وأخذها الطَلْق، فوجهت إلى نساء قريش ليأتين إليها ويلين منها ما تلي النساء من النساء، فلم يجبنها إلى ذلك، وأرسلن إليها «انك عصيتِنا ولم تقبلي قولنا، وتزوجت بمحمد يتيم أبي طالب وهو فقير لا مال له، فلسنا نجيئك ولا نلي من أمرك شيئاً»، فازدادت خديجة بذلك غماً وكرباً؛ وبينما هي في حجرتها وحيدة تتقلب في طَلْقها وتفكر في امرها، اذ دخل عليها أربع نسوة طوال كأنهن من نساء بني هاشم، ففزعت خديجة، ولكن ما لبث أن تقدمت إحداهن وقالت لها: «لا تحزني يا خديجة، فإنا رُسُل ربك إليك، ونحن أَخَواتك: أنا سارة (امرأة الخليل إبراهيم ـ ع ـ)، وهذه آسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم ابنة عمران (أم المسيح عيسى ـ ع ـ)، وهذه سفراء بنت شعيب ـ ع ـ، (امرأة موسى ـ ع ـ).

ثم أحاطت النسوة الأربع بخديجة (ع) من جوانبها الأربعة إلى أن وضعت فاطمة (ع)، وأشرق من المولودة نور زاهر دخل بيوت مكة، ولذلك سميت «الزهراء»[٢]؛ ثم تناولتها المرأة التي كانت جالسة بين يدي

---

٢ ـ بل رُوي في بعض المصادر أنه لم يبق في شرق الأرض وغربها، موضع إلا وأشرق فيه حينئذٍ من ذلك النور، وبشر أهل الجنة بعضهم بعضاً بولادة فاطمة، وتباشرت بها الحور العين وحدث في السماء نور لم تره الملائك قبل ذلك اليوم

خديجة (ع) وغسلتها بماء الكوثر، وأخرجت خرقتين بيضاوين اشد بياضاً من اللبن وأطيب رائحة من المسك والعنبر، فلفتها بواحدة وقنعتها بالأخرى[٣]، ثم ناولتها ألى أمها خديجة وقالت لها: «خذيها ياخديجة طاهرة مطهرة زكية ميمونة بورك فيها وفي نسلها!»؛ فتناولتها خديجة (ع) فرحة مستبشرة، وقد دهشت مما شاهدته من تلك العجائب، ثم غابت النسوة؛ وألقمت خديجة ثديها الى ابنتها فاطمة (ع) فَدَرَّ الثدي في فمها دَراً كثيراً.

وبالجملة فقد روي في شأن خديجة ـ عن رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) ـ روايات كثيرة وأحاديث عديدة، تدل على عظم قدرها وعلو شأنها عند الله تعالى وعند رسوله (ص) وأوليائه (ع)، وهي أول من آمن برسول الله (ص) من النساء، كما أن علياً (ع) أول من آمن به من الرجال، وقد مكثا على ذلك ثلاث سنين قبل الخلائق كلها من الجن والإنس، ولم يكن في تلك المدة على وجه الأرض خلق يصلي ويؤمن بالله ورسوله (ص) ويأتمُّ به في الصلاة غيرهما، وأنهما مصداق قوله سبحانه ﴿السابقون السابقون، أولئك المقربون﴾[٤].. الخ، وكفى بذلك فخراً وشرفاً[٥]! وإن أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد (ص)، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران أَم المسيح (ع)، وقد اختارهن الله تعالى من بين النساء؛ وكان جبرائيل (ع) ينزل على النبي (ص) ويأمره بابلاغ السلام من الله تعالى على خديجة (ع)، فتقول في الجواب: «إن الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام،.. وعلى جبرائيل السلام»؛ وقد هبط جبرائيل على الرسول (ص) ذات يوم وقال له: «إن هذه خديجة قد أتتك باناء مغلي فيه أدام وطعام

---

٣ ـ في بعض الروايات أن تلك المرأة استنطقتها، فنطقت فاطمة (ع) بعبارات فصيحة وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أبي رسول الله سيد الأنبياء، وأن بعلي سيد الأوصياء، وأن ولديَّ سيدا الأسباط».

٤ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٧، السورة ٥٦ الواقعة: الآية ١٠.

٥ ـ ينسب بعض الروايات إلى آدم أبي البشر أنه كان يقول: «إن محمداً تكون زوجته عوناً له على دينه، وإن زوجتي كانت عوناً عليَّ».

وشراب، فأَقْرِئْها من ربها السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قَصب، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب»؛ وقد فُسر القصب في كلامه بالقصر الواسع المجوف من اللؤلؤ أو الذهب أو الجوهر.

ورزق النبي (ص) من خديجة (ع) «القاسم» و«رُقَيَّة» و«أم كلثوم» و«زينب» و«فاطمة» (ع)، فكان أبناء النبي (ص) ونسله كلهم من خديجة (ع)، ما عدا «إبراهيم» (ع)، فإنه وُلد من مارية القبطية. وكانت خديجة تُكنَّى «أم هند»، وقد ماتت في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين ـ كما أشرنا إليه ـ ولها من العمر يومئذٍ خمس وستون سنة، وقد كان وَجْد النبي (ص) عليها كبيراً وبكاؤه كثيراً؛ وكذا ابنتها الزهراء (ع)، فإنها كادت أن تهلك نفسها من البكاء والجزع، وجعلت تلوذ بأبيها رسول الله (ص) وتدور حوله وتقول له: «أَبَهْ أَبَهْ، أين أمي؟»؛ حتى هبط عليه الأمين جبرائيل (ع) يقول له: «ربك يأمرك أن تُقرِىءَ فاطمة السلام وتقول لها: إن أمك في بيت من قصب، كعابه من ذهب، وعُمُده من ياقوت احمر، وهي بين آسية ومريم ابنة عمران»؛ فقالت فاطمة: «إن الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام».

وقد صلى النبي (ص) على جنازتها ـ ولم تكن شُرعت يومئذٍ الصلاة عل الجنائز ـ وظل النبي (ص) مدة حياته بعدها يستغفر لها ويثني عليها ويُكثر من ذكرها وتذكرُّها[٦]. وبالجملة لم يتزوج النبي (ص) بأحسن ولا أفضل منها، ولا كان يُدانيها عنده (ص) أحد من زوجاته.

---

٦ ـ تردد في أكثر من مصدر من مصادر التاريخ الأسلامي القديم وفي كتب السيرة النبوية، أن أم المؤمنين عائشة غضبت مرة من كثرة ترداده (ص) لحديثها، وأخذتها الغيرة حتى جعلت تلومه (ص) وتقول له: «لقد عوضك الله عن كبيرة السن بأحسن منها»؛ فغضب النبي (ص) وقال لها: «مه يا حميراء، إن الله تبارك وتعالى قد بارك في الوَدود الوَلود! إنها صدَّقتني إذ كذَّبتم، وآمنت بي إذ كفرتم، ووَلَدَت لي إذ عَقمتم، وأنتِ ممن أعقم الله رحمهن فلم تلدي لي».

مبعثه (ص) بالنبوة
ونزول الوحي عليه بتبليغ الرسالة

حين أتى على محمد (ص) سبع وثلاثون سنة من العمر، بدأت تظهر في شخصه وتصرفاته علائم التميُّز عن مَن حوله، ودلائل النبوة المنتظَرة، ولكن المبعث الحقيقي ونزول الوحي عليه (ص) كانا عند إكماله الأربعين من عمره المبارك.

وكان مبدأ ظهور النبوة فيه (ص) حين رأى ذات يوم في منامه كأنَّ آتياً أتاه وناداه: «يا رسول الله»؛ فأنكر على القائل ذلك اللقب وتعجب منه، وأفاق مضطرباً بسببه ومتحيراً؛ ثم تكرّر له مثل تلك الرؤيا، حتى صار يميل إلى الاختلاء والانزواء والتفكر، وصار يمضي وحده إلى غار في جبل «حِراء» على طريق جبل عرفات، ويقضي أكثر أيامه فيه، إلى أن سمع ذات يوم منادياً من السماء يقول له بصوت مهيب: «يا محمد»؛ ـ وكاد الصوت من الله سبحانه ـ فاغمي على النبي (ص) من هيبة كلامه تعالى؛ ولما أفاق، انصرف مبادراً إلى دار خديجة. ولما كان اليوم التالي مضى أيضاً على عادته إلى الجبل، وبينما هو فيه وحده إذ سمع النداء كيومه السابق، وكان أيضاً أن يغمى عليه، فبادر إلى عند خديجة (ع) يقول لها: «زمِّلوني زمّلوني[1]، فوالله لقد خشيتُ على عقلي»؛ اقبلت خديجة تهون عليه أمره وتقول له: «كلا، واللّهِ لا يُخزيكَ اللّهُ أبداً! إنك لَتَصلُ

---

١ ـ زملوني: لفوني ـ متزمل: مُتلفِف.

الرَحِم، وتحمل الكَلّ[٢]، وتُكسِب المُعدِم[٣]، وتُقْري[٤] الضيف، وتُعين على النوائب».

ولم يزل النبي (ص) كل يوم يسمع نداء يخاطبه باللقب نفسه في اليقظة ولا يرى المنادي، وظل يكتم ذلك، إلى أن رأى ذات يوم وهو يمشي بين الجبال يرعى بعض أغنامٍ له، شخصاً تلقاه يقول له: «يا رسول الله»؛ فقال له النبي (ص): «من أنت؟»؛ قال: «أنا جبرائيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً»؛ حتى تكرر له ذلك - وروي أن جبرائيل (ع) كان يأتيه ولكن لا يدنو منه إلا بإذنه - حتى نزل يوماً ومعه ميكائيل (ع)، وكان النبي (ص) نائماً بين علي (ع) وأخيه جعفر، وكان عُمْرُ علي (ع) يومئذٍ حوالي عشر سنين وعُمْرُ جعفر عشرين سنة، فجلس جبرائيل (ع) عند رأس النبي (ص) وميكائيل عند رجليه، ولم ينبهاه إعظاماً له، وسأل ميكائيل جبرائيل: «إلى أيهم بُعثتَ»؛ قال: «إلى الأوسط»؛ فلما انتبه من نومه أدّى إليه جبرائيل (ع) رسالته من الله تعالى؛ ولما همَّ بالقيام أمسكه النبي (ص) وسأله عن اسمه، فقال: «أنا جبرائيل».

«إقْرَأْ...»

ثم نزل عليه يوماً آخر ومعه سبعون ألف مَلَك، ونزلت عليه الرحمة من لَدُن ساقِ العرش إلى رأسه، وهبط عليه ميكائيل في سبعين الف ملك، ونصب له جبرائيل كرسياً أتى به وقال له: «اصعدْ عليه واحمد الله تعالى»؛ ووضع على رأسه تاجاً، وأعطى بيده لواء الحمد، ولما صعد على الكرسي أخذ جبرائيل بضَبْعه[٥] وهزّه وقال: «يا محمد، اقرأ»؛ قال: «كيف أقرأ ولست بقارىء؟»؛ فأعاد عليه الكلام وأعاد النبي عليه الجواب، إلى أن

---

٢ - الكَلّ: الضعيف، الثقيل.

٣ - المُعدِم: الفقير الذي لا يجد حتى الحد الأقل لحاجته.

٤ - القِرَى: الضيافة؛ تقري الضيف: تحسن ضيافته وتكريمه.

٥ - الضَبْع: العَضُد.

قال له في الثالثة أو الرابعة: **﴿اقرأ بأسم ربكَ الذي خَلَق، خلق الإنسان من عَلَق، اقرأ وربكُ الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[٦]؛ ثم أدّى إليه ما أوحى ربه إليه.

ثم نزل النبي (ص) عن الكرسي وقد غشيه من عظمة الله وجلاله، ومما ورد على قلبه الشريف من كبير شأنه تعالى، ما ركبه من الحمى النافض[٧]، واشتد عليه ما يخافه من تكذيب قريش له، ونسبتهم الجنون إليه، واحتمال قولهم إنه يعتريه شيطان؛ وعرج جبرائيل وسائر الملائكة إلى محالهم.

ثم انصرف النبي (ص) راجعاً إلى منزل خديجة، فأنطق الله تعالى في طريقه كل جبل وحجر ومَدَر بالسلام عليه وتهنئته بالنبوة، شرحاً لصدره، وتشجيعاً لقلبه، وتسكيناً لخوفه من تكذيب قومه، فسمع من بعض الجمادات ما تقول له: «السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا وليَّ الله، السلام عليك يارسول الله»؛ ومن بعضها ما تبشره بقولها: «ابشر، فإن الله عز وجل قد فَضَّلك وجمَّلك وزينك وأكرمك فوق الخلائق أجمعين، من الأولين والآخرين»؛ ومن سواها ما تسكّن خوفه وتُسْلي عنه همه بقولها له: «لا يحزُنْكَ أن تقول قريشٌ إنك مجنون وعن الدين مفتون، فإن الفاضل مَن فضَّله ربُ العالمين، والكريم مَن كرَّمه خالق الخلق أجمعين، فلا يَضيقَنَّ صدرُك من تكذيب قريش وعُتاة العرب لك، فسوف يُبْلِغُك ربك أقصى منتهى الكرامات، ويرفعك أرفع الدرجات»؛ وسمع من بعض آخر ما أخذت به تبشره بوصِّيه وابنته وسبطيه وخلفائه من بعده، وما يؤول إليه أمره في الدنيا من انتشار دينه، وفي الآخرة من ارتفاع شأنه وعلوّ مقامه، وفي كل ذلك يزداد النبي (ص) حيرة وعجباً، إلى أن وصل إلى دار خديجة (ع).

فلما دخل على خديجة (ع) سألته عن سبب ما به من الروع

---

٦ ـ الآيات الأولى من أول الوحي بالقرآن الكريم، الجزء ٣٠، السورة ٩٦ العَلَق، الآيات: ١ ـ ٥.

٧ ـ النافِض: نوع من الحُمَّى، هي حُمَّى الرعدة.

والحمى، فأخبرها بنبوته ونزول جبرائيل عليه، فنهضت خديجة (ع) ـ مع علمها بصحة مقالته ـ وانطلقت إلى عمها وَرَقة، فلما دخلت عليه وجلست عنده، قالت له: «أخبرني عن جبرائيل، ما هو؟»؛ فاستوحش ورقة من سؤالها وقال: «قُدُّوس قدوس، ما ذُكِر جبرائيل في بلدة لا يعبدون الله فيها»؛ قالت: «إن محمداً أخبرني أنه أتاه»؛ قال: «فإن كان جبرائيل هبط إلى هذه الأرض، فقد أنزل الله إليها خيراً عظيماً»؛ ثم قال: «هذا والله الناموس الذي أنزل على موسى وعيسى بالرسالة والوحي، وإني أرى في المنام منذ ثلاث ليال متوالية أن الله أرسَل في مكة رسولاً اسمه محمد، وقد قرب وقته، وإني لست أرى في الناس من هو أفضلُ منه!»؛ قالت: «فأخبرني، هل تجد في ما قرأتَ من التوراة والإنجيل، أن الله يبعث نبياً في هذا الزمان، يكون يتيماً فيؤويه الله، وفقيراً فيغنيه الله، تكفله امرأة من قريش هي أكثرهم حسباً ومن صفاته كذا وكذا»؛ قال: «نعم، نَعْتُه مثلُ ما نَعَتِّه يا خديجة»؛ قالت: فهل تجد فيه غير تلك الصفات؟» قال: «نعم، إنه يمشي على الماء كما مشى عيسى بن مريم، وتكلمه الموتى كما كلمت عيسى، تسلم عليه الأحجار، وتشهد له الأشجار، وهو.. كذا وكذا»، وذكر لها في النبي (ص) مثل ما ذكر بحيرا الراهب.

ثم انصرفت خديجة إلى راهب كان في مكة يقال له «عداس» ـ وكان شيخاً كبيراً قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر ـ فلما دخلت عليه ورحَّب بها قالت له: «يا عداس، أخبرني عن جبرائيل ما هو؟»؛ فاهتزّ الراهب من سماع اسم جبرائيل تعظيماً له، وجعل يقول: «قدوس قدوس!!»، وخرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: «ما ذُكر جبرائيل في بلدة لا يُذكَر الله فيها ولا يُعبد»؛ قالت: «أخبرني عنه»؛ قال: «لا واللّهِ لا أُخبرُكِ حتى تُخبريني مِن أين عرفتِ اسم جبرائيل»؛ قالت: «لي عليك عهد الله وميثاقه بالكتمان؟»؛ قال: «نعم»؛ قالت: «أخبرني زوجي محمد بن عبد الله أنه أتاه»؛ قال: «ذلك الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى بالوحي والرسالة، والله لئن كان نزل جبرائيل على هذه الأرض، فقد نزل إليها خير عظيم! ولكن يا خديجة، إن الشيطان ربما عَرَضَ للعبد فأراه أموراً، فخذي كتابي هذا وانطلقي به إلى صاحبك، فإن

كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه، وإن كان من أمر الله فلن يضرَّه»؛ وناولها الراهب كتاباً كتبَه، فأخذته خديجة وانصرفت راجعة إلى دارها.

فلما دخلت على النبي (ص) إذا عنده رجل يقرأ عليه آيات، فقدَّرت واحتملت خديجة أنه جبرائيل (ع)، وأنصتت مستمعة فسمعته يقرأ على النبي (ص) قوله تعالى ﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾ إلى قوله سبحانه ﴿بأيكم المفتون﴾[8]، فاهتزت فرحاً وسروراً، ولم يكن إلا قليل حتى غاب جبرائيل (ع).

«عداس» الراهب و«ورقة» عم خديجة يؤكدان لها نبوة محمد (ص)

ثم أقبل عداس الراهب يتجسس الخبر، حتى دخل على النبي (ص) وجعل يحادثه إلى أن قال له (ص): «اكشف لي عن ظهرك»؛ فكشف النبي (ص) له ظهره، وإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه (ص)، فتغير لون الراهب ودهش وهو يقول: «قدوس قدوس!» وخرَّ على الأرض ساجداً، ثم رفع رأسه يقول مخاطباً النبي (ص): «أنت والله النبي الذي بشر بك موسى وعيسى، فوالله يا محمد إن عشتُ حتى تُؤمَر بالدعاء، لأضرِبَنَّ بين يديك بالسيف؛ وهل أمِرتَ بشيء بعد، أم لا؟»؛ قال (ص): «لا»؛ قال الراهب: «ستُؤمر ثم تؤمر ثم تُكذَّب، ثم يُخرجك قومُك واللَّهُ يَنصرك وملائكتُه»؛ ثم توجَه إلى خديجة (ع) يقول لها: «أما واللَّهِ يا خديجةُ لَيَظهرنَّ له أمر عظيم ونبأ كبير!».

قام النبي (ص) بعد انصراف الراهب فرجع إلى جبل «حِراء»، فرأى في موضعه كرسياً من ياقوتة حمراء، له مرقاة من زبرجد ومرقاة من لؤلؤ، ونزل عليه جبرائيل يخبره بالوحي من الله سبحانه، فعرضت له (ص) حالة كالاغماء هيبة لكلام الله تعالى؛ فلما فارقه جبرائيل، قام (ص) فانصرف إلى خديجة وأخبرها بذلك، وظل (ص) أمداً بعدئذٍ هكذا، كلما نزل عليه الوحي أصابته حالة إغماء، حتى يعرق منه الجبين ويسكن منه الأنين،

---

٨ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٩، السورة ٦٨ القلم: الآيات: ١ ـ ٦.

وخديجة تشاهد ذلك وتشهد صدق حالة الوحي إليه(صلى الله عليه وآله)، وأخيراً رأت أن تخبر بذلك عمها ورقة فأخبرته، فقال لها: «يا خديجة، إذا أصابته الحالة، فاكشفي أنتِ عن رأسِكِ، فإن خرجَ مِن عنده مَن أتاه، فاعلمي أن ذلك الذي يأتيه مَلَك، وإن لم يخرج ذلك الآتي من عنده وبقي محمد على ما أصابه، فاعلمي أن الجائي شيطان»؛ ففعلت خديجة ذلك عند نزول الوحي، وكشفت عن رأسها، فأفاق النبي (ص) من وقته وساعته، ثم عادت ولبست خمارها فعاد الاغماء إلى النبي (ص) من ساعته، فانصرفت خديجة إلى عمها وأخبرته بذلك، فعَظُم ذلك في نفس ورقة، وبشَّر ابنة أخيه خديجة بأن ذلك من علائم النبوة، وقال: «إن المَلَك لا يظل مع النبي (ص) عندما تكشف زوجَهُ عن رأسها»، وأما الشيطان فيبقى ولا يخرج»؛ ثم أنشأ يقول:

فان يكُ حقاً يا خديجةُ فاعلمي ... حديثُك إيانا فأحمدُ مُرْسَلُ
وجبريلُ يأتيهِ وميكالُ معهما ... مِنَ اللّهَ وَحيٌ يشرح الصدرَ مُنزَلُ
يفوز به مَن فاز عزاً لدينه ... ويشقى به الغاوي الشقِيُّ المُظَلَّلِ
فريقان منهم: فرقةٌ في جنانه ... وأخرى بأغلالِ الجحيمِ تُغَلَّلُ

ثم نهض ورقة وأقبل نحو دار خديجة، فدخل على النبي (ص) وأخذ يقبل رأسه، ويخبره عن النازل عليه أنه الناموس الأكبر الذي نَزَل على موسى وعيسى، إلى أن قال له: «ابشِرْ، فإنك أنتَ النبيُ الذي بشر به موسى وعيسى، وإنك نبِيٌ مُرسَلٌ ستؤمر بالجهاد»؛ ثم انصرف ورقة إلى قومه يخبرهم بذلك، وأنشأ يقول:

يا للرجالِ لصَرْف الدهرِ والقَدَرِ ... وما لشيء قضاهُ اللّه مِن غِيَرِ
حتى خديجةُ تدعوني لأُخبِرَها ... وما لنا بخفيٍّ العلم مِن خَبَرِ
فخبَّرَتْني بأمرٍ قد سمعتُ به ... في ما مضى مِن قديم الناس والعُصُرِ
بأن أحمدَ يأتيه فيخبِرُهُ ... جبريلُ أنكَ مبعوثٌ مِن البشَرِ

وظلّ كذلك يبشر الناس بنبوة النبي (ص) وينشد ويردد فيه وفيها أبياتاً من الشعر، منها قوله في قصيدته الحائية:

فخبَّرَنا عن كلِ خيرٍ بعلمِهِ — وبالحق أبوابٌ لَهنَّ مفاتحُ
وأنَّ ابنَ عبدِ اللّه أحمَدَ مُرسَلٌ — إلى كلِ مَن ضُمَّتْ عليه الأَباطِحُ[9]
وظني به أنْ سوفَ يُبْعَثُ صادقاً — كما أرسِلَ العَبدانِ نوحٌ وصالَحُ
وموسى وإبراهيمُ حتى يُرَى لهُ — بَهاءٌ ومنشورٌ مِن الذِكْرِ واضِحُ

ثم أخذ الوحي يتوارتر على النبي (ص)، وربما كان يوحى إليه (ص) أحياناً من غير واسطةِ مَلَكٍ ولا ترجمان، فحينئذٍ كان (ص)يغمى عليه ويسيل منه العرق هيبةً لكلام الله سبحانه، وكان يَكربُ لذلك ويميل لون وجهه الشريف إلى الغبرة، وينصب منه العرق حتى في اليوم البارد الشديد البرد، ويجد ألماً شديداً، ويتصدع رأسه بذلك، بل ويجد في بدنه ثقلاً كما قال الله تعالى﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾[10]، بحيث إذا كان راكباً على ناقته بركت الناقة من ثقل الوحي، وتضع جِرانَها على الأرض ولا تستطيع الحركة ويكاد ذراعها أن يقصم. وحدث ذات يوم أن غشيَهُ الوحي وكان فخذه على فخذ عثمان، فثقل فخذه الشريف حتى أشفق عثمان على فخذه أن يرضّ تحت فخذ النبي (ص)، وانحدر العرق من جهة النبي (ص) كاللؤلؤ الجمان. وكان (ص) يتلقى الوحي بلسانه وشفتيه، وحين يفيق من غشيته يقول: «قال الله عز وجل. . كذا، وامركم بكذا. . ونهاكم عن كذا. . »؛ حتى نزل عليه قوله تعالى ﴿**لا تحرك به لسانك**﴾[11] الخ، وكان مثله حينئذٍ كمثل موسى الكليم (ع) وقد قال الله تعالى فيه ﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾[12].

وفي أحيان أخرى كان الوحي إليه (ص) يتم بواسطة مَلَك من السماء يهبط عليه ويتمثل له، فيبلّغه وهو يعي كلامه، وعندئذٍ يسمع الحاضرون لديه (ص) دوياً عند وجهه الشريف كدويّ النحل ـ كما قال تعالى ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل**

---

٩ ـ الأباطحُ جمع ابطح: مسيل المياه الواسع، والمقصود في البيت: كل من تضمه الديار.
١٠ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٩، السورة ٧٣ المزمّل: الآية ٥.
١١ ـ الجزء ٢٩، السورة ٧٥ القيامة: ١٦.
١٢ ـ ج ٦، س ٤ النساء: ١٦٤.

رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء﴾[١٣] - وعند ذلك لم يكن يعرضه اغماء ولا يصيبه ثقل، وربما يقول لجلسائه: «هذا جبرائيل يخبرني كذا ويقول كذا».

وربما كان جبرائيل (ع) عند نزوله عليه يتمثل بصورة رجل يقال له «دحية الكلبي»، فيراه بعض من حضر ويظنه دحية. وقد ورد أن أمير المؤمنين علياً (ع) غدا ذات يوم إلى النبي (ص)، فرآه نائماً في صحن الدار ورأسه في حجر دحية، فسلم علي (ع) عليه وقال: «كيف أصبح رسول الله؟»؛ فأجابه الرجل وقال: «بخير يا أخا رسول الله»؛ فقال علي (ع): «جزاك الله عنا أهل البيت خيراً!»؛ فقال له الرجل: «إني أحبك، ولك عندي مديحةٌ أهديك إياها: أنت أميرُ المؤمنين، وقائد الغُرِّ المُحجَّلين، وسيدُ وُلْد آدم ما خلا النبيين والمرسلين، ولِواءُ الحمد بيدك يوم القيامة، تُزَفُّ أنت وشيعتك مع محمد وحزبه إلى الجنان! قد أفلح مَن والاك، وخاب وخسر من خلاك! بحب محمد أحبوك وببغضه أبغضوك، لا تنالهم شفاعة محمد! يا عليّ، أُدْنُ مِن صَفْوةِ الله، وخذ رأس ابن عمك»؛ ثم وضع رأس النبي (ص) في حجر علي (ع) وغاب الرجل من وقته، فانتبه النبي (ص) من نومه وأخبره أمير المؤمنين بما جَرى، فقال له النبي (ص): «إنه لم يكن دحية بن خليفة، بل هو جبرائيل، وقد سمّاكَ باسمٍ سمَّاك الله تعالى به، وهو الذي ألقى محبتك في قلوب المؤمنين ورهبتك في صدور الكافرين».

وكان جبرائيل (ع) ذات يوم يملي على النبي (ص) وهو يملي على الوصي، إذ نعس النبي (ص) نعسة وعلي عليه السلام يسمع الإملاء ويكتب، ولما انتبه النبي (ص) ورأى الكتاب مكتوباً قال: «مَن أملى عليك يا علي؟»؛ قال: «أنت يا رسول الله»؛ قال (ص): «لا، بل جبرائيل». ورأى عثمان بن مظعون (رض) يوماً حالة الوحي في رسول الله (ص)؛ وسمعه يقرأ قوله تعالى **﴿إن الله يأمرُ بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾**[١٤]، وأخبر (ص) أنه نزل بها

---

١٣ - ج ٢٥، س ٤٢ الشورى: ٥١.

١٤ - ج ١٤، س ١٦ النحل: ٩٠.

جبرائيل في ساعته، فقام من عند النبي (ص) مُعجَباً بما سمع وما رأى، وتحقق اسلامه، ومضى إلى أبي طالب (ع) وأخبره بذلك فأعجبته الآية، وجعل يقول لقومه: «يا آل غالب، اتبعوه تُرْشُدوا وتُفحلوا، فوالله ما يدعو إلا إلى مكارم الأخلاق! لئن كان صادقاً أو كاذباً ما يدعو إلا إلى الخير».

وكان جبرائيل (ص)كثير الهبوط بالوحي[١٥] على النبي (ص)، وكان عند هبوطه لا يدخل على النبي (ص) حتى يستأذنه، وربما كان الاذن يتأخر، فيلبث لا يدخل حتى يؤذن له، وكان إذا دخل عليه يجلس جلسة العبد بين يديه.

ورُوي في حديث الوحي وهبوط جبرائيل على النبي (ص)، أن النبي سأله يوماً من أين يأخذ الوحي، فقال: «مِن اسرافيل، وإني وأنا أقرب الخلق إليه بيني وبينه مسيرة الف عام، وإن اسرافيل حاجب الرب، وبينه وبين اللوح ـ الذي هو من ياقوتة حمراء بين عينيه، والذي هو أدنى خلق الرحمان منه تعالى ـ تسعون حجاباً من نور لا يوصف، تُقطَع دونها الأبصار، فإذا أراد الرب تعالى صدور الوحي، ضرب اللوح على جبين اسرائيل، فيتلقى الوحي منه، ثم يلقيه الينا نسعى به في السماوات».

وجاء أيضاً في حديث الوحي وهبوطه على الرسول (ص) أن الملائكة حين سمعوا صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، صعقوا وفزعوا، لأنهم كانوا لم يسمعوا وحياً منذ عيسى بن مريم (ع)، حتى إذا كُشِف عن قلوبهم الفزع، سأل بعضهم بعضاً: «ماذا قال ربكم؟»؛ وفي ذلك قوله تعالى: **﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾**[١٦].

وكان جبرائيل (ع) يلقي الوحي على النبي (ص) باللغة العربية، وقد وكل الله تعالى برسوله (ص) منذ صغره وأيام فِطامه مَلَكاً أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع غيره، وكان قريناً له يسلك به ليله ونهاره

---

١٥ ـ حتى رُوي أن جبرائيل (ع) هبط بالوحي عليه (ص) ستين ألف مرة.

١٦ ـ الجزء ٢٢، السورة ٣٤ سبأ: ٢٣.

طرق المكارم ومحاسن الأخلاق، وظلّ المَلَكَ مع الأئمة بعده يسدّدهم واسمه «روح القُدُس» وفيه قوله سبحانه: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾[١٧] و. . ﴿يسألونك عن الروح قل الرّوح من أمر ربي﴾[١٨]، ﴿**تنزل الملائكة والروح**﴾[١٩]. . الخ، وإليه أشار أمير المؤمنين (ع) في خطبته القاصعة من نهج البلاغة بقوله (ع): «ولقد قرن الله به مِن لَدُن كان فطيماً أعظمَ مَلَكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»[٢٠]. . الخ.

وقد كان (ص) نبياً قبل خلقة الدنيا، بل منذ كان آدم (ع) بين الماء والطين، أو بين الروح والجسد، ولم يكن متعبداً بشريعة غيره من الأنبياء (عليهم السلام)، لا قبل البعثة ولا بعدها، وهو أفضل من جميعهم، حتى من عيسى الذي تكلم في مهده ـ كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى ﴿**كيف نكلم من كان في المهد صبيا، قال إني عبد الله**﴾[٢١] وأفضل من يحيى بن زكريا (ع) الذي أوتي الحكم والنبوة صبياً كما قال فيه تعالى ﴿**وآتيناه الحكم صبيا**﴾[٢٢] ـ وإن شريعة محمد (ص) ناسخة لجميع الشرائع السابقة، وقد حج (ص) قبل بعثته عشرين حجة على شريعته هو المُنَزَلة عليه من ربه تعالى متكتماً، إلى أن بُعث إلى الخلق كلهم جنهم وإنسهم، وأمره الله بابلاغ رسالته للناس كافة.

النبي (ص) ينذر عشيرته الأقربين.. فيتنكرون له

كان نزول الوحي على النبي (ص) في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب، وقد وافق يومه في تلك السنة يوم «نيروز» الفرس، الذي يقع

---

١٧ ـ ج ٢٥، س ٤٢ الشورى: ٥٢.
١٨ ـ ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٨٥.
١٩ ـ ج ٣٠، س ٩٧ القدر: ٤.
٢٠ ـ نهج البلاغة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ضبط نصه الدكتور صبحي الصالح، ص٣٠٠، ضمن الخطبة القاصعة ـ سميت القاصعة لأن الإمير (ع) قصَعَ (أي حقَّر) فيها المتكبرين.
٢١ ـ ج ١٦، س ١٩ مريم: ٢٩.
٢٢ ـ ج ١٦، س ١٩ مريم: ١٢.

في أول فصل الربيع، ولكن الله تعالى أمره بالتدرج في رسالته، وأن يبلّغ أولاً عشيرته وأرحامه، فقال سبحانه ﴿وأنذِر عشيرتك الأقربين﴾[٢٣]، فنهض (ص) لإطاعة أمر ربه، ودعا علياً (ع) فقال له: «يا علي، إن الله تعالى أمرني وأوحى إليَّ أن أنذر عشيرتك الأقربين، فضقتُ بذلك ذرعاً، وعرفتُ أني متى أناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، وجاءني جبرائيل وقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل، ما أُمِرتَ به عذَّبكَ ربُكَ، فاصنع لنا يا علي صاعاً من طعام، واجعل عليه رِجْلَ شاة، واملأ لنا عُساً[٢٤] مِن لَبَن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أُكلمَهم وأُبَلِّغَهم ما أُمِرتُ به»؛ فنهض علي (ع) وعمل ما أشار به عليه النبي (ص)، ثم دعا بني هاشم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، إلى أن دخلوا على النبي (ص) فحيَّوْهُ بتحية الجاهلية، وحياهم (ص) بالسلام وتحية الإسلام، فتعجبوا من ذلك وأنكروه.

ولما استقرَّ بهم الجلوس، قدَّم علي (ص) لهم الطعام، فسبقهم النبي (ص) ومدّ يده فتناول جذمة[٢٥] من اللحم قطعها باسنانه وألقاها على نواحي الصفحة، ثم قال لهم: «خذوا بسم الله، وكلوا على اسم الله»؛ فأربد القوم وتغيرت ألوانهم بذكر الله، ولكنهم أمسكوا عن الانكار عليه لمكان حاجتهم إلى الطعام، وتقدموا عشرة عشرة يأكلون ويَصْدُرون[٢٦]، إلى أن صدروا بأجمعهم شِباعاً ولم ينقص من الطعام شيء ولم يُرَ فيه إلا آثار أكفهم، وكان الرجل منهم ليأكل كل ذلك وحده، فدهشوا بذلك وحاروا؛ ثم دعا النبي (ص) بِقعبٍ[٢٧] من اللبن، وجرع منه جرعة، ثم ناولهم إياه وقال: «اشربوا بسم الله»؛ فشربوا حتى ارتووا ولم ينقص منه شيء، وكان الرجل الواحد منهم يشرب ما يعادل القعب كله، فازدادوا حيرة وعجباً، عند ذلك همّ (ص) أن يكلمهم ويبلغهم رسالته، فبَدَر أبو

---

٢٣ ـ ج ١٩، س ٢٦ الشعراء: ٢١٤.

٢٤ ـ العُس: الإناء الكبير، أو القدح

٢٥ ـ جذمة: قطعة.

٢٦ ـ يَصدرون: يغادرون، يخرجون، يذهبون.

٢٧ ـ قَعْب: قدح ضخم.

لهب وقال لهم: «جادَ ما سحركم محمد! يُطعم مِن طعامِ ثلاثة رجالٍ أربعين رجلاً. هذا والله هو السحر الذي لا سحر بعده»؛ فأمسك النبي (ص) عن الكلام حتى تفرق القوم.

ولما كان غداة غد، قال (ص) لعلي أمير المؤمنين: «يا علي، إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعتَ من القول، وتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فأعِدَّ لنا من الطعام، مِثل ما صنعتَ، ثم اجمعهم لي»؛ ولما عمل أمير المؤمنين (ع) ذلك، وجمعهم وقدَّم لهم الطعام والشراب، فعل النبي (ص) مثل ما فعل بالأمس، وصدر القوم شبعانين ريانين على كثرتهم، ولم ينقص من الطعام والشراب القليل شيء، وازدادوا بذلك حيرة وعجباً. عند ذلك توجه النبي (ص) إليهم وقال: «يا بني عبد المطلب، إني ما أعلم شاباً من العرب جاء قومَه بأفضلَ مما جئتكُم به؛ إني قد جِئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عز وجلّ أن أدعُوَكم إليه، فإن تطيعوني تَرشُدُوا وتُفلحوا وتنجحوا؛ إن هذه مائدةٌ أمرني الله بها، فصنعتها لكم كما صنع عيسى بن مريم لقومه، «فمن كفر بعد ذلك منكم فإن الله يعذّبه عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين»؛ يا بني عبد المطلب، إني نذير لكم من الله عز وجل وبشير، وقد أنزل عليّ «وأنذر عشيرتك الأقربين»، وأنتم عشيرتي ورهطي، وأني بُعِثتُ إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فاتقوا الله وأسلموا وأطيعوا ما أقول لكم تهتدوا. واعلموا يا بني عبد المطلب، أن الله لم يبعث نبياً إلا وجعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفةً، وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء قبلي، وقد والله أنبأ به وسماه لي، ولكن أمرني أن أدْعُوَكم وأنصحَ لكم وأعرِضَ عليكم، لئلا تكون لكم الحجة في ما بعد، فأيكم يقوم فيبايعني على أن يكون أخي ووارثي ووزيري ووصيي، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيَّ بعدي؟»؛ فغضب القوم بأجمعهم من كلامه، واحجموا عنه وأمسكوا عن الرَّد عليه، إلا أمير المؤمنين (ع)، فإنه قام وقال: «أنا يا نبي الله»؛ فأعاد النبي (ص) كلامه، وأعاد علي (ع) جوابه دون القوم كلهم، وهو (ع) يومئذٍ أحدث القوم سناً وأدقّهم ساقاً، حتى أعاد النبي كلامه ثالثةً، وأجابه

أمير المؤمنين (ع) يقول: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك على ما بعثك الله به»؛ فقبله النبي (ص) وقال: «أنت»؛ فبايعه أمير المؤمنين (ع) على ذلك.

ثم استدناه النبي وفتح فاه، ومجَّ (ص) في فيه من ريقه، وبصق بين كتفيه وثديه، ثم توجه إلى القوم وقال لهم: «إن هذا أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»؛ فقال أبو لهب: «تباً لك! ألهذا دعوتنا جميعاً؟»؛ وقام القوم مستهزئين به وهم يضحكون ويقولون لأبي طالب: «قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيعه». وقال أبو لهب للنبي (ص): «بئس ما حَبَوْتَ به أبنَ عمك إذ أجابك، فملأتَ فاه ووجهه بصاقاً»؛ قال النبي (ص): «ملأتُهُ حكماً وعلماً!»؛ وتفرق القوم دون أن يؤمن أحد منهم غير علي بن ابي طالب (ع) الذي كان ـ بذلك ـ أول من آمن به من الرجال. ثم دخل النبي (ص) على خديجة (ع)ودعاها إلى الإسلام، فأجابته وأسلمت من ساعتها ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فكانت بدورها أول مَن آمن به (ص) من النساء.

وحدث أن وقف (ص) ذات يوم بسوق «ذي المجاز» يدعو إلى توحيد الله، فقال له عَميَّة العباس ـ وكان في من حضر ـ: «أشهد أنك كذَّاب!»؛ ومضى إلى أخيه أبي لهب يخبره بذلك، فاقبلا يناديان في الجموع أن «ابن أخينا محمد كذَّاب، فلا يغرَّنكم عن دينكم»؛ ورجع النبي (ص) إلى عمه أبي طالب يلوذ به، وأخبره عن كلام عمه، فغضب أبو طالب واحتضن النبي (ص) يسليه، ثم أقبل مغضباً على أخويه وهمَّ بهما يقول لهما: «ما لكما تَرِبَتْ أيديكما! والله إنه لَصادق القيل»؛ ثم توجه إلى النبي (ص) وأنشأ يقول:

أنتَ الأمينُ أمينُ اللّهِ لا كَذِبُ ... والصادقُ القولِ لا لَهْوٌ ولا لَعِبُ
أنتَ الرسولُ رسولُ اللّه نَعلَمُهُ ... عليكَ تَنزِلُ مِن ذي العزةِ الكتُبُ

أول وضوء وأول صلاة.. في الإسلام

ثم هبط عليه الأمين جبرائيل (ع) ذات يوم وهو بأعلى مكة، وغَمَرَ بعَقِبهِ[٢٨] ناحية الوادي فانفجرت عين ماء، فقال له: «تَوَضَّأْ يا محمد»؛

---

٢٨ ـ غمر بعقبه: غطى بالقسم الأسفل من جسمه.

فتوضأ، ثم أمره بالصلاة، فصلى الظهر بالركوع والسجود وسائر أجزائها، وهي أول صلاة فرضها الله عز وجل. وجاءه حينئذٍ علي (ع) فأمره النبي (ص) بإظهار إسلامه والائتمام به في الصلاة، فبادر (ع) إلى أجابته. ثم انصرفا إلى عند خديجة (ع)، فعلّمها النبي الوضوء فتوضأت، وأمرها بالائتمام به في صلاة العصر، ثم تقدم (ص) للصلاة، وَأْتَمَّ به علي وخديجة (عليهما السلام)، ولم يكن يومئذٍ في شرق الأرض وغربها مُصلٍ غير أولئك الثلاثة؛ وأقاموا كذلك على الإسلام والصلاة مدة ثلاث سنين لم يشاركهم في ذلك أحد، بينما كان عامة الخلائق حولهم عاكفين على السجود للأصنام، أو مقيمين على شريعة اليهود والنصارى وسائر أهل الكتاب، إلى أن قَدِم أبو طالب ذات يوم ومعه ابنه جعفر ودخلا على النبي (ص) وهو يصلي بعلي وخديجة (عليهما السلام)، فأمر أبو طالب ابنه جعفر بالصلاة وقال له: «صَلِّ جناح ابن عمك»؛ فوقف جعفر وصلى مؤتماً بالنبي (ص)، وصار يومئذٍ ثالث المسلمين. ثم خرج النبي (ص) ذات يوم إلى بعض أسواق العرب، فرأى عبداً اسمه «زَيْد» فاشتراه لخديجة ـ وكان غلاماً كَيِّساً ـ وجاء به إليها، فوهبته خديجة للنبي (ص)، ودعاه النبي إلى الإسلام فأجاب وأسلم، فصار يومئذٍ رابع المصلين خلف النبي (ص).

توسيع الانذار إلى خارج العشرة، وتعميم الدعوة إلى التوحيد.

وصعد النبي (ص) يوماً على «الصفا»، ونادى برفيع صوته: «يا صباحاه يا صباحاه!»؛ إلى أن اجتمعت عنده قريش يقولون له: «ما لك وما أصابك؟»؛ قال (ص): «أرأيتم إن أخبرتكم أن العدوّ مُصْبِحُكم أو مُمْسيكم، ما كنتم تصدّقوني؟»؛ قالوا: «بلى»؛ قال (ص): ﴿**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**﴾[٢٩]؛ فقال أبو لهب: «تَبّاً لك!»؛ وتفرق عنه

---

٢٩ ـ أصل الآية في القرآن الكريم: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد. الجزء ٢٢، السورة ٣٤ سبأ: ٤٤.

القوم وقد غضبوا بأجمعهم، وجعلوا يستهزئون به ويقولون: «جُنَّ محمد بن عبد الله»؛ ولم يجسروا عليه خوفاً من أبي طالب (ع)، فرجع (ص) إلى بيته كئيباً حزيناً، ودخل يقول: «دَثِّروني دثّروني»؛ لكأنه كان يشعر بالبرد والمرض، لفرط انزعاجه وألمه، فدَثّروه بشملة صغيرة، لكنه ما إن همَّ أن ينام، حتى أتاه الوحي ونزل عليه قوله تعالى: ﴿بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، يا أيها المدَّثر، قم فأنذر، وربَّك فكبر﴾[٣٠]، فقام (ص) ملبياً لِيجَدَّ في الدعوة إلى التوحيد والانذار والتبشير، ووسَّع بعدئذٍ رقعة الإنذار والدعوة، وعمت جميع الخلائق، فجعل دائماً يتكلم في كل مجتمع، ويغتنم كل تجمع فرصة للدعوة إلى الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام، وأنه رسول من الله سبحانه إليهم.

وحدث أن قام (ص) ذات يوم في الموسم على الصفا، ووضع اصبعيه في أذنيه ينادي برفيع صوته: «أيها الناس إني رسول الله رب العالمين»، حتى قالها ثلاثاً، فرمقه الناس بأبصارهم غِضاباً وهموا أن يبطشوا به؛ ثم نزل وذهب إلى «المَرْوة» إلى أن صعدها، وفعل مثل ما فعل على الصفا، فتقدم أبو جهل ورماه بتمام قوته حجراً شجَّ به ما بين عينيه وكسر رأسه، فسالت الدماء على خدِّه ولحيته الكريمة، وتبعه سائر الناس يرمونه (ص) بالحجارة حتى هرب منهم إلى جبل يقال له «المتكا» واختفى فيه، وتفرق المشركون في طلبه.

وبلغ الخبر علياً (ع)، فانطلق مسرعاً إلى دار خديجة يخبرها بذلك، وقال: «ما أدري أحيٌّ هو أم ميت، فأعطيني شيئاً من الماء وخذي معك شيئاً من الطعام، وانطلقي بنا نلتمس رَسول الله (ص)، وإنا نجده جائعاً كثير العطش»؛ فقامت خديجة (ع) معه، وحملا معهما شيئاً من الطعام والشراب، وخرجا يطلبانه بين الأودية والجبال وهما يبكيان رقة للنبي (ص)، فقال علي (ع) بعد أمد من البحث: «يا خديجة، أنتِ اَسْتَبْطِني الوادي وأنا أستَظْهِرُه»؛ فأخذ علي (ع) يدور ظهر الوادي وينادي: «يا محمداه، يا رسول الله، نفسي لك الفداء، في أيّ وادٍ أنت

---

٣٠ ـ ج ٢٩، س ٧٤ المدثر: ١ ـ ٣.

ملقى؟»»؛ وخديجة تدور بطن الوادي وهي تنادي: «مَن أحسَّ لي النبي المصطفى؟ من أحسّ لـي الربيع المرتضى؟ من أحسَّ لي المطرود في الله؟ من أحسَّ لي أبا القاسم؟»»؛ وكان النبي (ص) حينئذٍ مطروحاً في موضع من الجبل باسوأ حال، والدماء تسيل على وجهه وهو يمسحها بكمه وثيابه كي لا تسيل على الأرض، فهبط عليه جبرائيل (ع)، فلما رآه النبي (ص) جعل يبكي ويقول له: «أما ترى ما صنع بي قومي؟ كذَّبوني وطردونـي وخـرجوا عليَّ»»؛ فأخرج جبرائيل من تحت جناحه دُرْنوكاً[٣١] من درانيك الجنـة منسـوجـاً بـالـدر واليـاقـوت، وبسطـه على الجبـل، ثـم تنـاول يـد النبي (ص) حتى أقامه وأجلسه على الدرنوك وهو يقول: «يا محمد، أتريد أن تعلـم كـرامتـك على الله؟ أدْعُ إليـك تلـك الشجـرةَ تُجِبْـكَ»؛ ودعـاهـا النبي (ص) فاقبلت تخدُّ الأرض حتى خرّت ساجدة بين يديه، ثم قال: «مُرْها يا محمد ترجِعْ»؛ فأمرها النبي (ص) بذلك فرجعت إلى مكانها؛ وعند ذلك نزلت عليه الملائك الموكلون بالسماء والشمس والأرض والجبال والبحار، يسلمون عليه ويستأذنونه في هلاك قريش بالحرق والخسف والغرق وغيرها، فتوجه إليهم النبي (ص) يقول لهم: «قد أُمِرتم بطاعتي؟»»؛ قالوا: «نعم»؛ فرفع رأسه إلى السماء يقول: «اللهم أهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون!»»؛ وقال للملائك: «إني لم أُبعَثْ عذاباً، إنما بعثتُ رحمة للعالمين! دعوني وقومي فإنهم لا يعلمون»؛ فعرجوا إلى محالهم.

ورأى جبرائيل (ع) خديجة (ع) تجول في الوادي باكية، فقال: «يا رسول الله، ألا ترى خديجة قد أبكت لبكائها ملائكة السماء؟ ادعها إليك فأقرئها مني السلام، وقل لها: إن الله يقرئك السلام، وبشِّرْها أن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا نصَبَ فيه ولا صَخب، لؤلؤاً مكللاً بالذهب»؛ فدعاها النبي (ص) برفيع صوته، فأقبلت إليه مسرعة، واشتد حزنها وبكاؤها رقة للنبي (ص) لما رأت الدماء تسيل على خده وهو يمسحها خوفاً من نزولها على الأرض، فقالت: «فداك أبي وأمي، دع الدم يسيل على الأرض»؛ قال (ص): «أخشى أن يغضب رب الأرض على مَن عليها»؛ وأقبل علي (ع) حتى جلس عنده، وشارك خديجة

---

٣١ ـ الدُرْنوك: نوع من البُسُط، أو من الثياب المخملية.

في البكاء رقةً للنبي (ص) وما أصابه، وجعلا يمسحان عنه الدماء ويطعمانه ويسقيانه ويؤنسانه، إلى أن جَنَّهُم الليلُ، فانصرفوا متكتمين إلى دارها، وأجلسته خديجة بين الصخور، تحت صخرة تظلِّلهُ من فوق رأسه.

وبلغ الخبر قريشاً والمشركين، فاجتمعوا حول دارها يرمون النبي (ص) بالحجارة، وكانت الصخور من جوانبه ومن فوقه وقاية له من وصول الأحجار إليه، وخديجة واقفة بنفسها تستره ببُرْدها وتقيه الحجارة ببدنها، إلى أن جعلت تصيح صارخة تنادي: «يا معشر قريش، أتُرْمَى الحرةُ في منزلها؟»؛ فاستحْيَي القومُ وتفرقوا عنها.

ولما أصبح الصباح خرج النبي (ص) إلى المسجد يصلي، ولما افتتح الصلاة رآه أبو جهل، فنادى في قومه: «من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟»؛ فقام «ابن الزِبَعْرَى» وتناول فَرْثاً وكَرْشا وأَقبل إلى النبي (ص) وألقاهما على رأسه وهو في سجود الصلاة، فقام النبي (ص) وانصرف إلى عمه أبي طالب (ع) حتى دخل عليه وقال: «يا عم، كيف حَسَبي فيكم؟»؛ قال: «وما ذاك يا ابن الأخ؟»؛ فأخبره بالخبر، فاستشاط أبو طالب غضباً، وقام وَتناول سيفه، ودعا أخاه حمزة وأمره بحمل سيفه، وخرجا إلى المسجد نحو القوم وهم مجتمعون حول الكعبة، وتبعهما النبي (ص) حتى دخلا عليهم، وهمّ القوم أن ينهضوا ويهربوا من سيفيهما المسلولَين، فناداهم أبو طالب يقول: «والله لئن قام أحد حللته بسيفي»؛ فجمدوا في مواضعهم، فأمر أخاه حمزة بتناول الفرث والسِلاء[٣٢]، وإمراره على شواربهم واحداً فواحداً، وأنَّ مَن امتنع منهم فليضرب حمزةُ عنقه، ففعل حمزة ذلك حتى أتى على آخرهم، ولم يتجرأ أحد منهم أن يتحرك من مكانه. وسأل أبو طالب النبي (ص) عن الذي ألقى عليه الفرث، فأشار (ص) إلى ابن الزبعرى، فتناول أبو طالب الفرث والدماء وألقاها عليه حتى لطخ بها وجهه وبدنه، ثم توجه إلى النبي (ص) يقول: «يا ابن الأخ، هذا حَسَبُكَ منا وفينا».

---

٣٢ ـ السلاء: العصارة، وما يخرج من الطعام بعد طبخه وعصره، ـ وشوك النخل.

النبي (ص) على دعوتها ويتابعها، رغم الاذايا.

ولم يزل النبي (ص) على الجدّ في الدعوة إلى التوحيد، وقراءته القرآن على الناس، والنهي عن عبادة الأوثان، وهم لا يألون جهداً في أذاه وضربه وشتمه ودحض كلمته، وكان أشدّ الناس عليه عمه أبو لهب حتى قال «طارق المحاربي»: «رأيت محمداً في سويقة ذي المجاز، وعليه حلة حمراء، وهو ينادي: أيها الناس، قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا؛ ورأيت عمه أبا لهب يتبعه ويرميه بالحجارة حتى أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: أيها الناس، لا تطيعوه فإنه كذاب».

ووقف النبي (ص) يوماً بين الجموع ينادي: «أيها الناس، إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كنت كاذباً لما كذبتكم! والله الذي لا إلَه إلا هو إنّي حقاً رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة. والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون، ولتُبعَثُن كما تستيقظون، ولَتُحاسَبُنَّ كما تعملون، ولَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً والنار أبداً، وانكم أولُ مَن أُنذِرتُم»، فاعترضه أبو لهب يسبه ويكذِّبه، فصرخ به أخوه أبو طالب وهمَّ أن يبطش به يقول له: «يا اعور، ما أنت وهذا؟».

ثم اعترض النبيَّ (ص) جماعةٌ أخرى يقولون له: «أما وجد الله رسولاً غيرك؟ ما نرى أحداً يصدقك في ما تقول؛ ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذِكْرٌ فأَرِنَا مَن يشهد لك أنك رسول الله كما تزعم»؛ فنزل قوله تعالى: ﴿**قل أيُّ شيء أكبرُ شهادةً قل الله شهيدٌ بيني وبينكم**﴾[٣٣] . . . الخ؛ فتفرقوا عنه وهم يتذاكرون بينهم مستهزئين به يقولون: «العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب»؛ فنزل قوله سبحانه ﴿**الر تلك آيات الكتاب الحكيم، أكان للناس عَجَباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس**﴾[٣٤] . . الخ؛ وقال له الوليد بن المغيرة: «والله لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أنا أَوْلى بها منك، فإنني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً». وتحادث في ما بينهم جماعة يقولون: «لمَ لمْ يرسل الله

---

٣٣ ـ الجزء ٧ السورة ٦ الأنعام: الآية ١٩

٣٤ ـ ج ١١ س ١٠ يونس: ٢.

رسولاً من مكة أو من الطائف يكون عظيماً؟»؛ يعنون أبا جهل وعبد نايل، فنزل قوله تعالى ﴿**وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[٣٥] . . . الخ. ونادى أبو جهل يقول: «زاحَمَنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفَرَسَيْ رِهان، لم يقنعوا بذلك حتى زعموا أن منهم نبياً يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه»؛ فنزل قوله جل وعلا: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتَى مثل ما أوتي رسُلُ الله! اللَّهُ أعلمُ حيث يجعل رسالته**﴾[٣٦].

وكان النبي (ص) يطوف يوماً حول البيت، فاعترضه عقبة بن أبي معيط يشتمه، ثم تناول عمامته وألقاها في عنقه يجرُّه إلى خارج المسجد، إلى أن اجتمع عليه جماعة وأطلقوه من يده. ثم تقدم أبو جهل إلى النبي (ص) وشتمه، ثم ضربه ضربة شج بها رأسه الشريف؛ وبلغ الخبرُ بني هاشم، فاجتمعوا وأرجعوا النبي (ص) إلى بيته. واتفق في تلك الأثَناء أن أقبل حمزة عم النبي (ص) وكان في الصيد، فرأى اجتماع الناس وسأل عن سبب ذلك فأخبروه الخبر، فامتلأ غيظاً وغضباً، ورجع مسرعاً يطلب أبا جهل إلى أن وجده، فهجم عليه كالليث المغضب، وضربه بقوس كان بيده على رأسه، ثم احتمله وجلد به الأرض وهم به[٣٧]، فاجتمع الناس وكاد أن يقع بينهم الشر حتى حالوا بينهما، وقال بعضهم: «أَصَبَوت[٣٨] إلى دين ابن أخيك؟»؛ قال: «نعم! أشهد أن لا آلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله» وأنشأ عند ذلك يقول:

لقد عجبتُ لأقوامٍ ذَوي سَفَهٍ — مِنَ القبيلَينِ مِن «سَهْمٍ» و«مَخْزومِ»
القـائليـن لِمـا جـاءَ النبيُّ بـه — هـذا حـديـثٌ أتـانـا غيـرُ ملزوم
فقد أتاهم بحقٍ غير ذي عِوَجٍ — ومُنـزَلٍ مِـن كتـابِ اللَّـهِ معلـوم
مِنَ العزيز الذي لا شيءَ يَعْدِلُهُ — فيـه مَصـاديـقُ مِـن حـقٍ وتعظيـم

---

٣٥ ـ ج ٢٥ س ٤٣ الزخرف: ٣.
٣٦ ـ ج ٨ س ٦ الأنعام: ١٢٤.
٣٧ ـ همَّ به، أي كاد أن يقتله.
٣٨ ـ صَبا (يصبو): مالَ أو انحرف.

فإن تكونوا له ضداً نكونُ لكُمْ ضـداً بغَلبـاءَ مثـل الليـل علكـومِ [٣٩]
فـآمنـوا بنبـيٍ ـ لا أبَـا لكُـمُ ـ ذي خاتَمٍ صاغَهُ الرحمانُ مختومِ

ولكنـه لمـا انصرف إلى بيتـه نـدم على إسلامـه، حتى غـدا على النبي (ص) يقول له: «يا ابن الأخ، أحقٌ ما تقول؟»؛ فقرأ النبي (ص) عليه سورة من القرآن، فاستبصر وثبت على الإسلام، وفرح النبي (ص) وأبو طالب باسلامه فرحاً شديداً، وأنشأ أبو طالب يخاطبه بقوله:

صبوراً أبا يُعلَى على دينِ أحمدٍ وكن مُظهِراً للدينِ وُفِّقتَ صابِرا
وحُطْ مَن أتى بالدين مِن عندِ ربهِ بصدقٍ وحقٍ لا تكن حَمْزَ كافرا [٤٠]
فقد سرّني إذ قلتَ إنكَ مؤمنٌ فكُنْ لِرسولِ اللّه في اللّهِ ناصِرا
ونـادِ قـريشـاً بـالـذي قـد أتَيْتَـهُ جِهاراً وقل: ما كان أحمدُ ساحرا

واشتد به ظهر النبي (ص)، وجدَّ أكثر في نشر دعوته، وكان قد أسلـم قبلـه أبـو ذر الغفـاري، وبـلال الحبشـي، ثـم أبـو بكـر بـن أبـي قحافة (رض)، ثم الزُبَيْر بن العوام ابن عمة النبي (ص)، ثم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف، وعَمرو بن عُيَيْنَة، وخالد بن سعيد بن العاص، وأما عمر بن الخطاب (رض) فقد أسلم في السنة الخامسة من المبعث.

كرامات ومعجزات للنبي (ص)
مقابل اذايا قريش

وكان أكابر قريش كلما بلغهم خبر إسلام أحدهم أو تأثره بدعوة محمد (ص)، يزدادون غضباً عليه وسعياً إلى إيذائه لمنعه وصرفه عنها، ولكن كانت تظهر منه في أحيان كثيرة كرامات ومعجزات ينعم الله تعالى بها عليه فتُفشل خططهم ومساعيهم، وتجعل المؤمنين اكثر تمسكاً، والحديثي الإيمان أشد تصديقاً.

---

٣٩ ـ الغلباء: العنق الغليظ، أو القبيلة القوية التي لا تُغلَب ـ علكومٍ: قوية صلبة.
٤٠ ـ حُط: احفظ وتعهد وصُنْ (اسم الفاعل من حاطَ: صانَ وحفظ).

فمنها أنه (ص)خرج ذات يوم إلى المسجد، وكان أبو جهل قد حلف لئن رآه يصلي ليدمغنه باعظم حجر يقدر عليه، فلما بدأ النبي (ص) بالصلاة ورآه أبو جهل، تناول حجراً كبيراً وقصده ـ وقريش ينظرون إليه ـ ولما رفع يده بالحجر ليضرب به رأس النبي (ص)، التصق الحجر بكفه ولم يتمكن من رميه وأخذته رعدة، فتوقف ورجع خائفاً إلى أصحابه، فسألوه عما أصابه فقال: «رأيت رجالاً أمثال الجبال مقنعين في الحديد هموا أن يأخذوني، فأخذتني الرعدة وانصرفتُ هارباً»؛ فقام رجل من رهطه وقال: «أنا أقتله»؛ ثم انطلق نحو النبي (ص)، ولكنه ما إن دنا منه حتى ولىّ هارباً، فسأله أصحابه عن ذلك فقال: «أُرْعِبتُ عندما سمعت قراءته، وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل، يرفع ذنبه ويضرب به فخذيه، فخفت أن أتقدم».

وأتاه أبو لهب ذات يوم يهدّده، فقال له النبي (ص) «إن خُدِشتُ مِن قِبلكَ خدشة فأنا كذاب». وقرأ النبي (ص) ذات ليلة في صلاته ﴿تبت يدا أبي لهب﴾[٤١]، فقيل لأم جميل زوجة أبي لهب أخت أبي سفيان: «أن محمداً لم يزل البارحة يهتف بك وبزوجك في صلاته ويقنت عليكما»؛ فغضبت وخرجت تطلب النبي (ص) وتقول: «لئن رأيته لأُسمِعنَّه»؛ إلى أن انتهت إلى المسجد الحرام، وكان النبي (ص) حينئذٍ جالساً فيه مع أبي بكر، فقال أبو بكر: «يا رسول الله لو تنحيت، فإن أم جميل قد أقبلت، وأنا خائف أن تُسمِعكَ شيئاً»؛ قال (ص): «إنها لا تراني»؛ ولما دنت ولها ولولةٌ وهي تقول:

مُـذَمَّـمـاً أَبَيْنـا وديِنَـهُ قَلَيْنـا وأَمـرَهُ عَصَيْنـا

قالت: «يا أبا بكر، أرأيت صاحبك؟ لقد أُخبرتُ أنه هجاني؛ واللاتِ والعُزَّى لو رأيتُهُ لرميته»؛ ثم انصرفت راجعة، فقال أبو بكر للنبي (ص): «ألم تبصرك؟»؛ قال (ص): «لا والله، وقد ضرب الله بيني وبينها حجاباً، وإن الله أنساها وأنسى قريشاً اسمي وهم يعلمون، إنهم

---

٤١ ـ القرآن الكريم، ج ٣٠، س١١١ المسد: ١.

يَذُمُّون مُذَمَّماً كما سمعتَ في شعرها، وأنا محمد».

واجتمع جمع من قريش في حِجْر إسماعيل وتعاقدوا بينهم ثم حلفوا على العقد باللات والعُزَّى ومناة الثالثة، أن يقوموا على النبي (ص) إذا أبصروه مقام رجل واحد ويقتلوه، وبينما هم جلوس إذ دخل النبي (ص) المسجد، فقال بعضهم لبعض: «ها هو ذا»؛ ولما قاموا إليه وهموا به، أخفض الله رؤوسهم حتى التصقت أذقانهم بصدورهم ولم يَصِل أحد منهم إليه. وعلم النبي (ص) ما تعاقدوا عليه، فتناول قبضة من التراب رماهم بها وقال: «شاهت الوجوه»؛ فكل من أصابه منها شيء قُتل في غزوة من غزوات النبي (وسيأتي شرحها إن شاء الله تعالى).

وكان (ص) ذات يوم يصلي في ظل الكعبة، وكان أبو جهل ورهطه قد نحروا جَزوراً[٤٢]، فجاؤوا بسِلاها وطرحوها بين كتفيه حال سجوده، فلما انصرف (ص) عن صلاته قال: «اللهم عليك بأبي جهل وعُتبة وشَيْبة ووليد وأميَّة وعُقبة»؛ فقتلوا بأجمعهم في غزوة بدر بدعائه (ص).

وأتاه (ص) ذات يوم عتبة بن أبي لهب يقول له: «كفرت برب النجم»؛ فقال له النبي (ص): «أما تخاف أن يأكلك كلب من كلاب الله؟»؛ فبصق في وجه النبي (ص). ثم خرج بعد أيام مع جماعة في تجارة حتى نزلوا منزلاً، فسمعوا صوت أسد، وغلب عليهم الفزع، فقال لهم عتبة: «أني مأكول بدعاء محمد»؛ فاجتمعوا حوله عند المنام، وفرشوا له في مكان مرتفع، ونام القوم حوله محافظين عليه، وأبو لهب يقول: «يا معشر قريش أعينونا هذه الليلة، إني أخاف على ابني دعوة محمد»؛ فلما ناموا وضرب الله على آذانهم، وأتاهم أسد يتشمم وجوههم، إلى أن وصل إليه وأخذه، ولم يسمع القوم إلا صوته يقول: «قتلني».

وكان النبي (ص) يصلي أحياناً في المسجد ولا يبصره أحد حتى يفرغ من صلاته، ويعمي الله عنه أبصار الكفار، وذلك لكثرة إيذائهم له. ثم أنزل سبحانه عليه (ص) قوله تعالى **﴿وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين**

---

٤٢ ـ جَزَرَ: نَحَرَ وذَبحَ ـ الجَزور: ما يُذبَح من الجِمال أو الغنم.

الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾[٤٣] .

اقبال الناس على الإيمان بالنبي (ص)، يقلق المشركين.

وبالجملة لما ظهرت منه (ص) كرامات ومعجزات، وآمن به من الناس جماعة، وخاب المشركون في مساعيهم وجهودهم وخافوا من نشر دعوته، اجتمع قوم منهم ذات يوم وفيهم العاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن قيس، والحارث بن الطلاطلة، وعقبة بن أبي معيط، وفهيلة بن عامر، والأسود بن الحارث، وسعيد بن العاص، والنضر بن الحارث، والحكم بن العاص، وعتبة بن ربيعة، وطعمة بن عدي، والحارث بن عامر، والعاص بن هاشم، وأمثالهم من أكابر المشركين ـ الذين كانوا يستهزئون بالنبي (ص) ويسخرون منه ويؤذونه ويقولون: «إنه لمجنون أندع ثلاث مئة وستين إلٰهاً ونعبد إلٰهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب»؛ وأنزل الله فيهم **﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب، أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب﴾** إلى حد قوله تعالى **﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾**[٤٤] ـ وانطلقوا بأجمعهم إلى النبي (ص) يشدّدون عليه بالكلام ويهددونه بالقتل، إلى أن قالوا: «يا محمد، ننتظر بك إلى الظهر، فإن رجعتَ عن قولك وإلا قتلناك»؛ فدخل النبي (ص) منزله مغتماً من قولهم، وأغلق عليه بابه وكف عن الدعوة»، إلى أن نزل عليه أمين الوحي جبرائيل (ع)، وأمره باظهار أمره ودعوة الناس إلى الإسلام، وأنزل عليه قوله تعالى **﴿فاصدع بما تؤمر وأَعْرِضْ عن المشركين﴾**[٤٥]؛ فقال (ص): «يا أخي جبرائيل، كيف أصنع بالمستهزئين؟»؛ فقرأ جبرائيل عليه (ص) قوله تعالى **﴿إنا كفيناكَ المستهزئين﴾**[٤٦]؛ (أي أبلغه عن الله تعالى أنه سيكفيه أذاهم ويمنع عنه شرهم، وفي بعض الروايات أن عبارة «كفيناك» هنا هي

---

٤٣ ـ ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٤٥.

٤٤ ـ ج ٢٣، س ١٨ ص: ٥ ـ ٨،

٤٥ ـ أي جاهِرْ بما تؤمر به من الدعوة وأعلِنْهُ.

٤٦ ـ ج ١٤، س ١٥ الحجر: ٩٤ و٩٥.

للماضي، أي لقد أنهينا أذاهم)[٤٧]، فعند ذلك خرج النبي (ص) ووقف على حِجْر إسماعيل في المسجد ينادي بين الجموع برفيع صوته: «يا معشر قريش، يا معشر العرب، ادعوكم إلى شهادة أن لا إلَه إلا الله وأني رسول الله، وآمركم بخلع الأنداد[٤٨] والأصنام، فأجيبوني تملكوا العرب، وتَدِنْ[٤٩] لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة».

قريش تحاول اغراء النبي (ص).

ولم يزل (ص) مجدّاً في أمره، مولعاً بدعوته، ثابت الجأش، قوي

---

٤٧ ـ جاء في بعض الروايات أن المستهزئين قد هلكوا جميعاً في يوم واحد، وأن كلاً منهم قد مات ميتة مختلفة عن ميتة أصحابه، وهؤلاء وقد كان عددهم خمسة، أو ستة، أو اكثر، منهم مَن أصابته شوكة وانقطع عِرقه وسال منه الدم حتى هلك، وهذا كان اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان حين رأى النبي (ص) أومأ بيده إلى ساقه احتقاراً، ومرَّ وهو يجر ثيابه على عبدٍ من عبيد خزاعة، فتعلقت بثيابه شوكة من العبد، فمنعه الكبر أن يخفض رأسه وينزعها، فخدشت ساقَه فلم يزل مريضاً حتى مات. ومثله تقريباً مات العاص بن وائل السهمي الذي وطيء على شوكة (بإشارة من جبرائيل)، فدخلت في أخمص رجله فصرخ: «لُدِغتُ»؛ فلم يزل يحكها حتى مات (راجع تفسير مجمع البيان، سورة الحجر)؛ ومنهم مَن خرج في حاجة إلى أعالي مكة وانقلب تحته حجر فسقط وتقطع، ومنهم مَن استظلَّ شجرة كذَّاء (أي مائلة قريبة إلى الأرض) خارج مكة، فأخذ ينطح رأسه بالشجرة وهو يصرخ ويقول لغلامه: «امنع عني هذا»؛ والغلام يقول له: «ما أرى أحداً يصنع بك ذلك إلا أنت نفسك»، إلى أن هلك؛ ومنهم مَن ذُكِر أن جبرائيل أشار إلى عينه فعميت، أو أنه رماه بورقة خضراء فعمي، وثكل ولده فجعل يضرب رأسه على الجدار حتى هلك، وكان اسمه الأسود بن المطلب بن عبد مناف؛ ومنهم من أصابه عطش شديد بعد أن أكل حوتاً مالحاً، فلم يزل يشرب ويشرب إلى أن انقدَّ بطنه وهلك، وكان اسمه الحرث بن قيس؛ ومنهم من أشار جبرائيل إلى بطنه فاستسقى فمات، وكان اسمه الأسود بن عبد يغوث، وقيل أصابه السموم فصار أسود الوجه كالحبشي، فلما رجع إلى أهله لم يعرفوه، فجعل يصرخ فيهم ويعرفهم بنفسه فلم يصدقوه وجعلوا يضربونه غاضبين حتى قتلوه؛ ومنهم مَن امتخط قيحاً حتى مات، وهذا كان الحارث بن الطلاطلة؛ ومنهم من سالت حدقته على خده بعد إصابة عينه بشوكة حتى هلك؛ ومنهم مَن فُقِد في طريق الطائف... وقيل أن كلاً منهم كان يصرخ وهو يموت: «قتلني رب محمد».

٤٨ ـ الأنداد: الذين يجعلهم المشركون موازين وشركاء لله.

٤٩ ـ دانَ: خضع وأطاع ـ تدين وتدِن: تخضع وتطيع.

العزم في نشر دينه والنصيحة لأمته، إلى أن أجابته جماعة وآمن به قوم آخرون.

ولكن قريشاً كانوا يزدادون عليه غيظا وغضباً، إلى أن اجتمعوا عند عمه أبي طالب وقالوا له: «ان ابن أخيك قد سفَّه أحلامنا، وسبَّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعاتنا، فإن كان يحمله على ذلك الغُرْم[٥٠]، جمعنا له حتى يكون أكثر قريش مالاً، ونزوجه أيّ امرأة شاء»؛ فقام أبو طالب حتى دخل على النبي (ص)، وبلَّغه مقالة القوم وعَرَضَهم عليه المال والنساء على أن يكفَّ عن دعوته، فقال النبي (ص): «يا عم، هذا دين الله الذي ارتضاه لأنبيائه ورسله، وبعثني الله به رسولاً إلى الناس، ولا أستطيع يا عم أن أخالف أمر ربي، ومالي حاجة إلى المال، واللَّهِ يا عمُّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أعود عن هذا الأمر ما عدتُ أو أهلك دونه، ولكن ليعطوني كلمة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكاً في الجنة»؛ فرجع عنه أبو طالب. فلما عاد القوم إليه، أَخبرهم بمقالة النبي (ص)، فازدادوا كمداً وغيظاً، وتوسلوا إلى أبي طالب أن يدفع إليهم النبي (ص) ليقتلوه، ثم يُوَلُّوا أبا طالب أميراً عليهم، ويدفعوا إليه بدلاً عن النبي (ص) أبهى فتى في قريش وأجملهم وأشرفهم وهو عمارة بن الوليد، كي يكون له ابناً، فقال أبو طالب: «ما انصفتموني يا قوم، تسألونني أن أدفع إليكم ابني لتقتلوه، ثم تدفعون إليّ ابنكم لأُربِّيه لكم؟»؛ ثم طردهم وجعل يردد القصيدة اللامية الطويلة التي فيها:

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ   وقد قَطعوا كلَّ العُرَى والوسائِلِ[٥١]
كذبتُمْ وبيتِ اللَّه يُبْزَى محمدٌ   ولمـا نُطـاعِـنْ دونَـهُ ونقـاتِـلِ[٥٢]

---

٥٠ ـ الغُرْم: الحاجة، وضيق ذات اليد، والفقر.

٥١ ـ العُرَى: جمع عروة، وهي ما يُربَط ويوثق به. قطعوا العرى؛ أي قطعوا الروابط والصلات ـ والوسائل: أي طرق المودة وأدواتها، قطعوها أيضاً.

٥٢ ـ يُبزَى: يُقهرَ ويُنتَصَر عليه. يقول: قسماً ببيت الله الحرام كذبتم إن ظننتم أن محمداً يُبزَى ويُقهَر دون أن نقاتل ونحارب ونستعمل مطاعن السيوف والحراب دونه.. أو: أيبزى وهل يمكن أن يقهر محمد بسبب أننا لا نطاعن أو نقاتل دونه؟.

ونُسْلِمُـه حتـى نُصَـرَّعَ حَـولَـهُ ... ونَـذهَـلَ عـن أبنـائنـا والحـلائـلِ [٥٣]
ألم تعلموا أَنَّ ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لَـدَينـا ولا يُعْنَـى بِقَـولِ الأبـاطـلَ
وأَبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ... ثِمـالُ اليتـامَـى عِصْمـةٌ لـلأرامـل [٥٤]
يطوف به الهلاك من آل هاشم ... فهـم عنـده فـي نعمـة وفـواضـل [٥٥]
لعمري لقد كُلِّفْتُ وجداً بأَحمد ... وأحببتُهُ حبَّ الحبيبِ المُواصِلِ [٥٦]
وجُـدْتُ بنفسـي دونَـهُ وحَمَيْتُـهُ ... ودارَيْتُ عنه بالذُرَى والكَلاكِلِ [٥٧]
فلا زال في الدنيا جَمالاً لأَهلها ... وشَيْناً لِمَنْ عادَى وزَيْنَ المَحافِلِ [٥٨]
حليماً رشيداً حازماً غيرَ طائشٍ ... يُـوالـي إلـهَ الحـقِ ليـس بِمـاحِـلِ [٥٩]
فـأيَّـدَهُ ربُّ العِبـادِ بنَصـرِهِ ... وأظهَـرَ دِينـاً حقُّـهُ غيـرُ بـاطـلِ

الوليد بن مغيرة كبير قريش، يحكم بسحر محمد (ص).

وبلغ القومَ قصيدتُه فأيسوا من إجابته لهم في ذلك، وجزعوا جزعاً شديداً، حتى اجتمعوا أَخيراً في دار الندوة يتشاورون في أمر النبي (ص) ودَفْعِه أو صرفه عن دعوته، وفيهم الوليد بن مغيرة عم أبي جهل ـ وكان شيخاً كبيراً من حكام العرب، يتحاكمون اليه في الأُمور وينشدونه الأشعار، فما

---

٥٣ ـ أي كذبتم (وأخطأتم) إن كنتم تظنون أننا نسلمه لكم ونعطيكم إياه قبل أن نُصرَع ونقتل دونه وحوله، وقبل أن نصبح في حالة ذهول ونسيان من أجله حتى لأبنائنا وحلائلنا، أي أزواجنا وبناتنا.

٥٤ ـ أبيض: البياض في العربية عنوان الصلاح.. وأبيض القوم: كبيرهم ـ يستسقى الغمام بوجهه: أي أن وجهه وسيلة خير وبركة وشفاعة لإنزال المطر بعد انقطاعه ـ ثِمال الأيتام: مَن يُطعمهم ويسقيهم ويُعينهم ويقوم بأمرهم ـ عِصمة: حماية.

٥٥ ـ يطوف به: يحيط به ويحميه ويدور حوله ـ الهُلاَّك: المستعدون للهَلاك والموت من أجله ـ في نعمة وفواضل: أي كثيرون حتى الفيض، وأكثر من الحاجة.

٥٦ ـ كلفتُ وَجْداً: غرقتُ ونقلتُ حباً.

٥٧ ـ جُدْتُ (من جاد يجود: كَرُمَ): أي قدمت نفسي دونه ودفاعاً عنه ـ الذُرَى: جمع ذروة: أعلى الجبل وكل مرتفع ـ الكلاكل (جمع كَلْكَل): المنخفضات؛ أي اداري عنه في الأمور والصعاب كلها عاليها ومنخفضها.

٥٨ ـ الشَّيْن: العار والعيب، عكس الزَيْن.

٥٩ ـ ما حِل (المَحْل والماحل): ما لا يُنتِجُ شيئاً ولا يُنتفَعُ به.

اختاره من الشعر كان مُختاراً، ويقال له «ريحانة قريش»، وكان ذا ثروة عظيمة وله بنون لا يبرحون مكة لاستغنائهم عن التجارة، وله عبيد ومماليك كثيرون عند كل منهم دنانير كثيرة يتجرون بها لسيدهم وهو يملك قنطاراً من الذهب (والقنطار ملء جلد ثور)، فتقدم إليه أبو جهل يقول له: «يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد ويزعم أنه كلام ربه وقرآن يوحى إليه؟»؛ قال: «دعوني أسمع كلامه»؛ فأتى إلى النبي (ص) وهو جالس في حجر إسماعيل (ع) وقال: «يا محمد أنشدني من شعرك»؛ قال (ص): «ما هو بشعر، ولكنه كلام الله الذي بعث به أنبياءه ورسله»؛ قال: «أُتلُ عليّ منه»؛ فقال (ص) ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾؛ فقال الوليد مستهزئاً: «تدعو إلى رجل باليمامة يسمى الرحمٰن؟»؛ قال (ص): «لا، ولكني أدعو إلى الله وهو الرحمٰن الرحيم»؛ ثم افتتح بسورة «فُصِّلَت» ذات السجدة وأولها عبارة «حم»، وأخذ (ص) يقرأها والوليد صاغٍ يستمع لها كالمدهوش، وهو يزداد إعجاباً ورهبة بآياتها، حتى تغير لونه واصفر وجهه كالفزِع الخائف، إلى أن بلغ النبي (ص) في قراءته قوله تعالى ﴿فإن أَعْرَضوا فقلْ انذرتُكُمْ صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾[٦٠]، فقامت كل شعرة في بدن الوليد دهشة وعجباً، حتى قيل إنه قام ووضع كفه على فم النبي (ص)، وأقسم عليه أن يكف عن القراءة، ثم انصرف إلى بيته ولم يرجع إلى أصحابه.

وعلمت قريش فزعموا أنه جنح إلى الإسلام، واغتموا بذلك غماً شديداً، وأخيراً بعثوا إليه أبا جهل يسأله عن ذلك، فدخل عليه أبو جهل يعاتبه ويقول: «يا عم نكَسْتَ رؤوسنا وفضحتنا بين العرب»؛ قال: «وما ذاك يا ابن الأخ؟»؛ قال: «هذه قريش يعيبون عليك أنك مع كبر سنك صبوت إلى دين محمد»؛ قال: «لا، ما صبوت إليه، وإني على دين قومي وآبائي، ولكني سمعت منه كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن».

ثم قام ورجع إلى النبي (ص) وقال له: «اقرأ عليّ»؛ فقرأ النبي (ص) قوله تعالى ﴿إن الله يأمُرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُرْبَى

---

٦٠ ـ ج ١٤، س ٤١ فصلت: ١٣.

وينهَى عن الفَحْشاء والمُنكَر والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعلكُمْ تَذكَّرُون﴾[٦١]؛ قال: «أعِدْها»؛ فأعادها النبي (ص)، وأخذ الوليد يحدُّ النظر إليه معجباً بكلامه وقد حار من العجب لُبُّه، ثم قال: «واللّهِ إن له لحَلاَوة، وأن عليه لَطَلاوة، وإن أعلاه لمُثمر، وإن أسفَلَهُ لمُغْدِق، وما يقول هذا بشر!».

ثم انصرف الوليد إلى قومه فاجتمع بهم وقال لهم: «يا قوم إنكم ذَوُو أحساب وذوو أحلام، وإن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم متفقين على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد؛ ما تقولون في كلام هذا الرجل؟»؛ قالوا: «نقول إن كلامَه خُطَب»؛ قال «إن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور لا يشبه بعضه بعضاً، وله طلاوة»؛ قالوا: «نقول إنه شاعر»؛ فعبس الوليد وقال: «قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر»؛ قالوا: «نقول إنه كاهن»؛ قال: «إذاً لا تجدونه يُحدِّث بما تَحَدَّثُ به الكهنة»؛ قالوا: «نقول إنه مجنون»؛ قال: «إذا تأتونه لا تجدونه مجنوناً، فهل رأيتموه في موقف خطابة قط؟»؛ قالوا: «اللهم لا»؛ قال: «فهل رأيتم عليه شيئاً من الكهانة؟»؛ قالوا: «اللهم لا»؛ قال: «فهل رأيتموه ينطق بشعر؟»؛ قالوا: «اللهم لا؛ وإنه يسمى الصادق الأمين»؛ ثم قالوا: «فما هو؟»؛ قال: «دعوني أفكر فيه!».

ثم قام وانصرف إلى أهله يتفكر في أمره، وهو ينظر مرة ويعبس أخرى؛ ولما كان من الغد، رجع إلى أصحابه يقول لهم عن النبي (ص): «ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ إن ما يقوله ما هو إلا سحر يؤثر، فإنه أخذ بقلوب الناس!»؛ فأنزل الله تعالى فيه **﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له ما لا ممدودا، وبنين شهودا﴾** إلى قوله تعالى **﴿أنه فكَّر وقدَّر، فقُتِلَ كيف قدَّر، ثم قُتِلَ كيف قدَّر، ثم نظر، ثم عَبَسَ وبَسَر، ثم أدْبَرَ وأستكبر، فقال إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤثَر﴾**[٦٢]؛ ولما سمعت قريش الآيات وفي آخرها ما أخبر سبحانه عن خَزَنَة جهنم بقوله تعالى **﴿عليها تسعةَ عَشَر﴾** قال لهم أبو جهل: «ثكلتكم أمهاتكم! أما

---

٦١ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ٩٠

٦٢ ـ ج ٢٩، س ٧٤ المدثر: ١١ ـ ٣١.

تسمعون «ابن أبي كبشة» يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُهْم[٦٣] والشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن تبطش برجل من خزنة جهنم؟»؛ (وكان «أبو كبشة» كنية لرجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، فجعل المشركون يلقبون النبي (ص) بكنيته سخرية منه وتشبيهاً له به برفضه الأوثان) فقال أبو الأسود الجمحي: «أنا أكفيكم سبعة عشر منهم، أحمل عشرة منهم على ظهري، وسبعة على بطني، واكفوني أنتم اثنين منهم» فنزلت بقية الآيات ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾[٦٢].. إلى آخرها.

النبي (ص) ينذر أبا جهل.

ومن الأخبار الكثيرة عن جدل المشركين مع النبي (ص) ودعوته إياهم إلى الإيمان وتحدياتهم له وسخرياتهم منه، أن النبي (ص) لقي ذات يوم أبا جهل وهو يتبختر في مشيته، فأخذ النبي (ص) بيده وقال له: «أوْلَى لكَ فأولى»، أي إن في هذا التبختر بعداً لك عن خيرات الدنيا وبعداً لك عن خيرات الآخرة، فقال أبو جهل: «بأيّ شيء تهدّدني؟ لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً، وإني لأَعَزُّ أهل هذا الوادي!»؛ فنزل قوله تعالى: ﴿**ثم ذهبَ إلى أهله يَتَمَطَّى، أوْلَى لك فأوْلى، ثم أوْلَى لك فأولى**﴾[٦٤].. الخ. وقد كثر من المشركين لغطهم في النبي (ص) وفي الآيات القرآنية النازلة عليه، من ذلك قولهم في النبي (ص). «إنه لمجنون، وان ما يقرأه ما هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم من أهل الكتاب»، وتساؤلهم: «لِمَ لم ينزل القرآن عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة والإنجيل على موسى وعيسى؟»، وقولهم: «لو كان نبياً لشغلته النبوّة عن الزواج والنساء»، وكذا: «ان هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنما أرض الشام أرضهم، فليمض إلى الشام»، (وكان هؤلاء من اليهود، أو من العرب الوثنيين المتأثرين باليهود الذين كانوا يزعمون أن الأنبياء لا يكونون إلا من بني إسرائيل، وأرضهم فلسطين من بلاد الشام)، وقولهم كذلك أن مَن يعلّمه

---

٦٣ ـ الدُهمْ: ذوو الأعداد الكثيرة.

٦٤ ـ ج ٢٩، س ٧٥ القيامة: ٣٣ ـ ٣٥.

القرآن انما هو «بلعام» (وهو رومي نصراني أو عبد لبني حضرم يقال له: يعيش) وأمثال ذلك من الكلمات الهُجْر، وكانت الآيات القرآنية متتالية النزول في الرد عليهم ونقض تهمهم وأكاذيبهم ونفيها كقوله سبحانه ﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تَذَكّرون﴾[٦٥] ...الخ، وقوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم ماذا أَنزَلَ ربكم قالوا أساطير الأولين﴾[٦٦]، وقوله عز وجل ﴿ولقد نَعلمُ أنهم يقولون إنما يعلّمُهُ بَشَر﴾[٦٧] ...الخ، وقوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ آفتراهُ وأعانَهُ عليه قوم آخرون﴾[٦٨] ...الخ، وقوله جل وعلا ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جُملةً واحدة﴾[٦٩] ...الخ، وقوله عزَّ من قائل ﴿ولقد أَرسلنا رُسُلاً مِن قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾[٧٠] ...الخ، وقوله تعالى ﴿وإذا رءاكَ الذين كفروا إنْ يَتَّخذُونَكَ الا هُزُواً، أَهذا الذي يذكر آلهتكم﴾[٧١] ...الخ، رداً على جماعة مرّوا عليه (ص) يشيرون إليه ويهزأون منه يقولون: «أهذا الذي يذكر آلهتكم ويقول إنها جمادٌ لا تنفعُ ولا تضر؟»، وقوله سبحانه ﴿وضرب لنا مَثَلاً ونسيَ خَلْقَه قال: مَن يُحيي العِظامَ وهي رَميم؟﴾[٧٢]، رداً على «أُبَيّ بن خلف» حينما أتى إليه (ص) وبيده عظم رميم، ففتَّهُ في يده ونفخه وقال للنبي (ص): «أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ما ترى؟»؛ وأمثال ذلك، حتى ضاق صدره (ص) وكثر همه، ولم يكن بعدُ مأموراً بقتالهم.

وقد أنزل الله تعالى عليه آيات عدة يأمره فيها بالصبر على لغطهم وكفرياتهم، ويسليه فيها عن بعض همومه، ويخبره فيها عن الرسل

---

٦٥ ـ ج ٢٩، س ٦٩ الحاقة: ٤١ و٤٢.
٦٦ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ٢٤.
٦٧ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ١٠٣.
٦٨ ـ ج ١٨، س ٢٥ الفرقان: ٤.
٦٩ ـ ج ١٩، س ٢٥ الفرقان: ٣٢.
٧٠ ـ ج ١٣، س ١٣ الرعد: ٣٨.
٧١ ـ ج ١٧، س ٢١ الأنبياء: ٣٦.
٧٢ ـ ج ٢٣، س ٣٦ يس: ٧٨.

الماضين وتكذيب أممهم لهم وكثرة أذاياهم، كل ذلك شفقة ومنة عليه وتسكينا لخواطره، كقوله جل وعلا **﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾**[٧٣]، وقوله تعالى **﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾**[٧٤]، وقوله جل وعز **﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾** إلى قوله تعالى **﴿ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾**[٧٥] . . . الخ، وبشره بالأئمة من عترته، ثم قال تعالى **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾**[٧٦] . . . الخ، فألزم نفسه بالصبر على كل ما يصيبه من قومه، حتى صار أبناء قريش يذكرون الله تعالى بالقبيح، وكاد النبي (ص) أن لا يصبر على ذلك وجعل يقول: «لقد صبرتُ في نفسي وأهلي وعرضي، ولا صبر لي على ذكرهم ربي»، فنزل قوله تعالى **﴿وما مسّنا مِن لُغوب، فاصبر على ما يقولون﴾**[٧٧] . . . الخ، ولم يزل (ص) يصبر على العظائم من السبّ والشتم والضرب والإيذاء، إلى أن هدى الله تعالى شيئاً فشيئاً على يده (ص) نتيجة صبره وكراماته ومعجزاته جمعاً من الكفار قاربوا المائة أو أكثر قليلاً؛ وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعثه.

أما قريش فلم يتوقفوا عن اضطهاده وإيذائه، بل ولم يألوا جهداً في السعي لقتله، وكانوا يمنع بعضهم بعضاً عن الدنوّ منه والاستماع إلى كلامه، حتى أن عمه أبا لهب كان يتلقى الوفود قبل دخولهم مكة، فيطعن النبي (ص) بالأباطيل، ويرميه بالجنون، وكان يحذرهم من سحره وملاقاته، حتى بلغ الأمر أن اتفقت كلمتهم على أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، ووثبت كل قبيلة منهم على مَن فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذّبونهم، وبالغوا في ذلك حتى رجع جمع من المسلمين إلى شركهم وضلالهم، وبقيت منهم باقية صابرة مؤمنة، إلى أن ضجوا ـ حتى هؤلاء ـ

---

٧٣ ـ ج ٢٩، س ٧٣ المزمل: ١٠.
٧٤ ـ ج ١٤، س ١٥ الحجر: ٩٧.
٧٥ ـ ج ٧، س ٦ الأنعام: ٣٣ و٣٤.
٧٦ ـ ج ٢١، س ٣٢ السجدة: ٢٤.
٧٧ ـ ج ٢٦، س ٥٠: ٣٨ و٣٩.

من فرط ما كان يصيبهم، وجعلوا يشكون قريشاً إلى النبي (ص) ويسألونه أن يدعو على الكفار، فكان (ص) يأمرهم بالصبر والثبات، ويعدهم حسن الخاتمة ويقول لهم في بعض كلامه: «إن مَن قَبلَكم لَكان يُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما دونَ عَظْمه من لحم وعَصَب، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، ولا يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللّهُ هذا الأمر، حتى لَيَسيرُ الراكبُ من «صنعاء» إلى «حَضْرَمُوتَ» لا يخافُ إلا اللّهَ عز وجل، ولا يخاف الذئبَ على غَنَمه»؛ وأمثال ذلك من المواعظ تسلية لأصحابه وتثبيتاً وتشجيعاً لهم.

وحدث ذلك يوم أن مرَّ بعمَّار وأهله بعد إسلامهم وهم يعذَّبون على ذلك، فناداهم «أبشِروا آلَ عمار، فإن مَوعدَكم الجنة»؛ فصبروا على المضض، وأبلوا بلاءً عظيماً في سبيل الدين. وكانت «سُمَيَّة» أم عمار عجوزاً كبيرةً قد أسلمت، وشدت قريشٌ عليها في العذاب لترجِعَ عن دينها، ولكنها لم ترجع عن الإسلام، بل ظلت صابرة متمسكة بإيمانها، إلى أن طعنها أبو جهل بطعنة في قلبها أو أسفل بطنها، فماتت بذلك، وكانت أَول مَن استُشهد في الإسلام.

ولم يزل المسلمون كذلك في شدة ومحنة شديدة وبلاء وضيق عظيم من المشركين، بالإيذاء والقتل والشتم، حتى ضجَّ بعض منهم ضجة عظيمة. وحدث أن أتى «خباب» من جملتهم إلى النبي (ص) وهو جالس بظل الكعبة متوسداً بُرْدَه، وشكا إليه ما يَلقَى هو أصحابُه ويتحملون من المشركين، وكانت قد تواترت الشكايات عنده بأن المشركين قد بالغوا في صنيعهم بهم، فغضب النبي (ص) واحمرَّ وجهه الشريف، وأمرهم عند ذلك بالخروج مهاجرين إلى أرض الحبشة، وقال (ص): «إن بها مَلِكاً صالحاً لا يَظْلِمُ ولا يُظْلَمُ عنده أحد، فأخرجوا إليه، حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً»؛ وأراد به «النجاشي» واسمه «أصحمة» فكانت عند ذلك هجرة المسلمين إلى الحبشة.

هجرة المسلمين إلى الحبشة

حين ضاقت صدور المسلمين بأذايا المشركين لهم واشتد عليهم الأمر، وبعد أن أذن لهم النبي (ص) بالهجرة، بل نصحهم وأمرهم بها، تجهز منهم للذهاب إلى ديار الحبشة أحد عشر رجلاً وأربع نسوة (هم عثمان بن عفان وزوجه بنت رسول الله (ص)، والزبير بن العوّام ابن عمة النبي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو حذيفة وزوجه سهلة، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة وزوجه، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وخاطب بن عمرو، وسهيل بن بيضاء)، فخرجوا من مكة متكتمين إلى أن بلغوا جدة، واستأجروا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من المبعث، وكانت تلك هجرة المسلمين الأولى.

ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون في اللحوق بهم إلى الحبشة، حتى تكامل فيها منهم اثنان وثمانون رجلاً، عدا النساء والصبيان، وبقي النبي (ص) في جماعة من بني هاشم في مكة.

ولما علمت قريش بهجرة القوم إلى الحبشة، هاجوا وماجوا، واتفقت آراؤهم على أن يطلبوا من النجاشي إرجاع المسلمين عنفاً إلى مكة، واختاروا للمهمة عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد[1]، فوجّهوهما

---

١ - في بعض المصادر أن مرافق عمرو بن العاص في تلك المهمة كان اسمه عبد اللّه بن أبي ربيعة.

بتحف وهدايا إلى النجاشي وبطارقته، وأخرج عمرو زوجته معه.

وكان عمارة بن الوليد شاباً مترفاً حسن الوجه، فلما انتهوا إلى جدة وركبوا السفينة وشربوا الخمر، قال عمارة لعمرو: «قل لأهلك تقبّلني»؛ فغضب عمرو وأبى ذلك بشدة؛ وسكت عنه عمارة، إلى أن لعبت الخمر برأس عمرو وسكر، فقام إليه عمارة وألقاه في البحر، فأفاق عمرو وتشبث بصدر السفينة ثم خرج من البحر، وبذلك تولدت العداوة بينهما قبل قدومهما إلى الحبشة.

نجاشي الحبشة يُفتَن بأخبار النبي (ص) وتعاليمه.

فلما وصلا إلى الحبشة ودخلا على الملك، سجدا له أولاً ثم قدّما له الهدايا والتحف، وابتدأ عمرو بعدئذٍ بالكلام فقال: «أيها الملك، إن قوماً منا خالفوا ديننا وسبُّوا آلهتنا قد صاروا إليك، فردَّهم إلينا»؛ فسأل الملك جلاوزته عن القوم، فأخبروه بهجرة جعفر وأصحابه، فبعث إلى جعفر واستحضره، فأقبل جعفر ومعه جمع من أصحابه فيهم عبد الله بن مسعود ـ وكان قد أوصاهم أن لا يتكلم أحد بمجلس الملك، وأن يكون هو الخطيب فيهم ـ ولما دخلوا على الملك حيَّوه ولم يسجدوا له كعمرو وصاحبه، فقال الملك: «يا جعفر، ما يقول هؤلاء؟»؛ قال: «وما يقولون أيها الملك؟»؛ قال: «إنهم يسألونني أن أردَّكم إليهم»؛ قال: «أيها الملك، سَلْهُم أنحن عبيد لهم؟»؛ قال عمرو بن العاص: «لا، بل أحرار كِرام»؛ قال جعفر: «سلهم أيها الملك، أَلَهُم علينا ديون يطالبوننا بها؟»؛ قال عمرو: «لا، ما لنا عليكم ديون»؛ قال جعفر: «أَفَلَكم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟»؛ قال عمرو: «لا»؛ قال: «فما تريدون منا؟ آذيتمونا فخرجنا من دياركم»؛ فقال عمرو: «أيها الملك، خالفونا في ديننا وسَبُّوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرّقوا جماعتنا، فردّهم إلينا لنجمع أمرنا»؛ قال جعفر: «نعم أيها الملك خالفناهم، بعث الله فينا نبياً أَمَرَنا بخلع الأنداد[٢]، وترك الاستقسام بالأزلام[٣]، وأمرنا بالصلاة والزكاة والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى،

---

٢ ـ الأنداد: مَن يجعلهم عباد الأوثان شركاء لله أو بموازاته.

٣ ـ الاستقسام بالأزلام: نوع من القرعة فيه لون من الميسر، أي القمار.

ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحرَّمَ الظُّلمَ والجَور وسفك الدماء بغير حق، والزنا والرّبا والميتة والدم»؛ فأعجبَ عندئذٍ الملكَ كلامُه، ولم يردَّ عليه عمرو وصاحبه بشيء، وظهرت عليهما آثار الخزي والبُهت[٤].

عندئذٍ أرادا انتقاماً من جعفر وأصحابه المسلمين، أن يُغضبا الملك عليهم ويبغّضوهم إليه، فقالا له: «إنهم لم يسجدوا لك»؛ فزَبَرَهم[٥] بطارقةُ الملك ورهبانُه الحاضرون أن «اسجدوا للملك»؛ فقال جعفر: «إنا لا نسجد إلا لله». فقال الملك: «وما ذلك؟»؛ قال: «إن الله بعث فينا رسوله ـ وهو الذي بشر به عيسى واسمه أحمد ـ فأمرنا أن نعبد الله ولا نُشرك به شيئاً»؛ فازداد الملك إعجاباً بكلامه، فعندئذٍ قال عمرو بن العاص: «أصلح الله الملكَ! إنهم يخالفونك في ابن مريم»؛ فقال الملك لجعفر: «ما يقول صاحبك في ابن مريم؟»؛ قال: «إنه يقول فيه بقول الله فيه: إنه رُوح الله وكلمتُه، أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربها بشر»؛ فأخذ النجاشي ينظر إلى الأرض متفكراً ومعجباً بكلام جعفر (ع) وهو يحرك قضيباً كان في يده، ثم قال: «يا معشر القسيسين والرهبان، ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم!».

ثم قال الملك مخاطباً جعفر: «يا جعفر، هل تحفظ مما جاء به محمد شيئاً؟»؛ قال: «نعم»؛ فقال: «اقرأ»؛ فجعل جعفر يقرأ سورة «مريم» وأولها ﴿كهيعص﴾، إلى أن بلغ في قراءته قوله تعالى ﴿وهزّي إليكِ بِجذع النخلة تُساقِط عليك رُطَباً جَنياً، فكلي واشربي وقرّي عينا﴾[٦]، فأخذ النجاشي ومن حوله من الرهبان يبكون بكاءاً شديداً وقال: «هذا والله هو الحق»؛ ثم قال لجعفر وأصحابه: «مرحباً بكم وبمن جئتم مِن عنده، فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم، ولولا ما أنا فيه من المُلْك. لأَتَيتُهُ حتى أحمل نعليه، اذهبوا أنتم سُيوم»[٧]؛ أي آمنون، وأمر لهم بطعام وكسوة.

---

٤ ـ البُهت الفشل والحيرة.

٥ ـ زبروهم: زعقوا وصرخوا بهم.

٦ ـ القرآن الكريم، الجزء ١٦، السورة ١٩ مريم، الآيات: ١ ـ ٤٦.

٧ ـ أو ـ كما في رواية أخرى ـ «شُيوم» بضم الشين المعجمة (ذات ثلاث نقط).

عندئذٍ حاول عمرو أن يرجع إلى كلامه السابق وقال: «أيها الملك، إن هذا مخالف لنا، فردَّه إلينا فغضب النجاشي عليه غضباً شديداً ولطمه على خدّه لطمة جرح بها وجهه حتى صارت الدماء تسيل على وجهه، وقال له: «اسكت، والله لئن ذكرته بسوء لأُفقدنَّكَ نفسك!»»؛ وقام عمرو ليخرج وهو يقول: «إن كان هذا كما تقول أيها الملك، فإنا لا نتعرض له»؛ وخرج هو وصاحبه خَجِلَينِ مخذولين، وأمر الملك بردِّ هديتهما.

وكانت على رأس النجاشي جارية له تذبُّ عنه، ولما رأت عمارة بن الوليد وكان فتى جميلاً، أحبته حباً شديداً؛ أما عمرو بن العاص فكان رجلاً قصيراً، وفي المكر والخديعة داهية عظيمة، وكان قد حمل في قلبه الغلّ والعداوة لصاحبه عمارة، وقد علم بحب الجارية له فأراد الانتقام منه بما فعل به في السفينة، لذا جعل يخدع عمارة ويشجعه على أن يراسل الجارية، واستمر على ذلك حتى انخدع عمارة بمقالته وراسلها، فأجابته الجارية ووعدته بالاجتماع به. وعرف عمرو بذلك وأشار على عمارة بأن يطلب منها شيئاً مِن طِيبِ الملك، كي يكون ذلك دليلاً على صحة كلامها وصدق وعدها، وانخدع عمارة بكلامه وبعث إليها يسألها ذلك، فأجابته وبعثت له بعضاً من طيب الملك، فتناول عمرو منه شيئاً، وأتى به إلى النجاشي حتى دخل عليه وقال: «أيها الملك، إن حُرمة الملك عندنا عظيمة، وطاعته علينا واجبة، ويلزمنا إذا دخلنا بلاده وأمِنّا فيها أن لا نغشه ولا نريبه، وإن صاحبي هذا الذي معي قد راسلَ حرمتك وخدعها، وقد بعثَتْ له من طيبك»؛ ثم وضع الطيب بين يدي النجاشي، فاستشاط النجاشي غضباً، وأمر باحضار عمارة وهمَّ بقتله، ثم عدل عن ذلك وقال: «انه لا يجوز قتله، فإنهم دخلوا بلادي بأمان»؛ فدعا السحرة وأمرهم أن يعملوا به ما هو أشدّ عليه من القتل، فأخذوه ونفخوا في بدنه الزيبق، فصار يستوحش من الناس ولا يأنس ببشر، ويغدو ويروح مع الوحش، إلى أن بعث الملك جماعة كمنوا له بقرب ماء تَرِده الوحوش، حتى ورد عمارة الماء مع الوحش فقبضوا عليه، ولم يزل يصرخ ويضطرب في أيديهم حتى مات. وأما ابن العاص فإنه رجع إلى مكة وأخبر قريشاً بإسلام النجاشي، وأن جعفراً وأصحابه بأرض الحبشة في أكرم كرامة.

ثم إن جعفر أقام بأصحابه عند النجاشي مُكَرمين آمنين شهري شعبان ورمضان، وولد له بالحبشة من زوجته «أسماء بنت عميس» ابنه عبد الله وهو الذي تزوج بزينب الكبرى (ع) بنت أمير المؤمنين (ع) أخت الحسين (ع) ورفيقة سفره في كربلاء وراعية أولاده ونسوته بعد شهادته؛ ووُلد للنجاشي ولد فسماه محمداً.

النبي (ص) يدعو النجاشي إلى الاسلام.

ثم إن رسول الله (ص) كتب كتاباً إلى النجاشي بعثه إليه مع عمرو بن أمية يقول فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي الأَصحم صاحب الحبشة، سلام عليك، إني أَهدي إليك سلام الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم رُوح الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه فيه كما خلق آدم بيده ونفخه فيه، وإذاً أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني، فأنا رسول الله؛ وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوكَ فأَقْرِهم[8] ودعِ التجبر، فإني أدعوك وجيرتك إلى الله تعالى، وقد بلَّغْتُ ونصَحْتُ، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

فلما بلغه الكتاب وقرأه، أكرمَ رسولَ النبي (ص) غاية الأكرام، ثم كتب جواباً للنبي (ص) يقول فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبحر: سلام عليك يا نبي الله من الله، ورحمة الله وبركاته، لا إلَه إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، وقد بلغني كتابُك يا رسول الله، وفيه ما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِ السماء والأرض ان عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قَرَيْنا آبنَ عمك وأصحابه، وأشهدُ أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتُكَ وبايعتُ ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد

---

٨ ـ القِرى: الضيافة. أَقْرِهِم: ضِفهُم وأكرمْهُم.

بعثت إليك يا رسول الله أريحا بن الأصحم بن أبي بحر، فإني لا أملك إلا نفسي، إن شئت أن آتيَكَ فعلتُ يا رسول الله، وإني أشهد أن ما تقول حق»؛ ثم طوى الكتاب وبعثه إلى النبي (ص) مع ثياب وفرس وطيب كثير وتحف وهدايا، وفيها «مارية» القبطية التي أولدها النبي (ص) ابنه إبراهيم، وأرسل إليه ثلاثين من القسيسين ليسمعوا كلامه ويروا حالاته وصفاته. ولما قدموا مكة ودخلوا على النبي، دعاهم النبي (ص) إلى الإسلام، وأخذ يقرأ عليهم قوله تعالى ﴿**إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكرْ نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتُكَ برُوح القُدُس تكلم الناس في المهد وكهلا**﴾ إلى قوله سبحانه ﴿**فقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**﴾[9]، فبكى القوم وأسلموا، ثم رجعوا إلى الحبشة حتى دخلوا على النجاشي وأخبروه عن النبي (ص) وصفاته، وقرأوا عليه الآيات، فبكى وبكى معه القسيسون، وأسلم كثير منهم، ولم يبين الملك لقومه إسلامه، خوفاً منهم على نفسه وملكه، وعندئذٍ نزل على رسول الله (ص) قوله تعالى ﴿**لتجدنَّ أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا، ولتجدن أقربَهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزِلَ إلى الرسول ترى أعينَهم تفيض من الدمع**﴾ إلى قوله سبحانه ﴿**وذلك جزاء المحسنين**﴾[10].

ثم رجع المسلمون في شهر شوال من أرض الحبشة، ودخل كل منهم مكة بجوار واحد من قريش ـ أي في حمايته ورعايته ـ إلا ابن مسعود، فإنه لم يدخل في جوار أحد، ولم يمكث في مكة إلا قليلاً، وما لبث أن رجع إلى الحبشة.

وأقام بقية المسلمين بمكة، ولكن عشائرها ما لبثوا أن سطوا عليهم ولم يألوا جهداً في أذاهم، فأذن لهم النبي (ص) بالرجوع إلى الحبشة ثانية، فخرج منهم ما ينوف على الثمانين من الرجال، واحدى عشرة امرأة عدا الأطفال، وكان في القوم عبد الله بن جحش، زوج أم حبيب بنت أبي

---

٩ ـ ج ٧، س ٥ المائدة: ١١٠.

١٠ ـ ج ٧، س ٥ المائدة: ٨٢ ـ ٨٥.

سفيان، ولما دخل الحبشة ارتدّ عن الإسلام وتنصر ومات هناك، فكتب النبي (ص) كتاباً إلى النجاشي أن يخطب له أم حبيب، ، فخطبها وزوَّجها للنبي (ص)، وأصدقها أربع مِئة دينار، وبعث لها ثياباً وطيباً كثيراً، ثم جهزها النجاشي وساقها إلى النبي (ص). ولما رجع المسلمون إلى الحبشة أقاموا فيها آمنين مكرمين، إلى أن هاجر النبي (ص) إلى المدينة، وانتشر أمر الإسلام، فلحقوا به في المدينة وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى.

مقاطعة قريش لمحمد (ص) والمسلمين

أما ما كان من أمر النبي (ص) بعد هجرة المسلمين، فإنه لما رأت قريش جهود أبي طالب وبني هاشم في الذب عنه ووقايتهم له وامتناعهم عن تسليمه إلى المشركين، خافوا ارتفاع شأنه وعلو كلمته، ولا سيما بعد ما بلغهم أن النجاشي حمى مَن عنده من المسلمين، وبعد أن أسلم جماعة من الناس وفيهم حمزة بن عبد المطلب، وأن الإسلام فشا في القبائل، وعرفت قريش أنه لا سبيل إلى قتل النبي (ص) وإخفائه، فاجتمعوا في دار الندوة، وتعاقدوا وتحالفوا على مقاطعة بني هاشم، وكتبوا بينهم صحيفة قاطعة[١١] على أن لا يُؤاكلوا بني هاشم وسائر من آمن بالنبي (ص)، ولا يكلموهم، ولا يبايعوهم، ولا يزاوجوهم، ولا يجتمعوا معهم على أمر أبداً، أو أن يدفعوا إليهم النبي (ص) فيقتلوه. واتفقت كلمتهم على أن يكونوا يداً واحدة عليه حتى يقتلوه غيلة أو صراحاً؛ ثم عَدوا على من أسلم فأوثقوهم وبالغوا في ضربهم وأذاهم، إلى أن اشتد البلاء على المسلمين وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً، وأبدت قريش لهم جفاءً عظيماً حتى كاد أن يثور بينهم شرّ وقتال، وجعلوا يقولون لهم: «لا صلح بيننا وبينكم ولا رَحِم، إلا على قتل هذا الصابيء» ـ أي: المنحرف ـ حتى خاف أبو طالب على النبي (ص)، فجمع بني هاشم وحلف لهم بالبيت والمقام والرُكْن والمَشاعر العظام: لئن شاكَتْ محمداً شوكةٌ ليأتِيَنَّ عليهم

---

١١ ـ أي صحيفة مُلزمة باتة. . أو: تفرض القطع وعدم التواصل.

عن آخرهم. ثم أدخل النبي (ص) في بيته المعروف بشِعْب[١٢] أبي طالب، وحصن الشعب، وجعل يحرسه بالليل والنهار قائماً بالسيف على رأسه؛ وبلغ الأمر به في ذلك أنه كان يغير مضجع النبي (ص) في كل ليلة، فيقيمه من موضعه ويُضجِعُه موضعاً آخر، بين بنيه كرَّةً بعد كرَّة ومرةً بعد أخرى، ويوكل وُلْدَه ووُلْدَ أخيه بحراسته في الليل كله إلى ضوء النهار.

وأما قريش فختموا صحيفتهم القاطعة بأربعين خاتماً من رؤسائهم وقبائلهم، وفيهم أبو لهب من قبيلة بني هاشم، ولم يخالفهم في ذلك من الصناديد سوى «مطعم بن عدي بن نوفل»، فإنه لم يوافقهم على رأيهم ولم يختم الصحيفة معهم، وقال: «هذا ظلم لا نرضى به»؛ وعلق القوم الصحيفة في الكعبة، وحصروا بني هاشم في الشِعْب، وقطعوا عنهم المارَّة من الأسواق، ونادى منادي الوليد بن مغيرة في قريش: «أيّما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتريه، فزيدوا عليه»؛ وجعل أبو جهل والعاص بن وائل والنضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات، فمن رأوه يدخل مكة ومعه طعام، نَهَوه أن يبيع بني هاشم شيئاً وحذَّروه من أنهم سينهبون ماله إن باعهم شيئاً؛ ولم يزالوا كذلك حتى ضاق الأمرّ بالنبي (ص) ومن معه في الشِعب، وأصابهم الجهد الشديد، ولم يجسُر أحد من العرب أن يبيعهم شيئاً.

وكانت خديجة (ع) مع النبي (ص) في الشِعب، وأموالها بين يديه، وكان (ص) يفك بمالها الغارم[١٣] والعاني[١٤]، ويؤدي منه ديون المَدينين، ويرفد به فقراء المؤمنين، ويحمل منهم من أراد الهجرة؛ وهكذا لم يزل ينفق من مالها ما شاء ـ ولذلك كان يقول (ع): «ما نفعني مال قط مثل ما نفعني مال خديجة! وإنما قام هذا الدين بمال خديجة وسيف علي بن أبي طالب!» ـ إلى أن نفد ما عندها، وأصاب بني هاشم جوع وشدة عظيمة، حتى سمعت قريش خارج الشعب أصوات صبيانهم وصراخهم في الشعب

---

١٢ ـ الشِعْبَ (بكسر الشين): الحي العظيم.

١٣ ـ الغارم: مَن كان عليه مال ليدفعه، من دَين أو سواه، وهو في ضيق.

١٤ ـ العاني: صاحب العناء أو الهمّ.

من الجوع، فحنَّ كثير من قريش عليهم وكرهوا ما أصابهم، وأظهروا كراهتهم للصحيفة القاطعة الظالمة، وهموا أن يتبرأوا منها، حتى جعل الرجل إذا قال لصاحبه عند اجتماعهما حول الكعبة: «كيف بات أهلك البارحة؟»؛ فأجاب: «بخير»؛ يقول السائل: «ولكن إخوانكم هؤلاء الذين في الشعب باتت صبيانهم يتضاغون[١٥] ويصرخون من الجوع».

وحمل حكيم بن حزام ذات يوم طعاماً إلى عمته خديجة بنت خويلد في الشعب، فاعترضه أبو جهل في طريقه قائلاً له: «أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامُك حتى افضحك عند قريش»؛ وأتى حينئذٍ أبو البَخْتَرى فاعترض أبا جهل قائلاً له: «تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟»؛ وأبى أبو جهل أَن يدعه، فضربه أبو البختري ضربة شجه بها، ثم جلد به الأرض ووطِئَهُ شديداً، وكان حمزة بن عبد المطلب قريباً منهم يرى كل ذلك.

وأدخل هشامُ بن عمرو ذات ليلة على بني هاشم ثلاثة أحمال من الطعام، وعرفت بذلك قريش فمشوا إليه وكلموه في ذلك، فقال: «إني غير عائد إلى شيء يخالفكم»؛ ثم عاد إلى ذلك ليلة أخرى، وحمل إلى الشِعب سراً حملين من طعام، وأحست به قريش وهموا به، فاعترضهم أبو سفيان يقول: «دعوه، إنه رجل وصل رحمه! أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أجمل بنا!»؛ وأسلم هشام هذا يوم فتح مكة، على ما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى.

وكان أبو العاص بن الربيع صهرُ النبي (ص) يأتي بالعير في جوف الليل، عليها البُرُّ والتمر إلى باب الشعب، وعند الصباح يدخلها ويوصلها إلى بني هاشم، وكان النبي (ص) يشكره بعد ذلك على حسن صنيعه ويقول: «لقد صاهَرَنا أبو العاص فاحمدنا مصاهرته، ولقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحاصر، فيرسلها إلى الشعب ليلاً».

وبالجملة، لم يزل النبي (ص) وبنو هاشم محصورين في الشعب

---

١٥ ـ يتضاغون: يتضَورون ويصرخون جوعاً.

مقطوعين عن كل معاش، سوى أشياء يسيرة تصل إليهم من القوت أحياناً في السرّ والخفية، إلى أن مضت عليهم كذلك أربع سنوات لم يكن أحد منهم خلالها يتجرأ أن يخرج من الحصن، إلا في الموسم عند اجتماع القبائل في مكة للعمرة والحج. فقد كان لهم في كل سنة لهم موسمان: موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكان بنو هاشم يخرجون من الشعب في المواسم يشترون ويبيعون، ثم يرجعون عند انتهائها إلى شعبهم لا يخرجون إلى الموسم الثاني. وكان النبي (ص) يخرج في المواسم فيدور على القبائل ينادي فيهم: «تمنعون لي جانبي حتى أتلوَ عليكم كتاب ربكم، وثوابُكم على الله الجنة»؛ وكان أبو لهب يقتفي أثره ينادي فيهم: «لا تقبلوا منه، فإنه ابن أخي وهو ساحر كذاب».

حشرة الأرحة تلحس جميع عهود المشركين ضد المسلمين.

ولما أتى عليهم أربع سنين في الشعب، بعث الله على صحيفة قريش (وهي القاطعة التي علقوها أولاً في الكعبة، ثم خافوا عليها السرقة فأنزلوها وجعلوها وديعة عند أمّ أبي جهل).. بعث الله عليها الأرضة[١٦]، فلحست جميع ما فيها من قطيعة وظلم وجور، ولم يبق فيها سوى عبارة «باسمك اللهم»؛ ونزل الوحي على النبي (ص) وأخبره بذلك، وأخبر النبي (ص) عمه أبا طالب به، فنهض أبو طالب ولبس ثيابه وخرج نحو الكعبة حتى انتهى إليها ورأى قريشاً مجتمعين حولها، فلما رآه القوم جعلوا يقولون: قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلم ابن أخيه؛ فلما دنا منهم وسلم عليهم، قاموا إليه وعظموه وهم يقولون: «قد علمنا يا أبا طالب أنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا، وقد آن لك أن تصالح قومك وأن تسلم إلينا ابن أخيك»؛ قال: «والله ما جئت لهذا، ولكن قد جئتكم بخبر أخبرني به ابن أخي ـ ولم يَكْذُبْني قط ـ أن الله تعالى بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض، فلحست جميع ما فيها سوى اسم الله، فابعثوا إلى صحيفتكم لعله يكون بيننا وبينكم صلح فيها، وانظروا فإن كان ما أخبر به حقاً، فاتقوا الله وارجعوا عن ما أنتم عليه من

---

١٦ ـ الأَرَضة: حَشَرة أو دُويبة تقرض الأخشاب خاصة وسواها.

الظلم والجور وقطيعة الرحم، وإن كان باطلاً دفعتُه إليكم، فإن شئتم قتلتموه، وإن شئتم استحييتموه»؛ فصاحوا بأجمعهم: «أنصفتنا يا أبا طالب»؛ وأتوا بالصحيفة ونظروا إليها وإلى خواتمهم فيها، فلم يجدوا لشيء منها أثراً ما عدا عبارة «باسمك اللهم» كما أخبرهم أبو طالب، فتغيرت ألوانهم، وكبَّر جماعة منهم عجباً وحيرة، وبهتوا من ذلك ودهشوا، فقال لهم أبو طالب: «يا قوم اتقوا الله وكفوا عما أنتم عليه، أتبيَّن لكم أيّنا أوْلَى بالسحر والكهانة؟»؛ فقام القوم وتفرقوا، ولم يتكلم أحد منهم.

وشاع الخبر بذلك، فأسلم يومئذٍ جمع كبير من الناس، وتبرأ نفر كثير من أمر الصحيفة هم جمع من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم، وفيهم مطعم بن عدي ـ وكان شيخاً كبيراً كثير المال والأولاد ـ وأبو البختري، وزهير بن أمية، ورجال من أشرافهم؛ وجعل هشام بن عمرو يُعيّر قريشاً في صنيعهم ببني هاشم، وأبو جهل يقول: «هذا أمر قضي بالليل»؛ ووقع الخلاف بينهم في أمر النبي (ص) وأصحابه، ولكن كرهوا أن يبلغ رسولَ الله (ص) ومن معه ذلك حذراً من شماتتهم بقريش على وقوع الخلاف بينهم، وكراهة كثير منهم من أمر الحصار، وأنشد أبو طالب في ذلك قصيدته البائية ومطلعها:

أَلا مَن لِهَمٍّ آخِرَ الليلِ مُنْصِبِ ... وشِعبِ العَصا مِن يومِكَ المُتَشعِّبِ[17]

إلى أن قال:

وقد كان في أمر الصحيفة عِبرةٌ ... متى ما يُخَبَّرْ غائبُ القوم يَعْجَبِ
محا اللّه عنا كُفرَهُم وعُقوقَهم ... وما نقموا مِن ناطق الحقِ مُعربِ[18]
وأصبح ما قالوا مِن الأمر باطلاً ... ومَن يختلقْ ما ليس بالحق يُكْذَبِ

---

١٧ ـ أي: مَن يدرك ويعالج هماً كبيراً آخر الليل ـ مُنصِب: مُتعِب بشدة. النَصَب: التعب الشديد ـ العصا: الاجتماع والتوادّ والائتلاف. شِعب العصا: حيّ التوافق والمودة؛ . . فمن يدرك ويعالج أمر هذا الحي الذي صار متشعباً، أي متفرقاً ممزقاً.

١٨ ـ محا الله ما نقموه واستنكروه من ناطق الحق محمد (ص) ـ المُعْرِب: الموضح المُبيِّن للحق.

وأمسى ٱبنُ عبد اللّه فينا مُصدَّقا على سَخَطٍ مِن قومنا غيرِ مُعَتَبِ[١٩]
ولا تَحْسَبونا مُسلمينَ محمداً لـذي عـزة منـا، ولا مُتَغَـرِّبِ[٢٠]
ستمنعُـهُ منـا يـدٌ هـاشميـة لَمَرْكَبُها في الناس أَفضلُ مَرْكَبِ[٢١]

ولما تفرقت كلمة قريش، وشاعت براءة أكثرهم من الصحيفة، أَمِنَ النبي (ص) ورهطه على أنفسهم، وخرجوا من حصار الشِعب يخالطون الناس، وكان ذلك في السنة التاسعة من المبعث، بعد أن كان مبدأ حصارهم في السنة الخامسة منه.

وعظم على أبي جهل ورهطه أن يروا النبي (ص) ورهطه آمنين، فلم يزالوا يسعون في إطفاء نوره، ويجتهدون في قتله، ويتوسلون في نقض دعوته بكل وسيلة، إلى أن أتوا إلى أبي طالب يقولون له: «إن ابن أخيك قد آذانا وأكثر أذيتنا، فأمُرْهُ أن يَكُفَّ عن آلِهتنا ونكفَّ عن إلٰهه»؛ فبعث أبو طالب واستحضر النبي (ص)، فلما أقبل ودخل عليهم ولم ير في البيت الا مشركاً لا يجوز السلام عليه، قال (ص): «السلام على مَن اتبع الهدى»؛ وجلس. وبلّغه أبو طالب كلام القوم وما جاؤوا له، فقال (ص): هَلْ لهم في كلمةٍ هي خيرٌ لهم من هذا، يسودون بها العرب ويطؤون أعناقهم؟»؛ قال أبو جهل: «نعم، وما تلك الكلمة؟»؛ قال (ص): «تقولون: لا إله إلا الله»؛ فوضعوا أصابعهم في آذانهم وهم يقولون «ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق»؛ فنزل قوله سبحانه **﴿ص، والقرآن ذي الذكر﴾** إلى قوله تعالى **﴿إن هذا إلا اختلاق﴾**[٢٢].
وأقبلت عليه (ص) طائفة أخرى يقولون له: نعبد إلٰهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة»؛ فأنزل الله تعالى قوله سبحانه **﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون﴾**، إلى آخر السورة[٢٣]، فقاموا وخرجوا من عنده آيسين من اجابته لهم.

---

١٩ ـ وظهَرَ ابن عبد الله محمد (ص)، مصدَّقاً وقائل الحقيقة، مع غضب من المشركين غير قابل للصُفح والعُتبى.
٢٠ ـ لا نُسلمُ محمداً لأي شخص مهما كان ذا عزة وقوة، سواء كان منا أو غريباً من غيرنا.
٢١ ـ ستحميه يدٌ ـ أي قوة ـ منا، هي قوة بني هاشم التي مركبها ـ أي: أصلها ـ أفضل مركب: أفضل أصل.
٢٢ ـ ج ٢٣، س ٣٨ ص: ١ ـ ٧.
٢٣ ـ ج ٣٠، س ١٠٩ الكافرون: كلها ١ ـ ٦.

معجزة أخرى للنبي (ص) تزيد عدد المؤمنين.

وعن معجزاته (ص) قبل الهجرة روايات واخبار زاخرة، منها أن راكباً أقبل ذات يوم من ناحية الابطح، ومن ورائه سبع عشرة ناقة محملة ثياب ـ ديباج، وعلى كل ناقة عبد أسود، وتقدم الراكب يطلب النبي (ص) ويسأل عنه ليسلّمه النياق بما عليها بوصية من أبيه، فاعترضه ابن أبي البختري وأشار عليه أن يسلمها أبا جهل، وأومأ إليه قائلاً للراكب: «هذا صاحبك»؛ فدنا منه الراكب، ولما نظر إليه قال له: «ما أنت بصاحبي»؛ وانصرف عنه يبحث، إلى أن انتهى إلى النبي (ص)، فنزل إليه يقبل يديه ورجليه، فقال له النبي (ص): «أَلستَ أنتَ ناجي بن المنذر السكاكي؟»؛ قال: «بلى يا رسول الله»؛ قال (ص): «فأين النياق السبع عشرة المحملة ذهباً وفضة ودراً وياقوتاً وجوهراً ووَشْياً ومُلحَما[٢٤] وغير ذلك، وعلى النياق عبيد سود عليهم أقبية عن الديباج ومناطق من الذهب هم: مُحرِز ومُنعِم وبدر وشهاب ومِنهاج. . .» وفلان وفلان، حتى عدهم باسمائهم عن آخرهم، قال: «نعم يا رسول الله، كلهم مقبلون ورائي»؛ قال (ص): «سلِّم المالَ وأنا محمد بن عبد الله»؛ فقام الرجل وأتى بالنياق وسلمها بما عليها إليه (ص) وانصرف.

وانتشر الخبر بذلك، وازدادت قريش غيظاً وكمدا، ونادى فيهم أبو جهل: «يا آل غالب، إن لم تُنصِفوني وتَنصُروني على محمد، لأَضعنَّ سيفي في صدري وأخرجه من ظهري؛ إن هذا المال كله للكعبة وقد أخذه محمد»؛ ثم ركب أبو جهل فرسه وجرَّد سيفه، وجعل يطوف أقصى مكة وادناها، يستغيث بهم للقيام على النبي (ص) ورهطه وانتزاع المال منه، حتى أجابه كثيرون مقاتلون[٢٥] أقبلوا معه نحو النبي (ص).

جمع أبو طالب عندئذٍ رهطه وعشيرته من بني هاشم وأحاطوا بالنبي (ص)، فلما قَدِم القوم اعترضهم أبو طالب يقول لهم: «ما الذي تريدون؟»؛ قال أبو جهل: «إن ابن أخيك قد جنَى علينا جنايات عظيمة،

---

٢٤ ـ المُلحَم: جنس من الثياب سَداه حرير أبيض ولحمته غير حرير.

٢٥ ـ جعلتهم إحدى الروايات سبعين ألفاً.

ويحقُّ للعرب أن تغضب حتى تسفك الدماء وتسبي النساء»؛ قال: «وما ذاك؟»؛ قال: «انه سحَرَ الغلامَ وردّه إلى دينه وأخذ منه المال، وهو مبعوث إلى الكعبة»؛ قال أبو طالب: «قف حتى امضي إليه وأسأله عن ذلك»؛ ثم انصرف إلى النبي (ص) يسأله رَدّ الأموال إليهم، فأبى (ص) ذلك وقال: «لا أعطيه ولا حبة واحدة»؛ إلى أن قال أبو طالب: «خذ عشرة من النياق وأعطهم سبعة منها»؛ فقال النبي (ص): «توقَفُ النياقُ والهدية بين يدي أبي جهل يناديها سبع مرات، فإن أجابته وكلمته فالهدية هديته، وإن أنا كلمتُها وأجابتني فالهدية هديتي»؛ فرجع أبو طالب إلى أبي جهل وقومه وقال له: «إن ابن أخي قد أجابك إلى النصفة»؛ ثم بلّغه مقالة النبي (ص)، وجعل الميعاد على ذلك غداة غد عند طلوع الشمس، فقبلت الجموع ذلك وتفرقوا.

وأقبل أبو جهل إلى الكعبة، فسجد لِهُبَلَ طويلاً، ثم رفع رأسه يخاطب الصنم وقال له: «أسألك أن تجعل النوق تخاطبني ولا يَشمتَ بي محمد، وإني أعبُدُك منذ أربعين سنة ما سألتك فيها حاجة، فإن أجبتني في هذه لأصنعنّ لك قبة من لؤلؤ أبيض، وسوارين من ذهب، وخلخالين من فضة، وتاجاً مكللاً بالجوهر، وقلادة من العقيان»؛ إلى أن انصرف عنه. وأصبح الصباح وحضر القوم في الموعد يقدمهم أبو جهل، وأقبل الناس واجتمعوا من كل جانب ومكان، وحضر النبي (ص) ورهطه وأحضروا النياق بأحمالها، وتقدم إليها أبو جهل أولاً وثانياً إلى سبع مرات، يكلمها ويسألها عن مَن اهديت له، فلم تجبه بشيء؛ ثم تقدم النبي (ص) إليها، وسألها عن نفسه المقدسة يطلب منها الشهادة له بالنبوة، فسمعت الجموع المزدحمة أولهم وآخرهم أجوبة النياق بأجمعها عليه وشهادتها له بنبوته، بألسنة طلقة وعبارات عربية فصيحة، حتى امتلأ الوادي من أصواتها، فبُهِتَ القومُ وطارت عقولهم ودهشوا مما رأوا وسمعوا، حتى لم يبق لهم شكٌ في ذلك، وانصرفوا راجعين، وأسلم كثير من الناس. ولكن أبا جهل ورهطه ازدادوا بذلك كفراً وعناداً وحسداً وكمداً، وانصرف أبو جهل وهو يقول: «إن ذلك قليل من سحر محمد!»؛ وانصرف النبي (ص) ورهطه وقد استلموا الأموال كلها، وازدادوا بذلك فرحاً وسروراً، وبالنبي (ص) إيماناً ويقيناً.

وكم لذلك من نظير وكم وكم من معجزة ظهرت له (ص) بهرت العقـول وحيـرت الألبـاب، يضيـق المقـام عـن حصـرهـا، ولا يسعنـا استقصاؤها، وسيأتيك إن شاء الله تعالى ذكر بعضها عند ذكر معاجزه مضافاً إلى ما مر ذكره معنا، ومنها قصة معراجه (ص) وصعوده صلوات الله عليه وآله إلى الملأ الأعلى.

الإسراء والمعراج
وصعوده (صلعم) إلى الملأ الأعلى

إن قصة الإسراء (أي الانتقال ليلاً) بالنبي (ص) من مكة التي فيها «المسجد الحرام» أي حَرَم الكعبة، إلى بيت المقدس (مدينة القدس) التي فيها «المسجد الأقصى»، ثم مِعراجه (أي صعوده) منها إلى السماوات العُلَى حتى «سِدْرَةَ المُنْتَهَى» قرب عرش الرحمان سبحانه وتعالى، وعودته في الليلة نفسها بعد أمد قليل من غيابه عن فراشه، هي قصة إحدى كرامات النبي البارزة، صلوات الله عليه وآله، ؛ وقد ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز صراحة أو إشارة أكثر من مرة، رداً على المشركين الذين كذّبوا النبي أو سخروا منه، وعلى المشككين بالواقعة عامةً، منهم أو من سواهم، مثل قوله تعالى في بداية سورة الإسراء ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾[1] وقوله سبحانه ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[2]، بعد قوله ﴿**ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾[3]، وكذا قوله جل وعلا خطاباً له: ﴿**وأسأل مَن أرسلنا قَبْلَكَ مِن رُسُلنا**﴾[4] فإنه (ص) لم يجتمع مع الرسل في الأرض ليسألهم، وإنما كان ذلك حين صعوده إلى الملأ الأعلى. وقد وقعت حادثة الإسراء والمعراج

---

١ ـ القرآن الكريم، الجزء ١٥، السورة ١٧: الآية ١.

٢ ـ ج ٢٧، س ٥٣ النجم: ١٨.

٣ ـ ج ٢٧، س ٥٣ النجم: ٩.

٤ ـ ج ٢٥، س ٤٣ الزخرف: ٤٥.

انطلاقاً من شِعْب أبي طالب (أو من بيت خديجة ـ ع ـ ، أو من بيت أم هاني بنت أبي طالب)، بعد المبعث بسنتين (أو تلك، أو أكثر)، وكان ذلك في شهر رمضان، أو شهر ربيع الأول.

وقد وصف النبي (ص) نفسُه ـ وهو الصادق المُصَّدق ـ قصة معراجه ومشاهداته (ص) فقال:

النبي (ص) يصف رحلة معراجه.

«بينما أنا راقدٌ إذ نزل عليَّ جبرائيل وميكائيل، ومع كل منهما سبعون ألف ملك، وقال جبرائيل: «إن ربي بعثني إليك، وأمرني أن آتِيَهُ بك، فَقُمْ فإن الله تعالى يُكرمُك كرامةً لم يُكرِم بها أحداً قبلك ولا بعدك، فأَبشِرْ وطب نفساً؛ فقمتُ وصليتُ ركعتين، وسلمتُ على الملائكة وبشروني. وكان معهم دابة هي حيوان فوق الحمار ودون البغل، اسمه «البُراق»، خدُّه كخدّ الإنسان، وقوائمه كقوائم البعير، وحوافره كحوافر الخيل، وذَنَبه كذنب البقر، رجلاه أطول من يديه، وله جناحان من فخذيه مكللان بالدّرّ والجوهر والياقوت والزبرجد، ولجامه وسرجه من ياقوت أحمر، وركابه من دُرَّة بيضاء، مُزمَّم بزمام من الذهب، وأذناه من زبرجدتين خضراوين، وعيناه تتوقدان كأنهما نجمان مضيئان، وكأنه ينحدر من نحره الجُمان٥، خطوته مَدُّ البصر، يسمع الكلام ويفهمه، مكتوب بين عينيه: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله، فقدمه جبرائيل وأمرني بالركوب عليه. فلما هممت به تضعضع، فلطمه جبرائيل وقال: «اسكُنْ يا براق، فما ركبَكَ نبيٌّ قبله ولا يركبك مثله بعده، إنه محمد!». فتواضع وأخذ جبرائيل بلجامه وميكائيل بركابه، فركبتُ ورقِيَ بي ورفعني ارتفاعاً ليس بالكثير».

وقد روي أن جبرائيل وهو صاعد معه، أمره أثناء سيره وعروجه بالنزول في عدة أماكن، والصلاة في كل منها ركعتين، منها مسجد الكوفة بالعِراق، ومنها قمة طور (أي: جبل) «سينا» ومنها بيت المقدس، ومنها «بيت لحم» مولد المسيح (ع) قريباً من بيت المقدس.

---

٥ ـ الجُمان: اللؤلؤ.

وتابع (ص) وصفه فقال.

«وناداني أثناء سيري مناد عن يميني فلم أجبه، ثم ناداني مناد عن يساري فلم أجبه، وأخبرني جبرائيل أنهما داعياً ديانتين أُخرَتَيْن (أي لو كنت أجبتهما لتهوَّدَت أمتي أو تنصرت)؛ ثم لقيت امرأة مزينة كاشفة عن ذراعيها، فنادتني فلم أكلمها، وأخبرني جبرائيل أنها الدنيا. وعرجت إلى أن بلغت سماء الدنيا، وعليها مَلَك يقال له «إسماعيل»، وهو صاحب الخطفة[٦]، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿إلا من خطف الخطفة﴾[٧] ... الخ، وتحته سبعون ألف مَلَك، تحت كل منهم سبعون ألف ملك، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، ثم قال: «مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

ثم دخلت السماء فتلقتني الملائكُ ضاحكين مستبشرين، وكذا لما عرجنا إلى السماء الثانية، ثم الثالثة، .. حتى السابعة، وقد رأيت فيها من الملائك ما لا يعلم عددهم إلا الله، ورأيت فيها من العجائب أموراً كثيرة. ولم تزل الملائك تتلقاني أفواجاً يرحبون بي، ويبشرونني بخير، ويسألونني عن علي بن أبي طالب[٨]. ورأيت في السماء الرابعة ملك الموت وبيده لوح من نور ينظر فيه، فسألته عن قبض الأرواح فقال: ما الدنيا كلها

---

٦ ـ صاحب الخطفة، أي المَلَك المسؤول عن معاقبة من يخطف الخطفة من الشياطين، وهم الذين يثبون ويتسللون بصورة خاطفة إلى السماء الممنوعة عليهم، فعند ذلك يُتبِعُه هذا المَلَك بشهاب ثاقب يطرده. «إلا مَن خَطِف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب...»

٧ ـ ج ٢٣ س ٣٧ الصافات: ١٠.

٨ ـ في الرواية المنقولة هنا عن لسان النبي (صلعم)، عدة أخبار وأقوال تظهر ما لأمير المؤمنين الإمام علي (ع) من مقام وكرامة عند الله ورسوله وملائكته، إلى درجة أن النبي (ص) قال حين سألوه عن الإمام علي (ع): حتى ظننتُ ان اسمه أشهر من اسمي عندهم؛ وكذا قول مَلَك الموت له: يا محمد، ما خلق الله خلقاً إلا وأنا أقبض روحه بيدي، ما خلا أنت وعلي، فإن الله جل جلاله يقبض روحيكما بقدرته. ومثلها أيضاً قوله (ص): لما صرتُ تحت العرش إذا أنا بعليٍ واقفاً هناك. قلتُ: يا علي سبقتني!؛ فقال جبرائيل: يا محمد، ليس هذا علياً، ولكنه مَلَك خلقه الله على صورة علي، لأن الملائكة اشتهت أن تنظر إليه يتمتعون بذلك غدوة وعشياً، كما يشتاق بنو آدم في الأرض لأحبائهم، وقد سأل الملائكة ربهم ذلك.

عندي إلا كالدرهم في كف الرجل يقلّبه كيف يشاء. إلى أن دخلت الجنة في السماء السابعة، ورأيت فيها إبراهيم الخليل (ع) على باب البيت المعمور، تحت شجرة ذات ضلوع، يسقي بها مَن يموت من أطفال المؤمنين، فرحب بي وسألني عن علي؛ وقد رأيت فيها وفي السماوات أشباح الأنبياء، ففي سماء الدنيا رأيتُ أبا البشر آدم، وفي السماء الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون أخا الكليم، وفي السادسة الكليم موسى، وكل منهم يُرحب بي ويبشرني وأمتي بخير ويسألني عن علي، وفي كل تلك المواضع يقدمني جبرائيل للصلاة بالملائكة وأشباح الأنبياء ويقول: الخاتم أفضل من المختوم، وأنت أفضل من الكل؛ فأصلي بهم، وكذا صليت في البيت المعمور ركعتين، إلى أن انتهيت إلى سدرة المنتهى، والورقة الواحدة منها تظلل أمة من الأمم.

ورأيت من العجائب التي خلقها الله تعالى وسخرها، ديكاً رِجلاه في تخوم الأرض السابعة، ورأسه عند العرش، وله جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب، وله زغب أخضر وريش أبيض، فإذا كان وقت السحر، نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح قائلاً: سبحان الله الملك القدوس، سبحان الله الكبير المتعال، لا إله إلا الله الحي القيوم؛ وعند ذلك تتبعه ديوك الأرض كلها بخفقان اجنحتها وبالصريخ والتسبيح، وإذا سكت ذلك الديك في السماء سكتت ديوك الأرض كلها.

ووجدتُ على كل باب من أبواب السماء، وعلى كل حُجُبَ النور وأركان العرش مكتوباً: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين؛ ورأيت ملكين يناديان في السماء، أحدهما يقول: اللهم أعطِ كل مُنفِقٍ خَلَفًا، والآخر يقول: اللهم أَعط كل مُمسْكٍ تَلَفا؛ إلى أن انتهينا إلى سدرة المنتهى، فهمَّ جبرائيل أن ينصرف عني، فقلت: خليلي جبرائيل، في مثل هذا المكان تخلفني وتمضي؟ قال: حبيبي، والذي بعثك بالحق نبياً، إن هذا المسلك ما سلكه نبي مُرسَل ولا مَلَك مُقرَّب، وإن تجاوزتُهُ احترقَتْ أجنحتي، استودعك رب العزة؛ ثم انصرف عني.

انتهيت بعد مفارقة جبرائيل لي إلى ما شاء الله من بحار النور والظلمة، ووقفت منتفضاً مرعوباً، إذ نوديتُ من الملكوت: يا أحمد؛ فقلتُ: لبيك ربي وسعديك، ها أنا ذا عبدك بين يديك. ثم نوديتُ: يا أحمد، العزيزُ يُقرِئُكَ السلام؛ فقلت: هو السلام، وإليه يعود السلام؛ فقال عز من قائل: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾**؛ فقلت: **﴿والمؤمنون كل آمن بالله﴾**؛ إلى قوله تعالى: **﴿غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**، فأتاني النداء مِن قِبَله سبحانه **﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلا وُسْعَها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**؛ فقلت: **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾**[٩]؛ وأعطاني الله كل ذلك لي ولأمتي، وسألت ربي ما سألت وأعطاني كل ما سألت، وناجيته وناجاني؛

وذلك قوله تعالى: **﴿فأوحي إلى عبده ما أوحى﴾**؛[١٠] إلى أن قال (ص):

وان الله أعطاني خمساً وأعطى علياً خمساً: أعطاني جوامع الكلم وأعطى علياً جوامع العلم، وجعلني نبياً وجعله وصياً، وأعطاني الكوثر وأعطاه السلسبيل، وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام، وأسرَى بي إليه وفتح له أبوابَ السماء والحُجُب حتى نظر إليَّ ونظرت إليه.

اخبار يوم المعراج عن كرامة علي (ع).

وقد حدَّث النبي (ص) بعدئذٍ ابنَ عباس (رض) بحديث معراجه وكرامات ابن عمهما علي (ع) فقال:

«يا ابن عباس، ليلة المعراج كلمني ربي فقال: يا محمد، انظر تحتك؛ فنظرتُ وإذا الحُجُب قد انخرقَتْ وأبوابُ السماوات قد فُتِحَت، فرأيت علياً رافعاً رأسه إليَّ، فكلمني وكلمته، ثم ناداني ربي يقول: يا محمد، إني جعلت علياً وصيَّكَ ووزيرك وخليفتك من بعدك، فأَعْلِمْهُ،

---

٩ ـ ج٣، س٢ البقرة: ٢٨٥ و٢٨٦

١٠ ـ ج٢٧، س٥٣ النجم: ١٠

فها هو يسمع كلامك؛ فأعلمتُهُ وأنا بين يَدَيْ ربي عز وجل، وأجابني علي يقول: قد قبلْتُ وأطَعْتُ. ثم أمر الله تعالى الملائكة أن يسلموا عليه أفواجاً أفواجاً، وكان هو يسمع تسليماتهم ويردُ عليهم السلام. ثم جعلَت الملائكةُ يتباشرون ويهنئُونني به وهم يقولون: يا محمد، والذي بعثك بالحق، لقد دخل السرور على جميع الملائكة باستخلاف الله عز وجل لك ابن عمك. ورأيت حَمَلَةَ العرش قد نكسوا رؤوسهم إلى الأرض، ينظرون إلى علي (ع) بإذن من الله تعالى. ولما هبطتُ إلى الأرض، جعلت أخبر علياً بكل ذلك وهو يخبرني به، فعلمت أني لم أطأ موطئاً إلا وقد كُشِف لعلي عنه حتى نظر إليه.

يا ابن عباس، عليك بمودة علي بن أبي طالب، فوالذي بعثني بالحق نبياً، لا يقبل الله من عبد حسنة حتى يسأله عن حب علي بن أبي طالب، وهو الله تعالى أعلم به، فإن جاءه بولايته قَبِلَ عمله على ما كان منه، وأما إذا لم يأتِ بولايته، لم يسأله عن شيء وأمر به إلى النار.

يا ابن عباس، والذي بعثني بالحق نبياً، إن النار لأشد غضباً على مبغضي علي من غضبها على من زعم أن لله ولَداً.

يا ابن عباس، لو أن الملائكة المقرَّبين والأنبياءَ والمرسلين اجتمعوا على بغضه ـ ولن يفعلوا أبداً ـ لعذبهم الله بالنار، وإنه يُبغِضه قومٌ يزعمون أنهم من أمَّتي يُفضلون عليه مَن هو دونه، فهؤلاء لم يجعل الله لهم في حقيقة الإسلام نصيباً.

يا ابن عباس، والذي بعثني بالحق نبياً، ما بعث الله نبياً أكرم عليه مني، ولا وصياً أكرم عليه من وصيي علي.

يا ابن عباس، خالِفْ مَن خالَفَ علياً، ولا تكونَنَّ لمُخالِفِهِ ظهيراً ولا ولياً.

يا ابن عباس، إذا أردتَ أن تَلقَى اللّهَ وهو عنك راضٍ، فاسلك طريقة عليٍ ومِلْ معه حيث مال، وأرضَ به إماماً، وعادِ مَن عاداه ووالِ مَن والاه.

يا ابن عباس، احذر أن يَدخُلَكَ شكٌ فيه، وإنه جل جلاله ليلة

المعراج أوصاني بعلي خيراً، وقال تعالى في ما قال: يا محمد، ابلغه أنه رايةُ الهدى، وإمام أوليائي، وحجتي بَعدكَ على خلقي، ونورٌ لمن أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتُها المتقين، مَن أطاعه أطاعني، ومن عصاه عصاني، فبشره بذلك، وأنصبْهُ عَلَما لأمتك يهتدون به بَعدك. يا محمد، أنت عبدي وأنا ربك، فلي فَاخضع، وإياي فاعبد، وعليَّ فتوكل، وبي فَثِقْ، فإني قد رضيت بك عبداً وحبيباً ورسولاً ونبياً، وإنك نوري في عبادي، ورسولي إلى خلقي، وحجتي على بَرِيَّتِي، لك ولِمَنِ اتَّبَعَكَ خلقتُ جنتي، ولمن خالفك خلقت ناري، ولأِوصيائك أوجبتُ كرامتي، ولشيعتهم أوجبتُ ثوابي. قلتُ: يا رب ومَن أوصيائي؟ فنوديتُ: يا محمد، أوصياؤك المكتوبون على ساق عرشي؛ فنظرت إلى ساق العرش، فرأيتُ اثني عشر نوراً مكتوباً في كلٍ منها اسم وصيٍ من أوصيائي في سطر أخضر، أوَّلهم عليُّ بن أبي طالب، وآخرهم مهدي أمتي؛ فنوديتُ: يا محمد، هؤلاء أوليائي وأصفيائي وحُجَجي بعدك على بَريَّتي، وهم أوصياؤك وخلفاؤك وخيرُ خَلْقي بعدك، وعزتي وجلالي، لأُظهِرَنَّ بِهم ديني، ولأُعْلِيَنَّ بهم كلمتي، ولأُطهرَنْ الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأُمَكِّنَنَّهُ مَشارقَ الأرض ومغاربها، ولأُسَخرنَّ له الرياح، ولأُذَلِّلَنَ له السحاب، ولأُرْقِيَنَّهُ في الأسباب، ولأَنْصُرنَّهُ بجندي، ولأُمُدَّنَهُ بملائكتي حتى تَعلُوَ دعوتي وتَجمع الخلقَ على توحيدي، ثم لأُديمَنّ مُلكَهُ ولأداوِلَنَّ الأيامَ بين أوليائي إلى يوم القيامة..؛ إلى آخر ما ناجاني به ربي وعلَّمني وأوصاني، وأخبرني بما يُبتَلى به عليٌّ مِن بعدي، وسائرِ ما يحدث وما يجري على خلفائي، إلى حين ظهور مَهْدِيِّهِم،.. إلى أن فرغت من مناجاتي ومناجاته.

ثم وضع الله تعالى يد قدرته بين ثَدْيَيَّ ووجدتُ بَرْدها بين كتفي، ثم رجعت ونزلت إلى البيت المعمور تحت سدرة المنتهى، ورأيت جبرائيل ثانية وإليه الإشارة في قوله سبحانه **﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾**[١١]؛ وأذَّن وأقام جبرائيلُ مَثْنَى مثنى حتى قال: حيَّ على الصلاة،

---

١١ ـ ج٢٧ س٥٣ النجم: ١٣و١٤

حيَّ على الفلاح، فقالت الملائكة: بمحمد تقوم الصلاة وبعلي الفلاح، ؛ إلى أن قال: حيَّ على خير العمل، فقال الله تعالى: هي أفضلُ الأعمال عندي وأذكاها، أفلح مَن مشى إليها وواظب عليها أبتغاءَ وجهي!.

موسى (ع) ينصح النبي (ص) بأن يطلب من الله تخفيف الصلاة على امته.

ثم تقدمتُ وأَمَمْتُ الملائكة، وغشيتني بعدئذٍ صبابة فخررت ساجداً، ثم سمعت نداءً مِن ربي أنه فرض عليّ وعلي أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، كما فرض على الأنبياء قبلي؛ ولما انحدرت ومررت على أشباح الأنبياء، لم يسألني أحد منهم عن ما جرى معي إلا موسى بن عمران، فإنه قال: ما صنعت يا محمد؟ فأخبرته ببعض ما جرى في المعراج، عن ما جرى معي وأعلمته أنه تعالى فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة؛ فقال: يا محمد، إن أمتك آخر الأمم وأضعفها، ولا تستطيع أن تقوم بها، وإن ربك لا يزيده شيء، فأرجع إليه واسأله التخفيف لهم؛ فرجعت إلى سدرة المنتهى وخررت ساجداً لربي وسألته التخفيف، فأجابني ووضع عني عشراً، فرجعت وأخبرت الكليم بذلك، فنصحني بالرجوع ثانياً وطلب التخفيف، وعرجت مرة أخرى إلى ربي وسألته ذلك، فأجابني ووضع عني عشراً أخرى، وهكذا إلى أن قدمت الفرائض اليومية إلى خمس، واستحييت بعد ذلك من إجابة موسى وطلب التخفيف من ربي أكثر، وهكذا جعل الله لي ولأمتي هذه الفرائض الخمس، إذا أقيمت بحدودها وشرائطها مُعادَلةٌ بخمسين.

ومر بي جبرائيل على شجرةِ طوبَى، وناولني من ثمرها فأكلته، وصار ذلك نطفة فاطمة ابنتي، وهي حوراء أنسية، وما قبَّلتُها الا شممتُ منها رائحة شجرةِ طوبي.

ورأيت في جملة الملائك مَلَكاً لم أر أعظم منه خَلْقاً، وهو كريه المنظر ظاهر الغضب، فرحَّبَ بي ودعا لي كغيره من الملائك، إلا أنه لم يبُشَّ في وجهي ولم يضحك لي مثل غيره، ففزعت منه وسألت عنه جبرائيل، فقال: كلنا نفزع منه! إن هذا مالك خازن النار، لم يضحك منذ ولاه الله جهنم، ولا يزال يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل

معصيته، وينتقم الله به منهم، ولو كان ليضحك لأحد لَضحك لك، ولكنه لا يضحك؛ ولما سلمت عليه وردّ علي السلام، سألته أن يكشف لي عن النار غطاءها».

وكان قصد النبي (ص) أن يرى عذاب جهنم لأهلها كما رأى نعيم الجنة لأهلها، ولما رفع الغطاء، فزع النبي (ص) من شرورها ولهبها، ورأى فيها أنواعاً كثيرة من العذاب الرهيب، فجعل يسأل عن كل فريق من المعذبين، وسبب نزول ما نزل بهم، وجبرائيل (ع) يخبره بذلك؛ فمنهم أقوام تُقذَف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم، وهم ﴿**الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً**﴾[١٢]، ومنهم أقوام قد ملئت بطونهم من الحيات والعقارب ولا يقدرون على الحركة لعظم بطونهم، وهم ﴿**الذين يأكلون الربا**﴾[١٣]؛ إلى أن قال (ص): ورأيت في جهنم امرأة معلقة بلسانها والحميم يصبُّ في حلقها، وهي التي تؤذي زوجها بلسانها؛ وامرأة معلقة بِثدييها وهي التي تمنع زوجها من فراشها؛ وامرأة تأكل لحم جسدها والنارُ توقد من تحتها، وهي التي كانت تتزين لغواية غير محارمها[١٤]؛ وامرأة قد شُدت رجلاها إلى يديها وسُلِّطت عليها الحيّات والعقارب، وهي التي كانت تستهين بالصلاة، ولا تتنظف ولا تغتسل من الجنابة والحيض، وامرأة معلقة برجليها في تنور من نار، وهي التي كانت تخرج من بيتها بغير إذن زوجها؛ ويل لأمرأة أغضبت زوجها، وطوبى لأمرأة رضي عنا زوجها! إلى غير ذلك من أنواع العذاب لأنواع من الرجال والنساء.

منها انه سمع صوتاً أفزعه، فسأل جبرائيل عنه فقال: هذه رنة صخرة قُذِف بها من علا شفير جهنم منذ سبعين عاماً، والآن بلغت قعرها واستقرت فيها ثم ذكر (ص) ـ في روايات عديدة ـ أشياء كثيرة من الغرائب رآها ليلة المعراج عند صعوده وعند رجوعه،

---

١٢ ـ ج٤ س٤ النساء: ١٠

١٣ ـ ج٣ س٢ البقرة: ٢٧٥

١٤ ـ ومثلها ـ في الرواية ـ امرأة معلقة بشعرها يغلي دماغها في رأسها لإبرازها شعرها ونشره لغواية الرجال غير المحارم وإغرائهم.

ومنها أنه (ص) رأى مَلَكاً نصفه من النار ونصفه من الثلج وهو يقول: اللهم يا من ألّف بين الثلج والنار، أَلِف بين قلوب عبادك المؤمنين.

العودة الى الارض.

ولما انتهت رحلة معراجه وما كان له من نجاوى ولقاءات ومشاهدات، هبط به البراق كما صعد، وكان هبوطه (ص) في ظلمة الليل، وكان من أوامر الله تعالى وحكمته أن يرى (ص) أشخاصاً وأعواناً لقومه ليخبر بها وتكون علامة على معجزته وصدق أخباره (ص) عن معراجه، فكان عبور البراق على عِيرٍ لأبي سفيان محملة، فنفرت من دفيف البراق، ونادى رجل من آخر العير غلاماً له في أول العير أن الإبل قد نفرت، وأن فلانة وقعت وألقت حملها وانكسرت يدها، وضلّ لهم بعير؛ فنزل (ص) هناك وشرب من الماء، وكانت لهم قِرَبٌ مملوءة أريقت واحدة منها؛ ورأى النبي (ص) كل ذلك في عودته، إلى أن وصل إلى محله والموضع الذي عرج منه.

أَما ما كان في الأَرض بعد الإسراء به (ص) ومعراجه، فإن ابا طالب لما افتقده ولم يجده في مكانه، ارتعد واضطرب كثيراً، وحار لُبُّه وطار عقله وانخلع قلبه، فجعل يدور من محل إلى محل حتى كاد أن يُهلِكَ نفسه وهو يقول: «يا لها من عظيمة إن لم أر محمداً (ص) إلى الفجر»؛ ثم سلَّ سيفه وأمر بني هاشم أن يتقلدوا سلاحهم، وخرج نحو قريش وهو ينادي فيهم برفيع صوته: «والله إن لم أره لا أبقي فيكم عيناً تطرف»؛ وهم يقولون له: «لقد ركبتَ منا عظيماً!»؛ وبينما هم كذلك إذ ظهر النبي (ص) قبل طلوع الفجر، فهذا أبو طالب وهدأوا.

ولما أصبح الصباح، أخذ (ص) يحدّثهم عن معراجه وبعض ما رأى، وبلغ الخبر قريشاً فجعلوا يكذبونه ويستهزئون به، إلى أن أخبرهم بخبر عير أبي سفيان، وأنه (ص) شرب من ماء لهم، وأنه قد ضلّ لهم بعير؛ وأخبرهم أن العير توافيهم في اليوم الثالث مع طلوع الشمس في موضع هناك دلّهم عليه، يَقْدِمُها جمل أحمر هو جمل فلان. . فقال أبو

جهل: «لقد أمكنتكم الفرصة، فاسألوه عن بيت المقدس»؛ فجعلوا يسألونه عن عدد أساطينه[١٥] وقناديله ومحاريبه ـ وكان فيهم مَن دخل بيت المقدس وعلم صحة كل ذلك ـ فأخذ النبي (ص) يصف لهم بيت المقدس بما فيه من الهيئة والصفات والقناديل والمحاريب والابنية، على الوجه المطابق لها من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا اختلاف، فازداد القوم بذلك حيرة وعجباً، ولكنهم لم يروا كل تلك الآيات البينات إلا كهانة وسحراً، ولم تزدهم الكرامات إلا كفراً وإلحاداً، حتى أنهم أرسلوا رسلاً إلى العير ليحبسوها أينما لقوها ويؤخروها عن دخول مكة في اليوم الثالث، كي يكذِّبوا النبي (ص) في إخباره بذلك.

الوقائع تثبت صحة أخبار النبي (ص) عن معراجه

وشاع الخبر بحديث النبي (ص) عن العير بين القبائل والعشائر، فاجتمعت الجموع في اليوم الموعود لقدوم العير، وأقبلت القبائل تتسارع من كل ناحية ومكان، وأشرفوا على العقبة التي أشار إليها رسول الله (ص) وأخبر عن خروج العير منها عند طلوع الشمس، حتى لم يُرَ في مكة أكثر اجتماعاً من ذلك اليوم؛ وجعلوا ينظرون إلى العقبة ويقولون: «هذه الشمس كادت تطلع الساعة، ولم يَبِنْ أثر من العير»؛ وبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير مع طلوع قرص الشمس، يَقْدِمُها جمل أحمر كما أخبر النبي (ص) ـ وقد روي أن الله ضرب وجوه الإبل حتى صارت تجدّ في السير بانفسها، ولم تمتنع عن السير بمنع أصحابها وإشارة رسل قريش، ولم يتمكنوا من حبسها ـ إلى أن طلعت من العقبة، وأخذت الجموع والقبائل يقولون: «الإبلَ الإبلَ الشمسَ الشمس»؛ إلى أن انتهت العير إلى القوم، وأخذوا يسألونهم عن ما اخبر به النبي (ص)، فأخبرتهم العير بمثل ما أخبر (ص) به من إهراق القِربة، وفقدان الجمل، وغيرهما. .، ولم تُخالِف أخبارهُم حرفاً واحداً من خبره، ولكن المكابرين المعاندين من قريش صعب عليهم تصديق النبي (ص)، فقالوا: «هذا قليل من سحر محمد».

---

١٥ ـ أساطينه: أعمدته

إلا أن الحدث الضخم، وأخبار النبي (ص) الصحيحة القوية لم تكن لتمضي دون تأثير، فقد آمن به جماعات كثيرة، وبدأ يعلو شيئاً فشيئاً أمر النبي (ص) حتى صار ودعوته حديث مكة وجوارها، وحتى جعلت قريش تتساير في مجالسها وتقول: «قد أعيانا أمر محمد، وما ندري ما نقول فيه».

ثم حدث في معمعة التداول والتساؤل والشك تلك، أن اجتمع أربعة عشر رجلاً من أكابرهم في الليلة الرابعة عشر من ذي الحجة، يتذاكرون في ذلك، فقال بعضهم: «قوموا بنا جميعاً إليه نسأله أن يرينا آية من السماء، فإن السحر قد يكون في الأرض، ولكنه لا يكون في السماء»؛ فنهضوا باجمعهم يطلبون النبي (ص)، إلى أن انتهوا إليه في حِجر اسماعيل (ع) في المسجد الحرام، وسألوه أن يريهم آية في السماء، وأن يشق لهم القمر فلقتين، فقال لهم النبي (ص): «أتؤمنون إن فعلت ذلك؟؛ قالوا: «نعم»»؛ وعاهدو على ذلك، فهبط جبرائيل (ع) يقول: «يا محمد، إن الله يُقرئُك السلام ويقول: إني قد أمرتُ كلَّ شيء بطاعتك؛ عشرة»؛ فتوجه النبي (ص) إلى القوم يقول: «ألستم تَرَون هذا القمر في تمامه لأربع عشرة ليلة؟» قالوا: «بلى، فإن يكن لك عند ربك قدرٌ فأمرهُ أن ينقطع فطعتين»؛ فأشار النبي (ص) إلى القمر باصبعه، ولم يكن إلا كلمحة بصر أن سقط القمر من السماء وانفلق نصفين، فوقع نصفه الأول على الكعبة، ونصفه الآخر على جبل أبي قُبَيْس والناس ينظرون إليه، فدهش القوم من ذلك وغلبهم الفزع. عند ذلك سجد النبي (ص) ومَن عنده من المسلمين شكراً، وازدادوا بالنبي (ص) إيماناً؛ ولكن المعاندين المكابرين من قريش لم يزدادوا إلا جحوداً وكفراً. ثم سألوه أن يردّه إلى موضعه بعد انضمام كل نصف منه إلى الآخر، فأجابهم إلى ذلك، وأشار إلى النصفين، فطارا جميعاً والتقيا في الهواء، حتى صارا قمراً واحداً كما كان واستقرَّ في مكانه، والقوم يتطلعون إليه وقد ازدادوا عجباً وحيرة، وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض، والنبي (ص) يقول لهم: «اشهدوا»؛ إلى أن قال قائلهم: «قوموا بنا، فقد جمع سحرُ محمد بين السماء والأرض»؛ عندئذٍ نزل قوله سبحانه **﴿اقْتَرَبَتِ الساعةُ وانْشقَّ القمر، وإن**

يـرَوا آيـةً يُعـرِضـوا ويقـولـوا سحـرٌ مستمـر﴾[١٦] . . الـخ؛ ثـم قـالـوا لـه يـا محمد (ص): «حينما يقدم مسافرونا من الشام واليمن نسألهم، فإن كانوا رأوا مثل ما رأينا، علمنا أنه من ربك، وإلا علمنا أنه سحرٌ سحَرْتَنَا به»؛ فوافقهم النبي (ص) على ذلك. ولما أتى السُفَّار وسألوهم عن ذلك، أخبرهم القوم بمثل ما رآه أهل مكة، ولكن أؤلئك المعاندين جعل بعضهم يقول لبعض: «سَحَرَكم ابن أبي كبشة».

ولقيهم النبي ذات يوم يقدمهم أبو جهل، ووقع الكلام بينه (ص) وبينهم، إلى أن قال النبي (ص): «يا أبا جهل، إنما دفع الله تعالى عنك العذاب، لعلمه تعالى بأنه سيخرج من صلبك ذرّية طيبة، هو ابنك عكرمة، وسيلي من أمور المسلمين ما إن أطاع الله فيه كان عند الله جليلاً، ولولا ذلك لكان العذاب نازلاً عليك؛ وكذا سائر قريش، إنما أُمهِلوا لأن الله علم أن بعضهم سيؤمن وينال السعادة، فلا يقطعه عنها ولا يبخل بها عليه، وبعضهم يولد منه مؤمن فيُنْظِر الله تعالى ويُمهل أباه لإيصال السعادة إلى ابنه، ولولا ذلك لنزل العذاب بكافتهم، فانظر يا أبا جهل نحو السماء»؛ فرفع هو وقومه رؤوسهم إلى السماء ينظرون إلى أكنافها؛ وإذا بأبوابها مفتحة والنيران منها نازلة، إلى أن قربت منهم حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم، فارتعدت فرائصهم وغارت أعينهم في أحداقهم فزعاً ودهشة، وبان الخوف في وجوههم وانخلعت قلوبهم من الروع، فناداهم النبي (ص): «لا تروعنكم هذه، وإن الله لا يهلككم بها، وإنما أظهَرَها عبرة لكم!»؛ وبينما هم كذلك إذ رأوا أنواراً خرجت من ظهورهم، قابلت تلك النيران حتى دفعتها عنهم وأرجعتها إلى محالها من السماء، فبهت القوم ولم يتكلم أحد منهم، وأخبرهم النبي (ص) بأن تلك الأنوار هي «إيمانُ مَن يَسعد منكم مِن بَعد، أو إيمانُ ذرّيةٍ طيبة تخرج من بعضكم»، فتفرق القوم ولم يزدادوا إلا عتواً وعناداً.

أحد كبار العرب ينبذ قريشاً ويُسلم

وفي أخبار هذه المرحلة من الدعوة، وما تخللها من صنوف الشك

---

١٦ ـ ج ٢٧، س ٥٤ القمر: ١ و٢.

والإيمان والعناد والجدل والتصديق، أن طفيل بن عَمْرو ـ وكان رجلاً مطاعاً في قومه ـ دخل مكة، فتلقته قريش ينهونه عن الاقتراب من محمد (ص)، إلى أن دخل المسجد يوماً وقد حشا أذنيه بكُرْسُف[١٧] لئلا يَسمَع كلام النبي (ص)، ولكن ذلك لم يمنعه عن سماع الكلام؛ وحدث بينما هو يطوف أن سمع شيئاً من كلام النبي (ص) فأعجبه، ثم جعل يلوم نفسه على مطاوعته لقريش وابتعاده عن النبي (ص) وعدم الاقتراب منه، إلى أن أخرج الكرسف من أذنيه ورمى به، ثم أقبل نحو النبي (ص) ولم يقم من عنده إلا وقد أسلم، وأنشأ يقول:

تُحَذِّرُني مُحَمَّدها قريشٌ   وما أنا بالهَيَوبِ لَدَى الخِصامِ
فقام إلى المقام وقمتُ منه   بعيداً حيث أنجو مِن مَلامِ
وأُسمِعْتُ الهُدَى وسمعتُ قولاً   كريماً ليس مِن سَجْعِ الأنامِ
وصدَّقتُ الرسولَ وهان قومٌ   عليَّ رَمَوهُ بالبُهْتِ العِظامِ[١٨]

ثم قال: «يا رسول الله، إني آمرُؤٌ مُطاعٌ في قومي، فادع الله أن يجعل لي عوناً لي على ما أدعوهم إليه من الاسلام»[١٩]؛ فدعا له النبي (ص) ذلك، وانصرف الرجل إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام وأجابوه، وأنشأ يقول:

ألا أَبلغْ لديكَ بني لُؤَيٍ   على الشَنَآنِ والقَضْبِ المُردِّ[٢٠]
بأنَّ اللّه ربَّ الناس فردٌ   تعالى جَدُّه عن كلِ جَدِّ[٢٠]
وان محمداً عبدٌ رسول   دليلُ هُدَىً يؤدّي كل رُشْدِ
رأيتُ له دلائلَ أنبأتني   بأن سبيله يَهدي لِقصدِ

كذلك في أخبار هذه المرحلة من الدعوة أن امرأة من المشركين

---

١٧ ـ الكُرْسُف: القطن.

١٨ ـ البُهت: الافتراء، الكذب.

١٩ ـ في الرواية أن طفيلاً طلب أن يجعل الله له آية تكون عوناً له على دعوته لهم، وأن الله جعل له في طرف سوطه نوراً يضيء كالقنديل.

٢٠ ـ الشَنْآن والشِنَآن: البغض ـ القضَب: القطيعة ـ المرد: الممعن في البُعد والتغريب.

كانت شديدة القول في النبي (ص) مرت به (ص)، ذات يوم ومعها صبي لها ابن شهرين، فلما دنت منه (ص)، انطق الله الصبي في حُجرها، حتى جعل يسلم عليه (ص) بلسان طلق فصيح ويشهد له بالرسالة، فحار لبّ المرأة وطار عقلها؛ فقال النبي (ص) للصبي: «من أين تعلم أني رسول الله؟»؛ قال الرضيع: «أعلمني رب العالمين والروح الأمين»؛ فقال النبي (ص): «ومَن الروح الأمين؟»؛ قال: «إنه جبرائيل، وهو قائم على رأسك ينظر إليك»؛ فقال النبي (ص): «ما اسمك يا غلام؟»: قال: «عبد العُزّى[٢١]، وأنا كافر به، فَسَمِّني ما شئتَ يا رسول الله، وادعُ الله أن يجعلني مِن خَدَمِك في الجنة»؛ فدعا له النبي (ص) وسماه «عبد الله» فقال الغلام: «سَعِدَ مَن آمن بك، وشَقِيَ مَن كفر بك!»؛ ثم شهق شهقة ومات لساعته.

وقد حدثت حالات عديدة مثل هذه من الإيمان به والإقبال عليه (ص)، أوردتها كتب السيرة والتاريخ، ولكن حالات الأذى والسخرية والطعن والتنديد... به (ص)، كانت في هذه الفترة أشد وآلم، بل كانت من أشد سنوات العذاب له في جهاده (صلعم)، وسنرى في الفصول التالية بعضاً من صُوَر تلك الأذايا والآلام له في موقفه الصامد على طريق التوحيد وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

---

٢١ ـ العُزّى: اسم أحد الأصنام.

تضاعف المصائب عليه والأذاى له (ص)
قبيل الهجرة

وفاة عمه نصيره أَبي طالب

حين انقض شهران على خروج النبي (ص) ورهطه من حصار الشِعب، مرض عمه أبو طالب أياماً حتى ثقل وضعه وبان عليه الخطر. ودخل عليه النبي (ص) ورآه يجود بنفسه، فوقف عليه حزيناً باكياً وقال له: «يا عم، ربَّيتَ صغيراً ونصرْتَ كبيراً وكفلت يتيماً، فجزاك الله عني خير الجزاء؛ أعطني كلمة أشفع لك بها عند ربي»؛ (يعني التوحيد والشهادة بالرسالة)، وكان عمه العباس حاضراً، فرأى أخاه أبا طالب يحرك شفتيه، فأصغى إليه ثم قال: «والله يا رسول الله قد قال الكلمة التي سألته إياها»؛ ثم قضى أبو طالب نحبه في السادس والعشرين من شهر رجب.

.. وسنده حبيبته خديجة (ع)

ثم توفيت خديجة (ع) بعده بثلاثة أيام ـ كما ذكرنا سابقاً ـ (أو شهرٍ وخمسة أيام، أو ستة أشهر، على اختلاف الأقوال في ذلك)، وكانت وزيرة صدقٍ للنبي (ص) على الإسلام، فاجتمع عليه (ص) حينئذٍ أمران عظيمان، وجزع جزعاً شديداً، وتتابعت عليه المصائب في تلك السنة ـ العاشرة من مبعثه (ص) ـ واشتد عليه البلاء فيها أشدّ مما كان، ونالت قريش منه بغيتها وأصابته بعظيم الأذى وبما لم تطمع فيه قبلاً، إذ جعلوا ينثرون عليه التراب ويقذفونه بالحجارة أينما توجه، وهو يهرب منهم إلى

كل ناحية، ويستتر عنهم في كل جهة، وهم يلاحقونه بالضرب والشتم، حتى لزِمَ بيته وأقلّ من خروجه، يبكي على فقيدَيْهِ وناصرَيْه، ويترنم بكلمات مشجية حزناً على فقدهما، ونزلت عليه آيات قرآنية في تسلية قلبه الشريف المعذب، إلى درجة أن عمه أبا لهب ـ مع شدة كفره وبغضه للنبي (ص) ـ أخذته الحمية، فأتى إلى النبي (ص) ابن أخيه يحرضه على القيام بدعوته ويتكفل بنصرته مثل أبي طالب، إلى أن قال: «لا واللات[1] لا يوصَل إليك بسوء حتى أموت!»؛ ولم يزل يدافع عنه أياماً مكث النبي (ص) فيها آمناً يخالط الأقوام، إلى أن سبَّه ذات يوم «ابن غيطلة»، وبلغ الخبر أبا لهب، فمضى إليه ونال منه بغيته، تداركاً لما نال من النبي (ص). فولى ابن غيطلة إلى قريش ينادي فيهم: «يا معشر قريش ان ابا عتبة صبأ إلى ابن أخيه»؛ وأقبلت إليه قريش يسألونه عن ذلك، فقال لهم: «ما فارقت ديني، ولكني أمنع[2] ابن أخي أن يضام»؛ فحبذه بعضهم على صلته للرحم، إلى أن أقبل عليه أبو جهل وعقبة بن أبي معيط يعتبان عليه في ذلك ويلومانه، ولم يزالا يكلمانه إلى أن صرفاه عن حمايته لابن أخيه.

النبي (ص) يهرب الى «الطائف» هرباً من اذايا مشركي مكة

وبقي النبي (ص) غريباً وحيداً ليس له ناصر ولا مدافع من أكابر القوم، ولم يزل على دعوته لقبائل العرب وأشرافهم يسألهم أن يُؤْوُوهُ ويمنعوا عنه القتل والأذى حتى يبلّغ رسالة ربه، ويقول في جملة كلامه: «إني لا أُكْرِهُ أحداً منكم على شيء، فمن رضي بالذي أدعوه إليه فذاك، ومن رفض لم أُكرِهْهُ حتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء»؛ فلم يقبله أحد لا من القبائل ولا من الرؤساء وجعلوا يلفظونه ويطردونه وهم يقولون: «إن قوم الرجل أعلم به! أترونه يُصلِحُنا وقد أفسد قومه؟»؛ إلى أن التجأ (ص) إلى الخروج إلى الطائف ـ وذلك بعد وفاة خديجة (ع) بثلاثة أشهر، وكان قد هاجر أكثر المسلمين إلى الحبشة ـ فذهب (ص) إلى

---

١ ـ اللات: اسم صنم.

٢ ـ أمنع: أحمي.

الطائف في أواخر شوال، ومعه زيد بن حارثة.

حين قَدِم النبي (ص) الى البلدة، ، مرّ في طريقه على «عتبة» و«شيبة» وكانا جالسين على سرير، فخرّ السرير بهما عند اقتراب النبي (ص) منهما حتى سقطا على الأرض، فاستشاطا غضباً وهمّا بالنبي (ص) وهما يقولان له: «عجز سحرك عن أهل مكة، فأتيت إلى الطائف»؛ ثم طرداه. فعمد (ص) إلى قبيلة ثقيف رجاء أن يُؤووهُ، إلى أن انتهى إليهم ووجد ثلاثة من سادتهم كانوا أخوة، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم قومه وما انتهكوه منه، فقال أحدهم: «أنا أسرق أستار الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط»؛ وقال الآخر: «أَعَجِزَ الله عن الله يرسل غيرك؟»؛ وقال ثالثهم: «والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبدا! والله لئن كنتَ رسول الله فأنت أعظم شرفاً من أن أكلمك، ولئن كنت تكذب على الله فأنت شرٌ من أن أكلمك»؛ ثم جعلوا يهزأون به، وأفشوا في قومهم أن يراجعوه، وأشاروا عليهم أن يؤذوه، فقعد القوم صفَّينِ على جانبي طريقه، وجعلوا يرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه، إلى أن هرب وخلّص نفسه منهم ورجلاه تسيلان دماً، وعمد إلى حائط بظل قضيب من شجر العنب وهو مكروب موجع، وإذا بعتبة وشيبة يظهران هناك، فكره الاجتماع بهما وتحاشاهما وابتعد عنهما، لما كان يعلم من شدة عداوتهما له.

وكان لعتبة أو لشيبة غلام نصراني يدعى «عداس»، فأرسلاه إلى النبي (ص) ليؤذيه، فلما انتهى الغلام إليه، قال له النبي (ص): «من أي أرض أنت؟»؛ قال «من نِينَوَى»؛ قال (ص): «من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى»؛ قال: «وما يدريك مَن يونس؟»؛ قال (ص) «أخبرني به الله تعالى بما أوحى إلي»، ثم أخبره بما أُوحِيَ إليه في شأن يونس، ودعاه بعدئذٍ إلى الإسلام والإقرار برسالته، فخرّ عداس ساجداً لله، ثم جعل يقبل قدمي النبي (ص) والدماء تسيل منهما، ثم استأذن النبي (ص) وفارقه إلى صاحبيه. فلما رجع إلى سيديه عتبة وشيبة، استنكرا منه سجوده للنبي (ص) وتقبيله لأقدامه، فأخبرهما بما سمع ورأى، فجعلا يسخران منه ويقولان له: «لا يَفْتِنَنَّكَ عن نصرانيتك، فإنه رجل خداع!».

رفضُ القبائل حمايتَه (ص) وعودتُه الى مكة

ثم لم يزل النبي (ص) في الطائف يدور على القبائل، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويُؤْوُوه ويمنعوا عنه أذى قومه، فلم يقبلوه، وجعلوا يطردونه ويرمونه بالحجارة، إلى أن مضى عليه شهر هناك أدموا خلاله بدنه، ولم يألوا جهداً في طرده وأذاه، إلى أن انصرف راجعاً إلى مكة وهو محرم بالعمرة، وجلس وهو في الطريق إليها في ظل حبلة، من عنب، يبكي ويتضرع إلى ربه شاكياً إليه ضعفه وقلة حيلته وهَوانه على الناس.

فلما قام يتابع مسيرته وأشرف على مكة، كره دخولها من غير مُجير يُجيره من أكابرها، فرأى رجلاً من قريش كان قد تكتَّم بإسلامه، فأمره أن يذهب إلى «الأخنس بن شريق» ويسأله الإجارة له، فأتى إليه وقال له: «إن محمداً يسألك أن تجيره حتى يطوف ويسعى، فإنه معتمر»؛ قال الأخنس: «إني لست من قريش، وإنما أنا حليف فيهم، والحليف لا يُجيرُ على الصميم، لذا أخاف أن يخفروا جواري[٣] ويكون ذلك لي مسبة»؛ فرجع الرسول إلى النبي (ص) وكان مختفياً مع زيد في شعب حِراء، وأبلغه كلام الأخنس، فأمره النبي (ص) بالمضي إلى «مُطعِم بن عَدِيّ» يسأله ذلك، فرجع الرجل إلى مطعم وأبلغه طلب النبي (ص)، فسأله مطعم عن مكان النبي (ص)، فكره الرجل أن يخبره عن موضعه (ص) وقال: «هو قريب»؛ فقبل مطعم اجارته وقال للرجل: «ائتِهِ وقل له: إني قد أَجَرتُكَ، هلُمَّ وطُفْ واْسعَ ما شئت». ثم أمر ابنه وأخاه طعيمة وجمعا من أقاربه وهم عشرة يحمل السلاح، وأن يكونوا حول الكعبة حتى يأتي النبي (ص) فيطوف ويسعى وينصرف؛ فقام القوم وأخذوا السلاح متأهبين لحمايته.

ولما أقبل النبي (ص) ودخل المسجد، رآه أبو جهل، فجعل ينادي في قريش: «هذا محمد وحده وقد مات ناصره، فشأنكم به»؛ فاعترضه طعيمة يقول: «يا عم، لا تتكلم، فإن أبا وهب قد أجار محمداً»؛ فمضى

---

٣ ـ يخفروا جواري (لك): ينقضوا ويخلعوا جواري وحمايتي لك.

إلى مطعم وسأله عن ذلك، فقال: «نعم أنا مجيرٌ له»؛ قال: «إذاً لا نَخفُرُ جِوارَكَ!». ولما فرغ النبي (ص) من طوافه وسعيه، أقبل نحو مطعم يقول لَه: «يا أبا وهب، قد أجَرْتَ وأحسنْتَ، فرُدَّ عَلَيَّ جواري»؛ قال: «وما عليك أن تقيم في جواري؟»؛ قال (ص): «أكره أن أُقيم في جوار مشركٍ أكثر من يوم»؛ فأمر مطعم أن ينادَى في قريش أن محمداً قد خرج من جواره.

مؤمنو العقبة الأولى

ولم يزل النبي (ص) على عادته يعرض نفسه على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإسلام وهم يطردونه ويردون عليه أقبح رد، وأبو لهب يتبعه ويرضخ رجليه بالحجارة وينادي في الجموع: «يا قوم إنه ابن أخي، وهو ساحر كذاب فلا تقبلوا منه»؛ ونزل فيه قوله تعالى ﴿تبت يدا أبي لهب﴾[٤] .. الخ، حتى مَضَى على النبي (ص) كذلك سنة وستة أشهر بعد رجوعه من الطائف، إلى أن آمن به في «مِنَى» في أحد المواسم ستة أنفار من يثرب، خمسة منهم من الخزْرَج وواحد من الأَوْس، وسميت بيعتهم له (ص) «بيعة العقبة الأولى»؛ وهم: جابر بن عبد الله، وقطنة بن عامر، وعوف بن الحارث، وحارثة بن ثعلبة، ومرثد بن الأسد، وثعلبة بن عمر.

ودخل عليه (ص) ذات يوم رجل اسمه «عمرو بن مرة» وقال له (ص): «نمتُ ذات ليلة في الطريق، ورأيت في المنام كأنّ نوراً قد سطع من الكعبة حتى أضاء يثرب وجَبَلَيْ جُهَيْنة، وسمعت قائلاً يقول:

تَقَشَّعَت الظلماء، وسطع الضياء، وبُعِث خاتمُ الأنبياء.

ثم أضاء أخرى حتى نظرتُ قصور الحيرة والمدائن، وسمعت قائلاً يقول:

أقبلَ حقٌ فسَطَعْ، ودُمِغَ باطلٌ فانْقَمَع

فانتبهتُ مرعوباً وقلت لأصحابي: «واللّهِ لَيَحْدُثَنَّ بمكة حَدَث»؛

---

٤ ـ القرآن الكريم، الجزء ٣٠، س ١١١ المسد (وفي بعض المصاحف: اللهب): ١ ـ ٣.

وأخبرتهم برؤياي. ولما انصرفنا إلى بلادنا، بلغنا الخبر ببعثتك، وكان لنا صنم كنت أنا أخدمه، فشددت عليه وكسرته وخرجت حتى قَدِمت عليك. فقال النبي (ص): «يا عمرو بن مرة، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة، أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الرحمان، ورفض الأوثان، وحج البيت، وصوم شهر رمضان، ومن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فآمِنْ بالله يا عمرو تأمنْ يوم القيامة من النار»؛ فقال الرجل: «أشهد أن لا إلَه إلا الله وأنك رسول الله، آمنتُ بما جئتَ به من حلال وحرام، وإن أرغَمَ[٥] ذلك كثيراً من الأقوام» ثم أنشأ يقول:

شهِدتُ بأن اللَّهَ حقٌ وإنني لآلهةِ الأحجارِ أولُ تاركِ
وشمرَّتُ عن ساقي الإزارَ مُهاجراً إليكَ أجوب الوَعْثَ بعد الدَكادِكِ[٦]
لأصبحَ خيرَ الناس نفساً ووالداً رسولَ مليكِ الناس فوق الحبايكِ[٧]

ثم قال: «يا رسول الله، ابعثني إلى قومي لعل الله تبارك وتعالى يمنّ بي عليهم، كما منَّ بك عليّ»؛ فبعثه النبي (ص) إليهم، وأوصاه بالرفق والقول السديد، وأن لا يكون فظاً غليظاً، ولا مستكبراً ولا حسوداً؛ ولما انتهى إليهم جعل ينادي في جموعهم: «يا بني رفاعة، ويا معشر جُهَينة، إن الله له الحمد قد جعلكم خيارَ مَن أنتم منه، وبغَّض إليكم ما حبَّب إلى غيركم من العرب الذين كانوا يجمعون بين الأختين ويخلف الرجل منهم على امرأة أبيه، ومن الإغارة في الشهر الحرام، فأجيبوا هذا الذي من «لُؤَي»[٨]، تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة، وسارعوا في أمره يكن بذلك لكم عنده فضيلة»؛ فأجابه قومه كلهم إلى الإسلام، ما عدا رجلٍ منهم جَبَهَهُ بالرد عليه وقال له: «أَمَرَّ الله عيشك يا عمرو، أتأمرنا برفض آلهتنا

---

٥ ـ أرغمهم: أذلهم، أغضبهم.
٦ ـ (الطريق) الوَعْث: الصعب سلوكه ـ (الأراضي) الدكادك: الغليظة
٧ ـ الحبايك والحُبُك: طرق النجوم في السماء. معنى البيت كلاً: لأصبح أفضل الناس لكوني رسول سيدهم ومليكهم محمد (ص) الذي هو فوق النجوم ومساراتها.
٨ ـ لؤي ومُضَر وتهامة ومُرَّة: أسماء قبائل وأفخاذ عشائر

وتفريق جماعتنا ومخالفة دين آبائنا ومَن مضى مِن أوائلنا، إلى ما يدعوك إليه هذا المُضَري[٨] من تهامة[٨]؟ لا ولا حباً ولا كرامة!»؛ وأنشأ يقول:

إن ابن «مُرَّة» قد أتى بمقالةٍ ليست مقالةَ مَن يريدُ صلاحا[٨]
إنـي لأحسـب قـولـه وفِعـالَـه يـومـاً وإن طـال الـزمـان ذِبـاحـا[٩]
مَـن رام ذلـك لا أصـاب فـلاحـا ويُسَفِّهُ الأحلامَ ممن قد مضى

فأجابه عمرو وقال له: «أمرَّ الله عيش الكذاب مني ومنك، وأبكَمَ[١٠] لسانه وأكْمَهَ[١١] إنسانه!»[١٢]؛ فما دارت الأيام والليالي حتى عمِيَ الرجل وسقط فوه، لا يقدر على الكلام ولا يبصر شيئاً، وافتقر حتى احتاج إلى رفد الناس، إلى أن هلك.

ثم لم يزل الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً في مكة ونواحيها وقبائلها، بما يسمعون من الآيات القرآنية ويرون من المعاجز والكرامات النبوية.

تأثر ابناء «يثرب» باقوال النبي (ص).

وكان بين القبيلتين العظيمتين في «يَثْرِب»: «الأَوْس» و«الخَزْرَج» حروب شديدة قد أقاموا عليها دهراً طويلاً، لا يضعون فيها السلاح عنهم لا بالليل ولا بالنهار، وكانت آخر حرب بينهم في السنة الثانية عشر من المبعث، في «بُعاث» الذي كان النصر فيه للأوس على الخزرج، فخرج من يثرب بعده رجلان من الخزرج ـ هما أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس ـ نحو مكة في عمرة رجب، ليسألا قريشاً الحِلفَ وأعانَتَهم على الأوس، فلما قَدِما مكة، نزلا عند عتبة بن ربيعة وأخبراه بما جرى بين قومهما وبين الأوس، وسألاه الحلف والعون على الأوس، فقال عتبة: «بَعُدَتْ دارنا عن داركم، ولنا شغل لا نتفرغ معه لشيء!»؛ قالا: «وما شغلكم وأنتم في حَرَمِكم وأَمْنِكم؟»؛ قال: «خرج فينا رجل يدَّعي أنه

---

٩ ـ الذباح (بضم الذال وكسرها): وجع في الحلق حتى لكأنه الذبح.
١٠ ـ أبكمه: أخرسه.
١١ ـ أكمهه: أعماه.
١٢ ـ إنسان العين: سوادها.

رسول الله، وقد سفَّهَ أحلامنا وسبَّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا»؛ قال أسعد: «ومن هو منكم؟»؛ قال: «ابن عبد الله بن عبد المطلب، مَن أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً»؛ فوقع كلامه في نفس أسعد كل موقع، وأخذ الخبرُ بمجامع قلبه ـ وذلك لما كان قد سمعه هو وسائر أهل يثرب وقبائلها من البشائر من اليهود وغيرهم، بأن هذا أوان نبي يخرج بمكة ويكون مهاجره إلى المدينة، وكانوا يهددون المشركين بخروجه يقولون لنقتلنكم يا معاشر العرب ـ فتفأل أسعد بكلام عتبة خيراً، ورجا أن يكون مَن أخبر عنه هو النبيُّ المبشَّر به على ألسنة اليهود، وسأله عن موضع النبي (ص)، فقال عتبة: «إنه الساعةَ في الحِجر في المسجد الحرام؛ وإياك أن تأتي إليه أو تَقْرَبَهُ أو تُكلِّمَه أو تسمعَ كلامه ثم إياك، فإنه ساحر يسحرك بكلامه»؛ قال أسعد: «فكيف أصنع وأنا معتمر لا بدَّ لي أن أطوف بالبيت؟»؛ قال: «ضع في أذنيك القُطن كي لا تسمع منه شيئاً» ففعل أسعد ذلك، ودخل المسجد وبأذنيه القطن كي لا يسمع أقوال النبي (ص).

وكان النبي (ص) حين دخول أسعد جالساً في جمع من بني هاشم في الحجر، فنظر إليه أسعد وجازه وطاف أَول شوط؛ ولما كان في الشوط الثاني جعل يلوم نفسه ـ كالطفيل بن عمرو الذي مرَّ ذكره آنفاً ـ ويقول في نفسه: «ما أجد أحداً أجهلَ مني! أيكون مثل هذا الحديث بمكة ولا أتعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم به؟!»؛ ثم أخرج القطن من أذنيه ورمى به وتوجه نحو النبي (ص) حتى وقف عليه وقال له: «إنعَمْ صباحاً!»؛ فرفع النبي (ص) رأسه ينظر إليه وقال له: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن منه، وهو تحية أهل الجنة: السلام عليكم»؛ فقال أسعد: «ان عهدك بهذا لقريب! إلى مَ تدعو يا محمد؟»؛ قال (ص): «إلى شهادة أن لا إلَه إلا الله، وأني رسول الله، وأن: لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق» إلى قوله تعالى ﴿ذلكم وَصَّاكم به لعلكم تذكرون﴾[١٣] فدهش أسعد من سماع تلك الآيات واهتز فرحاً واعجاباً بها، وأخذ يحدّ النظر في وجه النبي (ص) إلى أن أسلم وشهد الشهادتين، ثم

---

١٣ ـ القرآن الكريم، ج٨، س٦ الأنعام: ١٥١ و١٥٢.

قال له: «بأبي أنت وأمي يارسول الله، أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخوتنا من الأوس حِبالٌ مقطوعة نرجو أن يصلها الله بك، ولا أجد أحداً أعز منك! وإن معي رجلاً من قومي، إن دخل في هذا الأمر رجوتُ أن يتمم اللّهُ أمرَنا فيك! والله يارسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشروننا بمَخْرَجك ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارُنا دارَ هجرتك، فقد أعلمنا اليهود ذلك؛ والحمد لله الذي ساقني إليك! والله ما جئت إلا لِطَلَب الحِلف على قومنا، وقد آتاني الله أفضل مما أتيت له». وعند ذلك أقبل ذكوان، فقال له أسعد: «هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به وتخبرنا بصفته، فهلمَّ وأسلِمْ»؛ فأجابه ذكوان إلى ذلك وأسلمَ.

النبي (ص) يبعث مصعب بن عُمَير الى يثرب
.. ليعلم أهلها القرآن.

ثم قال أسعد وذكوان: «يا رسول الله، ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك»؛ فتوجه النبي (ص) إلى مُصعَب بن عُمَير (وكان فتى حدثاً مُترَفاً مكرماً بين أبويه يفضلانه على سائر أولادهما، ولما أسلم جفاه أبواه وطرداه، والتجأ إلى النبي (ص) منقطعاً إليه ولازمه ولم يخرج من مكة، بل كان معه في الشعب حتى أصابه الجهد الشديد)، فأمره النبي (ص) بالخروج إلى يثرب مع الرجلين ـ وكان قد تعلم من القرآن كثيراً ـ فلما خرجوا وقَدِموا المدينة، نزل مصعب على أسعد؛ وكان يخرج كل يوم يطوف على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، إلى أن أجابه كثير من الأحداث وجمع من القبيلتين.

وكان عبد الله بن أبيّ وهو أحد أشراف الخزرج لم يدخل مع قومه في حرب بغاث، ولم يُعِن على الأوس ولم يرض بظلمهم، وكان كريماً سخي الطبع حسن السيرة لا يعين على ظلم قط، ولذلك أحبه الفريقان ورضيا بان يقدّماه ويُسَوِّداه على الجميع، بل كانوا قد اتخذوا له اكليلاً وكاد أمره أن يتم للرياسة، ولكن لما بلغه قدوم مصعب من قِبَل النبي (ص) وأنه تبعه جماعة، كره ذلك وفتر أمره..

ومثله أيضاً كان سعد بن معاذ الذي كان من رؤساء الأوس، فقد كان رجلاً عاقلاً شريفاً مطاعاً في بني عمرو بن عوف، وكان خالاً لأسعد بن زرارة، فقال أسعد لمصعب ذات يوم: «ان خالي سعد بن معاذ إن دخل في هذا الأمر، تمَّ لنا أمرنا، فهلُمَّ نأتي محلهم»؛ فمضيا إلى محله، وجلس مصعب على بئر هناك، فاجتمع إليه قوم من أحداثهم، فجعل يقرأ عليهم القرآن، وبلغ سعدَ بن معاذ، فكره ذلك، وبعث إلى ابن أخته أسعد وصاحبه مصعب رسولاً اسمه «أسَيْد» كان من الأشراف ليحذرهما من الدعوة إلى الإسلام وينتهيا عن إفساد الشبان؛ فلما أقبل أَسيد إليهما ورآه أسعد، قال لصاحبه مصعب: «إن هذا رجل شريف، فإن دخل في هذا الأمر رَجَوْتُ أن يَتِم أمرنا، فابذل جهدك في هدايته واَصدق الله فيه»؛ ولما انتهى أسيد إليهما، توجه إلى أسعد وقال له: «يا أبا أمامة، يقول لك خالك لا تأتينا في نادينا ولا تُفسد شباننا، واَحذر الأوس على نفسك»؛ فقال له مصعب: «أوَ تجلسُ نعرض عليك أمراً، فإن أحببتَه دخلتَ فيه، وإن كرهته نَحَّيْنا عنك ما تكره»؛ فأجابه أسيد وجلس إليهما، فقرأ عليه مصعب سورة من القرآن، فتأثر من سماعها ودهش إعجاباً بها، ومال قلبه إلى الإسلام، إلى أن قال: «كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الأمر؟»؛ قال: «نغتسل، ونلبس ثوبين طاهرين، ونشهد الشهادتين، ونصلي ركعتين»؛ فنهض أسيد مبادراً من وقته وساعته، ورمى بنفسه وثيابه في البئر؛ ولما خرج منه وعصر ثيابه، قال لمصعب: «أُعرض عليّ»؛ فعرض عليه الشهادتين وشهد أسيد بهما، ثم قام وصلى ركعتين بتعليم مصعبٍ له، ثم توجَّه بعد الفراغ منهما إلى أسعد وقال له: «يا أبا أمامة، أنا أبعث إليك الآن خالك واحتال عليه في أن يجيئك»؛ ونهض راجعاً إلى سعد بن معاذ.

اسلام وجيه قبيلة «الأوس» سعد بن معاذ
وبدء انتشار الإسلام في يثرب.

حين تقدم أسيد إلى سعد ونظر سعد إليه، قال: «أقسم أن أسيَدَ قد رجع إلينا بغير الوجه الذي ذهب به من عندنا». ولما انتهى إليه أسيد

وحكى له قصته مع مصعب، نهض سعد بنفسه متوجهاً الى مصعب حتى انتهى اليه وجلس عنده، فقرأ عليه مصعب قوله تعالى ﴿حم تنزيل من الرحمٰن الرحيم﴾[١٤]، فدهش سعد من سُماعها ومال قلبه إلى الإسلام حتى تبين في وجهه اثر ذلك لمصعب وجلسائه، ثم بعث من وقته وساعته إلى منزله وأتوه بثوبين طاهرين، فقام واغتسل، ولبس الثوبين وشهد الشهادتين، وصلى ركعتين على ما علمه مصعب، ثم قام وأخذ بيد مصعب وحوّله إلى داره، وأمره بإظهار أمره وأن لا يهابنَّ أحدا.

ثم رجع سعد بن معاذ إلى قومه من بني عمرو بن عوف، حتى وقف في أواسطهم ينادي فيهم برفيع صوته: «يا بني عمرو بن عوف، لا يَبقَيَنَّ رجلٌ ولا امرأة، ولا بكر ولا ذات بعل، ولا شيخ ولا صبي، إلا أن يخرج، فليس هذا يومَ سترٍ ولا حجاب!»؛ فأجابوه كلهم من كل جانب واجتمعوا حوله، فقال لهم: «كيف حالي عندكم؟»؛ فقالوا بأجمعهم: «أنت سيدنا والمُطاع فينا، ولا نردّ أمراً فمرنا بما شئت»؛ قال: «كلام رجالكم ونسائكم وصبيانكم عليَّ حرام، حتى تشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فالحمد لله الذي أكرمنا بذلك، وهو الذي كانت اليهود تخبرنا به»؛ فعند ذلك أجابوه وأسلموا شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق في يومه ذاك دار من القوم إلا وفيها مسلم أو مسلمة.

عند هذه الحادثة وبعدها، شاع الإسلام في المدينة، وكثر المسلمون من البطنين الأوس والخزرج، وخضعت الأشراف من القبيلتين لأنهم كانوا قد سمعوا من اليهود بشارات ظهور النبي الكريم (ص)، وبلغ الخبر النبي (ص)، وكتب له به مصعب إلى مكة، فجعل النبي (ص) يأمر من ضاق عليه الأمر من أذى المشركين وعذابهم، أن يخرج إلى المدينة، فجعل المسلمون يتسللون ويخرجون من مكة رجلاً فرجلاً في خفاء من المشركين، ويهاجرون إلى المدينة هاربين، فتستقبلهم القبيلتان ويواسونهم، وكان قد أسلم كثير منهم، ولكن بقي من البطنين جمّ غفير على شركهم، إلى أن كان الموسم القابل.

---

١٤ ـ ج ٢٤، س٤١ فصلت (أو السجدة): ١ و٢...

فلما كان الموسم التالي، أقبل جمع من مشركي المدينة إلى مكة ليشاركوا فيه، وتبعهم عبد الله بن أُبَيّ وبعض من المسلمين، كأسعد بن زرارة والبراء بن معروف وغيرهما، ولما دخلوا مكة أقبل إليهم النبي (ص)، واستحضرهم[١٥] إلى دار عبد المطلب في الليلة الوسطى من ليالي التشريق[١٦]، وأوصاهم بالتكتم في أمرهم، وأن يتسلل إليه منهم واحد بعد واحد، وأن لا ينبهوا نائماً، فأجابوه إلى ذلك. ولما كانت الليلة الموعودة أتى منهم سبعون رجلاً متكتمين واحداً فواحداً من البطنين، ولما اكتملوا في الدار، قام فيهم النبي (ص) يدعوهم إلى الإسلام، وكان علي (ع) وحمزة والعباس جلوساً مع القوم، إلى أن قال لهم: «تمنعون لي جانبي حتى أتلُوَ عليكم كتاب ربي وثوابُكم على الله الجنة؟»؛ فأجابه أسعد والبراء وعبد الله بن حزام وقالوا: «نعم يا رسول الله، فاشترِطْ لنفسك ولربك ما تشاء»؛ قال: «تمنعونني مما تمنعون أنفسكم، وتمنعون أهلي مما تمنعون أهليكم وأولادكم»؛ قالوا: «فما لنا على ذلك؟»؛ قال (ص): «الجنة، وتملكون بها العرب في الدنيا، وندين لكم العجم، وتكونون ملوكاً»؛ قالوا: «قد رضينا». فقام العباس بن نضلة الأوسي وقال: «يا معشر الأوس والخزرج، تعلمون ما تُقْدِمون عليه؟ إنما تقدمون على حرب الأحمر والأبيض، وعلى حرب ملوك الدنيا، فإن علمتم أنه إذا أصابتكم المصيبة في أنفسكم خذلتموه وتركتموه، فلا تغرُّوه، فإن رسولَ الله وإن كان قومه خالفوه، فهو في عزّ ومنعة»؛ فنهره أسعد وعبد الله وأبو الهيثم وقالوا له: «مالك والكلام؟».

النبي (ص)يختار اثني عشر نقيباً من المدينة.

ثم عادوا إلى النبي (ص) يقولون: «يا رسول الله، دَمُنا بدمك، وأنفسنا بنفسك، إشترطْ لربك ولنفسك ما شئت»؛ فقال (ص): «أَخرِجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً يكفلون عنكم بذلك، كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً»؛ قالوا: «اخترْ مَن شئت»؛ وكان جبرائيل حينئذٍ

---

١٥ ـ استحضرهم: طلب حضورهم.

١٦ ـ ليالي التشريق: هي الليالي الثلاث بعد عيد الأضحى.

عند النبي (ص)، فجعل يشير عليه بتعيين النقباء ويدل عليهم واحداً واحداً وهو يقول: «هذا نقيب، وهذا نقيب»؛ حتى اختار منهم اثني عشر رجلاً، ثلاثة من الأوس (هم أبو الهيثم اليمني، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة)، وتسعة من الخزرج (هم أسعد، والبراء، وعبد الله أبو جابر، ورافع، وسعد بن عبادة، والمنذر، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، وعبادة)، فقال لهم النبي (ص): «أبايعكم كبيعة عيسى بن مريم للحواريين، كفلاء على قومهم بما فيهم، وعلى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»؛ فأجابوه إلى ذلك، وبايعوه، وبايعه سائر مَن حضر تلك الليلة في العقبة، وسُمِيَت «العقبة الأولى». عند ذلك سمع الناس صوتاً في العقبة (وكان صوت إبليس) ينادي في الجموع: «يا معشر قريش والعرب، يا أهل الجباجب[١٧]، هذا محمد والصُباة[١٨] من الأوس والخزرج على جمرة العقبة، يبايعونه على حربكم» وظلَّ ينادي بذلك حتى أسمع جموعَ أهل «مِنى»، فاضطربوا وهاجوا، وحملوا أسلحتهم واستعدوا لمهاجمة النبي (ص) ومَن آمن به. وبلغ النبيَ (ص) الخبر، فأمر من معه أن يتفرقوا، قالوا: «يا رسول الله، إن أمرتَنا أن نميل عليهم بأَسيافنا فعلنا»؛ قال (ص): «لم أؤْمر بذلك، ولم يأذن الله لي في محاربتهم»؛ قالوا: «فتخرجُ معنا يارسول الله؟» (أي إلى المدينة)؛ قال (ص): «انتظرُ أمرَ الله!»؛ فتفرق مَن كان حوله من القبيلتين.

ولما أصبح الصباح، غدت قريش بأجمعهم لم يتخلف منهم أحدٌ، حاملين سلاحهم يريدون النبي (ص) ومن معه، فنهض حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام، وجردا سيفيهما وخرجا حتى وقفا على العقبة، ولما دنا القوم منهما قالوا: «ما هذا الذي اجتمعتم عليه؟»؛ فأجابهم حمزة قائلاً: «ما اجتمعنا وما هاهنا أحد! واللّهِ ما يجوز هذه العقبة أحدٌ إلا ضربته بسيفي»؛ فصدقه القوم وخافوا وقوع الشر ورجعوا إلى محالهم. ثم غدوا إلى عبد الله بن أُبَيّ يقولون له: «قد بلغنا أن قومك بايعوا محمداً

---

١٧ ـ الجباجب: الطبول، أو. . النياق الضخمة.

١٨ ـ الصُباة والصَبَأَة: المنحرفون، المائلون.

على حربنا»؛ فحلف لهم أنهم لم يفعلوا ولا علم له بذلك، وأن قومه لم يطلعوه على أمرهم، فصدقوا كلامه وتفرقوا عنه. ثم نفر الناس بعد ليالي التشريق من مِنى إلى منازلهم، ورجع النبي (ص) في من رجع إلى مكة، ورجعت الأنصار من البطنين إلى المدينة، وهم سبعون رجلاً وامرأتان من نسائهم، احداهما نسيبة أم عمار، والثانية أسماء بنت عمرو.

توسع الاسلام في المدينة (يثرب).

ولما قدموا المدينة انتشر فيها خبرا إسلامهم، أسلم أكثر أهاليها حتى لم يبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، ما خلا دور أمية وحطيمة ووائل. ولم يزل حديث رسول الله (ص) وخبره يُذكَر في كل محفل ومجمع، والأفواج يزدادون له حباً وإليه شوقاً، ومصعب بينهم يصلي فيهم ويُفَقِّهُهُم في أحكام الدين، ويعلمهم القرآن، حتى كان الموسم القابل في السنة الثالثة عشر من المبعث، فخرج نحو مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأنصار حُجَّاجاً، وفيهم مصعب، إلى أن قدموا مكة واجتمعوا في الشعب عند العقبة في إحدى ليالي التشريق عند النبي (ص)، فبايعه مصعب وبايعوه، وقال (ص) في ما قال: «أبايعكم على الإسلام!» ـ وسميت: (العقبة الثانية) ـ فقال بعضهم: «يا رسول الله، نريد أن تُعرِّفَنا ما لله علينا، وما لك علينا، وما لنا على الله»؛ قال النبي (ص): «أمّا ما لله عليكم فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما ما لي عليكم فأن تنصروني مثل نسائكم وأبنائكم، وأن تصبروا على عضّ السيف، ولو بقتل خياركم»؛ قالوا: «فإذا فعلنا ذلك، ما لنا على الله؟»؛ قال النبي (ص): «**أما في الدنيا، فالظهور**[١٩] **على من عاداكم، وأما في الآخرة، فرضوانه والجنة**»؛ فقبلوا ذلك ورضوا به وعاهدوه عليه وأسلموا.

ثم وقف البراء بن معروف وأخذ بيد النبي (ص) وقال: «والذي بعثك بالحق نبياً، لَنَمْنَعَنَّكَ[٢٠] مما نمنعُ منه أزرنا[٢١]، فبايعْنا يا رسول الله،

---

١٩ ـ الظهور: النصر والغلبة. أظهره الله: نصره الله وغلّبه على أعدائه.

٢٠ ـ منعَ: حَمى وحَرَسَ. لَنَمْنعَنَّك: لنحميَنَّك، لَنحرُسَنَّك، لَنُدافِعَن عنك.

٢١ ـ الأزر: الظهر. نمنع أزرنا: نحمي ظهرنا، أي حياضنا وساحتنا وأهلنا وخاصتنا.

فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كباراً عن كبار»؛ فقام أبو الهيثم وقال: «يارسول الله إن بيننا وبين القوم (يعني قريشاً) حبالاً، وإنا إن قطعناها أو قطعوها، فهل عسيتَ إن أظهَرَك[١٩] اللّهُ أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا؟»؛ فتبسم النبي (ص) وقال: «بل الدم الدم والهدم الهدم، أحاربُ مَن حاربتم وأسالم من سالمتم!»؛ وطلب منهم أيضاً اثني عشر نقيباً يبايعهم كبيعة عيسى بن مريم للحواريين، يكونون كفلاء على قومهم بما فيهم، فأجابوه إلى ذلك. ولما تمت البيعة والمعاهدة بينه (ص) وبينهم، سمعت الجموع أيضاً صرخة إبليس في منى في العقبة يقول: «يا أهل الجباجب، هل لكم في محمد والصَبَأة معه قد اجتمعوا على حربكم»؛ فازدادت قريش بذلك وحشة وغيظاً، واتفقت كلمتهم على قتل النبي (ص) ومَن آمن به.

وفشا الخبر بين القبائل، إلى أن نفر الناس بعد التشريق من مِنى، ورجعوا إلى مكة، فاستعد المشركون للقبض على الأنصار وسائر المسلمين؛ فأمرهم عندئذٍ رسول الله (ص) بالهجرة إلى المدينة يقول لهم: «إن الله قد جعل لكم داراً تأمنون بها واخواناً تَحتَمُون بهم»، فخرجوا كلهم هاربين إلى المدينة، ولم يبق مع النبي (ص) إلا علي (ع) وأبو بكر (رض)؛ وخرجت قريش في طلبهم فلم يعثروا إلا على سعد بن عبادة والمنذر بن عمر. أما المنذر فأعجزهم وهرب منهم، وأما سعد فأخذوه وربطوه بنسع رجله، وجعلوا يضربونه حتى أدخلوه مكة. وبلغ خبره جبير بن مطعم والحرث بن أمية، فأتياه وخلّصاه من القوم.

ولم يؤذن للنبي (ص) يومئذٍ بالحرب والجهاد، ولم يؤمر بعدُ إلا بالدعاء والصبر على الأذى والصفح عن الجهل، فازدادات قريش عتواً وتطاولاً عليه، وهم يحذرون خروجه من مكة وهجرته إلى المدينة، لِما عرفوا من إسلام أهل المدينة واجتماعهم على حرب قريش؛ وأخيراً قرروا أن يجتمعوا في دار الندوة ـ وهي دار «قصي بن كلاب» ـ ليتشاوروا في أمر النبي (ص) وليبحثوا في الطريقة التي يتخلصون بها من دعوته، أو منه هو، وكان ذلك سبب فراره (ص) من مكة إلى الغار أولاً، ثم الهجرة بعدُ إلى يثرب مدينة الإسلام.

فرار محمد (ص) من مكة إلى الغار ومبيت علي (ع) في فراشه

في أوائل السنة الرابعة عشر من المبعث اجتمع في دار الندوة أربعون رجلاً من مشايخ قريش يتآمرون في أمر النبي (ص)، ويحتالون في دفعه ودحض كلمته، واتفقوا على أن لا يدخل معهم في المشورة من كان عمره أقل من أربعين سنة. ولما اجتمعوا وتكاملوا، أقبل إبليس في صورة شيخ كبير حتى انتهى إلى باب الدار، فقال له البواب: «من أنت؟»؛ قال: «أنا شيخ من أهل نجد، لا يعدمكم مني رأي صائب، وقد بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل، فجئت لأشير عليكم»؛ فأدخله الحاجب حتى جلس مع القوم.

شيخ نجدي (ابليس) ينصح بالطريقة الافضل لقتل محمد (ص).

وجعل القوم يتذاكرون بينهم، فقال بعضهم: «إننا لا نأمن أن يفسد أمرنا بأن يدخل أحد من مشائخ قريش في دين محمد»؛ فقال أبو جهل: «يا معشر قريش، لم يكن أحد من العرب أعز منا، نحن أهل الله، تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرموننا، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع؛ ولم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله، فكنا نسميه «الأمين» لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتى بلغ ما بلغ وأكرمناه، ادَّعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تأتيه، فسفَّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شباننا، وفرق جماعتنا، وزعم أنه من مات من أسلافنا فهو في النار، فلم يَرِد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأياً»؛ قال القوم: «وما رأيت؟»؛ قال: «رأيتُ أن ندسّ إليه رجلاً منا ليقتله، فإن طالبَتْ بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات»؛ فجبهه إبليس بالرد وقال: «هذا رأي خبيث»؛ قال القوم: «وكيف ذلك؟»؛ قال: «لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ لأنه إذا قُتل محمد تعصبت بنو هاشم

وحلفاؤهم من خزاعة، ولن يرضَوا أن يمشي قاتل محمد على وجه الأرض، فتقع بينكم الحروب في حَرَمكم وتتفانَون»؛ فقال العاص بن وائل وأمية بن خلف وأخوه أبيّ: الرأي عندنا أن نُلقِيَه في بيتٍ نستودعه فيه، ونترك له درجة نلقي إليه منها بقوته فلا يخلص إليه أحد من الصباة، حتى يأتيه ريب المنون فيموت، كما مات زهير[1] والنابغة[2] وامرؤ القيس[3] ولا نزال في رَنَق[4] من العيش»؛ فردّ عليهم إبليس قائلاً: «هذا أخبث من الأول!»؛ قالوا: «وكيف ذلك؟»؛ قال: «لأن بني هاشم لا يَرضون بذلك، فإذا جاء موسم من مواسم العرب، استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه، ولئن صنعتم ذلك لَيَتَنَمَّرَنَ له الحَدِب[5] الحميم، والمولى الحليف، ولَيَنْتَزَعَنَّ من أُنْشوطَتِكم[6]، ما هذا لكم برأي! قولوا قولكم»؛ فقال عتبة وشيبة وأبو سفيان: «نحن نرى أن نُرحِل[7] بعيراً صعباً ونوثق عليه محمداً كتافا[8]، ثم نقطع البعير بأطراف الرماح ونخرجه من بلادنا، فيوشك أن يقطعه بين الدكادك[9] إرباً إرباً، ونتفرغ نحن لعبادة آلهتنا»؛ فعاد إبليس يرد عليهم وقال: «إنكم لم تصنعوا بقولكم هذا شيئاً، وهذا الرأي أخبث من الرأيين المتقدمين»؛ قالوا: «وكيف ذلك؟»؛ قال: «لأنكم تعمدون إلى أصْبَحِ الناس وجهاً وأنطقهم لساناً وأفصحهم لهجة، أرأيتم إن خلص به البعير سالماً إلى بعض الأفاريق[10]، أو إلى بوادي العرب، فخدعهم بلسانه وأخذ بقلوبهم بسحره وبيانه وطلاقة لسانه، فصبأ القوم إليه، واستجابت

١و٢و٣ ـ زُهير بن أبي سَلْمى، والنابغة الذُبياني وامرؤ القيس، ثلاثة شعراء بارزون في عهد الجاهلية، قبل الإسلام.

٤ ـ رَنَق العيش: صفاء العيش (وهي من الأضداد، فتكون أيضاً: نكد العيش).

٥ ـ الحَدِب: العطوف. ليتنمرن له الحدب الحميم: ليثورن ويغضبن له كالنمر، من هم عطوفون عليه حميمون قريبون منه.

٦ ـ الأُنشوطة: العقدة، الرباط. ينزعونه من أنشوطتكم، أي يخلّصونه ويخرجونه من قيدكم وسجنكم له.

٧ ـ نُرحل البعير: نضع عليه رحلاً، والرَحْل ما يوضع على ظهر البعير كالسرج.

٨ ـ أوثقه كتافاً: قيّد وربط يديه خلف كتفه.

٩ ـ الدكادك، جمع دَكدَك: الأرض الغليظة الصعبة.

١٠ ـ الأفاريق: الفرقاء، الجماعات، الطوائف.

القبائل له قبيلة قبيلة، فَلَيَسيرَنَّ إليكم حينئذٍ بالكتائب[١١] والمقانب[١٢]، فلا يفجئكم إلا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجالا، ولَتَهلِكُن كما هَلَكت إِياد[١٣] ومَن كان قبلكم! قولوا قولكم»؛ فسكت القوم وبقوا حائرين إلى أن قالوا: «فما الرأي فيه يا شيخ؟»؛ قال: «ما فيه إلا رأي واحد»؛ قالوا: «وما هو؟»؛ قال: «أرى لكم أن تعمدوا إلى قبائلكم العشر، ويجتمع من كل بطن من بطون قريش وقبائل العرب ما أمكن، ويكون معهم من بني هاشم رجل، وأن تنتدبوا من كل قبيلة رجلاً نجداً، ثم تسلحوهم حساماً عَضْباً[١٤]، ويأخذ كل واحد منهم سكيناً أو حديدة أو سيفاً، وتمهد الفتية، حتى إذا غَسَقَ[١٥] الليلُ وغوَّر[١٦]، بَيَّتُوا بابن أبي كبشة بياتاً ودخلوا عليه، فيضربونه كلهم ضربة واحدة، فيذهب دمه في قبائل قريش كلها، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوه فيه، ولا يتمكن بنو المطلب مناهضة قبائل قريش في صاحبهم، فيرضَون حينئذٍ بالعقل، فإن سألوكم أن تعطوهم الدية، فأعطوهم ثلاث ديات»؛ قال القوم: «نعم وعشر ديات! لقد أصبت يا شيخ في الرأي»؛ وفرحوا بكلامه ورضوا كلهم برأيه وهم يقولون: «الرأي رأي الشيخ النجدي»: ثم أقبل عليهم يقول: «هذا هو الرأي، فلا تَعْدِلُنَّ به رأياً، وأوكئوا[١٦] في ذلك أفواهكم حتى يستتب أمركم»؛ فاجتمع القوم عليه واتفقت كلمتهم على إنفاذ رأيه.

ثم تفرقوا يدعون القبائل ورؤساءها ويجدون في جمع كلمتها على تنفيذ خطة الشيخ النجدي (إبليس)، إلى أن أجابتهم البطون بأجمعها،

---

١١ ـ الكتائب، جمع كتيبة: المجموعة من الجيش، أو الخيل.

١٢ ـ المقانِب: مجموعة الخيل التي تُستعمل في الغارة والمداهمة والهجوم.

١٣ ـ إياد: قبيلة عربية أصلها من تهامة جنوبي الحجاز في جزيرة العرب، نزح أبناؤها فعاشوا دهراً في العراق، ثم في الشام وبلاد الروم (الأناضول)، منهم فصيح السجع المعروف «قس بن ساعدة».

١٤ ـ عَضْب: قاطع

١٥ ـ غَسَقَ الليلُ: دخل في الظلام؛ وغوَّر: اشتدت عتمته، بغروب النجوم أو بسوى ذلك (كانتشار الغيوم).

١٦ ـ أوكئوا أفواهكم: ضُمُّوها وتكتموا واخفوا الخبر.

ووافقهم على ذلك من بني هاشم أبو لهب، فنزل جبرائيل (ع) على النبي (ص) بقوله تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾[١٧] وأخبره بخبر القوم وما دَبّروه له، ثم أمره بالانطلاق إلى غار بجبل «ثور» والهجرة منه إلى المدينة، وأن يُبَيّتَ علياً (ع) في فراشه ليلة اجتماع القوم عليه.

علي (ع) مستعد للمبيت بمضجع النبي (ص) والموت في سبيل نجاته.

ولما اجتمعت قريش بميعادها ـ كما أشار عليهم إبليس ـ خرجوا أولاً إلى المسجد يُصفّرون ويصفقون ويطوفون بالبيت، وأنزل الله فيهم ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً[١٨] وتَصْدِيةً[١٩]﴾[٢٠].. الخ، فدعا النبي (ص) أمير المؤمنين علياً (ع) لوقته وقال له: «يا علي، إن الروح الأمين هبط عليّ بهذه الآية، وأخبرني أن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وقد أوحَى إليَّ من ربي عز وجل أن أَهجُرَ دار قومي، وأن انطلق إلى غار ثور تحت ليلتي، وأمرني أن آمرك بالمبيت على مضجعي ليخفَى عليهم بمبيتك أثري، فما أنت قائل وصانع؟»؛ قال علي (ع): «وتَسْلَمَنَّ يا نبيَ الله بمبيتي هنا؟»؛ قال: «نعم»؛ فتبسم أمير المؤمنين (ع) ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لله على سلامة النبي (ص) بالهرب، وعلى أن يكون هو (ع) فداء له، ثم عفّر خديه على التراب ـ وكان هو (ع) أول من سجد لله شكراً وعفَّرَ خديه في هذه الأمة بعد رسول الله (ص) ـ ولما استوى جالساً من السجود قال: «إمضِ يا رسول الله لما أُمِرتَ به، فِداكَ سمعي وبصري وسُويداءُ قلبي، ومُرني بما شئتَ أكُنْ فيه كمسرتك، وأَقَعْ منه تحت مُرادك، وإن توفيقي إلا بالله»؛ قال له النبي (ص): «وإن

---

١٧ ـ القرآن الكريم، الجزء ٩، السورة ٨ الأنفال: الآية ٣٠.

١٨ ـ مُكاء: صفير.

١٩ ـ تصدية: تصفيق.

٢٠ ـ ج٩، س٨ الأنفال: ٣٥.

أُلقيَ عليك شَبَهي؟»[٢١]؛ قال (ع): «نعم»؛ قال (ص): «فارقد على فراشي، وٱشتمل ببُرْدي الحَضْرَمي الأخضر ـ وهو البُرْد الذي كان ينام فيه النبي (ص) ـ ثم قال (ص) له: «إني أخبرك يا علي، أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه، فأشد الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنَكَ يا ابن العم وامتحنني بمثل ما امتحن به خليلَه إبراهيم والذبيحَ اسماعيل، فصبراً صبراً ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[٢٢] ثم ضمه النبي (ص) إلى صدره، وبكى وجداً به بكاءً شديداً، وبكى أمير المؤمنين (ع) ألماً وحسرة على فراق رسول الله (ص)؛ ثم لم يزل النبي (ص) يوصيه بأمور، ويأمره بالصبر حتى صلى العشاءين.

النبي (ص) يخرج بين الرَصَد ولا يرونه.

وكان الرَصَد من قريش قد طافوا بداره وجلسوا على الباب ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين حتى يداهموه، وهم خمسة وعشرون رجلاً، فيهم أبو جهل والحَكَم بن أبي العاص وأبو لهب وأمثالهم من وجوه قريش. ولما أظلم الليل، خرج النبي (ص) من الدار وبإحدى يديه قبضة من التراب، ويده الأخرى بيد جبرائيل (ع)، فرمى بالتراب على رؤوس المشركين المحيطين بداره، وقرأ عليهم قوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[٢٣] فجاوزَ القومَ ومضى عنهم، دون أن يشعر به أحد منهم، وأخذ يمشي بأمر جبرائيل (ع) نحو غار ثور ـ وهو على طريق مِنى، له سَنامٌ كسنام الثور ـ ولحقه في بعض الطريق أبو بكر (رض) وهند بن أبي هالة، إلى أن انتهوا إلى غار ثور في الجبل، فرجع هند بأمر النبي (ص) إلى منزله. وكان باب الغار ضيقاً، ولكنه لما انتهى إليه النبي (ص) اتسع الباب حتى دخله (ص) وصاحبه، وعاد الباب كما كان. دعا النبي (ص) بعد ذلك شجرة كانت هناك، فأتته

---

٢١ ـ أي: أتقبلُ يا علي بالمبيت على مضجعي حتى لو تغيرت صورة وجهك وكتب الله عليك أن تصبح شبيهاً لي؟.

٢٢ ـ القرآن الكريم، ج ٨، س ٧ الأعراف: ٥٦.

٢٣ ـ ج ٢٢، س ٣٦ يس: ٩.

حتى قامت على الباب بأمره، وبعث الله تعالى في تلك الساعة حمامتين باضتا على فم الغار، وأرسل العنكبوتَ فنسجت على بابه، وكل ذلك إخفاءً لمخبئه (ص)، وليبدو المكان كأنه يتعذر دخوله على أحد من الناس، أي ليس فيه محمد (ص)، وكذلك ـ بوجود عش الحمام فيه ونسيج العنكبوت ـ كأنه لم تصل إليه قدم إنسان؛ لذا دعا النبي (ص) للحمام وفرض له جزاءً، وبذلك أمِنَت الحمائم من الاصطياد وانحدرت مُطمئنة في الحرم، ونهى (ص) عن قتل العنكبوت وقال فيها: هي جند من جنود الله).

وأما ما كان من أمر القوم، فإنه لما التحف أمير المؤمنين عليه السلام ببردة النبي (ص) ونام في فراشه بأمره، مُوَطِّناً نفسه على القتل فداء لرسول الله مستكيناً مطمئناً من غير وحشة ولا وجل، وانتصف الليل ونامت العيون وانقطعت الآثار، قامت قريش ليهجموا على الدار ـ وكانت دور مكة يومئذٍ سوائب ليس لها أبواب ـ فنهض أبو لهب في وجوههم وقد أخذته الغيرة والحمية على نساء الدار، وأخذ يصدُّ قومه ويمنعهم عن المهاجمة في ظلمة الليل وهو يقول: «لا أدَعُكم تدخلون عليه بالليل، فإن في الدار نساءً وصبياناً، ولا يُؤمَنَ أن تقع يد خاطئة إذا وقعت الصيحة عليهن، فيبقى ذلك علينا عاراً في العرب ومسبة إلى آخر الدهر، ولكن أقعدوا بنا جميعاً على الباب نحرس محمداً في مرقده، فإذا طلع الفجر تَواثَبْنا إلى الدار وضربناه ضربة رجل واحد وخرجنا، فإلى أن تجتمع الناس يكون أضاء الصبح ويزول عنا العار عند ذلك»؛ وأخيراً بعد جدل وتجاذب، وافقوه على رأيه، خوفاً من انشقاقه عنهم وتشتت أمرهم بذلك؛ ثم جلسوا على الباب، وجعلوا يقذفون النائم في الفراش بالحجارة، وهم لا يشكّون في أنه رسول الله (ص). وسمعوا صوت إبليس يقول لهم: «إن محمداً قد خرج من الدار ورمى قبضة من التراب على رؤوسكم»؛ فلم يعبأوا به ولم يصدقوه.

وروى المؤرخون ونَقَلة الروايات والأحاديث من الفريقين من علماء العامة والخاصة ـ ومنهم مثلاً «الغزالي» في كتابه المشهور «إحياء علوم الدين» ـ أحاديث طريفة كثيرة عن لجوء النبي (ص) إلى الغار، وما حدث

ليلة مهاجمة المشركين لفراشه (ص) خاصة، منها أن الله سبحانه أوحَى تلك الليلة إلى جبرائيل وميكائيل أني آخَيْتُ بينكما وجعلت عُمرَ أحدِكما أطولَ من عمر الآخر، فأيكُّما يؤثر حياة صاحبه على حياته؟ فاختار كل منهما الحياة، ولم يؤثر أحد منهما صاحبه على نفسه، حباً للبقاء، فأوحى الله إليهما: «أفلا كنتما مثل وليي علي بن أبي طالب؟ آخيتُ بينه وبين محمد نبيي، فبات على فراشه، يفديه بنفسه ويقيه بمهجته ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه»؛ فهبطا، وجلس جبرائيل (ع) عند رأسه، وميكائيل (ع) عند رجليه ،وهما يقولان له: «بخٍ بخٍ لك! مَن مِثلُك يا آبن أبي طالب! باهَى اللّهُ بك الملائكة وفاخَرَ بكَ!»؛ ونزل على النبي (ص) في ذلك قوله تعالى ﴿ومِن الناس مَن يَشْري[٢٤] نفسه ٱبتغاءَ مرضاةِ الله والله رؤوف بالعباد﴾[٢٥] . . ومثلها أن عائشة (رض) حين فخرت بأبيها ومكانه مع رسول الله (ص) في الغار، قال لها عبد الله بن شداد بن الهاد: «وأين أنتِ مِن علي بن أبي طالب إذ نام في فراشه وهو يرَى أنه يُقتَل؟».

المشركون يهجمون على فراش النبي (ص) صباحاً لقتله.

ثم لما برق الفجر وأشفق القوم مِن أن يفضحهم الصبح، نهضوا بأجمعهم وجردوا سيوفهم، ثم هجموا على الدار يقدمهم خالد بن الوليد بن المغيرة؛ ولما قربوا من الفراش وهموا أن يضعوا عليه أسيافهم وهم موقنون أن النائم هو النبي (ص) قال أبو جهل: «لا تقعوا به وهو نائم لا يشعر، بل ارموه بالأحجار وأيقظوه، ليجد ألَمَ القتلِ ويرى السيوف تأخذه»؛ فرموه بأحجار ثقال صائبة، فكشف علي (ع) عن رأسه وقال: «ما شأنكم؟»؛ فلما عرفوا أنه عليّ، هموا أن يبطشوا به ويضربوه، فوثب أمير المؤمنين (ع) على خالد وخَتَلَه[٢٦] وغمز[٢٧] يده حتى سقط السيف من

---

٢٤ ـ يشري: يبيع (عكس يشتري). يشري نفسه: يبيع نفسه طلباً لرضاء الله سبحانه.

٢٥ ـ ج٢، س٢ البقرة: ٢٠٧.

٢٦ ـ ختله: خدعه، داهمه فجأة.

٢٧ ـ غمز يده: طعنها.

يده وهو يقمصُ قِماصَ[٢٨] البِكر[٢٩] ويرغو رغاء البعير، وكان الصبح قد انشق وظهر، وكان القوم في مِعرَج[٣٠] الدار، فتناول علي (ع) سيف خالد وشدّ به عليهم، فأُجفِلوا إجفال النَعَم[٣١]، وساقهم أمامه إلى خارج الدار، فوقفوا وقالوا له: «وإنك لَعليٌّ؟»؛ قال: «نعم، أنا عليّ»؛ قالوا: «إنا لم نُرِدْكَ أنت، فما فعل صاحبك؟ أين محمد؟»؛ قال: «أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم»؛ فأقبل القوم على أبي لهب يضربونه ويقولون له: «أنت خدعتنا الليلة».

أما أبو جهل الذي كاد يشتعل غيظاً فقال: «أما ترون محمداً كيف أبات هذا مكانه لتشتغلوا به وينجُوَ بنفسه؟ لا تشتغلوا بعلي المخدوع لينجو بهلاكه محمدٌ! وما منَعَهُ أن يبيت بنفسه في موضعه إن كان ربه يمنع عنه ويحميه كما يزعم؟»؛ فقال علي (ع): «أتقول عني المخدوع يا أبا جهل؟! كلا، بل الله أعطاني من العقل ما لو قُسِم على جميع حَمْقَى الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء، ومن القوة ما لو قسم على جميع ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسم على جميع جبناء الدنيا لصاروا به شجعاناً، ومن الحِلم ما لو قسم على جميع سفهاء الدنيا لصاروا به حكماء، ولولا أن رسول الله أمرني ألا أُحدِثَ حدثاً حتى ألقاه، لكان لي ولكم شأن، ولكنتُ أقتُلَنَّكم قتلاً! ويلك يا أبا جهل، إن محمداً في طريقه قد استأذنته السماءُ والأرض والجبال والبحار في إهلاككم، فأبى إلا أن يَرفُقَ بكم ويُداريَكم لِيُؤمِنَ مَن في علم الله أنه لَيؤمنِ منكم، وأنه يخرج مؤمنون من أصلاب كافرين وأرحام كافرات أحبَّ اللّهُ أن لا يقطعهم عن كرامته باصطلامهم[٣٢]، ولولا ذلك لأهلككم ربكم! إن الله هو الغني وأنتم الفقراء، لا يدعوكم إلى طاعته وأنتم مضطرون مُكرَهون مُجبَرون، بل مكَّنكم بما كلَّفكم وقطع معاذيركم»؛ فغضب أبو البَخْتَرِي أخو أبو جهل

---

٢٨ ـ يقمص (كالفرس والبعير): يثب وينفر ويرفع يديه وينزلهما معاً اضطراباً.

٢٩ ـ البِكر: الفَتِيَّة النشيطة من البقر والإبل.

٣٠ ـ المِعْرَج: السُلَّم، المدرج.

٣١ ـ النَعَم: الحيوانات الأليفة المنتجة نِعَماً وخيرات، مثل الغنم والمعز والبقر والإبل...

٣٢ ـ اصطلامهم: استئصالهم، اقتلاعهم، قطع نسلهم.

من كلام أمير المؤمنين (ع) وجرد سيفه، ولكنه لما قصد نحوه وهمَّ أن يبطش به، رأى الجبال قد أقبلت لتقع عليه، والأرض قد انشقت لتخسف به، وأمواج البحار قد أقبلت نحوه لتغرقه، والسماء قد انحطت لتسحقه، فغارت عيناه في أم رأسه، ودهش من ذلك حتى سقط السيف من يده، ثم خرَّ مغشياً عليه، فحمله القوم يتداركونه ويعالجونه. وأراد أبو جهل أن يلبس الأمر على القوم، فجعل يقول: «دِيرَ[٣٣] به لِصفراءَ[٣٤] هاجت به»؛ ثم تفرقوا عن الدار وأُشعِروا بالتراب على رؤوسهم، فجعلوا ينفضونه ويقولون: «والله لقد صدقنا الذي حدَّثنا بذلك»؛ وعندئذٍ غارت عيونهم، وركبوا الصعبَ والذلولَ[٣٥] في طلب النبي (ص) يتفقدونه في البراري والقفار.

المشركون يَقْفون آثار النبي (ص) لقتله
والرسول (ص) يُطَمْئِن أبا بكر (رض) بأن الله معهما

وكان فيهم رجل مِن «خزاعة» يقفو الآثار يقال له «أبو كرز»، فقالوا له: «يا أبا كرز، اليومَ اليومَ»؛ فأتى معهم حتى وقف بهم على باب حجرة النبي (ص) وقال: «هذه قَدَم محمد والله، لأنها أخت القدم التي في المقام»؛ ثم جعل يقفو آثار أقدام النبي (ص) بهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال: «وهذه قدم أبو قحافة أو ابنه، وها هنا غير ابن أبي قحافة»؛ ولم يزل كذلك يقفو، حتى انتهى بهم إلى باب الغار الذي فيه النبي (ص) وهناك، وقف حائراً يقول: «ما جاوَزَ هذا المكان؛ إما أن يكونوا صعدوا إلى السماء أو دخلوا تحت الأرض، فإن باب هذا الغار كما ترون عليه نسج العنكبوت، والقبجة[٣٦] حاضنة على بيضها ببابه». وتقدم واحد من القوم لينظر في الغار، فرجع من غير أن ينظر فيه، فسأله القوم عن سبب

---

٣٣ ـ دير به: أصابه دوار، . . وجع رأس. . دوخة.

٣٤ ـ الصفراء: اسم أحد أخلاط البدن الأربعة، وقد يسمى: المِرَّة.

٣٥ ـ الذَلول: السهل، الميسور، المطيع، عكس الصعب (من الخيل والنياق). ركبوا الصعب والذلول، أي لجأوا إلى كل الوسائل والطرق والأساليب، صعبها وسهلها.

٣٦ ـ القَبج (بفتح الباء وتسكينها): طائر يشبه الحجل (والقبجة مؤنثة).

رجوعه، فقال: «رأيت حمامتين بفم الغار، فعلمت أن ليس فيه أحد». وسمع النبي (ص) كلامه، واضطرب أبو بكر اضطراباً شديداً حتى همَّ بالخروج للفرار من القوم، فجعل النبي (ص) يسكِّنه ويمنعه عن الخروج ويأمره بالصبر والثبات ـ وكان قبل ذلك قد استأذن النبي (ص) في الهرب بنفسه من الغار إلى المدينة ولكن النبي (ص) لم يأذن له ـ إلى أن جلس رجل من القوم تجاه الغار يبول، فقال أبو بكر: «قد أبصرونا يا رسول الله»؛ قال (ص): «لو أبصرونا لما استقبلونا بعوراتهم» ولكن أبا بكر ظل يزداد خوفاً وجزعاً حتى صار يرتعد، والنبي (ص) يقول له: «﴿لا تخف ولا تحزَنْ إن الله معنا﴾[٣٧] وإنهم لن يصلوا إلينا»[٣٨]؛ فعند ذلك سكن روع أبي بكر.

وانصرف المشركون عن الغار إلى رؤوس الجبال يطلبون النبي (ص)، وكان ذلك في أول يوم من شهر ربيع الأول، ونادى منادي

---

٣٧ ـ ج ١٠، س ٩ التوبة: ٤٠

٣٨ ـ جاء في بعض أخبار السيرة البارزة، أن النبي (ص) حين رأى أن أبا بكر لا يسكن، وأنه قد غلب عليه من الخوف ما كاد أن يهلكه وما جعله يبكي بشدة، رفس (ص) برجله جانب الغار، فانفتح منه باب ظهر وراءه بحر فيه سفينة وقال (ص) لأبي بكر: «إنهم إن دخلوا من باب، خرجنا نحن من هذا الباب وركبنا السفينة؛ أتريد أن أُرِيَكَ أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون، وأريك جعفر وأصحابه في الحبشة في البحر يغوصون؟»؛ قال: «نعم»؛ فمسح النبي (ص) على عينيه فإذا هو يرى كل ذلك كما أخبره به رسول الله (ص)، وأضمر في نفسه أنه أخطأ، فقال له النبي (ص): «أنت الصديق، انظر يا أبا بكر إلى آفاق السماء»؛ فرفع أبو بكر رأسه نحو السماء وإذا ملائكة من نار، على مراكب من نار، بأيديهم رماح من نار، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكلهم ينادون: «يا محمد، مُرنا بأمرك في مخالفيك نُطَحْطِحْهم»؛ ثم قال النبي (ص): «تسمَّع يا أبا بكر إلى الأرض»؛ فسمعها تنادي: «يا محمد، مُرني بأمرك في أعدائك، أمتَثِلْ لأمرك»؛ ثم جعل يتسمع كذلك بأمر النبي (ص) إلى الجبال والبحار وأمواجها، والسماء وأكنافها، والآفاق وأطرافها، فإذا كلها تناديه: «يا محمد، مُرنا بأمرك في أعدائك، نُهلكهم بالخَسْف والغَرَق والحَرْق وغير ذلك. يا محمد ما أَمَرَك ربُك بدخول الغار لعجزك عن الكفار، ولكن امتحاناً وابتلاءً ليخلص الخبيث من الطيب من عباده وإمائه، بأناتك وصبرك وحلمك عنهم؛ يا محمد من وَفَى بعهدك فهو من رفقائك في الجنان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وهو من قرناء إبليس اللعين في طبقات النيران».

أبي جهل بأعلى مكة وأسفلها: «من جاء بمحمد أو دلَّ عليه، أو جاء بابن أبي قحافة أو دلَّ عليه، فله مئة بعير». وأقام النبي (ص) وأبو بكر في الغار إلى الليل، ونزل عليه جبرائيل (ع) فرحاً مستبشراً، فقال له النبي (ص): «حبيبي جبرائيل، أراك فرحاً»؛ قال: «يا رسول الله، كيف لا أكون كذلك وقد قَرَّت عيني بما أكرم الله به أخاك ووصيك وإمام أمتك علي بن أبي طالب؟!»؛ قال: «بماذا أكرمه الله؟»؛ قال: «باهَى بعبادته البارحةَ ملائكتَه، وقال تعالى: ملائكتي، انظروا إلى حجتي في أرضي بعد نبيي، وقد بذل نفسه وعفَّر خده في التراب، تواضعاً لعظمتي؛ أُشْهِدُكم أنه إمامُ خَلْقي ومولى بريتي».

ولما كانت الليلة الثانية من إقامته في الغار، وافَى ابنُ أُرَيْقِط بأغنام يرعاها، فأتى إلى باب الغار يريد مكة بالغنم، فرآه النبي (ص) ودعاه، ولما قرب منه قال (ص): «هل لنا فيك مساعدة؟»؛ قال: «إي والله، فإنه واللَّهِ ما جعلَ اللَّهُ هذه القبجة على باب الغار حاضنةً لبيضها، ولا نسجت العنكبوتُ عليه، إلا وأنت صادق، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله»؛ ففرح النبي (ص) بإسلامه وحمد الله على هدايته، ثم قال له: «فصِر الآن إلى عليّ وعرّفه موضعنا، ومُرَّ بالغنم إلى أهلها إذا نام الناس، ومرّ إلى عبدِ أبي بكر وادْعُهُ لنا»؛ فمضى ابن أريقط إلى مكة، ولم يكن إلا قليل حتى حضر أمير المؤمنين (ع) وعبد أبي بكر إلى الغار، فأمر النبي (ص) علياً (ع) وأمر أبو بكر عبده بأن يبعثا لهما من الزاد ما يحتاجان إليه فانصرفا وأتيا بما أُمرا به.

أقام النبي (ص) وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، كان أمير المؤمنين (ع)خلالها يتردد إليه ويأتيه بالطعام والشراب، إلى أن هبط عليه الأمين جبرائيل (ع)، فشكا إليه النبيِ (ص) مِن ما يلقى من أمته بعد وفاة أبي طالب (ع) وخديجة (ع)، فأبلَغه أمر الله تعالى له أن: يا محمد، أخرجْ من القرية الظالِمِ[٣٩] أهلُها، وهاجِرْ إلى يَثْرب، فليس لك اليوم بمكة ناصر، وانصب للمشركين حرباً.

---

٣٩ ـ هذا الوصف لمكة مأخوذ من الآية القرآنية الكريمة التي جاء النص فيها عن ﴿المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرِجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لَدُنك نصيراً﴾ (ج٥، س٤ النساء: ٧٥). =

الخروج من الغار، والهجرة الى يثرب.

عند ذلك همّ (ص) بالخروج من الغار، واستحضر علياً (ع) فقال له: «أرضيتَ يا علي أن أُطلَبَ فلا أُوجَدُ وتُوجَدُ أنت، فلعله أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك»؛ قال: «نعم يا رسول الله» رضيتُ أن تكون روحي لروحك فداءً، ونفسي لنفسك وقاءً، بل رضيتُ أن تكون روحي ونفسي فداءً لأخٍ لك، أو قريب، أو حتى لبعض حيوانات تمتهنها، وهل أُحِبُّ الحياة إلاّ لخدمتك والتصرف بين أمرِكَ ونَهْيِكَ، ولمحبة أوليائك، ونصرة أصفيائك، ومجاهدة أعدائك، ولو لا ذلك لما أحببتُ أن أعيش في هذه الدنيا ساعة واحدة»؛ فقال له النبي (ص): «يا أبا الحسن، قد قرأَ عليَّ كلامَكَ هذا المُوكّلُون باللوح المحفوظ، وقرأوا عليَّ ما أعدّ اللّهُ لك من ثوابه في دار القرار، وهو ما لم يسمع بمثله السامعون، ولا رأى مثله الراؤون، ولا خطر مثلهُ ببال المتفكرين؛ يا علي، إن الله رفع صوتك في مخاطبتك أبا جهل إلى العلوّ، وبلَّغه الجنان، فقال خَزَنَتُها والحورُ الحسان فيها: «مَن هذا المتعصبُ لمحمدٍ إذ قد كذَّبوه وهجروه»؛ فقيل لهم: «هذا النائب عنه والبائت على فراشه، يجعل نفسه لنفسه وِقاءً وروحَه لروحه فِداء»؛ فسأل الخَزَنَةُ ربهم أن يجعلهم خَدَمَةً له، وسألته الحور أن يجعلهن نساءَه، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك وقال: «أنتم له ولمن اختاره من أوليائه ومحبيه، يقسمكم عليهم بأمري»؛ فرضي الخَزَنَةُ وفرحت الحور بذلك.

ثم توجه النبي (ص) إلى أبي بكر وقال له: «أرضيت أن تكون معي يا أبا بكر، تُطْلَبُ كما أُطْلَب، وتُعرَف بأنك أنت الذي تحملني على ما أدعيه، فتحمل عني أنواع العذاب؟»؛ قال: «يا رسول الله، أَمَا أنا لو عشتُ عمر الدنيا أُعَذَّبُ في جميعها أشد عذاب، لا يَنزل عليَّ موتٌ مريح ولا منهج متيح[٤٠]، وكان ذلك في محبتك، لَكان ذلك أَحَبَّ إليَّ مِن أن أتنعم فيها وأنا مالكٌ لجميع مماليك ملوكها في مخالفتك! وهل أنا ومالي ووُلْدي إلا فداؤك؟»؛ فقال (ص): «لا جَرَم أن الله مُطَّلِعٌ على قلبك، وإذ وجد ما فيه موافقاً لما جرى على لسانك؛ جعلك مني بمنزلة السمع

---

٤٠ ـ مُتيح: مُهَيِّء، مُيَسِّر (للخلاص).

والبصر؛ وعليٌّ مني بمنزلة الروح من البدن بل هو مني فوق ذلك، لزيادة فضائله وشرف خصاله! يا أبا بكر، إن مَن عاهد ثم لم ينكث، ولم يغير ولم يبدل، ولم يحسد مَن قد أبانه الله بالتفضيل، فهو معنا في الرفيق الأعلى، وإذا أنت مضيت على طريقة يحبها منك ربك ولم تُتْعِبْها بما يُسخط، ووافَيْتَه بها إذا بعثك بين يديه، كنتَ لولاية الله مستحقاً، ولِمرافقَتِنا في تلك الجنان مستوجباً.

ثم توجه (ص) إلى أمير المؤمنين علي (ع) يقول له: «يا علي، أنت مني بمنزلة السمع من البصر، والرأس من الجسد، والروح من البدن، حُبِّبْتَ إلي كالماء البارد إلى ذي الغلة الصادي[٤١]، فإذا أتاك الكافرون يخاطبونك، فإن الله يقرُن بك توفيقَه، وبه تجيبهم؛ يا علي إنهم لن يصلوا إليك من الآن بأمر تكرهه».

ثم أمر (ص) علياً (ع) أن يبتاع له ولأبي بكر بعيرين ليرتحلا عليهما إلى يثرب، فقال أبو بكر: «قد كنتُ أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحل عليهما إلى يثرب» فقال (ص): «إني لا آخذُهما ولا أحَدَهما إلا بالثمن»؛ فقبِلَ أبو بكر ذلك. وأمر النبي (ص) عندئذٍ علياً (ع) فأقبضه الثمن، ثم جعل يوصي علياً (ع) بوصاياه، وأن يؤدي عنه الأمانات ظاهراً على أعين الناس ورؤوس الأشهاد، فإن قريشاً وكلَّ مَن كان يَقْدِمُ مكة من العرب في المواسم أيام الجاهلية، كانوا يستودعونه أموالهم ويستحفظونه أمتعتهم، وذلك لما عرفوا من أمانته وصدق لهجته وصيانته، حتى سموه «الصادق الأمين»، ولذلك كانت الودائع والأمانات قد تراكمت عنده، فكلَّف (ص) علياً (ع) برَد الأمانات إلى أهلها، وأمره أن ينادي صارخاً بالأبطح غدوّة وعشياً بأن «مَن كان له قِبَل محمدٍ أمانةٌ أو وديعة، فَلْيأتِ حتى تُؤَدَّى إليه»؛ ثم استخلفه على ابنته فاطمة (ع) وهي يومئذٍ بنت ثماني سنين، واستخلف عليهما الله واستحفظه فيهما.

وأوصى النبي (ص) بعدئذٍ علياً (ع) أنه بعد إبرام ما أمره به، وبعد

---

٤١ ـ الصادي: العطشان ـ ذو الغلة: صاحب الجفاف في الفم والحرقة من شدة العطش.

تنفيذ وصاياه وردّ الودائع، أن يكون على أهبة الهجرة إلى الله ورسوله، وأن يحمل معه الفواطم الثلاث: ابنته فاطمة الزهراء (ع)، وأم أمير المؤمنين (ع) فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، بعد ابتياع رواحل له ولهن، وأن يحمل معه مَن أراد الهجرة من بني هاشم عند ورود كتاب النبي (ص) عليه؛ ثم تجهز النبي (ص) للخروج من الغار، وبدأ هجرته إلى المدينة المنورة: يثرب.

هجرته (ص) إلى (المدينة المنورة) يثرب

ان الغار بجبل «ثور» الذي لجأ إليه محمد (ص) هرباً من ظلم قريش ومشركي مكة وجَوْرهم وائتمارهم، كان مأوَى يأوي إليه الرُعاة عادة ويعتوره النُزَّال[١]، بل ـ قيل ـ قلّما كان يخلو من جماعات تنزل فيه. أما في الأيام الثلاثة التي نزل فيه النبي (ص) خلالها، فلم يَعْتَوْره بشر، ولم ينزل فيه أثناءها أحد سوى عبد الله بن أُرَيْقِط، كما تقدم. فلما كانت الليلة الرابعة ـ وهي الليلة الأخيرة، أي ليلة الهجرة، وكانت ليلة الخميس ـ وافَى ابنُ أريقط الغار تلك الليلة، فقال له النبي (ص): «يا ابن اريقط: أَئْتَمِنُكَ على دمي»؛ قال: «إذاً واللّهِ أحفظك وأحرسك ولا أدلّ عليك، فأين تريد يا محمد؟»؛ قال (ص): «يثرب»؛ قال: «لأَسلُكَنَّ بك مَسْلكاً لا يسلكه ولا يهتدي إليه أحد»؛ ثم نهض مع النبي (ص) وصاحبه ليكون دليلاً لهما إلى يثرب، وركب الثلاثة رواحلهم وحملوا معهم زادهم، ثم خرجوا من الغار في جوف الليل.

أما قريش فقد ظلوا يطلبون النبي (ص) على رؤوس الجبال وفي بطون الأودية، ومُناديهم ينادي في كل مكان، ويَعِدُ مَن يخبر عنه بأموال جزيلة ولكن دون جدوى.

ابن أُريقطِ يسلك بالنبي (ص) وابي بكر (رض) طرقاً آمنة مجهولة.

سار ابن أُريقطِ بالنبي (ص) وصاحبه على طريق نخلة[٢] بين الجبال خارجة عن الطرق المسلوكة، ولم يزل يجدُّ بهما في السير على غير الطرق

---

١ ـ يَعْتَوره: يأتيه، ينزل فيه – النُزَّل: المسافرون فرتادوا الفنادق.

٢ ـ طريق نخلة (؟): لم نجد لها معنىً أكيداً، ولعلها «نخِلة» (بكسر الخاء)، وأن يكون المعنى: كثيرة النخل.

المعهودة حتى وافى بهما موقع «قديد» ـ وهو يقع بين الحَرَمَين ـ وعنده أمِنَ الطَلَب أو أن يدركهما أحد، فعندئذٍ رجع بهما إلى الطريق حتى وافى حيّ «سراقة بن جَشْعَم» ـ وكان سراقة قد علِم بخروج قريش في طلب النبي (ص) وهربه منهم، وأراد أن يتخذ يداً[٢] عند قريش، فكان كل يوم يركب جواده في طلب النبي (ص) حتى رآه في ذلك اليوم ـ فأسرع على جواده نحو النبي (ص)، فقيل له: «يا نبي الله، قد لحق بنا هذا الشيطان سراقة»؛ قال (ص): «إن الله سيكفينا أمره»؛ ثم قال (ص): «اللهم أكفني شر سراقة بما شئت»؛ فلم يتم دعاءَه (ص) حتى ساخت قوائمُ فَرس الرَجُل في الأرض بحيث تغيبت فيها رِجْله، وعلم أن ما أصابه لم يكن إلا بدعاء النبي (ص)، فنادى: «يا محمد: إني علمت أن الذي أَصاب قوائم فرسي إنما هو مِن قِبَلك، فأدْعُ الله أن يطلق لي فرسي، فَلَعَمري إن لم يصبْكُم مني خير، لا يصيبكم مني شر»؛ فدعا له وأطلقه الله تعالى. ولكن الرجل همَّ ثانياً بالنبي، فقال النبي (ص): «يا أرض خذيه»؛ فعادت قوائم فرسه سائخة، فصاح: «يا محمد، خلّص فرسي لا سَعَيتُ لك في مكروه أبداً»؛ فتوجه النبي (ص) إلى الأرض يقول لها: «دعيه»؛ فخرجت قوائم الفرس على وجه الأرض، إلا أن الرجل لم ينتهِ عن قصده، وهمّ بالنبي (ص) ثالثاً ورابعاً، وفي كل مرة يأمر النبي الأرض فتخسف بقوائم الفرس، ويتضرع الرجل إليه فيأمرها النبي (ص) بإطلاق قوائم الفرس، إلى أن قال في الرابعة: «يا محمد، خَلِّ عني بِمَوْثِقٍ أعطيكَهُ أن لا أُناصِحَ غيرَكَ وكلَّ مَن عاداك»؛ فقال النبي (ص): «اللهم إن كان صادق المقال فأطلِقْ فَرَسه»؛ فأُطلِقَت قوائم الفرس، وكفّ الرجل عن قصده، وأضمر أن لا يعود إلى ما يسوء النبي (ص) وقال: «يا أبا القاسم، ستمرّ برُعاتي وعبيدي، فخذ سوطي، وكلُّ مَن تمر به منهم خذ منه ما شئت، فقد حكَّمتُك في مالي»؛ قال (ص): «لا حاجة لي في مالك»؛ قال: «فاسألني حاجة»؛ قال (ص): «رُدَّ عنا مَن يطلبنا»؛ فانصرف الرجل عنه (ص) ومضى عنه النبي (ص) ومَن معه سالمين.

---

٢ ـ له عندي ـ أوله عليَّ ـ يد: له عليَّ مِنَّة، له عليَّ خدمة أداها لي، أو معروف أحسنَ به إليَّ.

ووافى سراقةَ جماعةٌ من قريش في طلب النبي (ص)، فاعترضهم يقول لهم: «انصرفوا عن هذا الطريق فأنا أكفيكم إياه، وإنه لم يمرَّ فيه أحد؛ عليكم بطريق اليمن والطائف»؛ فانصرف القوم عنه وعدلوا عن ذلك الطريق. ثم عرف أبو جهل بعد مدة بقصة سراقة مع النبي (ص)، وأنه رآه وأطلقه وفسح له الطريق، فجعل يلومه ويعذله على ذلك، فأنشأ سراقة في جوابه يقول:

أبا حَكَمٍ واللاتِ لو كنتَ شاهداً　　لأمرِ جوادي إذْ تَسيخُ قوائمُهْ
عجبتَ ولم تَشْكُكْ بأن محمداً　　نبيٌّ وبرهانٌ فمَنْ ذا يُكاتِمُهْ
عليكَ فكُفَّ الناس عنه فإنني　　أرَى أمرَهُ يوماً ستبدو مَعالِمُهْ

قبيلة تُسلم نتيجة اعجاب احدها بأدب الرسول (ص)

ثم ارتحل النبي (ص) بمن معه وانصرفوا من حي سراقة، فلما كانوا في بعض الطريق اعترضهم «بريدة بن أسْلَم» في سبعين راكباً من بني سَهْمٍ كانوا في طلب النبي (ص) مع سائر قريش والعرب، ، فلما رآه النبي (ص) قال له: «من أنت»؛ قال: «أنا بريدة»؛ فالتفت النبي (ص) إلى أبي بكر وقال: «يا أبا بكر، بَرَد أَمرُنا وصَلُحَ»؛ فأَعجَبَ الرجلَ كلامُ النبي (ص)؛ ثم سأله النبي (ص): «مِمَّن أنت؟»؛ قال: «مِن أسلم»؛ قال (ص): «سَلِمْنا»؛ ثم سأله عن قبيلته، فقال: «مِن بني سهم»؛ فقال النبي (ص): «خرج سهمُك»، (وذلك كناية عن الظفر)؛ فازداد الرجل إعجاباً بكلامه وحباً له، ومال قلبه إلى الإسلام فقال للنبي (ص): «من أنت؟»؛ قال: «أنا محمدُ بن عبدِ الله رسولُ الله»؛ فأسلم بريدة ومَن كان معه في وقته وساعته وقال عالياً: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله!»؛ ثم حل عمامته وشدَّها في رمح مثل اللواء، ، وجعل يمشي بين يدي النبي (ص) وهو يقول له: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء!»؛ ثم سأله أن ينزل عليه في المدينة، فقال النبي (ص): «إن ناقتي هذه مأمورة». وأسلمَتْ على يد بريدة قبيلته من بني سهم طائعين غير مُكرَهين، وفرح هو بذلك وجعل يحمد الله على إسلامهم.

وسار النبي (ص) بمن معه إلى أن نزل بخيمة امرأة على قارعة

الطريق يقال لها «أم معبد»، وطلبوا عندها القِرَى[٣]، فقالت: «ما يحضرني شيء»؛ فنظر النبي (ص) فرأى في ناحية الخيمة شاةً قد تخلفت عن الغنم لِضَرِّها[٤]، فقال (ص) للمرأة: «أتأذنين في حلبها؟»؛ قالت: «نعم، ولا خير فيها»؛ فأقبل إليها النبي (ص) ومسح بيده على ظَهْرها فصار لها من ساعتها من السمن واللحم ما أدهش الحاضرين، حتى لبَدَتْ أسمن ما يكون من الغنم، ثم أعاد (ص) يده الشريفة على ظَهْرها أو ضَرْعها[٥]، فأرخت ضرعها ودرَّت لبناً كثيراً، فناداها: «يا أم معبد، هاتي العُس»[٦]؛ فدهشت المرأة من ذلك، وبادرت إلى إحضار العُس، فجعل النبي (ص) يحلبها ويسقي الحاضرين، حتى شربوا جميعاً وارتووا عن آخرهم. فكادت المرأة أن تطير فرحاً، وتقدمت إليه تقول: «يا حَسَنَ الوجه، إن لي ولداً له سبع سنين، وهو كقطعة لحم لا يتكلم ولا يتحرك»؛ ثم قامت وأتت به إليه تسأله الشفاء والعافية للصبي، فأخذ النبي (ص) تمرة كانت في الوعاء ومضغها، ثم أخرجها من فمه وألقاها في فم الصبي، فلم يتم مَضْغَهُ لها، حتى نهض من ساعته يمشي ويتكلم، وأصابت المرأةَ رعدة من عجبها وسرورها بذلك، وازداد القوم كذلك عَجَباً وسروراً ثم نهض (ص) بمن معه وارتحلوا من عندها[٧].

صفات النبي (ص).

وبعد أن ارتحل النبي (ص) من عند المرأة، وصل بعد قليل زوجها أبو معبد راجعاً من رَعْيِهِ، يسوق أَعْنُزاً عِجازاً هُزْلا، فلما قَدِم الخيمة، ورأى الشاة

---

٣ ـ القِرَى: الضيافة.

٤ ـ الضَرّ: الشدة والضيق وسوء الحال.

٥ ـ الضَرع: الثدي، مَدَرّ الحليب.

٦ ـ العُس: الإناء الكبير.

٧ ـ في بعض الروايات أيضاً أن النبي (ص) تناول نواة تلك التمرة وغرسها في الأرض، فصارت من حينها نخلة خضرة طويلة، قد تهدل الرُطَب منها، فحارت المرأة وأخذت تحدُّ النظر إليه (ص). ثم أشار النبي (ص) إلى جوانب النخلة فصارت حواليها مراعيَ خَضِرة، وقد روي أن النخلة ظلت على حالها خَضِرة ترطب صيفاً وشتاءً، إلى أن توفي النبي (ص) فلم ترطب بعد وفاته، ولكن بقيت خضراء إلى أن قتل أمير المؤمنين (ع)، فيبست عند وفاته (ع) ولم تخضرَّ بعد ذلك، إلى أن قتل الحسين (ع) فصار يسيل منها الدم.

سمينة مليئة الضرع، ورأى ابنه في أحسن صحة وعافية[8]، دهش وحار، وجعل يسأل امرأته عن ذلك وعن ما يرى عندها من اللبن، فقالت: «مرّ بي رجل من قريش مبارَك، وكان من حاله وقصته.. كذا وكذا»؛ وروت له ما شهدت من كرامات النبي (ص) وبركته، فازداد الرجل عجباً وقال لها: «صفيه لي»؛ قالت: «رأيته رجلاً ظاهر الوضاءة[9]، أبلج[10] الوجه، حسن الخَلْق، لم تعلـهُ ثُجْلَة (أي عِظَم البطن)، ولم تَزِد به صُقْلَة[11] (أي لم يكن بضامر البطن)، وكان وسيماً[12] قسيماً[13]، في عينيه دعَج[14]، وفي أشفاره[15] غَطَف[16]، وفي صوته صَحَل (أي بَحَّة)، وفي عنقه سَطْع (أي طول أو ارتفاع)، وفي لحيته كثاثة[17]؛ أَزَجُّ[18] أَقْرَن[19]، إنْ صمَتَ فعليه الـوقار، وإن تكلـم عَـلاهُ البهاء! أجمل الناس وأبهاهم مـن بعيد، وأحسنهم وأجملهم من قريب؛ حلو المنطق[20]، منطقه فصل[21] لا نزر ولا هزر[22]، كأنما منطقه خَرَزاتُ نَظْم يَتَحَدَّرْن[23]، رَبْعَة[24]

---

٨ ـ ورأى كذلك النخلة وما حولها من المراعي.

٩ ـ الوضاءة: النورانية.

١٠ ـ وجه أبْلَج: وجه نيّر، مشرق.

١١ ـ الصُقلة: الخاصرة. أي لم يكن ضامر البطن لدرجة أن تظهر خاصرته.

١٢ ـ الوسيم (الوجه): الصبيح الوجه، الواضح الجميل الوجه.

١٣ ـ القسيم (الوجه): مَن وجهه جميل القَسَمات والصورة.

١٤ ـ الدَعَج (في العين): الاتساع مع شدة السواد (فيها).

١٥ ـ الأشفار: وأصوله ومراكز منبت شعر الجفن.

١٦ ـ غَطَف: طول مع انعطاف.

١٧ ـ كثاثة: اكتظاظ، كثافة، امتلاء، تراكم.

١٨ ـ أزَجّ: حاجبه رقيق وطويل.

١٩ ـ أقرن: مقرون الحاجبين.

٢٠ ـ المنطق (هنا): النطق، الكلام.

٢١ ـ قوله حُكْم (بين الحق والباطل)، قضاء.

٢٢ ـ نَزْر: قليل هَزْر: ليونة زائدة أوضحك ـ أي قوله هو فصل وقضاء دون أن تكون له صفة الأمر المذل المحقر، ولا صفة القول الرخيص الهَوْن غير الحازم.

٢٣ ـ كأن كلمات أقواله خرزات منظومة (في سلك مسبحة أو سواها) تتحد وتهبط متتالية بانتظام (عذب).

٢٤ ـ ربْعة: متوسط القامة، لا طويل ولا قصير.

لا يأنس من طول ولا تقتحمه عين من قِصَر، غُصْنٌ بينَ غُصْنَين[٢٥]، فهو انضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفّونه[٢٦]، إذا قال أنصَتُوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، مَحْفُودٌ ومَحْشود (أي مخدوم مجتَمَعٌ عليه) لا عابس ولا مُعتَدّ»[٢٧]؛ فلما انتهى كلامها قال أبو معبد: «هو والله صاحبُ قريشٍ الذي ذُكِر لنا ما ذُكِر من أمره بمكة، وهو صاحب أهل يثرب الذين ينتظرونه، وإنني واللهِ ما أشُكُّ الآن أنه صادق في قوله: إني رسول الله، فليس هذا إلا من فعل الله؛ ولقد هممتُ أن أصحبَهُ، ولأَفْعَلَنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً»؛ وقد ارتحل أبو معبد بأهل بيته بعد أيام حتى التحقوا بالنبي (ص) في يثرب، وأسلموا بأجمعهم على يده (ص).

وقد روي أنه سُمعت يومئذٍ بمكة هذه الأشعار:

جَزَى اللّه ربُّ الناس خيرَ جزائِهِ ... رفيقين قالا خيمةَ لأُمْ مَعْبَدِ[٢٨]
هما نَزَلا ها بالهُدَى واهتدَتْ بهم ... فقد فاز مَن أمْسَى رفيقَ محمدِ
فيا لِقُصَيٍّ ما زَوَى اللّه عنكُمُ ... به مِن فَعالٍ لا يُجازَى وسُؤْدَدِ[٢٩]
ليَهْنِ بني كَعْبٍ مُقامُ فتَاتِهِم ... ومَقعَدُها للمؤمنين بِمِرْصَدِ[٣٠]
سَلُوا أُختكم عن شاتِها وإنائها ... فإنكُمُ إن تَسأَلُوا الشاةَ تَشهَدِ
دعاها بشاة حائلٍ فتحلَّبَتْ ... لها بصريحٍ ضرةُ الشاة مُزْبِدِ[٣١]

---

٢٥ ـ بين غضنين: بين أبي بكر وابن أريقط.

٢٦ ـ يحفونه ويحفون به: يحيطون به ويلتفّون حوله.

٢٧ ـ معتَدّ: متعالٍ مزهو.

٢٨ ـ قالا الخيمة (من القيلولة): استراحا فيها.

٢٩ ـ يبدو أن المرأة «أم معبد» كانت قبيلة من «قُصَيّ»؛ فيا لِقُصَيّ، هنيئاً لكم يا بني قصي، ما زَوَى (أي أبعَدَ) اللّهُ عنكم به (أي بمحمد) وبمجيئه إليكم، مِن فَعال (أي مِن عمل) قبيح لا يُجازَي (أي يصعب تحديد جزائه لفرط سوئه)ـ وهنيئاً لكم ما (لقيتم) به من سؤدد، أي كرامة وفخر.

٣٠ ـ هنيئاً لبني كعب (عشيرة أم معبد، من قبيلة قُصَى) هذا الموقع والمقعد لابنتهم (أم معبد)، الذي هو بمثابة مرصد ونظارة للمؤمنين العابرين.

٣١ ـ حائل: لا تحبل (من شيخوخة وضعف شديد) فليس فيها حليب وخير؛ لكن حين جاءت النبي بها، تحلَّبَتْ (أي دَرَّت ودَفَقَت) ضَرَّةُ الشاة، أي ثَدْيُها (ضَرعُها)، بحليب صريح (نقي خالص صافٍ) مُزبِد (كثير دافق).

فغادرها رهنا لديها بحالب   يرددها في مَصدَرٍ ثم مَوْرِدِ[٣٢]

فسمعها في مَن سمعها من أهل مكة الشاعر حسان بن ثابت، فأنشأ في جواب الهاتف يقول:

لقد خابَ قومٌ زال عنهم نبيُّهُمْ   وقُدِسَ مَن يَسري إليهم ويَقْتَدي[٣٣]
ترحَّلَ عن قومٍ فزالت عقولُهم   وحلَّ على قومٍ بنورٍ مُجَدَّدِ
هداهم به بَعدَ الضلالةِ ربُّهم   وأرشدهم، مَن يَتْبَعِ الحقَّ يَرْشُدِ
نبيٌّ يَرَى ما لا يَرى الناسُ حولَه   ويتلو كتابَ اللّه في كلِ مَشْهد
لِيَهْنِ بني كعبٍ مُقام فتاتِهِمْ   ومَقعدُها للمؤمنينَ بِمَرْصدِ

الوصول الى قريب يثرب «مدينة الرسول» وأهاليها يخرجون لاستقباله (ص).

بعد مغادرة خيمة أم معبد، سار النبي (ص) بمن نحو «يَثْرب» ـ التي صار اسمها بعد هجرة الرسول (ص) إليها «مدينة الرسول»، ثم اختصاراً «المدينة» ـ ، وكان الأنصار[٣٤] من أهلها قد خرجوا إلى ظاهرها، على طريق مكة، يتصيدون أخباره (ص) وينتظرون قدومه، وأقام بعضهم خارج البلدة أياماً إلى أن يئسوا ورجعوا إلى منازلهم. وتقدم النبي (ص) في مسيرته حتى وافى موقفاً يُسمَّى «ذا الحليفة»، فسأل هناك عن طريق بني عمرو بن عوف، فلما دلّوه عليه وسار فيه، لمحه رجل من اليهود كان في يثرب على حصن من حصونها، فجعل ينادي برفيع صوته: «يا معشر المُسْلِمة، هذا صاحبكم قد وافَى»؛ فوقعت الصيحة في البلد، وخرج

---

٣٢ ـ غادر الشاة عند أم معبد (رهناً لديها)، بضرعٍ حالب يدر تكراراً سواء في حال تركها أو في حال الإقبال عليها.

٣٣ ـ لقد خابَ (وخسر وفشل) أهل مكة الذين زال عنهم نبيهم (محمد ص)، وقُدِّس (نال التقديس والتطهير بالإيمان) مَن يسري (يسير ليلاً) إليهم النبي (ص) ويقتدي أي يصل من السفر إليهم، وهم أهل يثرب.

٣٤ ـ أطلِق على الذين أسلموا وناصروا النبي (ص) من أهل يثرب لقب «الأنصار»، وعلى المسلمين من أهل مكة الذين غادروها مهاجرين من ظلم المشركين إلى يثرب، لقب «المهاجرين».

الرجال والنساء والصبيان مستبشرين فرحين بقدومه (ص)؛ وصارت النسوة يغنين هازجات، وينشدن أشعاراً في مديحه والترحيب به (ص) والسرور بمقدمه، منها:

طلعَ البدرُ علينا — من ثَنِيَّاتِ الوَداع[٣٥]
وجب الشكرُ علينا — ما دعا للَّه داعَ[٣٦]

ولما وصل (ص) إليهم، أحاطوا به يهللون ويزغردون، فجعل (ص) يشكرهم ويبتسم لهم وهو يتقدم على راحلته، حتى وصل إلى موقع على مسافة ما يقرب من ساعة خارج البلدة ـ هو الموقع الذي قام عليه في ما بعدُ مسجد «قُبا» ـ ونزل (ص) هناك على شيخ صالح كفيف البصر من بني عمرو بن عوف، اسمه كلثوم بن الهدم، ـ قيل أنه كان حفيد الشاعر الجاهلي امرىء القيس ـ وكان ذلك يوم الإثنين في الثاني عشر (وقيل الرابع وقيل الثامن) من شهر ربيع الأول من الشهور العربية القمرية، وقد عُدَّ ذاك اليوم بداية تاريخ الهجرة النبوية الشريفة، ومبدأ التقويم الإسلامي القمري، ثم رُدَّ في عصر الخليفة عمر (رض) إلى المحرم، استحساناً منه، وجرى الأمر بعدئذٍ على ذلك.

وكان الحي الذي نزل فيه النبي (ص) قد قدم عليه قبله (ص) أناس من «المهاجرين»[٣٧] ونزلوا على أهله، فلما قدم هو (ص) بنفسه، اجتمعت إليه بطون الأوس هناك، لذا لم يجسر الخزرج على أن يأتوا إلى النبي (ص)، بسبب ما كان بينهم وبين الأوس من العداوة الشديدة، فجعل النبي (ص) يتصفح الوجوه، فلم يرَ أحداً من الخزرج، فسكت ولم يتكلم حينئذٍ بشيء.

اللقاء الأول لسلمان الفارسي (رض) بالنبي (ص)

ثم لما استقر بالنبي (ص) الجلوس في دار كلثوم، تقدم إليه «سلمان

---

٣٥ ـ ثنيات الوداع: اسم موقع في الطريق من مكة إلى يثرب، قبيلها بقليل.

٣٦ ـ وهناك في الروايات أشعار أخرى ذيل لهذين البيتين، منها:

أيها المبعوثُ فينا — جئتَ بالأمرِ المُطاع
جئتَ شرَّفت المدينة — مرحباً يا خير دَاع

الفارسي» (رض)، وكان يومئذٍ عبداً مملوكاً لبعض اليهود، فأسلم على يده (ص)، فكان أعلانه إسلامه (رض) في اليوم الأول من الهجرة النبوية المباركة.

وقد كان من قصة سلمان (رض) أنه خرج من دياره في بلاد الفرس يطلب الدين الحنيف الذي كان قد سمعه من أهل الكتب، إلى أن وقع إلى راهب من النصارى بالشام فصحبه، وسأله عن أمر النبي (ص)، فقال له الراهب: «أطلبه بمكة، فثَمَّ مَخرَجُه، وأطلبه بيثرب فثم مَهْجَره»؛ فقصد سلمان يثرب، ولكن بعض الأعراب أخذه أسره عبداً، ثم أباعه لرجل من اليهود، فكان يعمل في نخلِهِ. وبينما هو ذات يوم على النخلات يجزها ويقطعها، إذ دخل على صاحبه اليهودي رجل من قومه اليهود فقال له: «يا أبا فلان، أعلمت أن هؤلاء المُسلِمة قد قَدِم عليهم نبيُّهم»؛ فتقدم إليه سلمان وقال له: «جُعِلتُ فداك! ما الذي تقول؟»؛ فقال له صاحبه منتهراً له: «مالك والسؤال عن هذا؟ أَقبِلْ على عملك»؛ فسكت سلمان ونزل. ثم أخذ طَبَقاً وجعل عليه من ذلك الرطب، وحمله إلى النبي (ص)، فلما قدَّمه إليه سأله النبي (ص): «ما هذا؟»؛ قال: «صَدَقة تُمورنا؛ بَلَغَنا أنكم قومٌ غرباء قَدِمتم هذه البلاد، فأحببتُ أن تأكلوا من صدقاتنا»؛ فقال النبي (ص): «لأصحابه: «سَمُّوا وكُلُوا»؛ ولم يشاركهم هو في الأكل. وكان سلمان ينظر إليه، فعقد واحداً من أصابعه وقال بالفارسية: «إينْ يِكْ» أي: هذه واحدة. ثم انصرف راجعاً وجاء بطبق آخر من الرطب، وقدمه بين يدي النبي (ص) يقول له: «رأيتك لا تأكل، فهذه هدية أهديتك إياها»؛ فأمر النبي (ص) جلساءه بالتسمية والأكل منه، وجعل يأكل هو معهم، فعقد سلمان اصبعاً ثانية وقال بالفارسية: «اين دو» أي: هذه (آية) ثانية. ثم جعل يدور خلف النبي (ص) كأنه يتفقد شيئاً، فألقى النبي (ص) عن كتفه الإزار، حتى رأى سلمان شامةً وخاتم النبوة بين كتفيه، فأقبل يقبله. عندئذٍ سأله النبي (ص): «من أنت؟»؛ قال: «أنا رجل من أهل فارس، قد خرجت من بلادي منذ.. كذا وكذا»، ثم ذكر للنبي (ص) طول حديثه وشرح حاله (على ما يُذكَر في محله إن شاء الله تعالى)، ثم أسلم؛ وأمره النبي (ص) بالصبر على مضض مملوكيته لليهودي، وبشرَّه بأن الله سيجعل له فرجاً منه.

الرسول(ص) يرفض دخول «المدينة» قبل وصول علي(ع) من مكة

ثم أن النبي (ص) صلى عند زوال الظهر فريضتي الظهر والعصر ركعتين، ولما فرغ منهما تقدم إليه أبو بكر (رض) يقول له: «انهض بنا يا رسول الله إلى يثرب، فإن القوم قد فرحوا بقدومك، وهم متشوقون إلى نزولك عليهم ويستريثون[٣٧] إقبالك إليهم، فانطلقْ بنا إلى المدينة ليُسَرُّوا بلقائك فيها»؛ قال (ص): «لا أَريمُ[٣٨] من هذا المكان حتى يوافي أخي علي»؛ قال أبو بكر: «ما أظنه يقدم عليك إلى شهر»؛ قال (ص): «كلا ما أسرعه! ولست أريم حتى يَقدِم ابن عمي وأخي في الله عز وجل وأَحَبُّ أهل بيتي إليّ، فقد وقاني بنفسه من المشركين»؛ فجعل أبو بكر يلح ويلوص[٣٩] عليه في ذلك، والنبي (ص) لا يزداد بإلحاحه إلا امتناعاً ويقول: «ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي وأخي وابنتي فاطمة»؛ حتى بَرِمَ أبو بكر؛ ولما يئس من إجابة طلبه، نهض وانطلق وحده إلى المدينة، ونزل فيها على بعض الأنصار.

مكث النبي (ص) وحده في قُبا، في دار كلثوم بن الهرم، وكتب من يومه إلى أمير المؤمنين علي (ع) في مكة كتاباً بعثه إليه على يد «أبي واقد الليثي»، يأمره فيه بالمسير إليه وحمل العيال معه، والإسراع في ذلك وقلة المكث في مكة.

ولما أمسى (ص) وفرغ من فريضتي المغرب والعشاء، أقبل إليه أسعد بن زرارة الخزرجي مُقَنَّعاً، فسلم عليه ورحَّب بقدومه، ثم قال: «يا رسول الله، ما ظننتُ أن أسمع بك في مكان فأقعد عنك؛ إلا أن بيننا وبين إخواننا من الأوس ما تعلم، فكرهتُ أن آتِيَهُم، فلما أن كان هذا الوقت لم احتمل أن أقعد عنك»؛ فتوجه النبي (ص) إلى جمعِ جُلوسٍ عنده من الأوس وقال لهم: «من يُجيرُهُ منكم؟»؛ فقالوا: «يا رسول الله، جِوارنا في

٣٧ ـ استرات: استبطأ ـ يستريثون اقبالك: يرون إقبالك صار بطيئاً وتأخر وطال انتظاره.

٣٨ ـ لا أريم: لا أفارق.

٣٩ ـ يلوص: يحاول، يدور حول الموضوع.

جوارك، فأجِرْهُ»؛ قال (ص): «لا، بل يجيره بعضكم»؛ فأجاره عُوَيم بن ساعدة وسعد بن خيثمة من الأوس، وصار أسعد يختلف إلى النبي (ص) في سائر أوقاته ويصلي خلفه ويتحدث عنده آمناً مطمئناً. ولما مضى على النبي (ص) ثلاثة أيام من قدومه، انتقل من دار كلثوم إلى دار خيثمة الأوسي، وأقام عنده اثني عشر يوماً، حتى قدم عليه أمير المؤمنين (ع) بالفواطم الثلاث.

علي (ع) في مكة، بين هجرة الرسول (ص) وهجرته هو

وأما ما كان من قصة أمير المؤمنين علي (ع) في مكة بعد ارتحال رسول الله (ص) وخروجه منها، فإنه بعد تنفيذه لوصايا النبي (ص) وردّ الأمانات إلى أهلها، بلغه كتابه (ص) في أمره بالهجرة، فنهض واستعد لذلك، وأذن لمن بقي في مكة من ضعفاء المؤمنين بالهجرة معه، وأمرهم أن يتسللوا واحداً فواحداً مختفين متكتمين في ظلمة الليل، وأن يجوزوا كل وادٍ حتى يبلغوا وادي «ذي طوى»، وخرج هو (ع) بالفواطم (ع) في جوف الليل، وقد أركبهن على النياق وهو يمشي على قدميه، وتبعهم أيمن (ابن أم أَيمن) مولى رسول الله، وأبو واقد (حامل كتابه إلى مكة)، فجعل أبو واقد يسوق بالرواحل يعنف بها، فناداه أمير المؤمنين (ع): «إرفق بالنسوة فإنهن من الضعايف»؛ قال: «إني أخاف أن يدركنا الطلب»؛ قال (ع): «إربَعْ عليك[٤٠]! فإن رسول الله أخبرني أنهم لن يصلوا إليَّ بأمرٍ أكرهه»؛ ثم تقدم أمير المؤمنين بنفسه يسوق بالرواحل سوقاً رفيقاً وهو يقول:

ليس إلا الله فارْفَعْ خَلْفَكا ... يَكْفِكَ ربُّ الناس ما أهمَّكا

ثم أنشأ يقول بعدئذٍ مديحاً وشوقاً وحباً لابن عمه رسول الله (ص):

وَقَيْتُ بنفسي خيرَ مَن وَطِيءَ الحَصا ... ومَن طاف بالبيت العَتيق وبالحِجْرِ
محمد لما خافَ أن يَمْكُروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال مِن المَكر

---

٤٠ ـ إربع عليك: اطمئن.

وبِـتُّ أراعيهـم متـى ينشـرونـنـي … وقد وَطِنَتْ نفسي على القتل والأَسْر
وبات رسول اللّه في الغار آمِناً … هناكَ وفي حفظ الإله وفي سِتْر
أقـام ثـلاثـاً ثـم زُمَّـت قَـلائـصٌ … قلايصُ يفرين الحصا أينما تفري[٤١]

ولم يزل (ع) يسير بمن معه حتى أشرف على «ضجنان»، وهناك أدركه «جناح» مولى «الحرث بن أمية»، ومعه سبعة فرسان قد أتوا في طلبه، فلما تراؤوا، أمر أمير المؤمنين (ع) صاحبيه أيمن وأبي واقد أن يُنيخا[٤٢] الإبل ويَعْقِلاها[٤٣]، وتقدم إليها حتى أنزل النسوة، ثم استقبل القوم مجرِّداً سيفه، فأقبلوا عليه يقولون له: «ظننتَ أنك يا غدارُ ناجٍ بالنسوة؟ ارجع لا أبا لك»؛ قال (ع): «فإن لم أفعل؟»؛ قالوا: «لَتَرْجِعَنَّ راغماً، أو لَنَرْجِعَنَّ بأكثرِكَ شَعراً[٤٤]! وأَهْوِنْ بك من هالك!»؛ ثم همُّوا بالنسوة والمطايا ليثوّروها[٤٥]، فحال أمير المؤمنين (ع) بينهم وبينها، فأهوى جناحُ عليه بسيفه، فمال (ع) عن ضربته، وحمل على الفارس وهو على الأرض حتى انتزع السيف من يده وضربه به على عاتقه ضربة قَدَّه بها نصفين، حتى وصل السيف إلى مقدم المَنْسَج[٤٦] مِن سَرْج فرسه، ولما خرّ نصفين مِن على فرسه على الأرض، انفرج عنه باقي الفرسان هاربين وهم يقولون: «أَغنِ عنا نفسَك يا ابن أبي طالب»؛ وأقبل (ع) بعد «جناح» يشدّ على القوم بسيفه وهو يقول:

خَلّوا سبيلَ الجاهِدِ المُجاهِدِ … آلَيْتُ لا أعبُدُ غيرَ الواحِدِ

---

٤١ ـ أقام ثلاث ليال (في الغار). زمّت: وُضِع لها الزمام (المِقود، الحبل) لتُقلع وتسير. قلائص وقلايص: الإبل الطويلة القوائم. تفري: تشق، تقطع. تفري الحصَى: تشق الحَصَوات والأحجار الصغيرة في طريقها (من فرط سرعتها؟).

٤٢ ـ أناخ الإبل: أنزلها، أجلسها.

٤٣ ـ عقلها: ربطها (بوتد، أو بشجرة، أو بحائط . . .) لكي لا تهرب أو تفلت.

٤٤ ـ أكثرك شعراً: القسم الأكثر شعراً من جسمك، رأسك. لنرجعن بأكثرك شعراً: لنرجعن برأسك بعد أن نقطعه.

٤٥ ـ ثوّروها: أثاروها، جعلوها تهيج وتثور.

٤٦ ـ المنسج: موضع النسج. مقدم النسج: بداية القسم المنسوج.

ثم جعل (ع) ينادي فيهم: «إني منطلق إلى ابن عمي رسول الله بيثرب، فمن سَرَّهُ أن أَفرِي[٤٧] لحمه وأُهَريق[٤٨] دمه فليتبعني، أو لِيَدْنُ مني».

ثم أقبل على صاحبيه يأمرهما باطلاق المطايا ومتابعة السير بعد ما أَركب النسوة، وجعل يسير بهم ويتقدم ظاهراً قاهراً إلى أن قدم ضجنان، فمكث فيها يومه وليلته حتى لحق بهم نفر من المهاجرين المستضعفين، فيهم «أم أيمن» مولاة رسول الله (ص)؛ وقد أمضى (ع) ليلته تلك كلها مشتغلاً بالصلاة والدعاء والذكر، وتبعتْهُ الفواطمُ على ذلك قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم، إلى أن طلع الفجر، فصلى (ع) بمن معه صلاة الفريضة. ونزل جبرائيل (ع) على رسول الله (ص) بقبا؛ وأخبره بكل ذلك، وأنزل عليه قوله تعالى فيهم: ﴿الذين يَذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ إلى قوله تعالى ﴿فاستجاب لهم ربُهم أَني لا أُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكر﴾ وهو علي (ع) ﴿أو أنثى﴾ وهي فاطمة (ع) ﴿بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأُخرِجوا مِن دِيارهم وأوذوا في سبيلي، وقاتلوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم ولأُدخِلَنَّهُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾[٤٩].. الخ.

وصول علي والفواطم (ع) والنبي (ص) يخرج لاستقبالهم.

ثم سار أمير المؤمنين (ع) بجميع من معه ومن لحقوه نحو المدينة، وكان النبي (ص) ما يزال يترقب قدومهم في قبا، ويصلي فرائضه الرباعية ركعتين ركعتين تجاه بيت المقدس في فلسطين، وظل الناس في قبا يلحون عليه بالإقامة عندهم كي يتخذوا له مسجداً فيها، وهو لا يجيبهم إلى ذلك ويقول: «إني أنتظر علي بن أبي طالب، وقد أمرته أن يلحَق بي، ولست مستوطناً منزلاً حتى يَقدِمَ عليٌّ، وسيقدم سريعاً إن شاء الله تعالى». ثم أسس (ص) لأهل قبا مسجداً (هو مسجد قبا المشهور)، وكان أول مسجد

---

٤٧ ـ أفري: أقطع (لحمه).

٤٨ ـ أُهَريق: أريق، أسيل.

٤٩ ـ القرآن الكريم، الجزء ٤، السورة ٤ آل عمران؛ الآيات: ١٩١ ـ ١٩٥.

في الإسلام، فكانت جموع أهل المدينة يخرجون إليه كل يوم وينصرفون، إلى أن قدم أمير المؤمنين علي (ع).

فلما بشروا النبي (ص) بقدوم علي والعيال والمؤمنين، نهض مسرعاً بمن معه يتلقونهم. فلما رأى علياً (ع) وعلم أنه سار الطريق كلها مشياً مرافقاً للعيال الذين كُنَّ على الإبل، وأنه (ع) قد تورمت قدماه من المشي حتى صارتا تقطران دماً، استقبله معانقاً، وجعل يبكي (ص) شوقاً إليه ورحمةً به وشفقةً عليه مما أصاب قدميه، ثم مسح بيده عليهما ودعا له بالعافية، فعوفي من حينه وساعته، ولم يشكُ أمير المؤمنين (ع) بعدئذٍ قدميه إلى آخر عمره. ثم قرأ له النبي (ص) ما نزل في شأنه من الآيات، ومنها قوله تعالى ﴿ومِن الناس مَن يَشْري نفسَه أبتغاءَ مَرضاةِ الله﴾[٥٠] . . الخ ومنها ما مر ذكره وهو قوله تعالى ﴿الذين يذكرون الله﴾[٤٩] . . الخ، ثم بشره بما أعدَّ الله له وقال في ما قال له: «يا علي، أنت أولُ هذه الأمة إيماناً بالله ورسوله، وأولُهم هجرةً إلى الله ورسوله، وآخرُهم عهداً برسوله! والذي نفسي بيده، لا يحبك إلا مؤمنٌ قد امتحنَ اللّهُ قلبَه للإيمان، ولا يُبغِضك إلا منافق أو كافر».

وقد أقام النبي (ص) في قبا بعد قدوم أمير المؤمنين (ع) (يومين)، فكان مجموع إقامته عندهم خمسة عشر يوماً.

---

٥٠ ـ ج٢، س٢ البقرة: ٢٠٧.

المرحلة الأخيرة من الهجرة والوصول إلى يثرب

وبعد أن اطمأن إلى أن علياً (ع) قد نالوا قسطاً وافياً من الراحة قرر متابعة (ص) رحلة الهجرة، واعلن قراره بالسير من الغد الى مهجرة، الى بلده الجديد، الى يثرب، مدينة الرسول واتباع الرسول (ص). وحين ركب النبي (ص) راحلته وهمَّ بالخروج نحو المدينة اجتمع إليه أهل قبا من بني عمرو بن عوف يعيدون ويكررون سؤاله الإقامة عندهم ويقولون: «أقِمْ عندنا يا رسول الله، فإنّا أهل الجدِ والجَلَد[1]، والحلفة والمنعة[2]»، وأمسك البعض بزمام ناقته لابقائها عندهم، فجعل (ص) يقول: «خلوا عنها، فإنها مأمورة»؛ وقد بلغ الأوسَ والخزرج في يثرب خروجُه (ص) إليهم، فتسلحوا، وأقبلوا يتلقونه حتى جعلوا يَعْدُون حول ناقته. فلما دخل (ص) المدينة، كان لا يَمُرُّ بحيّ من الأحياء، إلا وثبوا في وجهه يتعلقون بزمام ناقته، ويسألونه النزول عندهم وهو يقول: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ الى أن مَرَّ بحي بني سالم ووافاهم عند زوال الشمس ظهراً ـ وكان يوم الجمعة ـ فوثبوا إليه يقولون: «يا رسول الله، هلّم إلى الجد والجَلَد والحِلفة والمنعة»؛ وكانوا قد بنوا مسجداً في حيهم، فبركت ناقة النبي (ص) عند مسجدهم، فنزل وصلى بهم فيه فريضة الجمعة أو الظهر

---

١ ـ الجَلَد: الصبر والتحمل.

٢ ـ الحلفة: الالتزام بالحلف والعهد. المِنْعة (بفتح الميم وبكسرها، وتسكين النون) القوة التي تحمي من الشر والأذى، والمَنَعة (بفتح الميم والنون): العز والكرامة و. . القوة.

ـ وكانت القِبلة بيت المقدس ـ وأَتَمَّ به فيه مائة رجل، وخَطَب فيه، وكان أول مسجد خُطِب فيه بالجمعة، فقال:

اول خطبة جمعة، من الرسول (ص)

«الحمد لله الذي أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أَكْفُرُه[٣] وأعادي من يكفره؛ وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشهد أنـي ـ محمـداً ـ عبـدُهُ ورسـولـه، أرسلنـي بـالهـدى والنـور والموعظة، على فَترةٍ من الرسل، وقِلةٍ من العلم، وضلالةٍ مِن الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودُنُوٍّ من الساعة، وقُرْبٍ من الأجل؛ مَن يُطع الله ورسولهَ فقد رَشَد، ومَن يعصِ الله ورسوله فقد غَوَى وفَرَط[٤] وضل ضَلالا بعيداً. أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أَوْصَى به المسلمُ المسلَم أن يَحُضَّهُ على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حَذَّرَكُمُ الله من نفسه، وإن تقوى الله لِمَن عملَ بها على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربه ـ عَوْنُ صدقٍ على ما تَبغُون من أمر الآخرة، ومَن يُصلِحْ الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكنْ له ذِكْراً في عاجل أمره، وذخراً في ما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم؛ وما كان من سوى ذلك تودّ نفسه **﴿لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويُحذّركم اللَّهُ نفسَه، والله رؤوف بالعباد﴾**[٥] وهو الذي صَدَق قولَه ونجز وعده ولا خُلْف لذلك، فإنه يقول: **﴿ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظَلاّم للعبيد﴾**[٦] فاتقوا الله في عاجل أمره وآجله، في السر والعلانية، فإنه **﴿يجعل له من أمره يسرا﴾**[٧] **﴿ومَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكفِّر عنه سيئاتِه ويُعْظِمْ له أجراً﴾**[٨] وإن تقوى الله تقي مَقْتَهُ وعقوبته، وتقي سَخَطَه، وإن تقوى الله تُبَيِّضُ الوجوه، وترضي الربّ،

---

٣ ـ كَفَرَه: جَحَدَه (ضد سكره).

٤ ـ فَرَعط: قَصَّر وخسر.

٥ ـ ج٣، س٣ آل عمران: ٣٠

٦ ـ ج٢٦، س٥٠ ق: ٢٩.

٧ ـ ج٢٨، س٦٥ الطلاق: ٢.

٨ ـ ج٢٠، س٢٩ العنكبوت: ٣ و٥.

وترفع الدرجة! خذوا بحظكم ولا تُفرِّطوا في جنب الله، فقد علمكم الله كتابه ونَهَجَ لكم سبيله و﴿لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذين صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين﴾[٩] فأَحْسِنوا كما أحسن الله إليكم، وعادُوا أعداءه ﴿وجاهِدوا في الله حق جهاده هو ٱجتباكم. . . وسماكم المسلمين﴾[١٠] ﴿لِيَهْلِكَ مَن هلَكَ عن بيِّنَةٍ ويَحْيَ ى مَن حيَّ عن بيِّنَةٍ﴾[١١]! فأكثروا ذِكْرَ الله واعملوا لما بعد الموت، فإنه مَنْ يُصْلِحْ ما بينَه وبين الله يَكْفِهِ اللَّهُ ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويَمْلِكُ من الناس ولا يملكون منه! الله أكبر ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ولما انتهت خطبته (ص)، خرج من المسجد نحو ناقته فركبها وأرخى زمامها، وجعل يسير بمن معه نحو المدينة، حتى انتهى إلى حي «بني الحبلى» وكان يرأسهم عبد الله بن أبيّ. وقد كان ابن أبيّ هذا رجلاً كثير الثراء، وهو الذي كادت القبيلتان أن تحكّماه وتُسَوِّداه عليهما قبل قدوم النبي (ص) ـ كما أشرنا سابقاً ـ فوقف عليه النبي (ص)، فلم يعبأ به الرجل ولم يَعْرِض عليه النزولَ عنده، بل وأخشن له في الكلام بعد أن وضع كمَّهُ على أنفه من الغبرة الثائرة من الرواحل والجموع، وقال له: «يا هذا، إذهب إلى الذين غَرُّوك وخدعوك وأتوا بك، فانزل عليهم ولا تَغْشَنا[١٢] في ديارنا»؛ فلم يردّ عليه النبي (ص) بشيء وانصرف عنه، (وما دارت الأيام والليالي إلا قليلاً حتى سلط الله على دار الرجل ودور قومه الذَرّ فخرَّب دورهم حتى صاروا نُزَّالاً على غيرهم). وكان سعد بن عبادة قرب ابن أبيّ حين قال ما قال من خشن القول، فتقدم إلى النبي (ص) وقال له: «يا رسول الله، لا يَعْرِضْ في قلبك شيء من قولِ هذا، فإنا كنا اجتمعنا على أن نقدِّمه ونُسَوِّده علينا، وهو يرى الآن أنك قد سلبتَهُ أمراً كان قد أشرفَ عليه؛ فأنزل عليَّ يا رسولَ الله، فإنه ليس في الخزرج ولا

---

٩ ـ ج١٧، س٢٢ الحج: ٧٨.
١٠ ـ ج١٠، س٨ الأنفال: ٤٢.
١١ ـ هامش ص٣٣٦
١٢ ـ تغشانا: تأتينا وتنزل علينا.

في الأوس من هو أكثرُ فَمَ بِئْرٍ مني[١٣] ونحن أهل الجَلَد والعز فلا تَجُزْنا[١٤] يا رسول الله».

وخرجت الأنصار من المدينة برجالها ونسائها يتلقونه ويتعلقون بزمام ناقته أفواجاً أفواجاً، وكلٌّ منها ينادي: «إلينا إلينا يا رسول الله»؛ وظلَّ يقول لكل منهم: «دعوها فإنها مأمورة، فعلى باب مَن بَرَكَت فأنا عنده». وخرجت جَوارٍ مِن بني النجار يضربن بالدفوف ويتغنين منشدات بقولهن:

نحنُ جَوارٍ مِن بني النَّجّارِ　　يـا حبَّـذا محمـدٌ مِـن جـارِ

فتوجه إليهن النبي (ص) يقول لهن: «أَتُحبِبْنَني؟»؛ قَلن: «بلى والله يا رسول الله»؛ فقال: «والله أنا أحبُّكن»؛ يعيدها ثلاث مرات.

ناقة النبي (ص) تتوقف وتبرك في مريد يتيمين

وصارت ناقته تسرع في السير وقد أحاط بها الجموع يسيرون حولها من كل جانب، إلى أن انتهت إلى مِرْبَدٍ[١٥] يتيمين من الخزرج يقال لهما سَهْل وسُهَيل كانا في حجر[١٦] أسعد بن زرارة، فبركت الناقة في المربد على باب دار أبي أيوب خالد بن زيد، ولم يكن في المدينة أفقر منه. وكانت داره بموضع المسجد اليوم، ولم يكن يومئذٍ هناك مسجد، فانقطعت قلوب الناس حسرة على حرمانهم من نزوله عندهم، وكاد أبو أيوب أن يطير فرحاً وافتخاراً بنزول النبي (ص) عنده. وكان له أمّ عمياء، فبادر إليها صارخاً: «يا أماه، افتحي الباب، فقد قَدِم سيدُ البشر وأكرَمُ ربيعةَ ومُضَر، محمدُ المصطفى، والرسول المجتبى»؛ فسارعت راكضة نحو الباب حتى فتحته وهي تقول: «واحسرتاه! ليتني كانت لي عينٌ أُبصر

---

١٣ ـ أكثر فم بئر: أكثر رُواداً وزواراً وقاصدين.

١٤ ـ جازَ (يجوز): تجاوَزَ، انتقل إلى مَن (أو ما) يأتي بعد. لا تَجُزْنا: لا تغادرنا، لا تنتقل إلى سوانا.

١٥ ـ المِربَد: فضاء أو ساحة حول البيت أو خلفه، تكون عامةً المقام والمبيت للماشية أو الخيل.

١٦ ـ في حِجره: في كفالته، تحت رعايته.

بها وجهَ سيدي رسول الله»؛ فسمع النبي (ص) كلامها، فتقدم إليها ومسح عينيها بكفه المباركة، فانفتحتا حالاً وصارت تبصر بهما أحسن مما كانتا، فصرخت الجموع بمشاهدتها ذلك برؤية لذلك الحدث الذي كان أول معجزة ظهرت منه (ص) في المدينة؛ وازدادوا به يقيناً وله حباً، وضاعفوا الإلحاح عليه بالنزول عندهم، فوثبت أم أبي أيوب إلى رَحْله فحلَّت رباطه وأدخلته دارها؛ ولما أكثر الناس في الكلام والإلحاح قال (ص): «أين الرَحْل؟»؛ قيل له: «أخذته المرأة إلى دارها»؛ فقال (ص): «المرء مع رحله»؛ فمضى أسعدُ إليها وأخذ الرحل منها وحوَّله إلى منزله، فأقام النبي (ص) عند أبي أيوب.

وكان لأبي أيوب في الدار غرفتان، علوية وسفلية، فخيّر النبيَّ (ص) بينهما، فاختار (ص) السفلى ونزل فيها، وسكن أَبو أيوب وأُمه العليا، على كراهتهما للعلوّ على النبي (ص) في المسكن. وكانا يراقبان بكل جهد خدمته وعدم انزعاجه (ص)، بصوت أو دخان طبخ أو نزول غبار أو ماء أو غيرها من الغرفة العليا على غرفته. وجعل المسلمون من القبيلتين يختلفون إليه غدوة وعشياً، وصار جمع من وجوههم ـ كأسعد وسعد ابني خَيْثَمَة، والمنذر بن عمرو، وسعد بن الربيع، وأمثالهم ـ يتناوبون في بعث الطعام إلى النبي (ص). وطبخ له ذات يوم أسْيَد بن حضير ـ وكان رجلاً شريفاً من النقباء ـ قِدْراً، ولم يجد مَن يحمله إليه فحمله بنفسه، فوافاه النبي (ص) عند رجوعه من الصلاة وقال له: «حملته بنفسك؟»؛ قال: «نعم يا رسول الله، لم أجد من يحمله»؛ فدعا له بالبركة.

يهود المدينة يسائلون النبي (ص) ويناقشونه

ولم تزل الأنصار برجالها ونسائها يختلفون إليه، إلى أن أتاه ذات يوم ـ في مَن أتى ـ جمع من يهود «بني النضير» و«قريظة» و«قيقناع»، ولما استقرَّ بهم الجلوس قالوا: «إلى ما تدعو يا محمد؟»؛ قال (ص): «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأني أنا الذي تجدونه مكتوباً في التوراة، والذي أخبر علماؤكم أن مخرجه بمكة ومهاجره بهذه الحَرَّة، وأنا

الذي جاء من الشام ليراه ويتبعه ذلك العالمُ منكم الذي قال: «تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لِنبي يُبعثُ بمكة، ومهاجره هنا في هذه الحَرَّة، وهو آخرُ الأنبياء وأفضلُهم، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالكِسرة[١٧]، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالي مَن لاقى، وهو الضحوك القتال، يبلغ سلطانُهُ مُنْقَطَعَ الخُفِّ والحافر»[١٨]؛ قالوا: «سمعنا ما تقول، وقد جئناك لنطلب منك الهدنة[١٩] على أن لا نكون لا لك ولا عليك، فلا نُعين عليك أحداً ولا نتعرض لأحد من أصحابك، ولا تتعرض لنا ولا لأحد من أصحابنا، حتى ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر قومك»؛ فأجابهم النبي (ص) إلى ذلك، وكتب كتاباً بينه وبين كل فريق منهم، ألا يعينوا عليه ولا على أحد من أصحابه، لا بلسان ولا يد ولا سلاح ولا خيل، لا في ليل ولا نهار، ولا سرّ ولا علانية، والله بذلك عليهم شهيد، فإن نكثوا وغدروا، فرسول الله في حِلٍّ من سفك دمائهم وسَبْي ذراريهم ونسائهم ونهب أموالهم.

وكان رئيس بني النضير «حيّ بن أخطب»، ورئيس بني قريظة «كعب بن أسد»، ورئيس بني قيقناع «مخريق» وهو يومئذٍ أكثرهم مالاً وحدائق، فأمر قومه عند رجوعه إليهم بالإيمان بالنبي (ص) بعد أن علموا أنه النبي المبعوث، فلم يجبه قومه إلى ذلك. وأما حي بن أخطب فإنه لما رجع إلى قومه، سأله أخواه «جديّ» و«أبو ياسر» عن النبي (ص) فقال: «هو الذي نجده في التوراة، والذي بشَرنا به علماؤنا، ولكني ما أزال له عدوّاً، لأن النبوة خرجت به من وُلْد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل، ولا نكون تبعاً لولد إسماعيل أبداً».

وأقبل ذات يوم إلى النبي (ص) عبد الله بن سلام، وكان من سادة

اليهود ورؤسائهم، فلما جلس عنده قال: «إني سائلك عن أشياءَ لا يعلمها إلا نبي، فإن أخبرتَني بها آمنتُ بك: أسألك عن الشَبَه، وعن أول شيء يأكله أهل الجنة، وعن أول شيء يَحشُر الناسَ»؛ فقال النبي (ص): «أخبَرَني بهن جبرائيل آنفاً»؛ فقاطعه ابن سلام قائلاً: «ذاك عدوّ اليهود»؛ فتابع النبيّ (ص) قائلاً: «أما الشبه فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة ذهب بالشبه، وإذا سبق ماؤُها ماءَه ذهبت بالشبه؛ وأما أول شيء يأكله أهل الجنة، فزايد كبد الحوت؛ وأما أول شيء يَحشُر الناس، فنارٌ تجيء من قِبَل المشرق تَحشُرُهم إلى المغرب»؛ فأمسك عبد الله قليلاً عن الكلام متفكراً، ثم أعلن إسلامه بصوت عالٍ قائلاً: «أشهد أنك رسول الله».

ثم قال: «يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت[١٨]، وإنهم إن سمعوا بإسلامي بَهَتوني، فأَخْبِئْني عندك، وٱبعث إليهم وٱسألهم عني»؛ فخبأه النبي (ص) وأرسل إليهم. فلما أتوا إليه سألهم: «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام؟»؛ قالوا: «هو خيرُنا وٱبن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وعالِمنا وابن عالمنا»؛ قال (ص): «أرأيتم إن أَسلَمَ تُسلمون؟»؛ قالوا: «أعاذه الله من ذلك!»؛ فناداه النبي (ص): «يا عبد الله بن سلام، أخرُجْ»؛ فخرج إليهم ينادي بالشهادتين ويعلن إسلامه، فنفر القوم منه يقولون فيه: «إنه شرُّنا وٱبن شرنا، وجاهلُنا وابن جاهلنا»؛ وانصرفوا راجعين.

النبي (ص) يشتري مربد اليتيمين
ويبني فيه مسجداً يساهم بيده في بنائه

بقي النبي (ص) مقيماً في دار أبي أيوب، يؤدي صلاته في مِرْبَد اليتيمين سهل وسهيل مسكن أنعامهما، إلى أن أَمَر (ص) أسعدَ بابتياع المحل منهما، فوهباه للنبي (ص)، ولكنه (ص) لم يقبله إلا بثمن، واشتراه بعشرة دنانير، ثم بناه مسجداً سِعَتُه مائة ذراع، وعُلُوُّ حائطه قدر قامة، وكان يشتغل هو (ص) بنفسه مع المسلمين في عمارته، وينقل بعض أحجاره على بطنه، فكان ذلك دافعاً لأن يجدَّ المهاجرون والأنصار أكثر

---

١٨ ـ بُهُت، جمع بَهُوت وبَهّات: الذي يفتري البهتان، أي الكذب.

في العمل، وجعلوا يتسابقون وينافس بعضهم بعضاً في الحمل والنقل والبناء، وهم يرتجزون قائلين:

لَئِنْ قَعَدنا والنبيُّ يَعمَلُ فذاكَ منا العملُ المُظَلَّلُ

فٱرتجَزَ علي (ع) وهو يعمل بقوله:

لا يَستوي مَن يعملُ المساجدا يَدْأَبُ فيها قائماً وقاعدا
ومَن يُرَى عن الغُبار حائدا

وراح النبي (ص) ينظر إليهم وإلى جدّهم في العمل، فجعل يقول:

لا عيشَ إلا عيشُ ٱلأُخِرَة رَبِّ ٱرحمِ الأنصارَ والمُهاجِرة

بَنَى النبيُّ (ص) فوق المربد أيضاً عشرة بيوت جعل متوسِطَها لعلي (ع) ـ وهو البيت الذي سيصبح في ما بعدُ بيت علي وفاطمة (ع) ـ إلى أن تم بناء المسجد. فلما كمل بناؤه، أقبل جمع من المهاجرين من أصحابه (ص) يبيتون فيه، لأنهم لم يكن لهم بيوت ومساكن في المدينة؛ ولكن النبي (ص) نهاهم عن ذلك حَذَراً من جِنابتهم فيه، فبنوا لأنفسهم منازل حول المسجد بخطوط خطها لهم النبي (ص)، وشرَّع كلٌّ منهم باباً من بيته إلى المسجد، فكانوا يدخلون المسجد من منازلهم نفسها مباشرة، إلى أن هبط عليه جبرائيل يفرض بأمرٍ من الله تعالى أن يسدّ جميع الأبواب، ولا يكونَ إلى المسجد باب لأحد غيره هو (ص) وغير أمير المؤمنين علي (ع)، وأخبره أنه يحل لعلي (ع) خاصة وحده ما يحل لرسول الله (ص)، حتى الدخول في المسجد جُنُباً، ولا يحلّ ذلك لأحد من المخلوقين غيرهما.

النبي (ص) يأمر بسد الأبواب على المسجد إلا باب علي (ع)

أخبر النبي (ص) أصحابه بالحكم الإلٰهي، وبعث (ص) الذين كانت أبوابهم مشرعة على المسجد يأمرهم بسدها فاستجابوا عامةً يقولون: «سمعاً وطاعة لله ولرسوله». وتقدم بعضهم يسأله الميزة لنفسه عن غيره بأن يترك بابه مفتوحاً، والنبي (ص) يأبى ذلك، وألحَّ بعضهم وكرر

الطلب، وفيهم عمر بن الخطاب (رض) الذي قال: «يا رسول الله، إني أحبُ النظرَ إليك إذا مررت إلى مُصَلاَّك فأْذَنْ لي في خَوْخَة[١٩] أنظر إليك منها»؛ فقال (ص): «قد أبى الله ذلك»؛ قال: «فمقدار ما أضع عليه وجهي»؛ قال (ص): «قد أبى الله ذلك، ولو قلتَ قدر طرف إبرة لم آذَن»؛ وتقدم آخرون يسألونه (ص) كُوَّة من منازلهم إلى المسجد لينظروا إلى النبي (ص) منها، فأبى (ص) يقول: «ولا قَدْر اصبع ولا رأس إبرة»؛ لأن الله سبحانه لم يكن قد أمر به، إلى أن انصرف القَوم بأجمعهم وسدّوا أبوابهم ومنافذ بيوتهم إلى المسجد وبعضهم متبرم ومتضايق.

فلما عرفوا بعدئذٍ بترك باب علي (ع) مفتوحاً، دهشوا وتعجبوا، بل إن بعضهم استنكروا حتى الغضب، ونَفَسوا[٢٠] على علي (ع) تلك الميزة له، وتكلم ناس في ذلك يقولون في ما بينهم: «ألا ترون محمداً ما يزال يخصّ بالفضل ابن عمه ليخرجنا منها صفراً[٢١]»؛ وقال عبد الله بن أبي: «إن محمداً لَمُتألِّه، فاياكم ومكاشفته، فإن مَن كاشف المتألِّهَ انقلب خاسئاً حسيراً، وتنغَّصَ عليه عيشُه، وإن الفَطنِ اللبيب مَن تجرَّع الغَصَّة لينتهز الفُرصة».

ثم تقدم العباس بن عبد المطلب في جماعة من بني هاشم إلى النبي (ص) وهم مغتاظون، يقولون: «يا رسول الله، ما بالُ علي يدخل ونحن نخرج؟»؛ فقال (ص): «يا عباس، يا عمَّ رسول الله، إن هذا جبرائيل يقول لي عن الله جل جلاله أن علياً لم يفارقكَ في وحدتك، وإنه آنَسَكَ في وحشتك، فلا تفارقْه في مسجدك؛ يا عمَ رسول الله، لو رأيت علياً وهو يتصور[٢٢] على فراش محمد واقياً روحه بروحه، متعرضاً لاعدائه مستسلماً لهم أن يقتلوه شر قتلة، لَعلمتَ أنه يستحق من محمد الكرامة والتفضيل، ومن الله تعالى التعظيم والتبجيل. أن علياً قد انفرد عن الخلق

---

١٩ ـ خَوخة: كُوَّة، نافذة صغيرة بأعلى الجدار ينفذ منها النور من الخارج إلى داخل الغرفة.
٢٠ ـ نَفَسوا عليه: لحقتهم الغيرة منه والحسد له.
٢١ ـ وفي الرواية أن بعضهم قالوا: «والله لئن أنفذْنا له في حياته، لَنتأَبَّيَنَّ عليه بعد وفاته.
٢٢ ـ يتصور: يتمايل، ينقلب.

بالبيتوتة على فراش محمد ووقاية روحه بروحه، فأفرده الله دونهم بسلوكه[٢٣] في مسجده؛ ولو رأيت علياً يا عمَّ رسول الله وعظيمَ منزلته عند رب العالمين، وشريفَ محله عند الملائكة المقربين، وعظيمَ شأنه في أعلى عِلِّيين، لاَستقللتَ ما تراه له ها هنا! إياكَ يا عم رسول الله أن تجد[٢٤] له في قلبك مكروهاً، فتصير كأخيك أبي لهب، فإنكما شقيقان[٢٥]. يا عم رسول الله لو أبغضَ علياً أهلُ السماواتِ والأرضينَ لأهلكهم الله ببُغْضه، ولو أحبه الكفار أجمعون لأثابهم الله عن محبته بالخلقة[٢٦] المحمودة بأن يوفقهم للإيمان، ثم يدخلهم الجنة برحمته. يا عمُّ إنَّ شأن علي عظيم! إنَّ حال عليّ جليل! إنَّ وزن علي ثقيل! ما وُضِع حُبُّ علي في ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، ولا وُضع بغضه في ميزان أحد إلا رَجَح على حسناته»؛ فقال العباس: «قد سلَّمتُ ورضيت يا رسول الله»؛ فقال النبي (ص): «يا عم انظر إلى السماء»؛ فلما نظر إليها قال له النبي (ص)) «ماذا ترى؟»؛ قال: «أرى شمساً طالعة نقية، في سماء صافية جليَّة»؛ فقال (ص): «يا عم، إن حُسْنَ تسليمِكَ لما وهب الله عز وجل لعليّ من الفضيلة، أحسنُ من هذه الشمس في هذه السماء، وعظيمُ بركة هذا التسليم عليك، أكثر من عظيم بركة هذه الشمس على النبات والحبوب والثمار التي بنورها ودفئها تُنضِجها وتنميها وتربيها! واعلم أنك بتسليمك لعلي فضيلتَه، قد صافاك من الملائكة المقربين أكثرُ مِن عدد قَطْرِ المطر، وورق الشجر، وعدد رمل عالِج[٢٧]، وعدد شعور الحيوانات، وعدد أصناف النبات، وعدد خُطى بني آدم وأنفاسهم وألفاظهم وألحاظهم، كلُّهم يقولون: اللهم صلّ على العباس عم نبيك في تسليمه لنبيك فضلَ أخيه علي؛ فاحمد اللّهَ يا عمُّ واشكره، فلقد عظم ربحك، وجلّت رتبتُك في ملكوت السماوات».

---

٣٣ ـ سلوكه: مروره، عبوره.

٢٤ ـ وَجَدَ: ضاعفَ العاطفة (حباً أو كرهاً) في قلبه ـ لا تجد له مكروهاً: لا تحقد، تضمر أو تخفي في نفسك مكروهاً.

٢٥ ـ الشقيقان: الأَخوان من أب واحد وأم واحدة. وعليه: كل شقيق هو أخ، وما كلُّ أخٍ شقيق.

٢٦ ـ الخَلقة: الصفة. الخلقة المحمودة: الصفة المحمودة منهم،.. أو فيهم.

٢٧ ـ رمل عالج:.. متراكم، متجمع.

ثم بلغ خبرُ ابقاء باب علي (ع) مفتوحاً حمزَة عم النبي (ص)، فغضب غضباً شديداً وهو يقول: «أنا عمه يأمر بسد بابي، ويترك باب ابن أخي وهو أصغر مني؟»؛ فمضى إليه النبي (ص) يقول له: «يا عمُّ، لا تَغضبَنَّ مِن سدِّ بابك وتَرْكِ باب علي، فوالله ما أنا أمرتُ بذلك، ولكن الله أمر بسدّ أبوابكم وترك باب علي»؛ فسكن حمزة عن غضبه وقال: «رضيتُ وسلَّمت لله ولرسوله!».

وبلغ النبيَّ (ص) أن معظم الناس ما زالوا في غيظ وقلق من خبر تمييز علي (ع)، فقام فيهم خطيباً وقال (ص) في ما قال: «إن رجالاً يجدون في أنفسهم أن سكنَ عليٌّ في المسجد وخرجوا، واللّهِ ما فعلتُ ذلك إلا عن أمر ربي! إن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يسكن مسجده فلا يدخله جُنبٌ غيرُه وغير أخيه هارون وذريته، وقال تعالى: ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لِقَوْمِكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبلة**﴾[٢٨]، اعلموا رحمكم الله أن علياً مني بمنزلة هارون من موسى، ، إلا أنه لا نبي بعدي ولو كان علياً؛ وهو أخي دون أهلي، ولا يحلُّ لأحدٍ أن ينكح النساء في مسجدي إلا لِعليّ وذريته، كما أمر الله موسى أن لا يسكن سواه مسجدَه ولا ينكح فيه إلا أخوه هارون وذريته، والذي نفسي بيده، ما أنا أخرجتُكم ولا أدخلتُهُم ولكن الله أدخلَهُم وأخرجَكُم». ثم قال (ص): «لا ينبغي لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلا محمد وعلي والمنتجبون الطيبون من آلهما وأولادهما»؛ ثم قال (ص) مرتين: «ألا بَيّنتُ لكم أن تضلوا». وكان ابن عمر يقول: «لقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لأن يكونَ لي واحدة منها، أحبُّ إليَّ مِن حُمْر النَعَم[٢٩]: زوَّجَهُ رسولُ الله بنته ووَلَدَت له، وسدَّ الأبواب في المسجد إلا بابه، وأعطاه الراية يوم خيبر».

ثم أن النبي (ص) جعل يصلي في المسجد بالمسلمين تحت السماء حتى اشتد عليهم الحر، فسألوه أن يُظَلِّله، فأمر (ص) برفع أساطينَ في مُقدَّمِهِ من

---

٢٨ ـ القرآن الكريم، الجزء ١١، السورة ١٠ يونس: الآية ٨٧.

٢٩ ـ النَعَم (بفتح النون): الإبل، الجِمال، وتشمل أيضاً البقر والغنم. حُمْرُ النَعَم: ما كانت حمراء، وهي قليلة وغالية الثمن.

خشب، وظلَّله بسعف النخل، فقال بعضهم: «يا رسول الله، لو سقفته سقفاً»؛ قال (ص): «لا، بل عريش كعريش موسى. الأمر أعجل من ذلك!».

أما ما يجدر ذكره بصورة أبرز على صعيد العبادة في حديث الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة المنورة يثرب، فحدثان مهمان:

زيادة صلوات الحضر، وتحويل القبلة الى الكعبة

أولهما ـ وقد حدث بعد شهر من الهجرة ـ هو أن صلاة الحَضَر (عكس السَفَر) قد زيدت ـ ما عدا الصبح والغرب ـ ركعتين ركعتين، فصارت فرائض الظهرين والعشاء رباعيات.

والحدث الثاني ـ وقد وقع بعد سبعة أشهر من الهجرة ـ هو تحويل قِبلة الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بمكة. فقد كان اليهود يعيّرون النبي (ص) على صلاته بالمسلمين إلى جهة بيت المقدس كما كان يفعل بمكة، ويقولون له: «أنت تابع لنا تصلي إلى قِبلتنا، ونحن أقدم منك في الصلاة»؛ فاغتمَّ (ص) من ذلك، حتى خرج أخيراً في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر الوحي، وهو يحب أن يحوّل الله قبلته إلى الكعبة؛ فلما أصبح خرج إلى مسجد بني سالم ـ وهو الذي خطب فيه أول خطبة ـ وصلى بمن معه الظهر ركعتين إلى بيت المقدس، فنزل عليه الأمين جبرائيل (ع) بقوله تعالى **﴿قد نرى تَقَلُّب وجهِك في السماء فلَنُولِّيَنَّكَ قِبلة ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثُما كنتم فولُّوا وجوهكم شَطرَه﴾**[٣٠]؛ ثم أخذ بيد النبي (ص) وحوّل وجهه إلى الكعبة، وتبعه من كان خلفه فحولوا وجوههم إليها[٣١]، وسُمّي المسجد «مسجد القِبلتين». وبلغ الخبر أهلَ يثرب، فحَوَّلوا وجوههم إلى الكعبة[٣٢]. بعدئذٍ جعل

---

٣٠ ـ ج٢، س٢ البقرة: ١٤٤.

٣١ ـ بل قيل في التحول نحو القبلة (الثانية) الجديدة: «حتى قام الرجال مقام النساء، والنساء مقام الرجال».

٣٢ ـ في بعض الروايات أن أهل يثرب حين بلغهم الخبر كانوا قد صلوا من صلاة العصر ركعتين، فحولوا وجوههم في بقية الصلاة، ولكن وصول الخبر والعمل به بهذه الصورة أثناء الصلاة محل تأمل.

=

المسلمون يأتون إلى النبي (ص) يسألونه عن صلواتهم السالفة وصلوات أمواتهم إلى بيت المقدس، فنزل قوله تعالى **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾**[٣٣] . . . الخ، فسمّى الصلاة إيماناً.

بعد تبديل قبلة المسلمين، ازداد اليهود تعييراً للنبي (ص) واستهزاءً به يقولون: «يا محمد، هذه القِبلة، بيت المقدس، قد صليتَ إليها أربع عشرة سنة ثم تركتها الآن، أفحقاً كان ما كنتَ عليه؟ إذاً فقد تركته إلى باطل. . أوْ كان باطلاً كنت عليه طول المدة، فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟»؛ قال (ص): «بل كان ذلك حقاً، وهذا حق؛ يقول الله تعالى **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[٣٤]. إذا عرف صلاحَكم أيها العباد في استقبال المشرق أَمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبيرَ الله في عباده، وقصدَه المصالح، ألستم أنتم تركتم العمل يوم السبت وعملتم في سائر الأيام؟ أفتركتم الحق إلى الباطل؟ أو الباطل إلى الحق؟ أو كلاً منهما إلى مثله؟ قولوا كيف شئتم، فهو قول محمد وجوابه لكم»؛ قالوا: «بل ترك العمل في السبت حق، والعمل بعده حق»؛ قال النبي (ص): «فكذلك قبلة بيت المقدس في وقتها حق، وقبلة الكعبة في وقتها حق»؛ قالوا: «يا محمد، أَفبَدا[٣٥] لربك في ما كان أَمَرَكَ به بزعمك مِن الصلاة إلى بيت المقدس حين نقلك إلى الكعبة؟»؛ قال (ص): «ما بدا له في ذلك، فإنه العالم بالعواقب، والقادر

---

٣٣ ـ ج٢، س٢ البقرة: ١٤٣.

٣٤ ـ ج٢، س٢ البقرة: ١٤٢.

٣٥ ـ أَفَبدا (= فَهَل بَدا) لربك: هل ظهر له (رأي جديد، أو فكرة جديدة، أو عاملٌ حادث يجعله يقرر شيئاً جديداً مختلفاً عن ذي قبل؟). الفعل بدا (يبدو) لله ـ بمعنى رأي راياً جديداً وما يتبع ذلك من الحكم على أفعال الله سبحانه وتعديل أوامره أو أحكامه، وكذا أزلية علمه وثباته وبقائه أو تبدل علمه ـ كان أحد عوامل الخلاف بين مدارس الأصول الفقهية والفلسفية في العالم الإسلامي، والعبارة هنا في المتن، إشارة إلى هذه النظرية، وفيها سُخْرية أظهرها اليهود من أن الله سبحانه «بدا» له شيء جديد، واكتشف أمراً حادثاً (كان يجهله) دفعه لأن يبدل حكمه وأمره (؟!).

على المصالح، لا يستدرك على نفسه غلطاً، ولا يستحدث رأياً بخلاف المتقدم، وإنه جَلَّ عن ذلك، ولا يقع عليه مانعٌ يمنعه عن مراده، وليس يبدو مثل هذا إلا لمن كان هذا وصفه، واللَّهُ جل وعزّ يتعالى عن هذه الصفات علواً كبيراً! أخبِروني أيها اليهود عن الله: أليس يُمْرِض ثم يَشفي، وكذا يَشفي ثُم يُمرض؟ أليس يحيي ويميت؟ أبَدَا له في كل ذلك؟»؛ قالوا: «لا»؛ قال (ص): «فكذلك الله، تعبَّدَ نبيَّهُ محمداً بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن كان تَعَبَّده بالصلاة إلى بيت المقدس، وما بدا له في الأول ولا في الآخر! أليس الله يأتي بالشتاء بعد الصيف والصيف بعد الشتاء؟ أَبَدَا له في كل ذلك؟»؛ قالوا: «لا»؛ قال (ص): «فكذلك لم يَبْدُ له في القبلة؛ أليس أَلْزَمَكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة، وألزمكم في الصيف أن تحترزوا من الحَر؟؟»؛ ولم يزل النبي (ص) يلقي عليهم الحجج بأمثال ذلك، وهم لا يحيرون جواباً ولا يستطيعون عليه رداً، إلى أن قرأ عليهم قوله تعالى **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**[٣٦]؛ وقال (ص) في آخر كلامه: «عبادَ الله، أنتم كالمرضى واللَّهُ ربُّ العالمين كالطبيب، وصلاح المريض يَعْلَمُه الطبيب ويدبره، وليس في ما يشتهيه المريض ويقترحه؛ ألا فسلِّموا لله أمْرَه، تكونوا من الفائزين». فبهت القوم في جوابه ولم يردوا عليه شيئاً، وانصرفوا من عنده راجعين وقد ازدادوا عتواً وعناداً.

ضعاف المسلمين بمكة، بعد هجرة الرسول (ص)

لم يكن الذين هاجروا من مكة بعد خروج النبي (ص) منها هم كل المسلمين، بل بقي عدد منهم لم يتمكنوا من الهجرة بعد وجوبها عليهم، بسبب أنهم كانوا مستضعفين، وهؤلاء هم الذين وعدهم الله بالعفو عنهم في قوله سبحانه: **﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾**[٣٧]. وكان ابن عباس ابن عم النبي (ص) يقول: «كنت أنا عند هجرة

---

٣٦ ـ ج١، س٢ البقرة: ١١٥.

٣٧ ـ ج٥، س٤ النساء: ٩٨ و٩٩.

النبي (ص) صغير السن، وكان أبي وأمي من المستضعفين، فحصر المشركون المستضعفين من المسلمين ومنعوهم عن الهجرة، وأخذوا يعذبونهم بأنواع العذاب ليردّوهم إلى الشرك ـ وكان فيهم صهيب (الرومي)، وبلال (الحبشي)، وخباب، وعمار، وأبواه، وعباس بن ربيعة الذي كان أخاً لأبي جهل من الرضاعة ـ وقد هرب جمع منهم في السرّ مهاجرين واحداً فواحداً نحو المدينة، ومنهم جندب بن ضمرة الذي كان في شدة المرض، فأمر بنيه وحتم عليهم أن يحملوه نحو المدينة، فحملوه على السرير وأخرجوه إلى أن بلغوا «التنعيم» فمات هناك، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**ومَن يخرُجْ مِن بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركْهُ الموتُ فقد وقع أجره على الله**﴾[٣٨] الخ.

ولحق المشركون بجماعة من المسلمين الهاربين، فأرجعوهم إلى مكة وفتنوهم عن دينهم حتى افتتنوا ورجعوا إلى الكفر، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾[٣٩] الخ؛ ثم تاب جمع منهم ورجعوا إلى الإسلام بعد مكاتبة المسلمين لهم في ذلك، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿**ثم أن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾[٤٠].

وأعطى صهيب وعباس بن ربيعة وبعض آخر أموالهم للمشركين على أن يتركوهم، فأجابوهم إلى ذلك وتركوهم بعد أخذ أموالهم. وقتل المشركون والدَي عمار بأيديهم، فكانا أول شهيدين في الإسلام؛ وأما عمار نفسه فأعطاهم بلسانه ما أرادوا، ونال[٤١] من رسول الله (ص) ما نال، وذكر آلهتهم بخير، فَسَلِم. ثم هرب منهم بعدئذٍ مهاجراً إلى النبي (ص)، إلى أن قدم عليه (ص) يبكي، فسأله النبي (ص): «ما وراءك؟»؛ قال: «شر يا رسول الله! ما تركتُ حتى نِلتُ منك وذكرتُ آلهتَهُم بخير»؛ فمسح

---

٣٨ ـ ج٥، س٤ النساء: ١٠٠

٣٩ ـ ج٥، س٢٩ العنكبوت: ١٠.

٤٠ ـ ج٩، س٧ الأعراف: ١٥٣.

٤١ ـ نالَ منه: ثَلَبه، ذكره بسوء (بالشتم، أو بالاتهام، أو الطعن.. الخ).

النبي (ص) دموعه وقال له: «إن عادوا لك فعُدْ بما قلتَ»؛ ونزل فيه قوله تعالى: **﴿إلا مَن أُكرِه وقلبُهُ مطمئن بالإيمان﴾**[٤٢] . وبلغ النبي (ص) أن قوماً من الصحابة يقولون عن عمار أنه كفر، فقال (ص): «كلا، إن عماراً ملىء إيماناً من رأسه إلى قدمه، وقد اختلط الإيمان بلحمه ودمه».

وكان بعضهم إذا أراد الهجرة تعلق به أولاده وأهل بيته يمنعونه عن ذلك، خوفاً على أنفسهم من الضياع بعد هجرة وليهم، فمنهم مَن يطيعهم بالإقامة، ومنهم مَن لا يعبأ بذلك ويختار الهجرة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: **﴿إن مِن أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم﴾**[٤٣] الخ.

النبي (ص) يؤاخي بين الصحابة

وقد كان من جملة وقائع هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب، وتجمعهم وتكاثفهم فيها ومفارقتهم لذويهم وأقاربهم استجابة لنداء الإسلام والإيمان، أن آخى النبي (ص) بين العديدين من أصحابه المؤمنين، المهاجرين والأنصار، نفرين نفرين، أي آخى بين كل واحد منهم وآخر من المؤمنين، فكان كل واحد منهما يعد الآخر أخاه (لا يعد ابن أبيه أو ابن أمه أخاه)، وآخى بينه هو (ص) وحبيبه ابن عمه أمير الؤمنين علي (ع)، ونتج من ذلك التآخي بين المسلمين أن التوارث صار بينهم بالإيمان والهجرة لا بالقرابة والرحمية، أي أن من يموت من المسلمين، لم يكن يرثه أقاربه في النسب وذوو رَحمه، بل مؤمن مثله. فكانت تركة الميت منهم لأخيه في الدِين دون قرابته في النسب والرحم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه بعد وقعة بدر **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا﴾** إلى قوله تعالى **﴿أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالَكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾**[٤٤] . . . الخ، إلى أن نزلت آية الأرحام بعد حين بقوله تعالى: **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾**[٤٥] .

---

٤٢ ـ ج١٤، س١٦ النحل: ١٠٦.
٤٣ ـ ج٢٨، س٦٤ التغابن: ١٤
٤٤ ـ ج١٠، س٨ الأنفال: ٧٢.
٤٥ ـ ج١٠، س٨ الأنفال: ٧٥.

بعث النبي (ص) زيدَ بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، فأتيا ببناته وزوجته سودة بنت زمعة، وبعث أبو بكر عبد الله بن أريقط إلى مكة يأمر أبناءه عبد الله وعبد الرحمان وعائشة وأمهم بالهجرة، فهاجروا إلى أن قدموا عليه. وتزوج النبي (ص) بعائشة يومئذٍ، وكان ذلك بعد الهجرة بسبعة أشهر.

صار المشركون بعد الهجرة يُغيرون على المدينة وجعلوا يؤذون المسلمين بالضرب والسب وغير ذلك، ولم يكن قد أُذِنَ للنبي (ص) بعدُ بقتالهم، بل كان مأموراً بالصبر والسلم بقوله تعالى: **﴿ودَعْ أذاهُمْ وتوكلْ على الله﴾**[٤٦] . . . الخ؛ لذا كان (ص) يأمر أصحابه بالصبر والسلم، إلى أن مضى عليه من الهجرة سبعة أشهر، ازداد المسلمون أواخرها من التظلم إليه والشكاية لديه من أذى المشركين، فكانوا يأتونه بين مضروب ومشجوج، إلى أن أذن الله له بعد الشهر السابع بدفاع المشركين وقتالهم بقوله سبحانه: **﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا﴾**[٤٧] . . . الخ؛ وكانت تلك أول آية نزلت في القتال، فاستعد النبي (ص) لذلك وأمر أصحابه بالتهيُّؤ له، ففزع وجزع كثير منهم من ذلك، لقلة عددهم بين أعدائهم، وأخذوا يعترضون على حكمه (ص)، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله سبحانه: **﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخشَونَ الناسَ كخشية الله أو أشدَّ خشية، وقالوا ربَّنا لمَ كتبتَ علينا القتال﴾**[٤٨] . . . الخ؛ ولما اشتد جزعهم من ذلك، أمر الله تعالى نبيه (ص) تسكيناً لقلوبهم بالسلم والصلح مع المشركين إذا رغبوا فيه، بقوله تعالى: **﴿وإن جَنَحوا للسَلْم فاْجنَحْ لها﴾**[٤٩] . . الخ؛ ونزل عليه عند ذلك جبرائيل (ع) بسيف قلده في عنقه وقال له: «حارب بهذا قومك حتى يقولوا: لا إله إلا الله».

---

٤٦ ـ ج٢٢، س٣٣ الأحزاب: ٤٨.

٤٧ ـ ج١٧، س٢٢ الحج: ٣٩.

٤٨ ـ ج٥، س٤ النساء: ٧٧.

٤٩ ـ ج١٠، س٨ الأنفال: ٦١

ابو جهل يهدد الرسول (ص) والرسول ينبئه بمَقتله ورهطه

وخرج النبي (ص) يوماً إلى ظاهر المدينة في جمع من أصحابه، وبينما هو يتحدث إليهم وقد انضم إليهم في الاستماع لحديثه جمع من اليهود، إذ أتاه رسول من أبي جهل من مكة ليتهدده ويُجبِّن مَن معه، وليحرّض سائر الكفار على الوثوب عليه، فوقف على رأس النبي (ص) وقال له: «يا محمد، إن الخيوط التي في رأسك، هي التي ضيقت عليك مكة ورمت بك إلى يثرب، وإنها لا تزال بك تنفّرك وتحثُكَ على ما يُفسِدُك ويُتلِفُك إلى أن تُفسدَها على أهلها، وتصليَهم حَرَّ نارِ تُعْديكَ طَوْرَك، وما أرى إلا أن ذلك سيؤول بك إلى أن تثور عليك قريش ثورة رجل واحد لقصد[٥٠] اثارك ورفع ضررك وبلائك، فتلقاهم بسفهائك المغترين بك»، إلى أن قال بعد طول الكلام.. «ولقد أعذر[٥١] من أنذر!». فالتفت إليه النبي (ص) وقال له: «أطريت[٥٢] مقالتك واستكملت رسالتك؟»؛ قال: «نعم». قال (ص): «فاسمع الجواب: إن أبا جهل بالمكارهِ والعَطَب يتهددني، وربُّ العالَمين بالنصر والظفر يَعِدُني، وخبَرُ الله أصدق، والقبولُ من الله أحق! لن يَضُرَّ محمداً مَن يخذُلُه أو يغضَبُ عليه، بعد أن ينصره الله ويتفضل بجوده وكرمه عليه! قل له: يا أبا جهل، إنك قد أرسلتني بما ألقاه في خَلَدك[٥٣] الشيطان، وأنا أجيبك بما ألقاه في خواطري الرحمان، إن الحرب بيننا وبينك كائنة إلى تسعة وعشرين يوماً، وإن الله في الآخِر منها سيقتلك بأضعف أصحابي، وستَلقَى أنت وعتبة، وشيبة، والوليد، وفلان وفلان (وذكر عدداً من قريش) في قليبِ[٥٤] «بَدْرٍ»[٥٥] مَقْتَلين[٥٦]: اقتل منكم سبعين،

---

٥٠ ـ لقصد اثارك: لإيقاف تأثيرك، لمنع أثارك.

٥١ ـ أعذر..: رفع عن نفسه اللوم. أعذَرَ مَن أنذر: وجد نفسه العُذر مَن أنذرك بما سيحل بك.

٥٢ ـ أطريتَ مقالتك: هل أكملت مقالتك واستوفيتها جيداً.

٥٣ ـ خَلَدك: بالك، فؤادك، خاطرك، نفسك.

٥٤ ـ القليب: البئر القديمة.

٥٥ ـ بَدْر: اسم موقع (بلدة أو قرية) إلى الجنوب الغربي من يثرب (المدينة المنورة) وقعت فنه معركة بَدْر الكبرى، منسوبة إليه.

٥٦ ـ مَقتلَينِ: أمرينِ أو حالتين كل منهما فيه الموت أو بمستوى الموت.

وأأْسِر منكم سبعين أحملهم على الفداء العظيم الثقيل»؛ ثم توجه (ص) إلى من حضر من المؤمنين والكفار وهم أخلاط وفرق عديدة وقال لهم: «أتحبون أن أُريَكم مصرع كلٍ مِن هؤلاء؟ هلموا إلى بدر، فإن هناك الملتقى والمحشر، وهناك البلاء الأكبر، وإني لاضع قدمي أمامكم على مواضع مَصارعهم، ثم ستجدونها لا تزيد ولا تنقص، ولا تتغير، ولا تتقدم ولا تتأخر لحظة، لا قليلاً ولا كثيراً»؛ ولم يَخِفَّ ذلك على أحد واستثقلوه، لذا لم يُجِبْه أولاً إلى المسير إلى بدر أحدٌ ممن حضر إلا أمير المؤمنين علي (ع)، فإنه نهض وقال: «نعم يا رسول الله، بسم الله»؛ وأما سائر من كانوا معه فتلبثوا وتريثوا؛ فأما اليهود منهم فقالوا: «لا حاجة لنا في مشاهدة ما أنتَ في ادعائه مُحيل»؛ وأما سائر الناس فقالوا: «نحن نحتاج إلى مراكب وآلات ونفقات للوصول إلى هناك، فالمكان بعيد»؛ قال (ص): «لا نَصَب عليكم في المسير إليه، أُخطُوا خطوةً واحدة، فإن الله يَطوي لكم الأرض ويوصلكم في الخطوة الثانية إلى هناك»؛ فعند ذلك نهض القوم بأجمعهم لاجابته، أما المؤمنون منهم فشوقاً إلى مشاهدة معجزاته (ص) وتصديقاً لكلامه، وأما المنافقون والكافرون فامتحاناً لصدق دعواه.

الرسول (ص) يخبر سلفاً بوقائع معركة «بدر»

تقدم النبي (ص) في اتجاه بدر وتبعه الناس بأجمعهم، وما إن خطا خطوة واحدة والقوم في أثره، حق رأوا أنفسهم مع الخطوة الثانية عند بئر بدر، فحاروا ودهشوا ثم قال (ص): «اجعلوا البئر علامة، واذرعوا من عندها . . كذا وكذا»؛ فلما ذرعوا قَدْر ما أمر به وانتهوا، قال (ص): «هنا مصرع أبي جهل، يجرحه فلان، ويجهز عليه أضعف أصحابي عبد الله بن مسعود». ثم أمر بذرع جوانب أُخَر من البئر، وكان كلما انتهوا في ذرعهم إلى ما أمر به، ذكر (ص) أن هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، إلى أن ذكر سبعين من قريش قال إنهم سيقتلون في تلك المواضع، وفيهم عتبة وشيبة والوليد؛ ثم ذكر من غيرهم سبعين آخرين مُخبراً أنهم يؤسرون بأيدي المسلمين، وسماهم وسمى آباءهم، ونَسَبَ ذوي الأنساب منهم إلى آبائهم، ونسب الموالي منهم إلى مواليهم، إلى أن قال لمن بحضرته: «أَوَقفتم على ما أخبرتُكم به؟»؛ قالوا: «نعم»؛ فقال (ص): «إن ذلك لحَقٌ

كائن إلى ثمانية وعشرين يوماً من اليوم، (فيتحقق و) يكون في اليوم التاسع والعشرين، وعداً من الله مفعولاً، وقضاءً محتماً لازماً»[٥٧]. (وقد جرت الأمور بعدئذٍ في وقعة بدر ـ التي سيأتي شرحها أن شاء الله تعالى في الجزء الثاني ـ كما أخبر (ص) به، من غير زيادة ولا نقصان، وازداد المؤمنون به إيماناً ويقيناً).

ثم لما انصرف النبي (ص) بمن معه عائداً إلى المدينة، اجتمع اليهود بعضهم إلى بعض يلومون أنفسهم على الحضور مع النبي (ص) إلى بئر بدر، لأنهم تمت عليهم الحجة بما شاهدوه من انطواء الأرض لهم في سيرهم، ومن شدة ثقة النبي (ص) واطمئنانه إلى ما أخبر به إلى درجة أن حدَّد المواقع والأيام طالباً أن يكتبوها متحدياً مَن لا يصدقونه إن ينقضوا أقواله أن استطاعوا، وغير ذلك[٥٨]، ولكنهم رغم كل ذلك وبعد كل ما رأوا من الدلالات على صدقه ونبوته (ص)، وأنه يحتج بها عليهم عند ربه يوم القيامة، لم يؤمنوا به ولم يطيعوه؛ وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قالوا أتُحدِثونهم بما فتح الله عليكم لِيحاجُّوكم به عند ربكم أَفَلا تَعقِلون**﴾[٥٩] . . . الخ.

وكم وكم له (ص) من معجزات وكرامات، وآيات بينات ودلائل

---

٥٧ ـ جاء أيضاً في مصدر الرواية نفسها أن النبي (ص) قال بعد إخباره بالواقعة وتحريره لتاريخها: «يا معشر المسلمين واليهود، اكتبوا ما سمعتم»؛ قالوا: «قد سمعنا يا رسول الله وَوَعَيْنا ولا ننسى»؛ فقال (ص): «الكتابة أذكر لكم»؛ فاعتذر القوم عن الكتابة بعدم وجود الدواة والكتف (أي عَظْم الحيوان الذي كانوا يكتبون عليه للحفظ)، فتوجه النبي (ص) إلى جوانبهم وجعل يقول: «اكتبوا يا ملائكة ربي ما سمعتم من هذه القصة في أكتاف، واجعلوا في كُمّ كلٍ منهم كتفاً من ذلك». ثم توجه إلى القوم يقول لهم: «تأملوا أكمامكم»؛ فلما نظروا، إذا في كمٍّ كل واحد منهم صحيفة، فأخرجوها وجعلوا يقرأونها، فإذا فيها كل ما أخبر به النبي (ص) بدقة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها حرف، ولا تقديم فيها ولا تأخير؛ ثم أمر بإعادتها في أكمامهم، لتكون شرفاً للمؤمنين، وحجة لهم على أعدائهم من الكافرين والمنافقين، فبقيت الأكتاف معهم إلى يوم وقعة بدر التي تحقق فيها ما كان أنبأ به (صلعم).

٥٨ ـ مثل موضوع الاكتاف وما عليها من الكتابة.

٥٩ ـ ج١، س٢ البقرة: ٧٦.

واضحات، وبراهين ساطعات على نبوته، وسيأتيك ذِكْرُ بعضِها طيَّ الكتاب إن شاء الله تعالى.

* * *

هذا تمام الجزء الأول من كتاب «تاريخ النبي أحمد» (ص)، وسيلحقه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى في شرح غزواته (وهي ست وعشرون غزوة)، وإجمال سراياه (وهي ست وثلاثون سرية)، وفيها من معجزاته وكراماته شيء كثير؛ ويلحق بذلك قصة فتح مكة وإزالة الأصنام عنها، وقصة مسجد ضِرار، وقصة المُباهَلَة، وقصة سورة «براءة»، وحجة الوداع، وغدير «خُم»، وقصة «مُسَيْلَمة الكذاب»، و«العبسي المتنبي»؛ ثم مرض النبي (ص) ووصاياه، وما جرى هناك إلى حين وفاته، ثم بيان زوجاته وذرياته وأخلاقه وخصائصه ومعجزاته. وفضله وفضل أمته على غيرهم، وغير ذلك.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلى الله على نبيه وآله دائماً وأبداً.

فهرست

الجزء الأول من

تاريخ النبي أَحمد(ص)

إفتتاح الكتاب من المؤلف ١٧
خلق نور النبي(ص) ١٩
نَسَبَ النبي(ص) ٢٢
هاشم، جد النبي(ص) ٢٤
توصِيَة لهاشم في المنام بزواجه من سلمى ٢٥
والد سلمى يبشرها بخطبة هاشم لها ٢٨
القِران، والنثار والولائم.. والزواج ٣٠
وداع هاشم لآله ووصاياه مسافراً ٣٢
مرض هاشم ووفاته في الغربة ٣٣
عبدالمطلب جد النبي(ص) ٣٧
شيبة ابن هاشم يبعث برسالة إلى أعمامه ٣٨
المطّلب يسعى للإتيان بابن أخيه من يثرب ٣٩
شيبة يفضل الانتقال إلى ديار أبيه وأعمامه ٤١
قصة أصحاب الفيل ٤٣
هرب أهل مكة من جيش الحبشة ٤٤

عبدالمطلب يخرج لمقابلة قائد الأحباش ٤٥
الفيل يجمد أمام عبدالمطلب ٤٦
أبرهة الحبشي يأمر بالزحف على مكة ٤٧
الفيل الأكبر يتوقف عن التقدم نحو مكة ٥٠
رسول أبرهة للصلح مع أهل مكة ٥١
طير أبابيل تصرع الجنود الأحباش ٥٢
أبرهة يُوَلّي هارباً ٥٣
قصة بئر زَمزَم وحفر عبدالمطلب لها ٥٥
بئر زمزم طُمِرَت بعد عصر الخليل(ع) ٥٥
قريش تطلب مشاركة عبدالمطلب في بئر زمزم ٥٧
بطون قريش يعترفون لعبدالمطلب بالتقدم عليهم ٥٩
عدي بن نوفل يحسد ابن عمه عبدالمطلب ٦٠
نذر عبدالمطلب ذبح أحد أولاده العشرة ٦٢
اكتمال عشرة أبناء لعبدالمطلب بعد النذر ٦٣
القُرعة بين العشرة تخرج على.. عبدالله ٦٦
عشيرة أخوال عبدالله يمنعون ذبحه ٦٩
اقتراح قرعة بين عبدالله والإبل، عشرة عشرة ٧٠
خروج القرعة على عبدالله دون الإبل، تكراراً ٧٢
خروج القرعة العاشرة على الإبل ٧٥
زواج عبدالله والد النبي(ص) من آمنة والدته ٧٧
اليهود يأتمرون بعبد الله(ع) ٧٩
وَهَب جد النبي(ص) يخبر بني هاشم بإحاطة اليهود بعبدالله(ع) فينقذونه ٨٢
وَهَب يميل إلى تزويج عبدالله من ابنته آمنة(ع) ٨٤
خطبة آمنة (أم النبي) لعبدالله (أبيه) وزفافهما ٨٦

البشارات والأخبار السابقة بظهور محمد(ص) قبل ولادته ٨٩
الأحبار والكهنة ٩١
سطيح وشق ٩٥
أخبار رهبان بظهور النبي(ص) ٩٨
أفراد متميزون أصحاب إخبار أو متنبئون ٩٩
كعب بن لؤي ١٠٣
أوس بن حارثة وقيس بن ساعدة ١٠٤
حمل آمنة(ع) بمحمد(ص) ١١١
وزرقاء اليمامة ١١٤
سطيح يتعرف على والدتي النبي(ص) والوصي(ع) ١٢٣
الزرقاء في مكة تنبىء بالظهور ١٢٥
الزرقاء تصرّ على قتل آمنة(ع) ١٣٠
فشل مؤامرة الزرقاء ١٣١
كرامات للنبي(ص) خلال شهور الحمل وقبل ولادته ١٣٢
وفاة عبدالله(ع) والد النبي (قبل ولادته) ١٣٥
مولد النبي(ص) في مكة المكرمة ١٣٧
المخاض يفاجيء آمنة(ع) ونزول أربع نسوة عليها ١٣٨
جبرائيل وميكائيل ورضوان(ع) يخدمون المولود المبارك(ص) ... ١٤٠
معجزات الطبيعة على الأرض وما فوقها ١٤٢
ما رأى عبدالمطلب وقريش ليلة ميلاد الرسول(ص) ١٤٤
عبدالمطلب يأخذ حفيده إلى الكعبة ١٤٧
أحداث في الطبيعة خارج الحجاز ١٤٩
انشقاق إيوان كسرى ١٥٠
سطيح ينذر بالنهاية ١٥٣

«هِرَقْل» والروم ١٥٤
رضاعة النبي(ص) ونشأته في حي بني سعد ومفارقته لهم في الخامسة من عمره ١٥٦
ما سمعت ورأت حليمة السعدية في طريقها لإرضاع محمد(ص) ١٥٧
الطفل محمد بعد رفضه الرضاعة من مختلف النساء ١٦٠
يرضع من ثدي حليمة ١٦٢
كرامات وآيات للرضيع محمد(ص) في الطريق إلى بني سعد ... ١٦٤
محمد في حي بني سعد ١٦٧
أوصافه(ص) أثناء شهور الرضاعة ١٦٩
بعد الرضاعة ١٧٢
محمد(ص) ينتهي إلى خميلة جميلة وأولاد حليمة يفتقدونه ١٧٣
اضطراب عبدالمطلب لاختفاء محمد(ص) والبحث عنه ١٧٥
ظهور محمد(ص) وفرح جده والناس به ١٧٦
عودة محمد(ص) ـ مِن حي بني سعد ـ إلى مكة ١٧٩
شدة حب عبدالمطلب لمحمد(ص) ١٨٠
كرامات وظواهر لمحمد(ص) أثناء إقامته ببيت جده ١٨١
قريش يستسقون بالفتى محمد(ص) ١٨٣
خروج عبدالمطلب إلى ملك اليمن وسماعه فيها علائم ظهور النبي(ص) ١٨٥
ملك اليمن سيف يبوح لعبدالمطلب بصفات النبي الموعود حفيده محمد(ص) ١٨٨
الملك سيف يرسل هدايا إلى محمد(ص) ١٩١
عودة عبدالمطلب ورهطه إلى مكة ١٩٣
وفاة عبدالمطلب ١٩٤
محمد(ص) في كفالة عمه أبي طالب(ع) ويسافر معه إلى الشام . ١٩٨

محمد(ص) بمدخل «بُصرى» الشام وملاقاة الراهب «بحيرا» ١٩٩
في «بَصرَى» ومع رهبانها ٢٠٣
محمد(ص) في الشام ٢٠٤
العودة من الشام.. ورعاية أبي طالب وزوجه لِمحمد(ص) ٢٠٥
أخلاق الفتى محمد(ص) وحالاته في صباه من خلال وصف أبي طالب وزوجته له ٢٠٦
سفر محمد(ص) إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد(ع) ... ٢١٠
أبو طالب يقترح على محمد(ص) ٢١٤
خديجة(ع) تضع أموالها في تصرف محمد(ص) ٢١٧
محمد(ص) في سفر التجارة.. إلى الشام ٢١٩
متاعب في الطريق ٢٢١
كرامات ومعجزات ٢٢٣
كرامات أخرى للنبي(ص) وافتتان الرهبان به ٢٢٩
أوصاف النبي(ص) في أسفار الرهبان وبشائرهم له بالنصر وبقاء الذكر ٢٣٤
النبي(ص) يربح في تجارته أضعاف ربح مرافقيه ٢٣٧
حَبْر يهودي يحاول قتل النبي(ص) ورهطه يقاتلون بني هاشم ... ٢٣٨
بدء العودة إلى مكة ٢٣٩
وصول القافلة إلى مكة، وأخبار محمد(ص) فيها تفتن خديجة(ع) ٢٤٣
زواج محمد(ص) وخديجة(ع) ٢٤٦
بين الزواج.. والبعثة ٢٦٩
مولد فاطمة(ع) ٢٧٢
مبعث محمد(ص) بالنبوة ونزول الوحي عليه ٢٧٥
«عداس» الراهب، و«ورقة» عم خديجة يؤكدان لها نبوة محمد(ص) ٢٧٩

النبي(ص) ينذر عشيرته الأقربين، فيتنكرون له ٢٨٤
أول وضوء وأول صلاة في الإسلام ٢٨٧
أبو جهل يرمي النبي بحجر ٢٨٩
النبي(ص) يرفض معاقبة قريش على أذيتهم له ٢٩٠
كرامات ومعجزات للنبي(ص) مقابل أذايا قريش ٢٩٤
النبي(ص) ينذر أبا جهل ٣٠٣
هجرة المسلمين إلى الحبشة ٣٠٧
«النجاشي» مَلِك الحَبَشة يُفْتن بأخبار النبي(ص) وتعاليمه ٣٠٨
النبي(ص) يدعو النجاشي إلى الإسلام ٣١١
مقاطعة قريش لمحمد(ص) والمسلمين ٣١٣
معجزة للنبي(ص) تزيد عدد المؤمنين ٣١٩
الإسراء والمعراج (صعود النبي(ص) إلى المَلأ الأعلى) ٣٢٢
النبي(ص) يصف رحلة معراجه ٣٢٣
أخبار يوم المعراج عن كرامة علي(ع) ٣٢٦
النبي موسى(ع) ينصح النبي محمداً(ص) بأن يطلب من الله تخفيف الصلاة على أمته ٣٢٩